بسم الله الرحمن الرحيم

أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله

المملكة المغربية
مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

مجلة العلماء الأفارقة

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدرها مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة
تعنى بالدراسات الإسلامية والثوابت المشتركة

مقتطف من أقوال أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله
تجاه إفريقيا:

«فإفريقيا بالنسبة للمغرب أكثر من مجرد انتماء جغرافي وارتباط تاريخي، فهي مشاعر صادقة من المحبة والتقدير وروابط إنسانية وروحية عميقة، وعلاقات تعاون مثمر وتضامن ملموس».

من خطاب أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله في 15 ذو القعدة 1437 هـ الموافق لـ20 غشت 2016 م

عنوان المجلة: مجلة العلماء الأفارقة

هاتف وفاكس المؤسسة: 39 66 96 35 5(0)212+

البريد الإلكتروني للمؤسسة: contact@fm6oa.org

البريد الإلكتروني لمدير التحرير: Alamihamid49@gmail.com

رقم الإيداع القانوني: 2019PE0082

الرقم الدولي:

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

السنة الأولى: العدد الأول: شهر صفر 1441هـ- الموافق لشهر أكتوبر 2019م.

المشرف العام على المجلة: الدكتور سيدي محمد رفقي
مدير تحرير المجلة: الدكتور عبد الحميد العلمي

التعريف بمجلة العلماء الأفارقة

أولا) التأسيس

عملا بمقتضيات الظهير الشريف 1.15.75 الصادر في 07 رمضان 1436هـ (24 يونيو 2015م)، القاضي بإنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، لاسيما المادة الرابعة منه التي تجعل من أهداف المؤسسة:

أ- القيام بمبادرات في إطار كل ما من شأنه تفعيل قيم الدين السمحة في كل إصلاح تتوقف عليه عملية التنمية في إفريقيا سواء على مستوى القارة أو على صعيد كل بلد.

ب- توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها.

ج- تنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي.

د- إحياء التراث الثقافي الإفريقي الإسلامي المشترك من خلال التعريف به ونشره والعمل على حفظه وصيانته.

وسعيا من المؤسسة إلى العمل بالتوصيات المجمع عليها في دورتيها الأولى والثانية، وتفعيلا لما تقرر في اجتماع رؤساء فروع البلدان الإفريقية المنعقد بالرباط يومي الأربعاء والخميس 21 و22 صفر الخير 1440هـ الموافق لـ: 31 أكتوبر وفاتح نونبر 2018م في دورته العادية الثانية بشأن إنشاء مجلة علمية محكمة نصف سنوية تعنى بالدراسات الإسلامية والثوابت المشتركة بالدول الإفريقية، تحمل اسم: «مجلة العلماء الأفارقة»؛ والذي صادق عليه المجلس الأعلى وأعضاء فروعه بالإجماع خلال اجتماعه بفاس يومي السبت والأحد 24 و25 صفر الخير 1440هـ الموافق لـ: 03 و04 نونبر 2018م. وتطبيقا لما تم الاتفاق عليه في الاجتماع التحضيري للهيئة الإدارية والعلمية للمجلة المنعقد بفاس بتاريخ 26 دجنبر 2018م، فقد تقرر تخصيص ملف العدد الأول منها لـ«جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة»، وملف العدد الثاني لـ «المدرسة الأشعرية في السياق الإفريقي وأثرها في تعزيز التسامح والسلام».

ثانيا) التعريف بالمجلة

1- اسم المجلة: «مجلة العلماء الأفارقة».

2- الجهة التي تصدرها: مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

3- صفتها: مجلة علمية محكمة نصف سنوية تعنى بالدراسات الإسلامية والثوابت المشتركة بالدول الإفريقية.

4- مادتها: مقالات علمية تخدم أهداف المؤسسة المنصوص عليها في الظهير الشريف الصادر بشأنها.

5- لغتها: اللغة العربية مع إمكان ترجمة أو إضافة لغات أخرى.

6- صفة المشاركين فيها: علماء من المغرب وإفريقيا ودول أخرى.

ثالثا) أهداف المجلة

1. المحافظة على وحدة الإسلام والمسلمين بإفريقيا.
2. توحيد جهود العلماء الأفارقة للتعريف بقيم الإسلام السمحة، مع العمل على نشرها والإفادة منها.
3. الحفاظ على الثوابت المشتركة بين المغرب والمجتمعات الإفريقية.
4. قيامها بواجب التعريف بالروابط الدينية والتاريخية والحضارية التي تجمع المغرب بإفريقيا.
5. جعلها فضاء للتعارف والتضامن بين علماء المغرب وإفريقيا.
6. اعتبارها لسانا ناطقا باسم المؤسسة وعلمائها.

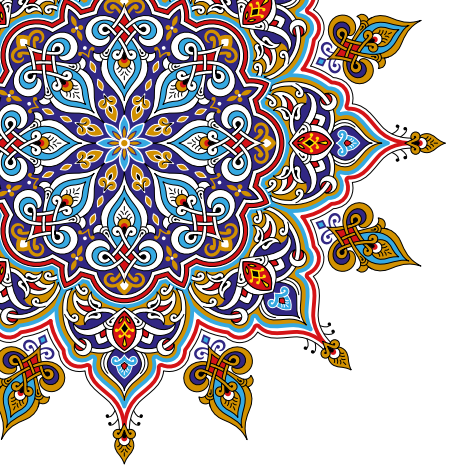

افتتاحية العدد الأول
من مجلة العلماء الأفارقة

المملكة المغربية
مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

مجلة العلماء الأفارقة

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تصدرها مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة تعنى بالدراسات الإسلامية والثوابت المشتركة

آعضاء الهيئة الإدارية والعلمية للمجلة

الهيئة الإدارية

المشرف العام على المجلة

الأستاذ سيدي محمد رفقي الأمين العام لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

مدير التحرير

الأستاذ عبد الحميد العلمي أستاذ التعليم العالي بجامعة القرويين.

هيئة التحرير

أعضاء من فروع المؤسسة بالبلدان الإفريقية

- الأستاذ يحي ولد البراء: أستاذ بجامعة شنقيط العصرية بموريتانيا.
- الأستاذ إبراهيم مقري: عضو هيئة الإفتاء بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بنيجيريا.
- الأستاذ محمد زين الهادي الحاج علي: أستاذ متفرغ للأبحاث والإشراف العلمي بجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان.
- الأستاذة ميمونة هاشمي: أستاذة جامعية بالجامعة الإسلامية بالنيجر.

أعضاء من المملكة المغربية

- الأستاذ إدريس بن الضاوية: رئيس المجلس العلمي المحلي بالعرائش.
- الأستاذة وداد العيدوني: عضوة بالمجلس العلمي المحلي بطنجة.
- الأستاذ عبد الرحيم الأمين: أستاذ بكلية الحقوق أكدال بالرباط.
- الأستاذ سعيد المغناوي: أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس.
- الأستاذ عبد اللطيف البكدوري الأشقري: مكلف بمهمة بمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

الأعضاء الشرفيون

- معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد أحمد التوفيق الرئيس المنتدب لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.
- الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية السيد محمد يسف.
- رئيس هيئة الإفتاء والمجلس الإسلامي بنيجيريا السيد إبراهيم صالح الحسيني.
- المفتي العام لجمهورية تشاد السيد محمد الحلو أحمد النور.
- رئيس جامعة شنقيط العصرية بنواكشوط موريتانيا السيد المختار ولد باه.
- رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بتنزانيا السيد أبو بكر الزبير مبوانا.
- رئيس مركز الدراسات والبحوث والتكوين الإسلامي بالسينغال السيد روحان مباي.
- شخصيات أخرى لها صلة بالموضوع.

© جميع الحقوق محفوظة

افتتاحية العدد

بسم الله الرحمن الرحيم، وصل اللهم على من بعثته قائما بأمر الدين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فلما كان الإسلام خاتم الأديان، فقد كتب الله له أن يصل إلى مختلف الشعوب والبلدان. فحاز الغرب الإسلامي ودول إفريقيا شرف ذلك الوصول، وتلقاه أهله بالرضا والقبول، واستعانوا على ما هم فيه بما فطرهم الله عليه من تعظيم الدين، وحب النبي الأمين، واتباع من له انتساب لدوحة خاتم المرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتوقير من بوّأهم الله شرف إمارة المومنين. واستمروا على ذلك قرونا عددا، أسفرت عن خيارات مشتركة أرست دعائم التدين في هذا المصر من العالم الإسلامي، حتى أصبحت نبراسا يقتدى، ونموذجا يحتذى. وذلك بفضل ضبط أوضاعهم بمسمى العبادة، وربط أنماط سلوكهم بفروض الطاعة ولزوم مذهب أهل السنة والجماعة، فاستحقوا بذلك شرف الانتساب إليهم، والسير على منوالهم؛ لأنهم أشجار وعلومهم ثمار، يثمرون والناس يجتنون، بهديهم يهتدون، وإلى علمهم يصيرون.

وبحكم انتماء المغرب للقارة الإفريقية، فقد كانت له مسؤولية الحضور الديني في معظم بلدانها، بفضل علمائه المبرزين الذين أسهموا بحظ وافر في نشر قيم الدين السمحة.

وتعتبر مبادرة أمير المومنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده بإنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة استمرارا لمهامه السامية، ووفاء بالتزاماته الدينية والحضارية تجاه القارة الإفريقية.

وعملا بمقتضيات الظهير الشريف 1.15.75 الصادر في 07 رمضان 1436هـ (24 يونيو 2015م)، القاضي بإنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، لاسيما المادة الرابعة منه التي تجعل من أهداف المؤسسة:

أ- القيام بمبادرات في إطاركل ما من شأنه تفعيل قيم الدين السمحة في كل إصلاح تتوقف عليه عملية التنمية في إفريقيا سواء على مستوى القارة أو على صعيد كل بلد.

ب- توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها.

ج- تنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي.

د- إحياء التراث الثقافي الإفريقي الإسلامي المشترك من خلال التعريف به ونشره والعمل على حفظه وصيانته.

وسعيا من المؤسسة إلى العمل بالتوصيات المجمع عليها في دورتيها الأولى والثانية، وتفعيلا لما تقرر في اجتماع رؤساء فروع البلدان الإفريقية المنعقد بالرباط يومي الأربعاء والخميس 21 و22 صفر الخير 1440هـ الموافق لـ: 31 أكتوبر وفاتح نونبر 2018م في دورته العادية الثانية بشأن إنشاء مجلة علمية محكمة نصف سنوية تعنى بالدراسات الإسلامية والثوابت المشتركة بالدول الإفريقية، تحمل اسم: «مجلة العلماء الأفارقة»؛ والذي صادق عليه المجلس الأعلى وأعضاء فروعه بالإجماع خلال اجتماعه بفاس يومي السبت والأحد 24 و25 صفر الخير 1440هـ الموافق لـ: 03 و04 نونبر 2018م.

يسعد إدارة المجلة أن تعلن عن صدور العدد الأول من مجلة العلماء الأفارقة في موضوع: جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة، وذلك بمساهمة ثلة من العلماء العاملين والأساتذة الباحثين من دول إفريقيا والمغرب.

نسأل الله تعالى أن يكون ما قدم فيه نافعا في بابه، وأن يجد محلا عند قارئه، آمين، والحمد لله رب العالمين.

مدير التحرير
د. عبد الحميد العلمي.

جامعة مولاي المغرب

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وآله وصحبه.

معشر العلماء الأجلاء،

حضرات السيدات والسادة،

نسعد نا في هذا اليوم المبارك، أن نوالي تنصيب المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

وهي مبادرة لتجديد عُرى الأواصر الروحية العريقة، التي ظلت تربط شعوب إفريقية جنوب الصحراء، بملك المغرب أمير المؤمنين، ولما تجمعنا بها من وحدة العقيدة والمذهب، والتراث الحضاري المشترك.

كما نعتبرها لبنة إضافية، تعزز توجهنا الاستراتيجي، للارتقاء بعلاقات التعاون الثنائي والإقليمي، التي تجمع المغرب بعدد من الدول الإفريقية الشقيقة، إلى شراكة تضامنية وفعالة، في مختلف المجالات.

حضرات السيدات والسادة،

إن قرارنا بإحداث هذه المؤسسة، ليس وليد لحظة عرفية عابرة، ولا يهدف لتحقيق مصالح ضيقة أو عابرة.

وإنما يدخل في صلب الأمانة الملقاة على عاتقنا، في حماية الملة والدين، بصفتنا أمير المؤمنين.

كما يندرج في إطار منظور متكامل للتعاون البناء، والتجاوب الملموس، مع مطالب تحدد من البلدان الإفريقية الشقيقة، في المجال الديني.

ومن أبرز تجليات هذا التجاوب، قبول العديد من الطلبة الأفارقة، للدراسة في معاهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات.

معشر العلماء الأجلاء،

إننا نعتبر مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، إطار للتعاون وتبادل التجارب، وتنسيق الجهود، بين العلماء، للقيام بواجبهم، في التعريف بالصورة الحقيقية للدين الإسلامي الحنيف، وقيمه السمحة، القائمة على الاعتدال والتسامح والتعايش، وجعلها في خدمة الأمن والاستقرار والتنمية بإفريقيا.

وإننا لواثقون بأن هذه المؤسسة، بمختلف فروعها في البلدان الإفريقية، ستقوم إلى جانب كل الهيآت الدينية المعنية، بدورها في إشاعة الفكر الديني المتنور، ومواجهة ما يروج له بعض أدعياء الدين، من نزوعات التطرف والانغلاق والإرهاب باسم الإسلام. وهو منها براء.

معشر العلماء الأجلاء،

لقد قررنا أن نجعل مقر مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، بمدينة فاس، اعتبارا لمكانتها الدينية كعاصمة علمية وروحية للمغرب.

كما أن اختيار فاس، ينبع من تقديرنا لمكانتها في قلوب الأفارقة.

وفقكم الله وسدد خطاكم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
السيد أحمد التوفيق

الرئيس المنتدب لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة
بمناسبة تنصيب المجلس الأعلى للمؤسسة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحابته الأكرمين.

مولاي أمير المؤمنين

بمناسبة تنصيب المجلس الأعلى لـ«مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة»، يتشرف خديمكم هذا، بأن يقدم بين يديكم الكريمتين، عناصر ذات صلة بهذا الحدث الديني العلمي، في سياقه التاريخي، وسوابقه القريبة، ودواعيه في الحاضر، وآفاقه في المستقبل.

مولاي أمير المؤمنين

إن التوجه الإفريقي لسياسة جلالتكم الشريفة، لا تمليه سياسة تعاونية عادية عابرة، تنحصر في مبادلة البضائع والمصالح، بل هو توجه متعدد الأبعاد، يستمد تميزه من الأواصر الجغرافية، والروابط التاريخية، والأسانيد العلمية، والمسالك الروحية، والاشتراك بين المغرب وعدد من بلدان إفريقيا في الثوابت الدينية العقدية والمذهبية.

وإن عددا من مشاريع الشراكة الاقتصادية التي أطلقتها جلالتكم في المدة الأخيرة، مع بلدان في جنوبي الصحراء، تقترن في أذهان أهل تلك البلدان برصيد المغرب الديني والعلمي والروحي المشترك، ويقر المنصفون بأن ما تم بناؤه عبر العصور، في مجال ذلك الرأسمال اللامادي، لا يقاس بنفع ولا يقدر بثمن، وهو باق صامد لكل حوادث الزمان، ومن ثمراته أن علاقات المغرب مع إفريقيا الغربية على الخصوص، لها طابع شعبي مستدام، لا تؤثر فيه الظرفيات العابرة.

إنه رصيد يستند إلى قاعدة صلبة تتمثل فيما يلي:

- الاشتراك في العقد الأشعري الذي يجعلنا جميعا لا نقبل التكفير وبالتالي لا نقبل دعاوى الإرهاب التي يراد ربطها بالدين؛

• الاشتراك في المذهب المالكي في فقه العبادات والمعاملات، وله مزايا تناسب بيئتنا الإفريقية؛

• الاشتراك في بناء الشخصية الروحية المتمثلة في أسانيد الطرق الشاذلية والقادرية والتجانية،

• الاشتراك في الإجازات والأسانيد التي تربط علماء المغرب بعلماء بعض بلدان إفريقيا.

ومن تجليات الاستمرارية في رعاية هذه الوشائج: التواصل الدائم بين شيوخ الزوايا وبين ملوك المغرب، وحضور العلماء الأفارقة في الدروس الحسنية، وإنشاء رابطة علماء المغرب والسنغال في أعوام الثمانين.

وقد استجدت أمور تهدد هذا الرصيد المشترك، وتهدد بالتالي التقاليد الدينية في إفريقيا والسكينة المرتبطة بها، ومن ضمنها التشويش المذهبي الذي صارت بعض مظاهره تهدد الوحدة داخل المساجد، علما بأن الفتنة بأي عذر كان غير مقبولة شرعا.

وعلى هذا الأساس فإن كل المخلصين القائمين بالدعوة على أساس ثوابتهم الوطنية، سيفرحون بإسهام هذه المؤسسة التي تستشرف تحقيق ربط فعال على صعيد القارة بين العلماء، والغاية المشتركة هي العمل على أن يحافظ لهذه الشعوب على إيمانها وعقليتها المحبة للسلم، وأن تصان لها، في نفس الوقت، ثقافتها المتميزة التي لم تخرجها يوما من توحيد الله والعمل بمكارم دينه، المبين بسنة رسوله الأكرم، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

مولاي أمير المؤمنين

إن آفاق مستقبل هذه المؤسسة، كما خططتم لها من خلال أهدافها في الظهير الشريف، ستتبلور في شراكة في الخبرة بين علماء المغرب وعلماء البلدان الإفريقية

الراغبين في ذلك، وبالقدر المتاح لهم سياقا وقانونا، من أجل مقاربة شمولية لقيام الدين، بحمايته وتنمية خدماته. لقد ابتكرتم، يا مولاي، هذه الآلية، قبل كل شيء، بقصد نيل رضا الله في القيام بالأمانة الموضوعة على عاتقكم، كحام للملة والدين، وكراع للتاريخ الروحي المشترك بين المغرب وإفريقيا، وكغيور على الأمن والاستقرار في المنطقة.

إن هذه الشراكة من خلال المؤسسة ستمتد، إن شاء الله، إلى عدد من الميادين، نخص بالذكر منها ثمانية:

أولا: التأطير العلمي، وذلك بإسهام العلماء في تبليغ مبني على الوسطية، وبتنسيق الجهود لنشر فكرة أولوية دفع الفتنة واستدامة الأمن والاستقرار كضرورة شرعية قصوى؛

ثانيا: تنظيم التعليم الديني: بجعله حاملا لقيم السلام والرقي بالإنسان لنفع نفسه وخدمة وطنه وإسداء الخير للناس كافة، وعدم تسخيره لأغراض الكراهية والمصالح المفسدة.

ثالثا: التعاون بين طرق التصوف وبين هيآت العلماء، وذلك لأن إكراهات الوقت الحاضر تقتضي أن يكون للعلماء هيآت يتحملون فيها مسئوليتهم كعلماء، وأن يكونوا مرجعية بتلك الصفة، على أن يوجهوا الناس للتحلي بأخلاق مدارس التزكية وينتفعوا في تقوية الوازع بما يغرسه الشيوخ في النفوس من أحوال التواضع وسلوك الانضباط.

رابعا: تدبير الخدمات الدينية، ولاسيما ما يتعلق منها بالمساجد وتأطيرها، بعيدا عن التأثر بأهداف مذهبية أو سياسية .

خامسا: الإعانة على إقامة الأوقاف المدرة للدخل، من أجل ضمان التمويل المحلي الذاتي للحاجيات الدينية التي هي حاجيات اجتماعية.

سادسا: تقوية جانب الإعلام الديني، في عصر تكنولوجيا التواصل، وما يعنيه من ضرورة إشاعة الكلمة الطيبة والحكم الشرعي الصحيح.

سابعا: التعاون في تكوين القيمين الدينيين، على غرار ما يتم في معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدات.

ثامنا: التعاون في تكوين أجيال جديدة من العلماء، ويتزامن هذا التصور، مع الإصلاح المهم الذي أمرت به جلالتكم على صعيد جامعة القرويين.

مولاي أمير المؤمنين

إن إحداث المؤسسة قد استقبلته إفريقيا العالمة بالحمد والترحيب، ومن التعابير الصادقة لهذا الاستقبال، ما جاء في كلمة مفتي نيجيريا الشيخ الحسيني الذي قال: «إننا نعتبر النداء إلى هذه المؤسسة عملا جاء في وقته، وها نحن نرى اليوم أن الله تبارك وتعالى قد حقق لنا أمنية غالية عجزنا عن تحقيقها مع شدة الحاجة إليها من قبل، حتى قيض الله تبارك وتعالى أمير المؤمنين جلالة الملك محمدا السادس أيده الله ونصره للقيام بهذا العمل الكبير». انتهى كلام الشيخ.

لقد قطعت المؤسسة منذ الإعلان عنها شوطا ضروريا في نصب آلياتها التي تتجلى على الخصوص في تعيين الرئيس المنتدب، وتعيين الأمين العام للمؤسسة، وتعيين مديرها المالي، وتعيين اللجنة الخماسية المكلفة بالتأسيس الأولي للمجلس الأعلى للمؤسسة، وقيام هذه اللجنة بتأسيس هذا المجلس الذي يحضر اليوم أعضاؤه في صيغته الأولية، وعددهم 103 ينتمون إلى 30 من البلدان الإفريقية، ينضاف إليهم لتكوين هذا المجلس 20 من علماء مملكتكم الشريفة.

وفي الشهور المقبلة، يا مولاي، فإن العمليات الموالية المرتقبة هي:

أولا: استكمال الآليات المركزية:

- بتشكيل اللجان الأربع الدائمة؛
- بتكوين المكتب التنفيذي وشروعه في عمله.

ثانيا: مباشرة الوجود الشرعي للفروع على صعيد البلدان؛

ثالثا: بداية التخطيط للعمل المحلي.

مولاي أمير المؤمنين

وفي الأخير أستئذن جنابكم المنيف في الإشارة إلى ما لا يجوز أن يعلق بالأذهان حول المؤسسة من التصورات؛

ذلك لأن هذه المؤسسة بمقتضى الظهير الشريف المحدث لها:

1) ليست ولا يمكن أن تكون بديلا لأي مجلس أو هيئة أو مؤسسة عمومية في بلد من البلدان؛
2) ليست ولا يمكن أن تكون زرعا لجسم غريب في سياق له تقاليد محلية لأنها تنطلق من الثوابت المشتركة؛
3) أن إنشاء الفروع في البلدان مرهون بالاحترام التام للقوانين المحلية؛
4) إن منطلقات المؤسسة وأهدافها تضعها فوق الأغراض والمنافسات؛
5) لا يمكن أن يتم باسم المؤسسة ولا بوسائلها الانخراط في شأن من شئون السياسة.

مولاي أمير المؤمنين

يضطلع المجلس الذي يتم تنصيبه اليوم تحت الرئاسة الفعلية لجنابكم الشريف بمهام أساسية، يتوقف عليها السير السليم والفعال للمؤسسة، وطبقا لتوجيهاتكم السامية، فإن هذا المجلس سيحرص، بالصرامة اللازمة، على أن تنمو هذه المؤسسة لخدمة الإسلام في إفريقيا، بأبعاده في السلم والتعبئة لقيم الخير والأخلاق.

حمد الله مساعيكم، يا مولاي، وتقبل منكم، ورضي عنكم وأرضاكم، والسلام على مقامكم العالي بالله ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة العلماء المغاربة بمناسبة انعقاد المجلس الأعلى
لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

الدكتور محمد يسف الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى

كلمة العلماء المغاربة
بمناسبة انعقاد المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

د. محمد يسف الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين.

يسعد علماء المملكة المغربية أن يعربوا عن عظيم سرورهم، وعميق سعادتهم بانعقاد المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة في دورته الأولى، سائلين الله تعالى أن يكلل أعماله بالتوفيق.

ولعل من يمن طالع هذا الملتقى العلمي المبارك تزامنه بظرف زماني ومكاني لهما قدرهما ووزنهما في وعي المسلمين لما يرمزان إليه من معان سامية.

فمن حيث زمان انعقاده يصادف احتفاء الأمة الإسلامية قاطبة بإحياء ذكرى ميلاد نبيها الأكرم، ورسول رب العالمين الأعظم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما المكان، فبنزوله ضيفا مبجلا على فاس، عاصمة المغرب العلمية، وحاضنة جامعة القرويين كهف الإسلام، وحصنه، علما ولسانا ودينا. رابطت جامعة القرويين في هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي أكثر من ألف ومئتي عام، أو تزيد، وما تزال كالعهد بها شامخة شموخ شواهق الجبال، في عزم وإصرار على تكييف نفسها ومناهجها مع مستجدات العصر، وتسارع متغيراته.

حضرات السادة:

لا شك أن توقيت انعقاد هذا اللقاء العلمي المتميز برمزية الزمان والمكان له معناه ودلالته المعنوية المصاحبة، إن لم تنجل لدينا صورتها اليوم، فقد تكون لها تجليات لاحقة، إذ لا يجليها لوقتها إلا الله الذي له غيب السماوات والأرض.

ومع هذا الاقتران المبارك الذي تتسع معه دائرة تفاؤلنا بمستقبل هذه المؤسسة، وأهدافها الإصلاحية البعيدة المدى، فإن هذه الثقة تتعزز باستحضار سابقة لها شبه قليل أو كثير بها من حيث البدء والإنشاء، وتزيدنا يقينا إلى يقين بأن فعل المخلصين الصالحين لا يذهب أدراج الرياح، بل يثمر ثماره عاجلا أو آجلا، ومهما طال الزمان.

أذكر بالمناسبة أن جد عاهلنا المغفور له مولانا محمد الخامس، كان – رحمه الله- مسكونا بهاجس الغيرة على قارته الإفريقية، غيرة لا تقل عن غيرته على وطنه ورعاياه في مملكته، وآية ذلك أنه بمجرد عودته من منفاه، وحتى قبل أن يرتب شؤون مملكته بعد رحيل الاستعمار، سعى ومعه ثلة تعد على رؤوس أصابع اليد الواحدة من زعماء هذه القارة، سعى إلى عقد لقاء بمدينة الدار البيضاء تمخض عنه وضع لبنة الأساس لمنظمة الوحدة الإفريقية، التي صارت اليوم منظمة ذات شأن كبير، يحسب لها ألف حساب، ذلك لأن مشاريع العظماء المخلصين تعيش وتعظم مع الزمان ولو مات واضعوها، تعيش لتكون شاهدا على عظمتهم. وأما العقول الصغيرة فإن ما ترتجله من أعمال تموت حتى قبل موت أصحابها.

ونرى اليوم العاهل الحفيد مولانا أمير المؤمنين، صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، بما يشغل باله من أمر قارته الإفريقية، وما يحرص عليه من إقامة شراكات مثمرة مع دولها ستعود بالخير العميم، وما إنشاء هذه المؤسسة للعلماء إلا من تجليات ذلك الحرص الشامل على علاقات المملكة المغربية الشريفة بباقي بلدان القارة الإفريقية.

حضرات السادة والسيدات:

إن سمع عالم اليوم وبصره أصبح مشدودا إلى هذه القارة على نحو يختلف عما اعتاد أن ينظر ويسمع «يحس وكأنها تبحث عن شيء فقدته في وقت ما» فهي تقلب صفحات الزمن ابتغاء العثور عليه بين ثناياها، إنها تبحث عن معناها بعد أن داستها أقدام الاستعمار دوسا عنيفا، بعثر مكونات هويتها ومعه عنوانها، وهو وإن رحل عن

ساحتها ببعضه فإن بعضه الآخر، وهو أسوأ أبعاضه، ما يزال ناشبا أظفاره فيها، ولا يمكنها التخلص منه إلا باسترجاع ما أتلفه زمن المحنة، وهو يحتاج إلى استدعاء ذلك الماضي البعيد ليقص عليها من خبرها وشأنها، وأصلها وفصلها، ما يمكن أن تصنع منه لقاحا يعيد لخلاياها المستهلكة بعض حيويتها، حتى تدب الحياة الكريمة في أوصالها من جديد ولا شك أن تجربتها زمن المحنة ستعينها على تفادي السقوط من جديد في قبضة الاستعمار الجديد المنصوبة شباكه التي تصطاد مواطن الهشاشة.

في وطيس هذه الملحمة النضالية ضد الهشاشة المادية والمعنوية يتموقع مشروع العلماء المنوط بهم حراسة الثغور المعنوية، والنهوض بالعمل الجاد من أجل تمنيع الإنسان وتنمية قدراته الروحية التي لا تستطيع الأمة أن تحلق في أفق العزة والكرامة إلا بجناحيها معا: المادي والمعنوي.

حضرات السيدات والسادة:

إذا كان علماء الأمة هم الذين ينتظر منهم أن ينفوا عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فإن ذلك يفرض عليهم المرابطة في الثغور المعنوية وملازمة الحصون التي يخشى على أمن الأمة أن يؤتى من قبلها، خصوصا عندما تضطرب أمور الناس في حياتهم، وفي ليلهم ونهارهم، وحين يكثر فيهم أدعياء الدين وقطاع طريقه، وقراصنة سفينته، كما هو واقع في كثير من البلدان حيث يتحول جوهر الدين كفضائل وأخلاق وتعاون وإخاء، ورحمة ومودة، وعمل نافع وأمن شائع، إلى مجرد أشكال مظهرية لا تنفع في تزكية الناس ولا تكفي علامة لإيمانهم.

في هذه الحالة يتعين على ولاة أمر الأمة ومن ورائهم علماؤها أن يعبئوا الكافة للوقوف في وجه الفساد وأهله، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

ولعل هذا هو التحدي الأكبر الذي يتعين على علماء الأمة وعالماتها أن يتجردوا لكسر شوكته، ودحض حجته، بما هم مؤهلون له من تعليم المسلمين لحقائق الدين ومبادئه وقيمه وفضائله ومكارمه. ومع هذا التحدي ما تتعرض له هذه

القارة المرجوة لكل خير، من غزو مذهبي اختلط فيه الأصيل بالدخيل، والصحيح بالمغشوش.

هذا، وإن إخوانكم من علماء المملكة المغربية، وهم جزء لا يتجزأ من أسرة هذه المؤسسة المحمدية العتيدة، كما أن هذا الوطن المغربي هو جزء لا يتجزأ من الأسرة الإفريقية الكبيرة، فإن إفريقيا هي وطننا الكبير، يسعدهم أن يؤكدوا أنهم جنود مجندون، كإخوانهم من علماء إفريقيا، للانخراط في ميثاق رفع التحدي عن أوطاننا وقومنا، والوقوف بالمرصاد لكل الضالين المضلين.

كما يلتزمون بأن يضعوا تجربتهم، ومناهج عملهم في الاشتغال والصيانة والتنمية رهن إشارة إخوانهم من علماء إفريقيا. وبالمقابل سيكونون ممنونين بالتعاون والتناصح والاستفادة من كل ما يمكن أن يتفضل به إخواننا من علماء مؤسسة محمد السادس الرائدة في هذا الباب من الأفكاروالنظريات والمقاربات.

أمنيتنا أن نكون قادرين على حمل الأمانة الموضوعة على عاتقنا أوفياء لها مخلصين في أدائها. سائلين من البارئ تعالى العون والتوفيق، أن يحقق فينا رجاء مبدع هذه المؤسسة أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله ورجاء أمتنا، وإنسان قارتنا، وأن ينبت في تربة هذه القارة التي صبرت وصابرت، وجاهدت وانتصرت، من يجدد للأمة أمر دينها، في يسره واعتداله وصفائه وسماحته.

وإن أملنا الكبير في أن تتمخض هذه الدورة العادية للمجلس عن وضع برنامج للعمل جامع، يكون قاعدة ومرجعا تنطلق منه مسيرة الإصلاح، ابتغاء بناء نموذج ينال الرضا والقبول من الكافة، وينشرح له صدر أمير المؤمنين مولانا محمد السادس الذي وضع اسمه الشريف تاجا على رأس هذه المؤسسة.

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب).

آمين: والحمد لله رب العالمين.

كلمة العلماء أعضاء المجلس الأعلى
مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة
أبو بكر دكوري من علماء بوركينافاصو

كلمةالسادة العلماء
أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

السيد أبو بكر دكوري من علماء بوركينا فاصو

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

مولاي أمير المؤمنين، صاحب الجلالة الملك محمد السادس، أعزكم الله وأيدكم بنصره

نشكر الله تعالى الذي جعل الخير باقيا في هذه الأمة المحمدية إلى يوم القيامة، يرعاه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه من خدمة الإسلام ونشر دعوته، والمحافظة على تراث هذه الأمة ومصالحها ومكاسبها، وأنتم يا مولاي في مقدمة هؤلاء، يظهر ذلك في إنجازاتكم لشعبكم ودينكم وأمتكم، في إفريقيا خاصة، وهي إنجازات كثيرة لا تحصى. تتمثل في هداية الناس ودعوتهم إلى الخير وتقديم يد العون إلى المحتاجين، والتعاون مع جميع القوى المحبة للخير لأجل تحقيق الرفاهية والأمن والسلام.

فلا يستغرب أن تحظى جلالتكم بكل ما تحظى به من حب وتقدير واحترام، وخاصة في إفريقيا حيث يشعر الناس كلما زرتموها أنكم بين أهلكم وأحبابكم وحلفائكم.

وإذ نحضر أمام جلالتكم اليوم نحن العلماء الأفارقة المتشرفين بعضوية المجلس الأعلى لـ«مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة»، فإننا نبارك مبادرة أمير المؤمنين التي تهدف إلى إقامة كيان يمكِّن علماء إفريقيا من التعاون في سبيل خدمة دينهم وتنمية مجتمعاتهم، ولا يستغرب أن تأتي مثل هذه المبادرة من أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، لأنه من الدوحة النبوية ومن سلالة الرسول الأعظم الذي بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، التي من أهم عناصرها وفي مقدمة أسسها الاعتراف بالجميل والوفاء للأقارب والجيران، وهذا هو السر في اهتمام أمير المؤمنين بإفريقيا،

لأنه من أبر أبنائها، ولكون الأفارقة أقرب الناس إليه، فتراثهم الديني سواء ما يتعلق منه بالعقيدة الأشعرية[1] أو المذهب المالكي أو التصوف السني[2] مستمد من المدرسة المغربية، وصلة المغرب الروحية بالأفارقة قديمة إذ ترجع إلى القرن الأول للهجرة، وكثير من الأسر بل وبعض القبائل المعروفة إلى يومنا هذا من أصول مغربية، فكل هذه الروابط التاريخية والنسبية والدينية بين المغرب ودول غرب إفريقيا جعلت علماء إفريقيا وفي مقدمتهم علماء السنغال يرسلون وفدا إلى جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله في منفاه بمدغشقر يطلبون من جلالته أن يؤم المسلمين في المسجد الذي كان يصلي فيه، ونحن إنما نذكر هذه الحقائق حتى لا يظن أحد أن علاقة المغرب بإفريقيا إنما هي قائمة على المصالح، وبالتالي فلا يستغرب ما يصدر عن الأفارقة من مظاهر التضامن والولاء للمغرب، إذا عرفنا ما يقوم به المغرب من جهود لمساعدة الأفارقة.

إننا يا مولاي نريد من هذه المؤسسة الجديدة أن تكون مشتملة على كل علماء إفريقيا الأوفياء الموثوقين على مصالح بلدانهم العليا، وأن تسير على الأهداف التي وردت في النص المحدث لها ويضاف إلى أولوياتها ما يأتي:

1. محاولة تسوية جميع الصراعات القائمة لا سيما في إفريقيا تسوية شاملة ودائمة وقائمة على العدل وإحقاق الحقوق؛
2. تشجيع استمرار الحوار بين الديانات والثقافات المختلفة.
3. الاهتمام بتحقيق التنمية الشاملة لبلداننا، بفضل التخليق والتضامن وغيرها

1 - نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر؛ ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري اليمني، ولد بالبصرة سنة 270هـ تلقى في مستهل حياته العلمية ثقافة قرآنية وحديثية ولغوية واسعة، وعاش في شبابه في كنف أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره، وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته. ولم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة أربعين سنة.ثم بدأ الأشعري يعيد النظر في أفكاره ويدرس ويستخير الله تعالى حتى اطمأنت نفسه، وأعلن البراءة من الاعتزال، وخط لنفسه منهجا جديدا يلجأ فيه إلى تأويل النصوص التي قد يفهم منها تشبيه الله بمخلوقاته بما يراه متفقا مع محكمات الشرع ومقتضيات العقل.

2-بالنسبة للتصوف السني، انظر: أحمد آيت إعزة، إدريس بن الضاوية وآخرون، سبيل العلماء، المجلس العلمي الأعلى، الرباط، الطبعة الأولى، 2016م، ص58.

من القيم التي ينبغي أن يدافع عنها العلماء في دعوتهم لأن هذه القيم إذا توفرت تهيئ مناخ إيجاد فرص العمل للشباب حتى لا ينجرفوا وراء التيارات الهدامة ويهددوا الأمن والسلام في مجتمعاتهم.

ونسأل الله أن يحقق لعالمنا الأمن والاستقرار والسلام، ولأمتنا الوحدة والتضامن والتناصر، ولديننا المنعة والازدهار، كما نسأله تعالى أن يوفق أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وأن يمنحه كل الإمكانيات اللازمة التي تمكنه من تحقيق كل هذه الأهداف النبيلة، ومن إنقاذ أمتنا من المؤامرات التي تهدف إلى زجها في أتون حروب طائفية مدمرة لا تبقي ولا تذر، يكون ضحيتها الإسلام والمسلمون.

يا أمير المؤمنين، فإننا معشر المشاركين في المؤتمر التأسيسي لمؤسستكم المباركة من العلماء والشيوخ والأئمة والشرفاء والصالحين، نستطيع أن نتحدث باسم القارة، لأن هؤلاء المشاركين هم النخبة من أبنائها والصفوة من علمائها، فنعاهد الله ونعاهد جلالتكم بأن نكون جنودا أوفياء، لإسلامنا الحنيف، فسيروا على بركة الله، فنحن معكم بقلوبنا ودعواتنا وولائنا، كما نسأله تعالى أن يمد في عمركم ذخرا لشعبكم ولأمتكم ولدينكم وأن يوفقكم دائما لما فيه صلاح البلاد والعباد، إنه خير مأمول وأكرم مسؤول، وهو نعم المولى ونعم المجيب، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الدكتور سيدي محمد رفقي
الأمين العام لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

في افتتاح ندوة الثوابت الدينية المشتركة:
أسس الهوية الإفريقية

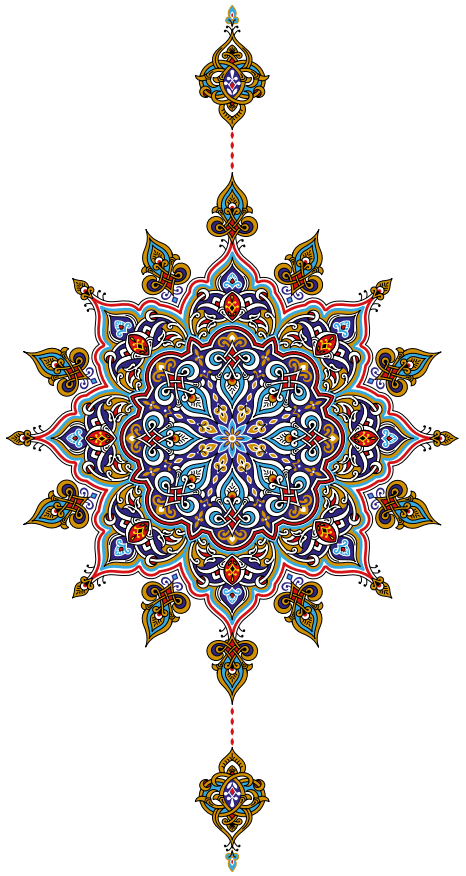

كلمة الدكتور سيدي محمد رفقي في افتتاح ندوة «الثوابت الدينية المشتركة: أسس الهوية الإفريقية» التي نظمها فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة في جنوب أفريقيا

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

أصحاب المعالي، سيداتي وسادتي،

إنه لمن دواعي الفرح أن أجد نفسي اليوم بين ظهرانيكم بصفة الأمين العام لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

بادئ ذي بدء، اسمحوا لي أن أعبر لكم عن شكري وامتناني للمنظمين، ولمختلف الشخصيات التي خصصت لنا استقبالا حارا وساهمت في إنجاح لقائنا هذا.

سيداتي وسادتي،

أليست لنا عدة مبررات لكي نؤمن ونقتنع أن العالم الذي نعيش فيه، هو في الحقيقة عالم معقد يصعب فهمه، وهذا بنظرنا أمر طبيعي بالنظر إلى ظاهرة التعددية المرتبطة بالانتماء العرقي والثقافي والديني؟

فتعدد مجتمعاتنا الإفريقية، هي في حد ذاتها غنى وإثراء لا يقدر بثمن، ويفرض علينا المحافظة عليها بكل الوسائل المشروعة وبكل ما أوتينا من قوة.

لكن، من المنطقي أيضا، أننا لا يمكن أن نفهم وندرك معنى التعددية، دون الدعوة إلى الحوار والتضامن الأخوي كسلوك في الحياة.

فالحوار والتضامن الأخوي هو بالأساس حالة وجدانية.

في الواقع، يقتصر الأمر على أن نعيش في صيغة حوار ناجعة، وفي ابتكار منهج التفاهم والتعاون والمؤازرة فيما بيننا.

وعلى هذا الأساس، فالحوار الذي يبدأ من الأنا والذات ومع الآخر، هو في آن واحد، لغة مبتكرة، وجب الإبداع في استحداثها دائما وباستمرار.

وهذه هي سنة المؤمن.

سلوك روحي ينقل المؤمن إذن :

- من وجدان منغلق، إلى وجدان منفتح على استقبال الآخر،
- من الميول لطمس الآخر، إلى احترامه بدل ذلك،
- من الاشمئزاز والكراهية كسلوك، إلى اللقاء الأخوي الصافي.

فالأمر هو أيضا، أن نعيش في تلاحم مع كل من يؤمن بصفة مختلفة عنا، وذلك في مقاربة تعتمد على البحث عن معرفة الآخر والاعتراف به كما يحدد هو وجوده، وبالتالي احتضانه لذاته.

والأهم في ذلك، هو أن نتعلم دائما كيف نتبادل الحديث وكيف نتضامن.

ولكي نعمل على تحقيق ذلك، لابد من :

- أن نخرج من الخطاب البلاغي الذي يطغى عليه التصنع والجمود،
- أن نفكر بلا حدود في لغة جديدة للحوار الداعي للتضامن،
- أن نسكن اللغة الصريحة بالمفهوم البلاغي، كما نسكن البيت الذي نقطنه.

يجب أن لا ننسى أننا نعيش في كنف مجتمع التاريخ الذي شهد منذ القدم الإثراء المتبادل من خلال مؤسسات تاريخية عتيدة، كانت ولا زالت الضامن الحقيقي لكرامة الإنسان وبكل أبعادها الروحية.

إن إمارة المؤمنين التي يجسد روحها أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله، تلخص ذالكم التناغم الإسلامي الذي يضمن الكرامة الإنسانية على مستوى كل الأبعاد والتجليات.

اثنا عشر قرنا من إسلام السلام والتسامح في أحضان إمارة المؤمنين التي بصمت العالم، وخصوصا القارة الإفريقية ببصمات روحية يشهد لها التاريخ.

ففي كنف إمارة المؤمنين، استطاعت المملكة المغربية أن تجسد مع أشقائها الأفارقة السلام الروحي والتسامح والحوار والتضامن الأخوي.

ففي هذا الإطار، ينطوي القرار السيادي لأمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله بإحداث مؤسسة تعنى بالعلماء الأفارقة.

فمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، هي تعبير على عمل ينبثق من الجذور التاريخية العميقة، ويعتمد على التراث الحضاري الغني الذي تجلى دائما في العلاقات المميزة بين المملكة المغربية وبقية البلدان الإفريقية الشقيقة.

إنها مبادرة ملكية سامية تقدم ضمانات الاستمرارية لهويتنا الإسلامية المشتركة، وتجمع ما بين حقوق الإنسان أكانت تشريعية سماوية أو دنيوية.

إنه التزام يضمن تجسيدا حقيقيا للإيمان، في مجتمع يطمح إلى السلم الروحي وإلى الطمأنينة والسكينة التي تملأ القلوب.

سيداتي وسادتي،

إننا نتقاسم القيم الأساسية المشتركة، لأننا ننبعث من إنسانية واحدة ومن تراث روحي مشترك.

فثقافاتنا وحضاراتنا تأخذ معينها من نفس منابع الوحي الإلهي.

أجل، من الجدير بنا، إذن، أن نعرف منابعنا ومصادرنا الإفريقية حتى يتسنى لنا أن نتعارف فيما بيننا، وبالتالي يقبل بعضنا على بعض من أجل التعاون البناء.

فثقافاتنا المختلفة، قاسمها المشترك هو المرجع الأخلاقي الذي يجمعنا ويحفزنا على التلاقي والتضامن واحترام الآخر.

كلمة الدكتور عبد الحق المريني
مؤرخ المملكة
الناطق الرسمي باسم القصر الملكي

سيداتي وسادتي،

لا بد من التذكير أن الدين الإسلامي الحنيف، ينبني على مرتكزات الخلق الحسن، والمحبة، والتآزر، والرحمة، والإخلاص، والتسامح والسلم،

والمؤمن الحق الذي يعيش وفق هذه المرتكزات، هو بالتأكيد:

• مهذب رقيق الإحساس، عاقل، متسامح، جدير بالثقة ومسؤول.

ويمكن لهذا المؤمن الحق أن يمنح في الأخير:

• المحبة للآخر، الاحترام، التضامن، السلام، والرغبة في العيش الرغيد مع الآخرين.

إن حياة المؤمن كلها رحمة ساطعة للعيان، منبعها الحقيقي رحمة الله سبحانه وتعالى.

وبالتالي، فإن المؤمن مطالب دائما أن يأخذ بعين الحسبان في هذه الحياة الدنيا التعاليم الأخلاقية الإسلامية التي تحث دائما على:

• الرحمة، الشفقة، التسامح، التضامن، والسلام.

الإسلام الحنيف، هو الدين المستنير.

والمسلم قبل كل شيء، هو إنسان مسالم، متسامح ويتمتع بعقل واع ومستنير.

وفي الأخير، يجب التأكيد أن التعاليم الأخلاقية لديننا الحنيف، تمنح للقارة الإفريقية وللإنسانية جمعاء، التعاليم التي تشيع السلم والسلام والتضامن والأمان.

والرسالة الخالدة المنبثقة من هذه التعاليم السمحة، هي الكفيلة بأن تجعل من المؤمن إنسانا في راحة نفسية مع نفسه أولا، وبالتالي بإمكانه، بعد ذلك، أن يمنح لسائر المجتمع الحكمة والتضامن المتناغمتان مع بهاء روح تعيش بسلام آمن.

أشكركم على تفضلكم بالإصغاء،

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إطلالة
على العلاقات التاريخية المغربية الإفريقية

الدكتور عبد الحق المريني مؤرخ المملكة الناطق الرسمي باسم القصر الملكي

بدأ تاريخ العلاقة المغربية الإفريقية بتوغل الرباطات الإسلامية للدولة المرابطية في قعر الجنوب المغربي لنشر الدعوة الإسلامية ومحاربة البدع والعقائد القديمة الملحدة ثم أسس يوسف بن تاشفين المرابطي دولته من أقصى شمال المغرب إلى نهر النيجر جنوبا، كما توجهت الدولة السعدية نحو أقصى جنوب المغرب وعزم المنصور الذهبي السعدي على غزو السودان، وهو ما يعبر عنه اليوم بالسنغال ومالي والنيجر. وعلى غرار الجيش السعدي غزا الجيش الإسماعيلي العلوي السودان (أي السنغال ومالي)، بعد أن ضم الصحراء إلى مغربها، وقد جلب المولى إسماعيل عددا كبيرا من أهل السودان إلى المغرب، وكون منهم جيشا جرارا وحكم بهم المغرب من وادي السنغال جنوبا إلى حدود تلمسان، وطرد الإسبانيين من الشواطئ المغربية المتوسطية.

وقد استمر نشر التعاليم الإسلامية بالقارة الإفريقية انطلاقا من جنوب المغرب عن طريق القوافل التجارية، والجماعات الروحية التي عملت على نشر المذهب المالكي في ربوع القارة رغم عوائق الغزو الأجنبي.

ولما للمغرب من موقع استراتيجي هام بين القارتين الإفريقية والأوروبية الذي لا يتغير لأن الجغرافيا لا تتغير، بقي المغرب يلعب دوره المتميز كمعبر قاري الذي لا يمكن إلا أن يؤدي إلى التفاعل المثمر السياسي والاقتصادي والاجتماعي بين القارتين، وهذا مما جلب على المغرب أطماع الطامعين الأوروبيين. ولما تخلص المغرب من عقد الحمايتين الفرنسية والإسبانية أحيى دوره البارز التاريخي لإرساء قواعد راسخة بينه وبين الدول الإفريقية فعقد المغفور له محمد الخامس رحمه

الله، أول مؤتمر إفريقي بالدار البيضاء يوم 3 يناير سنة 1961، الذي وضعت فيه أسس الاتحاد الإفريقي. وعندما استكمل المغرب وحدته الترابية باسترجاع إيفني وطرفاية وصحرائه بواسطة المسيرة الخضراء بقيادة المغفورله الحسن الثاني طيب الله ثراه، احتضن على أرضه اجتماع لجنة تحرير الأقطار الإفريقية التي كانت مازالت تئن تحت وطأة الاستعمار سنة 1976م.

ولم يزد مرور السنين على العلاقة المتينة بين المغرب والقارة الإفريقية إلا رسوخا وتطورا ذلك، أن زيارات العمل والصداقة التي قام بها جلالة الملك محمد السادس نصره الله، لمجموعة من الدول الإفريقية خلال السنوات الأخيرة، لتقدم الحجة الدامغة على مدى تشبث جلالته على عزمه الراسخ على ضمان النجاعة للتعاون جنوب جنوب متضامن وفعال قائم على النفع المتبادل، وعلى النهوض بأوضاع المواطن الإفريقي مما قد يضمن تنمية القارة الإفريقية وتقدم ساكنتها.

كلمة فرع جمهورية غينيا
بمناسبة
صدور العدد الأول من مجلة العلماء الأفارقة

كلمة فرع جمهورية غينيا

آن الأوان فيا لبشرانا:

إن انطلاقة مجلة العلماء الأفارقة بصدور باكورة أعدادها بالتحديد مع حلول أول أيام العام الهجري الجديد (1441 هـ) أولجه المولى علينا باليمن والبركات، ووفقنا فيه للطاعات وبوأنا بفضله في مصاف الذائدين عن حمى الملة، دين الفطرة السوية، وجعلنا مرابطين على ثغور الإسلام الوسطي حتى لا يؤتين هذا الدين – غفلة – من ثغرة أحدنا، إنقاذاً لإخوة لنا في الدين والطين.

حقا إنه لقد آن الأوان، بإطلالة هذه السانحة الذهبية، أن يُحَيِّنَ علماءُ القارَّة منتسبُو هذه المجلة مواقفهم من القضايا الساخنة، والمطوقة للقارة الإفريقية بسياج من الهلع واللا أمن.

لقد آن الأوان لعلماء القارة أن يُزيحوا حاجِزَ الصمت وينأَوا بأنفسهم عن اللامبالاة المشخصة لهم – للأسف – إزاء المُعضِلات المصيرية لقارة انتماءاتهم.

لقد آن الأوان، لتقديم حلول ناجعة كفيلة بِلَمّ الشمل وإقصاءِ شبَحِ التشرذم واللاتفاهُمِ بين الفئات المستنيرة من أبناء القارة، مَعقَدِ أَمَالِ السَّاكِنَةِ فِي رد الاعتبار إلى القارة بكافة المعايير.

لقد آن الأوان، لتصدي علماء القارة لمعالجة مشاكلها بكل موضوعية ومحايدة، علاجاً للعديد من المواقف الحرجة، واستدراكاً لِمَا لَو لَم تتوحد بصددها انطباعاتُ العلماءِ بِحِكمَةٍ بالغة، وترك الحبل على الغارب في غياب تام لضوابط الشريعة، استعصى التغلب عليها وأفضى الشأن حتما إلى استفحال التبعات، مما يلجئ إلى الاستنجاد بأطراف هم إلى تعميق الهوة أقرب منهم إلى تسوية المشكلات، والانتشال من حضيض الهموم، وغياهب الغموم.

لقد آن الأوان لانتفاض هذه الثلة العالمة صائنة الكيان الديني والهوية الحنيفية

لنفض ما علق بمنتسبي دين الفطرة من تهم زائفة بإبراز محاسن هذه الملة، والاستدلال بمسلك السلف الصالح أبطال القرون الفاضلة الذين حازوا سيادة العالم، وانتشرت بهم الفضيلة والخيرات في بقاع مترامية الأطراف على ظهر البسيطة. وظلت الريادة بأيديهم إلى أن جاء من بعدهم خلف قعد بهم الاستئثار عن الايثار، فتعلقوا بالفانية بدل الاهتمام بالباقية، وارتمى بعضهم في أحضان الترف والمجون ووقعوا في كثير من الشطط بكل لامبالاة، وعلى مختلف المستويات، فحل التنافر مكان التواد، مَظاهِرُ يَندَى لها الجبين، ويتألم منها اللبيب فإن إطلالة هذه المجلة الجامعة المانعة مِنبَرِ الأخذ والعطاء ومسرح التبادل المحايد، منَصَّةِ تنوير العوام، انطلاقها مؤذن بتبديد الغيوم وتهدئة عواصف التناحر، إن انطلاقها نشاط يوحي بما يجب على علماء القارة تجاه قاطنتها الذين أنّوا أشد أنين تحت سياط الجهل لآماد سحيقة طويلة ولأسباب شتى.

لذا أصبح ملحا على العلماء تشميرهم عن ساعد الجد لحصر عوامل آفات القارة على اختلاف البيئات وتنوع العوائد، وتباين المشارب، فأبدا لن يَنضب معين الإسلام من حلول شافية لمشاكل البشرية، ولن يخلو وفاضهُ من العطاء الجزيل لصالح الإنسانية، والأدلة على ذلك أشهر من أن تستقصى فهذه المجلة منصة حقيقية لتلاحم الأفكار ومباحثة قضايا الساكنة قصد استصلاحها مع نفسها طبق شريعة بارئها الرحمان مستخلف الإنسان في أرضه، ومستأمن العلماء على النصيحة بالتي هي أحسن لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

تحية لطاقم تحرير هذه المجلة، والعامل على تمهيد سبل التواصل المثمر بين علماء القارة حتى لا تنقطع نافورة عطاءاتهم ومطارحاتهم البناءة.

تحية للرائد المصلح، المبادر إلى تأسيس هذه الهيئة الجامعة لشمل علماء أفريقيا ومن ورائهم جماهير الساكنة قراء إنتاجاتهم العلمية، أمير المؤمنين، جلالة الملك محمد السادس – نصره الله وحفظه وأيد به الإسلام والمسلمين وأنجز على يديه الكثير من آمال الأمة الإسلامية.

إنه بفضل هذه المجلة قد آن الأوان لرد الاعتبار للطبقة العالمة الإفريقية غابراً وحاضراً، من خلال تمشيط معضلات القارة وتحيين وصفاتها الطبية الفاعلة، حسب النوازل الآنية من منطلق منظور إسلامي وسط ينبذ العنف ويناطح الغلظة من خلال تأييد مستديم لرؤى التعايش المتسامح لا يستشعر معه المسلم غضاضة لأن إسلامه يربيه على حسن التمسلك ويملي عليه جودة اتخاذ الموقف من المستجدات أيا كان موردها فالرائد ليس إمّعة.

فرع غينيا لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة يبارك هذه الإطلالة المنيفة لمجلتنا الحبيبة التي تتطلع إليها أفئدة المنتسبين بصبر فارغ، وأعناق مشرئبة لما سنجنيه عبر موادها العلمية من فوائد جمة بفضل قرائح العلماء المساهمين.

بارك الله لنا في قطافها ووفقنا كافة لخدمتها. قال تعالى: «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون». 83/26 وقال عزّ وجلّ : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان». 5/2. وقال عليه الصلاة والسلام: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم). وقد ضعفه أهل العلم لكن يعمل بمعناه – ومن الفضيلة العمل به لأن من الاهتمام بأمر المسلمين على اختلاف فئاتهم نصيحتهم.

وروى البخاري ومسلم في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: (بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم).

والله المستعان ودمتم بخير

نموذج من منهج التعليم العتيق والتربية الروحية في غينيا

إن التعليم العتيق حافل بالمزايا الرفيعة، في تكوين الفرد والمجتمع، وفي تثقيفه وتربيته روحيا قبل كونه جسديا، بل إن جهود علماء هذه الأمة نتاج هذا التكوين وهذه التربية، وعليه أراد فرع المؤسسة انتقاء نوع من هذا المنهج من التراث المخطوط، القديم الجديد، القديم في أسلوبه وهيئته، الجديد في عصره ووقته.

وهي قصيدة لامية على البحر البسيط لعالم شهير بالعلم والورع والنصح الموسوم بالأديب علي بن محمد اللبوي الشهير ببوديم[1] ، وعليه، فإن هذه القصيدة اللامية اللبوية تقرر شيئا ما من مستوى الطالب المبتدئ في فوتا جالون، العاجز عن ادراك المراتب العليا في التحصيل، وهي بحق تبين ما يحتاج إليه الطالب من علم، وتشرف على مقررات تعينه على إدراك الشأو البعيد، ولاعتراق العظم الممخ مع انتقائه وعليه، فالمقررات المذكورة في القصيدة ما هي إلا مبادئ يتسنمها الذكي الألمعي الفطن، لروم الفتح في الطلب، والغوص في بحاره ولججه، بتنسيقاتها وترتيباتها العلمية بدون قفز. وتصنف قائلها في مصاف العلماء المجربين المتقنين المنصفين للخلق، اللذين جالسوا العلم والعلماء والطلبة وخبروه وسبروه حتى أدركوا ما يمتزج بع طبع كل واحد منهم، مما يستلزم التقيد بنصائحهم والأخذ بإرشاداتهم والاهتداء بهديهم، والسير على منوالهم على الرغم من أنها تمثل فترة الضعف والأنحطاط في المنطقة الفوتية، إذ جاءت في بداية فتر الإستعمار حتى اصبح كل العلماء حيارى، واشتغلوا بالكفاح والذود عن الدين والعرض، عن تعليم العلم وتعلمه، ومع ذلك فللقصيدة قيمتها العلمية، إذ تناولت أربعة فنون وعلوم وهي: علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم الفقه، مع شيء من الوصايا والآداب .. وعليه، فهذه شيء من علوم الغاية، وشيء من علوم الآلة، بهما يتكون المرء روحيا وعلميا.

1 - ولد وترعرع في بيت علم ودين، وكانت ولادته في عام 1265 هـ، يوم الأحد تاسع جمادى الآخر بقرية تسمى (دنقول جرنا)، ((... فقد كانت وفاته – يوم الأحد الثالث والعشرون من رمضان وقت العشاء، ودفن عصر الأحد المذكور وازدحم على جنازته العام والخاص، والأكابر والأصاغر، والعلماء والأمراء، واكتظت المواضع والطرق بالجموع، بحيث لا يطيق أحد أن يتحرك، أو يتحول من موضع إلى موضع فسبحان القدير الفعال لما يريد)). انظره في آخر ديوان الشيخ علي اللبوي (ص/230). ضمن مقالة طويلة لجرن يحي لب البجري بن الفقيه إبراهيم بن العالم محمد جاو بن الفقيه إبراهيم الصغير (الغلام).

وهي بذا فريدة بنوعها، يتيمة في دهرها، وخريدة عديمة المثال، مُحتاج إليها عند اشتباه الأحوال، وامتداد الأهوال، وانقصار الآجال، وهذا على حسب الشيخ اللبوي رحمه الله. فدونك القصيدة:

قصيدة «يا طالب الفتح»

لابن مُحمد علي اللبوي

كتب إليه يوما أحد أولاده يطلب منه الفتح،

وأجابه – رحمه الله – بهذه الأبيات[1] :

يَا طَالِبَ الْفَتْحِ إِنَّ الْفَتْحَ لُؤْلُؤَةٌ ... فِي لُجَّةٍ مَنْ يَغُصْ فِيهَا حَوَى الْأَمَلاَ

أَعظِمْ بِهِ لُجَّةً مِنْ فَوْقِهَا لُجَجُ ... إِنْ رُمْتَ فَتْحًا فَغُصْ فِيهَا تَشِرْ عَسَلاَ

قُمْ فِي مَقَامِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي رُقِمَتْ ... عَنِ الحَرِيرِي وَمَرِّرْهَا وَدَعْ كَسَلاَ

وَاخْطُبْ إِلَى ابْنِ دُرَيْدٍ بِكْرَهُ وَلَهَا ... مَهْرٌ وَذَلِكَ أَنْ لاَ تَصْحَبَ الْجُهَلاَ

وَاسْرُعْ إِلَى الشُّعَرَاءِ السِّتِ تُفْرِغُهَا ... فِي قَعْبِ قَلْبِكَ وَاحْفَظْهَا تَكُنْ رَجُلاَ

وَاعْرُجْ إِلَى اللُّغَةِ العُلْيَا بِسُلَّمِهَا ... لِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى الْقَامُوسِ مُنْتَسِلاَ

ثُمَّ ارْكَبِ الطِّرْفَ مُرْتَاضًا قَوَائِمَهُ ... غَلْبٌ سِرَاعٌ وَنَحْوَ النَّحْوِ طِرْ عَجِلاَ

فِي كُلِّ يَوْمٍ فَكُنْ إِلْفًا لِأَلْفِيَةٍ ... وَقَدْ حَفِظْتَ ابْنَ آجُرُّومَ وَالْجُمَلاَ

ثُمَّ اللِّجَامَ لِذَاكَ الطِّرْفِ يَا ابْنَ أَخِي ... صَرِّفْ إِلَى كُتُبِ التَّصْرِيفِ مُرْتَجِلاَ

1 والقصيدة موجودة في «ديوان شعر» للشيخ، بدون عنوان. وهو ديوان مطبوع، أشرف على طبعه أخونا الشيخ ألفا محمد ووري جالو – دبلوم عالي في الدراسات الإسلامية من القاهرة-بتقديم ابن المؤلف الشاعر جرن عبد الرحمن باه – وزير الشؤون الدينية وعضو المكتب التنفيذي للمجلس العلمي في غينيا، وبالخصوص مفتي «فوتا جالون». وارتأيت أن أزيد في أركان القصيدة، إذ هي تتناول أهم موضوع في مجال العلم، وهو الآداب وأهم الكتب التي يلجأ إليها الطالب في وقت الطلب، إلا أن صاحب القصيدة عمدة مقررات زمانه، فزدت بعض الكتب التي تستحق الاعتناء، كما أنه يذكر شيئا من كتب العقيدة والحديث، ثم ذكرت بعض النصائح لطلاب هذا الزمان، وما أراه مما يلوح فيه الخدعة والخيانة لطلاب العلم في الطلب على غير شيء. والله الموفق.

وَلاَمِ لاَمِيَـهَا فَـالْـبَـسْ لِـتَحْـفَـظَهَا ... وَفَتْـحَ الاَقْـفَالِ فَاتِـحْ وَاجْتَنِـبْ مَلَلاَ

فَـهَـذِهِ دَرَجٌ يَـا مَـنْ تَـسَنَّـمَـهَا ... يَـرْقَى بِـهَـا لِسَـمَاءِ الْفِـقْهِ مَنْ عَقَـلاَ

لِحِفْـظِ مُخْتَـصَرٍ كُنْ فِيـهِ مُخْتَـصِرًا ... بَعْـدَ الرِّسَـالَةِ ثُمَّ التُّحْفَـةِ ارْعَ وَلاَ

وَفِـي الـتَّـصَـوُّفِ آدَابٌ وَمَـعْرِفَـةٌ ... فِي جَهْـلِهَا عَطَبٌ فَاشْدُدْ لَهَـا جُمَـلاَ

مَـنْ رَامَ نَيْـلَ عَـطَاءِ اللهِ فَـلْيَكُ فِي ... مَـا قَـالَهُ ابْـنُ عَـطَاءِ اللَّـهِ مُحْتَفِـلاَ

فَهَـذِهِ اللُّجَـجُ الـغُـرُّ الَّتِـي ذُكِـرَتْ ... فِيـهَا يَـغُـوصُ لِرَوْمِ الْفَتْحِ مَنْ سَأَلاَ

حِفْـظًا وَفَهْـمًا صَحِيحًا ثُمَّ يَعْمَلُ فِي ... أُمُـورِهِ فِـي الَّـذِي فِـيـهَا وَإِنْ ثَقُـلاَ

وَهَـذِهِ مَـنْ حَـوَاهَـا ثُـمَ لاَزَمَ فِـي ... أَحْـوَالِهِ الـذِّكْرَ دَأْبَـا يَفْتَحُ الْقُفُـلاَ

أَمَّا مَـنِ اخْتَـارَ نَوْمًـا بَعْدَ مَا امْتَـلَأَتْ ... أَمْـعَاؤُهُ وَارْتَضَى أَنْ يَصْحَبَ السُّفُلاَ

وَقَـالَ مُـضْطَجِعًا لاَ طَـاقَةً لِيَ فِـي ... قِـرَاءَةِ اللَّيْـلِ إِنَّ النَّـوْمَ قَدْ شَغَلاَ

فَبَـيْـنَ ذَاكَ وَبَـيْنَ الْـفَتْـحِ مَرْحَـلَةٌ ... مَـنْ لَمْ يَـجُزْهَا فَـلاَ يَرْنُو لِمَـا أَمَلاَ

فَـاقْـرَأْ أَخِـي وَأَقْـرِئْ وَاطَّـرِحْ لَعِـبًا ... وَطَالِعِ الْكُتْبَ وَافْـهَمْ مَا بِـهَا اشْتَمَلاَ

وَلاَزِمِ الـذِّكْـرَ دَأْبًـا ثُـمَّ صَلِّ عَلَى ... مُحَـمَّدٍ صَـلِّ يَـا رَبِّـي عَلَيْهِ إِلَى

هُـنَاكَ تُـدْرِكُ مَـا تَبْغِي وَتَبْلُـغُ مَـا ... ترْجُـو فَجِدُّكَ غَـرْسٌ يُثْمِـرُ الأَمَلاَ

وَإِنَّ مِـنْ حُـمَقَاءِ النَّـاسِ مَّـنْ حَسِـبُوا ... أَنْ قَـدْ أُقِيمُـوا مَقَامَ الْقُطْبِ وَالْبُدَلاَ

مَـعْ أَنَّهُـمْ رُتَـبَ الطُّلاَّبِ مَـا بَلَغُـوا ... نَعُـوذُ بِاللهِ مِمَّا سِـيـمَ مَـنْ خُـذِلاَ

مَـنْ يُـضْلِلِ اللهُ عَدْلاً لاَ يَنَالُ هُدًى ... وَمَـنْ هَـدَاهُ إِلَى مَأْمُـولِهِ وَصَـلاَ

ملف العدد:

«جهود العلماء الأفارقة
في خدمة الثوابت الدينية المشتركة»

جهود العلماء الأفارقة
في خدمة الثوابت الدينية المشتركة

الشيخ إسماعيل إبراهيم كروما
رئيس فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بسيراليون.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على صفوة خلقه وخليله، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فهذا بحث مختصر يبين جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة، خدمةً لدين الله أولاً، واستكمالاً لهذا الفضل الذي تتبناه وترعاه مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة ثانياً، في ظل توجيهات حكيمة من أمير المؤمنين، الملك محمد السادس– حفظه الله ورعاه-، وهي مبادرة ملكية كريمة سامية، تقدم أعظم الخدمات وأنفع الوسائل لخدمة الإسلام والمسلمين، متمثلة في خدمة تلك الثوابت المشتركة بين المملكة المغربية وبين أشقائها الأفارقة، وتتجلى هذه الثوابت في: إمارة المؤمنين، المذهب المالكي، العقيدة الأشعرية، التصوف؛ وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يتكون من مقدمة وخمسة محاور وخاتمة.

- المقدمة
- المحور الأول: ترسيخ مفهوم إمارة المؤمنين.
- المحور الثاني: المذهب المالكي.
- المحور الثالث: انتشار العقيدة الأشعرية.
- المحور الرابع: التصوف.
- المحور الخامس: جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة.
- الخاتمة.

ونسأل الله العون والتوفيق والسداد في الرأي، ومنه سبحانه المدد.

المحور الأول: ترسيخ مفهوم إمارة المؤمنين.

من المعلوم أنه لكل بلد من البلدان نظامه الذي تنضوي تحته، وترتسم معالمه بناء على أسسه وأفكاره وسياساته، وشأن بلاد أفريقيا شأن غيرها من هذه البلاد، التي لها كامل الحرية في اختيار نظام الحكم وطريقة الانتخاب والاختيار؛ لكن المسلمين في بقاع الأرض يعظمون مفهوم إمارة المؤمنين، أيَّما تعظيم، فهوله مركزية مشتركة عند جميع من يدين بالإسلام، وهم يحفظون للمملكة المغربية تراثها العملي في الحفاظ على هذه المكانة الإسلامية الأصيلة؛ فلهذا المسمى: إمارة المؤمنين، أهميةٌ روحيةٌ عبَّر الأفارقةُ عنها باستمرار، وتجلت في بعض مواقف الزعماء الدينيين الأفارقة الذين حَرِصوا على تقوية الصلات مع أجدادهم فكانوا يَفِدُون عليهم؛ بل إن بعضهم شد الرحال لزيارة أمير المؤمنين: محمد الخامس في منفاه، وما تزال تتجلى هذه الرمزية في النظرة الروحية التبركية التي ينظرون بها إلى أمير المؤمنين، ولا يُنْكِرُ هذا الأمرَ إلا جاهل أو جاحد.

أما تاريخ إمارة المؤمنين في المغرب؛ فالأفارقة ينظرون إليها بتعظيم وإجلال لأحقيتها ومشروعيتها بواقعها ومعالمها السُّنية.

فقد قدم المولى إدريس إلى المغرب، وبيده وصية أخيه محمد بن عبد الله النفس الزكية له بالخلافة التي كان قد بويع بها بيعة شرعية من أهل الحل والعقد بمدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، قبل بيعة أبي جعفر المنصور العباسي، وعلى أساس هذه الشرعية بايع أهل المغرب المولى إدريس، فهو أول من حَمَلَ لَقَبَ أميرِ المؤمنين في الغرب الإسلامي، وأسس أول دولة إسلامية مستقلة عن المشرق. وكان الإمامان مالكُ بن أنس وأبو حنيفة بالمشرق، يُرَجِّحَانِ إمامتَه على بني العباس، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور لانعقاد بيعة محمد بن عبد الله النفس الزكية قبله.

وهكذا تكون إمارة المؤمنين دخلت المغرب وهي مستوفية لكل شروط الصحة التي أساسها البيعة الشرعية المزكاة من طرف إمامين عظيمين من أئمة المسلمين: مالك بن أنس وأبي حنيفة، فتأسست بذلك أول إمارة للمؤمنين بالربوع المغربية.

وعندما بدأ انفتاح المغرب الإسلامي في العقد السادس من القرن الهجري الأول كانت الأزمة قد استحكمت بظهور الفرق واستمرار المعارضة للأُمويين ثم للعباسيين ولاسيما من أنصار آل البيت. وبينما كان هؤلاء يعانون من اضطهاد الدولتين المذكورتين بين عام 40 للهجرة، تاريخ تولي معاوية، وعام 169 للهجرة، تاريخ مقتل محمد بن عبد الله النفس الزكية في وقعة فَخٍّ، قرب مكة المكرمة، كان قد مضى قرن من الزمن على سوء تدبير عدد من عمال الأُمويين ثم العباسيين على المغرب. وفي هذا السياق من الظلم المشترك لجأ إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وقد نجا من القتل في موقعة فخ، فكان أول أمير للمؤمنين بويع خارج نطاق الحرب والانقلاب بعد الخلفاء الراشدين.

ولا يخفى أن النظام السياسي يكون مشروعا بصلاحه وبما يوفره من الأمن والاستقرار لممارسة شؤون الدنيا التي بها يتهيأ الناس لحسن المعاد في الآخرة، ذلك لأن الإسلام خطاب الله تعالى إلى كافة عباده فيما يهمهم من أمور دنياهم ودينهم، وقد كان لزاما أن يشتمل على كل ما يُنَظِّمُ شؤونَهم في دنياهم التي فيها معاشُهم، وفي آخرتهم التي إليها معادُهم، لذا كان أول ما شغل بال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يحط رحاله بالمدينة، النظرُ في وضع النواة الأولى لمجتمع يسوده الأمن والاستقرار، والتعاونُ بين مكوناته في جلب المصالح ودرء المفاسد، مجتمعٍ تسهر على تدبيره دولة حاكمة وحكيمة، حتى تجري حياة الناس على نظام واستقامة.

المحور الثاني: المذهب المالكي.

يعدّ المذهب المالكي في منطقة المغرب العربي منذ قرون خلت مذهب الدولة الرسمي في كل من موريتانيا، المغرب، ليبيا، الجزائر وتونس وبلاد إفريقيا، ويعد واضعه إمام دار الهجرة مالك بن أنس، إمام المسجد الأكبر بالمدينة المنورة في القرن 9 ميلادي و2 للهجرة.

تاريخيًا تعد الحواضر الدينية الكبرى مثل قرطبة وفاس والقيروان أكثر المدن التي اشتهرت بنبوغ فقهاء مالكيين فيها خلال القرون الأولى وبعدها، ونذكر على سبيل

الذكر لا الحصر الأئمة أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد التنوخي وابن أبي زيد القيرواني وابن عبد البر المالكي وابن رشد وغيرهم من الأسماء التي تركت بصمتها في مجال الفقه والفتوى.

ويعتبر الإمام سحنون (تونسي قيرواني) أول من أدخل المذهب المالكي إلى المغرب العربي، والإمام سحنون هو أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، أصله شامي، من حمص، ولد بمدينة القيروان سنة 160هـ وتتلمذ على أكبر علمائها.

كان رفيع القدر، عفيفًا، أبي النفس، رحل إلى المشرق طالبًا للعلم سنة 188هـ فزار مصر والشام والحجاز ثم عاد إلى القيروان سنة 191هـ وعمل على نشر المذهب المالكي ليصبح بذلك المذهب الأكثر انتشارًا في إفريقية والأندلس، تولى القضاء سنة 234هـ/848م حتى وفاته في رجب سنة 240هـ، ودفن بالقيروان.

من أشهر مؤلفاته المدونة الكبرى التي جمع فيها مسائل الفقه على مذهب مالك بن أنس، وأصل «المدونة» أسئلة، سألها أسد بن الفرات لابن القاسم، فلما ارتحل سحنون بها عرضها على ابن القاسم، فأصلح فيها كثيرًا، وأسقط ثم رتبها سحنون وبوبها، واحتج لكثير من مسائلها بالآثار من مروياته.

تذكر المصادر التاريخية أن عدد الأفارقة الذين رحلوا إلى الإمام مالك بن أنس- رضي الله عنه- في ذلك الوقت يربو على الثلاثين، وفي ذلك يقول الخشني: «كانت إفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس، لأنه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلاً كلهم لقي مالكًا وسمع منه، وإن كان الفقه والفتيا في قليل منهم».

ويذكر القاضي عياض في مداركه أنه قبل المذهب المالكي، كان المذهب السائد في القيروان وما وراءها من المغرب، مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه.

وقد ذهب الشيخ الشاذلي النيفر إلى القول بأن علي بن زياد هو في الحقيقة المؤسس الحقيقي للمدرسة التونسية- القيروانية- بأجلى مظاهرها التي لا تزال إلى اليوم ممتدة الفروع، ثابتة الأصول، إذ هو الذي بث في المغرب- يعني الغرب الإسلامي- بكامله المالكية، فعمت جميع أقطاره بدون استثناء، وهو وإن شاركته المدرسة المصرية، فهو الذي دل عليها، ولولاه ما قصد سحنون ابن القاسم.

وبعد عودة الذين رحلوا لطلب العلم إلى بلادهم بدأت فكرة انتشار مذاهب فقهية معينة في بلاد المغرب خاصة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك بن أنس وبدرجة أقل مذهب الأوزاعي.

ثم كثر أتباع الإمام مالك وانتشروا في البلاد انتشارًا واسعًا حتى استحوذ هذا المذهب على الساحة الفقهية المغربية حتى صار لا يُفتى إلا به ولا يُولى إلا من انتسب إليه؛ وبذلك تشكل واقع متميز تمكن من القضاء على المذاهب المنافسة- أو تحجيمها على الأقل- حتى إن الرحالة المغاربة كانوا يتفاجؤون من تعدد المذاهب التي يرونها في رحلاتهم إلى المشرق إضافة إلى بعض التصريحات الدالة على هذه السيادة مثلما قال ابن التبان: «لو نشرت بين اثنين ما خالفت مذهب مالك» أو مثلما تعبر عنه بعض الأمثال الشعبية الشائعة: «سيدي خليل والألفية، الحكمة ثمة مخفية» دون أن ننسى تأثر القوانين الحالية بالمذهب المالكي.

ومما ساعد على نمو هذه العلاقة بين المغاربة والمذهب المالكي تفسير العلماء لحديث النبي- صلى الله عليه وسلم- «يُوشِكُ أَن يَضرِبَ النَاسُ أَكبَادَ الإِبِلِ يَطلُبُونَ العِلمَ فَلاَ يَجِدُونَ أَحَدًا أَعلَمَ مِن عَالِمِ المَدِينَةِ» فقد قال العلماء إن مالكًا بن أنس هو المقصود بالحديث، وكان هذا التفسير بمثابة الحجة الشرعية الدالة على مبلغ علم الإمام مالك، وهذه الميزة لا تتوفر لأي مذهب من المذاهب الأخرى.

حتى قال محمد حبيب الله بن مايابى الشنقيطي (ت 1363هـ) في نظمه دليل السالك:

ووصفُهُ بعالم المدينهْ فيه من الفوائد الثمينهْ

أن حديث يوشكُ الذي اشتهر وكان في امتداحه نصا ظهرْ

ليس من المذاهب المُتّبعهْ مُنازعٌ فيه له فاتبعهْ

إذ مالك عالمها والمنصرفْ لها في الإطلاق سُماه فاعترفْ

ولم يقع ضربٌ لأكباد الإبلْ لغيره كمثل ماله فُعِلْ

ومِن مميزات هذا المذهب إذا تتبعناها نراها كثيرة، وأهمها تلك التي ترتبط بالأصول فهو: مذهب نبت على فقه الموطأ، المؤسس على الدعائم الصحيحة من الحديث والآثار وغير ذلك مما وقف عليه مالك بن أنس وبنى عليه مذهبه المدعم بما عليه الجماعة بالمدينة المنورة، ولشدة حرص هذا المذهب على اتباع هذه الأصول كان منهجهم تصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع.

المحور الثالث: انتشار العقيدة الأشعرية.

من الثوابت الدينية المشتركة: العقيدة الأشعرية في توحيد الله، وصفاته المثلى، أو مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة 324هـ.

إن العقيدة الأشعرية، كما هو معلوم، مذهب علمي فريد، استهدف تصحيح ما في علم الكلام من مزالق وأهواء المتكلمين المبتعدين عن نهج الإسلام القويم، وعن الغاية من عقيدته الأسمى. وهذا المذهب، في أصوله وجوهره، مذهب أهل السنة والجماعة، المؤسس على براهين وأدلة، من الكتاب والسنة، ولذلك التزمه الغرب الإسلامي عامة و المغاربة بصفة أخص الذين عضوا عليه بالنواجذ، بعد أن جرّبوا غيره من المذاهب التي لم تقنعهم، إذ لم يجدوا فيها ضالتهم المنشودة، في الإيمان

والعقيدة، وفق الكتاب والسنة، ووفق مقتضى العقل الراجح والفكر السليم. فأصبح ثابتا من ثوابت الدولة المغربية ومعلما من معالمها وركنا منيعا من أركانها وارتبط فيها بنزعة وسطية تميل إلى التوازن في الاعتقاد والاعتدال فيه.

تنسب الأشعرية إلى أبي الحسن الأشعري وهو علي بن إسماعيل بن إسحاق. ولد سنة 260هـ في البصرة وتتلمذ على صفوة علماء عصره وعلى رأسهم أبو علي الجبائي.

وقد ظهرت براعته في علم الكلام والفقه والحديث والمناظرة. وكان ميالا إلى حياة الورع محافظا على النقل. بدأ حياته بالاعتزال ثم تراجع عنه وأعلن مذهبه المعارض للمعتزلة ووضع جملة من التآليف التي أظهر فيها فكره الأشعري ونقض حجج الخصوم. ومن بين ما ألّف في ذلك كله كتابه "العمد" وكتابه "مقالات الإسلاميين" وكتابه "الرد على المجسمة" وكتابه "اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع".

لقد تراجع الأشعري عن مذهب الاعتزال لما وجد فيه من الغلو وتغليب العقل على النقل فتحول إلى الاعتدال السني القائم على التوفيق والدمج بين العقل والنقل في صياغة لفكر منسجم أثبت جدارته عبر قرون بمزايا الوسطية والاعتدال في الاعتقاد.

فأسس مذهبه على استقراء آراء الخصوم من أصحاب الملل والنحل والفرق الأخرى والرد عليها بتصنيفها وإقامة الدليل على ضعف مواقفها العقدية والفكرية. ثم يستنتج رأيه ويدلي به بكل صراحة ووضوح معلنا عن اتباعه للكتاب والسنة والاستنتاج العقلي في توازن متين ووسطية فكرية قلما نجد لها نظيرا في الإسلام عند الفرق الأخرى.

ولقد كانت القيروان المركز الأساسي لانطلاق الأشعرية ، وانتشارها في الغرب الإسلامي، قبل منتصف القرن الخامس الهجري، إذ هي العاصمة العلمية في الغرب الإسلامي كله حينذاك، وقبلة طلاب العلم من كل جهة، ونقطة الانطلاق إلى المشرق.

ومن أبرز علماء القيروان الذين عرفوا الأشعرية وأخذوا بها، إبراهيم بن عبد الله الزبيري، المعروف بالقلانسي، (ت:359)، والمعروف بمواقفه القوية ضد الشيعة، و

بما تعرض له جراءها من أذى كثير. فقد ذكر البرزلي (ت:844)، أنه كان من مشايخ الأشعرية، ونَسَب إليه بعضَ آراء الأشعري، التي أدخلها القيروان. وكذلك كلٌ مِن: أبي ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي (ت:357)، فقد رحل إلى المشرق والتقى بأئمة الأشعرية، وأخذ عنهم، ثم حل بالقيروان مدرسا بها مدة، قبل أن يستقر بفاس.

والإمام ابن أبي زيد القيرواني،(ت386)، فقد رحل إلى المشرق والتقى بأئمة الأشعرية، وأخذ عنهم، كما كان وثيق الصلة بتلميذ أبي الحسن الأشعري: أبي محمد بن أحمد بن مجاهد، (ت:370)، وكانت بينهما مراسلات وتبادل مؤلّفات.

وللإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت.403)، حامل لواء الأشعرية، أثر كبير في نشر مذهب الأشعري في المغرب، والسبب في ذلك أنه كان إلى جانب أشعريته في الأصول، مالكيا في الفروع، لذلك أقبل عليه طلبة العلم من المغرب يأخذون عنه المذهب المالكي والطريقة الأشعرية، في آن واحد. وممن أخذوا عنه من أهل المغرب مجموعة من العلماء، نذكر منهم: عبد الجليل بن أبي بكر الربعي، المعروف بالديباجي، وبابن الصابوني. وأبا عمران الفاسي (ت:430هـ)، فقد رحل إلى بغداد سنة 399هـ وتلقى أصول المذهب عن القاضي الباقلاني، الذي أعجب بذكائه وحفظه، ولما رجع إلى القيروان وجلس بها وظهر علمه قصده الناس، من كل جهة. كما أرسل الباقلاني إلى المغرب عالمين من أبرز تلاميذه، لنشر مذهب الأشعري وبثه، وهما: أبوطاهر البغدادي الناسك الواعظ، وكان متقنا لعلم الكلام. والحسين بن عبد الله بن حاتم الأزدي الذي دخل القيروان واستوطنها.

كما كان لأبي ذر الهروي (ت:434هـ) دور كبير في نشر الأشعرية في المغرب، بل هو الذي علم أهل المغرب هذا المذهب وبثه فيهم، فقد أقبل عليه طلبة العلم من المغرب لكونه كان يجمع بين الأشعرية في الأصول والمذهب المالكي في الفروع. قال ابن كثير: "والمغاربة إنما أخذوا الأشعرية عن أبي ذر الهروي". وممن أخذ عنه: الإمام أبو عمران الفاسي، خلال رحلته إلى المشرق، وبعد رجوعه قام بنشر المذهب في المغرب، وعلى يده تم ترويج كتب الهروي، وتناسخها بين المغاربة.

إن ما حفز المغاربة وإخوانهم من باقي بلدان إفريقيا على الاهتمام بالعقيدة الأشعرية هو ما وجدوا فيها من الحفاظ على لب العقيدة وجوهرها ورفض التشبيه وترسيخ الوسطية التي تنبني على المزاوجة بين النص والعقل والدعوة إلى التأويل المعتدل. بالإضافة إلى دورها الكبير في إشاعة روح التسامح والحوار والتضامن والتآخي، ونشر ثقافة الاعتراف بالحقوق وأداء الواجبات، وبناء قيم السلام والتعايش بين الثقافات والأديان، وتثبيت فضائل الإيثار ومحاسن الأخلاق، وترشيد السلوكيات وتصحيح التصورات، والانفتاح والاعتدال والسماحة والشمول والتوازن، ونبذ التطرف والعنف والتعصب، وتعزيز التربية على المواطنة وإعمال الحق في التنمية الإنسانية، ونشر القيم الأخلاقية السامية التي تدعو إلى تحقيق مجتمع تسوده رعاية حقوق الإنسان. وهذا يحتم تعميق الدراسات والأبحاث في الأدبيات الحقوقية العالمية من منظور عقدي، ومواصلة البحث في التأصيل الإسلامي لرعاية الحقوق، وأهمية المنهج العقدي في مجال تربية الفرد والمجتمع.

وبناء عليه فإن المغاربة وإخوانهم الأفارقة قد ألفوا في العقيدة الأشعرية بواسطة علمائهم الذين ذاع صيتهم واشتهروا في الآفاق في المغرب وباقي دول إفريقيا.

إننا في حاجة ماسة اليوم إلى إعادة الاعتبار إلى هذا التاريخ المغربي الإفريقي المشترك على مستويات العقيدة الأشعرية التي ضمنت للمغاربة وإخوانهم في إفريقيا إيمانا معتدلا راسخا بعيدا عن نزعات التطرف والإرهاب والتكفير الذي لا مبرر له.

والمذهب الأشعري– كما هو معروف– يمثل الوسطية والاعتدال في الإسلام، ويجمع ما بين الثبات والمرونة، ويدحض كل المكائد والأفكار المنحرفة التي تحاول تشويه الإسلام وتتهمه بالجمود.

ومن أبرز العلماء الذين يعتنقون هذا المذهب الإمام النووي شارح صحيح مسلم وصاحب رياض الصالحين، والإمام ابن حجر العسقلاني شارح صحيح البخاري في كتابه الكبير فتح الباري، ومن العلماء من أهل التفسير وعلوم القرآن كل من القرطبي وابن العربي والرازي وابن عطية والسيوطي والآلوسي والزرقاني، ومن أهل

الحديث وعلومه الحاكم والبيهقي والخطيب البغدادي وابن عساكر والخطابي وأبو نعيم الأصبهاني والعزبن عبد السلام والهيثمي وابن حجر.

وخلاصة القول: إن العقيدة الأشعرية هي العقيدة الرسمية في الغرب الإسلامي كله، وقد قال ابن عاشر ،منذ القرن العاشر، مبينا أسس منظومته المشهورة ، على ثوابت الأمة المغربية:

وبعد فالعون من الله المجيد فـي نظم أبيات للأمي تفيد.
في عقد الأشعري وفقه مالـك وفـي طريقة الجنيد السالك.

المحور الرابع: التصوف.

بدخول الإسلام أرض المغرب على يد الصحابة، واستقراره على يد المولى إدريس الأكبرثم بعده المولى إدريس الأزهر، كانت إفريقيا على موعد مع طلوع شمس الإسلام عليها من بوابة المغرب بعد أن أشرق على مصر والحبشة من بوابة المشرق. وإن كان امتداده عن طريق المغرب أوسع باعتبار الدول المتعاقبة على حكم المغرب وعلاقاتها بالدول الإفريقية من جهة، ثم لكون المغرب قطبا تجاريا ومحطة عبور للقوافل التجارية المتجهة من وإلى إفريقيا من جهة أخرى.

فكان تدين أهل القارة السمراء يحمل طابعا مغربيا تميز بالتوجه الصوفي الروحي المتماهي مع وحدة العقيدة الأشعرية والأخذ بمذهب الإمام مالك في الأحكام الشرعية الفقهية. حيث كان الطابع الأخلاقي يجسد التربية الصوفية لدى الأفارقة من جهة، والتبادل والتفاعل العميقين بين المغرب وإفريقيا من جهة أخرى.

ولقد تأثرت بلدان إفريقيا بتصوف أهل المغرب من خلال تلاميذ الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش والشيخ أبي الحسن الشاذلي، فأنشئت رباطات وزوايا كان لها أتباع كثر بكل من الجزائر وتونس على عهد الدولة الحفصية، وكذا ليبيا مع الدولة السنوسية، وصولا إلى السنغال ودولة ماسنا في مالي والدولة السوكتية في نيجيريا والتشاد والسودان وإثيوبيا وغيرها.

وكانت مظاهر التدين عندهم تمتح من الحقل الصوفي أخلاقا وسلوكا والتفافا حول الشيوخ المربين، كما كانت مناسباتهم وثقافاتهم تترجم مدى تأثرهم الروحي بالحقل الصوفي، كما التزموا في طرقهم وتربيتهم الصوفية بالأخذ عن الشيخ المربي المأذون، فانتمى أغلب المسلمين في الدول الإفريقية إلى الطريقة القادرية أو التيجانية أو المريدية، معتمدين في طرقهم تلك على الأذكار بأعداد وأوراد معلومة وكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وتحسين الجانب الأخلاقي لدى المريد، بتربيته على الزهد والكرم والتسامح.

إن الطرق الصوفية في إفريقيا ملأت ذلك الفراغ المهول الذي صنعته الخرافة على مدى قرون في عقول الناس، بشكل جعل الكثير منهم يمارس الطقوس الوثنية ويؤمن بتأثير قوى سحرية خارقة على الإنسان، فكانت الحركة الصوفية بمثابة الدواء والعلاج لتعليق هذا الإنسان بالإله الواحد وتعريفه بمصيره وربطه بقصده الأصلي الذي وجد لأجله كما كانت الطرق والزوايا الصوفية مراكز علمية تخرج منها علماء في شتى الدول الإفريقية وتركوا مؤلفات تشهد برسوخهم في علوم الشريعة والحقيقة معا، بالإضافة إلى كونها الحجر الأساس للدفاع عن عقيدة تلك الدول وحدودها ومقدساتها، فانطلقت منها الحركات الجهادية التي حاربت المحتلين والمستعمرين.

ومما تجدر الإشارة إليه هو توحد دول القارة الإفريقية روحيا كما توحدت على مستوى التمذهب العقدي والفقهي، فأغلب ساكنة دول إفريقيا هم صوفية وأغلبهم تيجانيون في مشربهم الصوفي، كما أن أغلبهم أيضا مالكيون فقها وأشعريون عقيدة، الشيء الذي يعطي مؤشرا قويا على عمق الروابط التاريخية والدينية بين تلك الدول بفضل تصوفهم السني والتزامهم السلوكي، كما يدل عليه رحلة شيوخ الطرق بين الأقطار ولقاءاتهم ببعض كما هو الحال عند شيوخ التيجانية.

لقد انتشرت الصوفية في إفريقيا بفضل جهود الشيوخ المربين، الذين نشروا الإسلام فقها وسلوكا وعقيدة، فهم من أدخل الإسلام إلى عامة تلك الدول، بل إنهم هم من واجه حملات التنصير التي مهدت للاستعمار وبقيت عقب خروجه، ففضل

الزوايا الصوفية على ترسيخ الإسلام وبقائه وامتداده في إفريقيا كبير، وتأثيرها ظاهر بشكل ملحوظ. ونظرا لتشبث الأفارقة بالإسلام. نجد طوائف منهم تأثروا واغتروا بتيارات ودعوات متشددة لبَّست عليهم بدعاوى عريضة نحو إقامة السنة ومحاربة البدع والشرك، وطوائف أخر استهجنت تلك الدعوات، وتمسكت بموروثها وانتمائها الروحي وهويتها الدينية التي صبغتها منذ قرون.

والتصوف الإسلامي– كما هو معلوم- مظهر من مظاهر الزهد الذي تطور في العصر الأول للإسلام وخاصة زمن الصحابة والتابعين، وقد ظهر التصوف الإسلامي في السنغال منذ عهد المرابطين الذين أدخلوا الإسلام في المنطقة بصفة رسمية في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان يغلب عليهم حياة الزهد والتقشف ومجاهدة النفس.

ومن أشهر الطرق الصوفية في السنغال: القادرية والتيجانية والشاذلية، ويكاد يجمع معظم السنيغاليين على ضرورة الانتساب إلى طريقة صوفية، ولا يتم إسلام المرء دون تعلق بشيخ صوفي يهديه ويرقيه وذلك اتباعا واعتقادا بالأثر الصوفي القائل "**من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه**".

وقد تم نشر هذه الطرق بواسطة الشيخ أحمد البكاي الكنتي الذي لقي الشيخ عبد الكريم المغيلي وأخذ عنه.

وانتشرت الطريقة التيجانية في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا منذ حياة المؤسس الشيخ أحمد التيجاني، الذي كان له الفضل في نشر هذه الطريقة.

ولا نستطيع أن ننكر جهود الشيخ عمر الفوتي تال التكروري (ت1864م). وقد أخذ الشيخ عمر الفوتي الطريقة التيجانية عن الشيخ مولود فال، وعن الشيخ عبد الكريم بفوتا جالون، وفي عام (1827م) ذهب الشيخ عمر إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج وقد لقي هناك الشيخ محمد الغالي وأعطاه من جديد الورد التيجاني بعد أن لازمه ثلاث سنوات وخدم له ثم جعله مقدما للطريقة التيجانية وخليفة

للشيخ أحمد التيجاني في البلاد السودانية. وللشيخ عمر مدونات وكتب في الطريقة التيجانية منها:

- كتاب (تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين).
- كتاب (ديوان سفينة السعادة لأهل الضعف والنجادة) وغيرها.

والتاريخ الإسلامي المجيد حافل بالرموز الروحية التي كانت وما تزال تعيش في ضمير الأمة المغربية، فهي مصدر إشعاعها الوجداني الروحي، ومثلها الأعلى في الالتزام بالشريعة الإسلامية السمحة.

والإمام الجنيد رحمة الله عليه واحد من أولئك الذين تركوا بصماتهم واضحة في الحقل الصوفي، بسيرته العطرة، وبمنهجه السلوكي التربوي الذي جمع فيه بين العلم والعمل به، ووُصف بسلوك طريق الرياضة ومجاهدة النفس من أجل بلوغ مرتبة الإحسان، والتحقّق بأعلى الكمالات الخلقية.

كان هذا التوجه الشرعي هو الذي جعل منهج الإمام الجنيد ينال القبول والاستحسان من الفقهاء والصوفية على السواء، فلم ينكروا عليه شيئا من مسلكه، بل اعتمدوه وساروا على دربه، لما يمتاز به من رسوخ وتمكين، واعتدال وصحو، وربط بين الحقيقة والشريعة، وهذا ما يفسر ذيوع طريقته الصوفية في المشرق والمغرب، فهي مبنية على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، متمسكة بالأصول الشرعية من توحيد كامل، وإيمان راسخ، ويقين ثابت، ساعية إلى تحقيق أعلى المراتب الخلقية الرفيعة، التي نادى بها ديننا الحنيف، فكانت من أسسه ومقوماته المحققة للمعرفة الإلهية، والقرب من الحضرة الربانية.

المحور الخامس: جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية.

قد كان للممالك والعواصم والمراكز العلمية، التي ذاع صيتها في غرب إفريقيا مثل: تمبكتو وجنى وأغاديس وكنو وكتشنا الفضل العظيم، في نشر الثقافة العربية والإسلامية، وازدهرت الثقافة العربية والإسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد.

تلك الفترة التي اشتهرت بكثرة علمائها ومؤلفاتهم العلمية، والتي أسهمت بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا وخارجها، وقد حفلت مدينة تمبكتو– العاصمة الثقافية لإمبراطورية سنغي– بالعديد من مشاهير العلماء الذين ألفوا في شتى العلوم الدينية واللغوية والتاريخية.

ومن أشهر علمائها؛ الشيخ أحمد بابا التمبكتي. لم يحظ عالم في تمبكتو بمثل سعة علمه وشهرته، وكان عالماً موسوعياً، مؤرخاً، عالماً بالشريعة، ومن المتبحرين في اللغة العربية وآدابها، يذكر مترجموه أنه ألّف ما يزيد على أربعين كتاباً. وقد درس في دولة سنغي وخارجها، وذلك في مدينة مراكش المغربية لما نُفي إليها، وحضر دروسه مئات من طلاب العلم في مراكش وخارجها.

ومن أشهر مؤلّفاته: (كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، وهو كتاب ذيَّل به كتاب ابن فرحون المالكي (الديباج في معرفة أعيان علماء المذهب)، وله شرح على (مختصر خليل)، و(كفاية المحتاج)، و(معراج الصعود) وغيرها من الكتب.

ومن العلماء الذين أسهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي في عهد إمبراطورية سنغي؛ المؤرخ المشهور الشيخ محمود بن كعت الكرمني صاحب كتاب (تاريخ الفتاش).

ومنهم الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمني الأغدسي، وهو فقيه نبيه زكي الفهم، حاد الذهن، وقّاد الخاطر، مشتغل بالعلم، وله كتاب: (الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمود).

ومن العلماء الأفارقة الذين لهم إسهامات في الثقافة العربية الإسلامية؛ الشيخ أحمد فورتو البرنوي، وله كتاب في التاريخ.

وفي هذا المجال أيضاً: الشيخ محمد بلو بن عثمان بن فوديو، وله مؤلّفات عدة، ومن أشهرها (إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور).

ومن علماء مالي: الشيخ أحمد حمد لبو الماسني، وكان له جهود في نشر المدارس القرآنية في مالي.

ومنهم: الشيخ عبد القادر كن (1728م– 1810م) مؤسس الدولة الإمامية في حوض السنغال، وكان للشيخ عبد القادر كن دور كبير في إنعاش الثقافة الإسلامية ونشرها في السنغال.

ومنهم: الشيخ محمود بن عمر باه مؤسس المدارس النظامية في غرب إفريقيا، وبخاصة مدارس الفلاح، وقد افتتح حوالي 77 مدرسة عربية في غرب إفريقيا.

خاتمة

في إطلالة سريعة على الثوابت الأربعة التي تجمع شعوب إفريقيا بدولة المغرب، نرى بكل وضوح أنها عامل وحدة بين بعضها البعض، وهي ثوابت بالغة الأهمية في باب حراسة الدين.

ومن ثمار عناية أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس- أيّده الله بنصره - بالبلدان الإفريقية، وهي كثيرة، هذه المؤسسةُ العلمية الإفريقية التي تحمل اسم مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، التي مقرها بفاس منارِ العلمِ والإيمان، وهي تجمع في بداياتها صفوة من عالمات القارة وعلمائها، لِتَبادُلِ الرأي، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والنقاش فيما يهم قارتنا وعلماءَ ديننا وشريعتنا، وما يُمَكِّنُهم من أن يُسهموا به في تحقيق الأمن المعنوي لقارتهم، والحفاظ على تراثها الإفريقي الإسلامي، ومع بروز ثمرات عمل هذه المؤسسة، إن شاء الله، سيرى الجميع الآثار الحميدة لهذا العمل النبيل من أجل صيانة الثوابت الدينية للمسلمين في إفريقية ومن ثمة الإسهام في الأمن الروحي والأمن العام لهذه البلدان وأمن العالم أجمع.

والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المصادروالمراجع

- أحكام القرآن المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ).
- إرشاد السالك إلى أفعال المناسك المؤلف: برهان الدين إبراهيم بن فرحون المدني المالكي (المتوفى: 799هـ/1397م).
- بحر العلوم المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: 373هـ).
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد المؤلف: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (المتوفى: 595هـ).
- البرهان في علوم القرآن المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ).
- التصوف السني: حال الفناء بين الجنيد والغزالي. الكاتب: مجدي محمد إبراهيم. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية.
- تفسير الماوردي= النكت والعيون المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ).
- الجامع من المقدمات، للإمام القاضي الفقيه النظار الأصولي المتكلم أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد الأندلسي (ت595هـ).
- جهود علماء السنغال في خدمة المذهب الأشعري من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين الميلادي، تأليف د. محمد بشرى عيسى جيي.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي.
- الفتح الرباني والفيض الرحماني اسم المؤلف: عبد القادر الجيلاني.
- الكافي في فقه أهل المدينة المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: 463هـ).

- كتاب التصوف في المغرب العربي وأفريقيا، د: محمد المختار جيي.
- لوامع الدرر في هتك أستار المختصر [شرح «مختصر خليل» للشيخ خليل بن إسحاق الجندي المالكي (ت: 776 هـ)].
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ).
- مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار المؤلف حجة الإسلام الإمام/ محمد أبو حامد الغزالي (ت:505هـ).
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ).
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ).

أبعاد إمارة المؤمنين في السياق الإفريقي

د. إبراهيم أحمد مقري
جامعة بايرو كنو- نيجيريا.

الحمد لله ربّ العالمين حمدًا جامعا لسائر وجوه المحامد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد،

فإن وحدة المسلمين التي حثّ عليها الكتاب والسنة لا تتأتى بدون قيادة رشيدة؛ فالحياة بدون قيادة فوضى، والسيادة لا تستقيم بدون نظام حكيم، وقد نصّت الشريعة على وجوب الإمامة واشترطت لها شروطا، واتفق الأئمة من أهل السنة والجماعة على وجوب نصب الإمام، وأنه يجب على الأمة الانقياد له، يُقيم فيهم شرع الله سبحانه وتعالى، ويسوس حياتهم وفق تعاليم الشريعة السمحة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يمكن اجتماع الأمة تحت كلمةٍ واحدةٍ. وقد دلَّت الأدلة على وجوب البيعة للإمام، والتحذير من الخروج عليه، ففي حديث ابن عمر عند مسلم إن «من مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتةً جاهليةً[1]» .

وللإمام صفاتٌ ومؤهِّلات صرّح بها الأئمة من العدالة والعقل والحُرّيّة وغير ذلك، ولكن أخصها بالتمييز هو النسب القرشي الذي يفتقده الكثير من مُدّعي الخلافة النبوية، وهو أمرٌ قد أثبتته شواهدُ السُّنّة الصحيحة، يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتَّفقِ عليه «لا يزالُ هذا الأمرُ في قريشٍ ما بقي منهم اثنان[2]» وقد ذهب أهل السنة قاطبةً إلى العمل بهذا الحديث واشتراط النسب القرشي في الإمام، كما قال الإمام مالك رحمه الله: «ولا يكون –أي الإمام- إلا قرشيا، وغيره لا حكم له إلا أن يدعو إلى الإمام[3]» .

1 - صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، ح: 1851 ج: 3 ص: 1478.

2 - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش، ج: 13 ص: 114 فتح الباري، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخلافة في قريش، ح: 1820 (3/1452).

3 - أحكام القرآن، لابن العربي المالكي/ ج: 4 ص: 1721.

وإن عناية المغرب بإفريقيا لتتجذر بعيدا لتعود إلى ما قبل ظهور الإسلام، فجاء الإسلام ونشّطها وأعطى لها معنى رُوحيًّا ساميًا، فلم تعد العلاقة مبنية على الأسس الجغرافية، وإنما على ثوابت دينية وثقافية مشتركة، تتمثّل في التبادل والتفاعل الإيجابي أخذًا وعطاءً، وما أن اكتَشفت إفريقيا عبقريةَ المغرب في ريادة العلوم والثقافة والدين حتى بايعت له وأسلمت الكثير من دويلاتها وممالكها أمر دينها ودنياها لإمارة المؤمنين، وأخذت إفريقيا علومَ الإسلام ومنهجَ التعليم عن المغرب، وامتزج الشعبان ليتمخض عن ذلك وجود حضارة مغربية إفريقية متميزة بالأشعرية عقيدةً، والمالكية مذهبًا، والتصوف سلوكا، وهلم جرا.

وكانت إمارة المؤمنين منذ تأسست بالمغرب تُربّي هذه العلاقة وتُنمّيها بكل السبل، فتراها حينا تعزّز أواصر العلاقة الروحية التي تربط المغرب بالدول الإفريقية عن طريق توسعة المشاريع الدعوية ونشر التصوف السني في أنحاء القارة، كما تُولي العلومَ والثقافةَ أهميةً كبرى في تنمية الشعب الإفريقي باستقبال البعثات المتلاحقة للعلماء المغاربة للتعليم، وتمتدّ يدُ إمارةِ المؤمنين الحانية -لواجب الخلافة الشرعية التي أنيط بها سلالة بيت النبوة للذود عن حمى الإسلام. وهذا يجعلنا نجد عبارة المغفور له الملك الحسن الثاني في الصميم عندما يقول بأن المغرب «يُشبه شجرةً تمتدُّ جذورها المغذية امتدادا عميقا في التراب الإفريقي، وتتنفّس بفضل أوراقها التي يُقوّيها النسيمُ الأوربي[1]» .

وسوف أتناول هذا موضوع من خلال ثلاثة محاور:

الأول: الأبعاد التحكيمية والمرجعية لإمارة المؤمنين: ويتعرض لما تمثله إمارة المؤمنين من مرجعية للمسلمين في إفريقيا، ودفاعها عنهم، وعن مصالحهم الدينية، وكذلك يتعرض لدورها التحكيمي عبر التاريخ.

الثاني: الأبعاد الروحية لإمارة المؤمنين في السياق الإفريقي: ويتطرق إلى الروابط

1- محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه الدول الإفريقية وجتوب الصحراء، مقالة منشورة بمجلة سياسات عربية، للكاتب يحي بولحية، العدد 10 أيلول/سبتمبر، 2014م، ص: 73)

الروحية من خلال مدارس التصوف والخطط الدينية كالخطب والدعاء لأمراء المؤمنين عبر التاريخ الإفريقي.

الثالث: الأبعاد العلمية لإمارة المؤمنين في السياق الإفريقي: ويتطرق لعناية إمارة المؤمنين عبر التاريخ بالعلم والعلماء الأفارقة.

أولا: الأبعاد المرجعية والتحكيمية:

إن إمارة المؤمنين مسؤوليّةٌ شرعيةٌ ووراثةٌ نبوية جعلها الله في القرشيّين الفضلاء الأخيار، وقد نهضت بهذا الواجب الشرعي الدولة العلوية الشريفة بعد أن رأت تمزُّق الأمة وشتاتها شذر مذر، ولم يبق لها سوى إمارة المؤمنين المغربية تقف شامخة في وجه أعداء الدين، مع ما تمتاز به عن غيرها بالنسب الهاشمي الشريف، ما يضفي عليها شرعية وامتيازا على غيرها ممن يدعي ما تكذبه عليه شواهد السنة الصحيحة، هذا كله إلى جانب السياسة الرشيدة التي تقود بها العباد والبلاد.

وبصفتهم أمراء للمومنين يرى الملوكُ العلويون الدفاعَ عن ديار الإسلام وحفظ مقدَّرات المسلمين وأراضيهم واجبًا شرعيًّا، كما كانوا يرون ضرورة حمل المسلمين على الوحدة والاجتماع تحت لواءٍ واحدٍ مرة باللين ومرة بالشدة في مراقبة تامة للضوابط الشرعية في كلتا الحالتين، وكانوا كذلك يرون ضرورة النظر في مصالحهم الدينية والدنيوية، ويُعبِّر عن ذلك صاحبُ الجلالة المغفورُ له الملك الحسن الثاني طيّب الله ثراه بقوله: «وهذه البيعة تُلزمني وتلزمك، وتضع على كاهلك وعلى كاهلي أعباء وواجباتٍ لم يكتف القدرُ بأن نقول بها، ونصيح بها، بل أرادت ألطاف الله ونعمه التي لا تُعدّ ولا تُحصى علينا ولله الحمد على أن يبوح العالمُ كله، وأن تعترف بها الدوائرُ السياسية العالمية».[1]

وقد أسرعت الشعوبُ منذ فجر تاريخ التعانق المغربي الإفريقي إلى مبايعة إمارة

1 - البيعة وأثرها في الاستقرار وربط أواصر المحبة وتجديد العهد بين شمال المغرب وجنوبه، للأستاذ محمد كنون الحسني، مقالة منشورة بمجلة دعوة الحق، العدد 397 شعبان 1431هـ، يوليو 2010

المؤمنين المغربية والانضواء تحت لوائها، بيعةً تخوّل لها «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها[1].

ومن أقدم تلك البيعات بيعة الإمبراطور إدريس الثالث ملك مملكة كانم برنو 1582م، وقد كُتِبَتِ البيعةُ بفاس ونُقِلت إلى انجمينا (عاصمة كانم برنو وقتذاك) وأَشْهدَ الإمبراطورُ على نفسه وعلى أتباعه بمنطوقها وتبعاتها، وجاء في نص البيعة الطويل: «تدارك الله سبحانه الوُجودَ، وأعزَّ العالمَ الموجودَ، واستطارت الأنوارُ المضيئةُ للأغوارِ والنُّجود، بطلوع شمس الخلافة النبوية والإمارة الهاشمية العلوية، ففاضت على البسيطة أنوارها، وارتفع إلى السما والفرقدين منارُها... مولانا أميرَ المؤمنين وخليفةَ الله في الأرضين، وسليلَ خاتم النبيّين، ووارثَ الأنبياء والمرسلين، المفترضةُ طاعتُه على جميع العالمين... أمير المؤمنين المنصور بالله أبو العباس.... فإنه إمام الجماعة حقا، المستوفي شروطها، والوارث للخلافة النبوية، والحريص على بيضة الإسلام أن يحوطها...»[2]

وجرت مراسلات كثيرة بين أمراء المغرب وزعماء مملكة كِبِّي الواقعة حاليا في شمال نيجيريا والملوك العلويين التي تُفيد بالبيعة لهم بيعة شرعية، خلافة عن جدهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومن صحراء شنقيط، وبين خناذيذها الكبار يأتي أحمد المصطفى الودّاني التشيتي، المعروف بابن طوبر(ت1266هـ1850-م)، يمدُّ يدَ البيعة للسلطان مولاي عبد الرحمن في القصر السلطاني بمراكش، وقال «يا سيدي، أخبرني شيخي قدس الله روحه، أنه في الحديث {من مات ولم يدخل تحت بيعة سلطانٍ مات ميتةً جاهلية}، والآن امدد يَدَك أبايعك على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.[3]

1 - المقدمة للعلامة عبد الرحمن ابن خلدون، ص: 190 الطبعة الرابعة 1398هـ، دار البازللنشروالتوزيع، مكة المكرمة.

2 - انظر نص البيعة كاملة في مناهل الصفا لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي، من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص: 69.

3 - البيعة وأثرها في الاستقرار، مرجع سابق.

ثم تتوافد بعد ذلك رسائل البيعة من كل نواحي شنقيط وخارجها، وفي السياق يقدِّم إمامُ تندوف الشيخُ محمد بن المختاربن اللَّعْمَش الجكني (ت1285هـ1869-) للسلطان محمد الرابع، وقد خاطبه فيها بقوله: «وقد بايعناك على السمع والطاعة، ولزوم السنة والجماعة، والتمسك بالدعوة ببقائها إلى قيام الساعة، في الرضى والسخط، والمكره والمنشط، والعسر واليسر، والقل والكثر، والشدة والرخاء، والسرّاء والضرَاء، على ما بويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون... وهات يدك يُقبِّلها قرطاسي نائبا عني وعن ناسي» .[1]

وما فتئت هذه الممالك التابعة لإمارة المؤمنين تدعو لأمراء المؤمنين فوق منابرهم وفي خلواتهم وفي سائر أعمالهم الدينية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مملكة سونغاي.

وخضوعا لواجب الخلافة النبوية في حفظ الرَّعيَّة والسعي في مصالحهم، ظلَّت إمارةُ المؤمنين تحوط إفريقيا المسلمة بعنايتها الكاملة من النواحي الدينية والدنيوية، عن طريق نشر العلم والثقافة وتعزيز الروابط الروحية، كما سيتضح في المحاور القادمة، وكان أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله يشير في مناسبات عديدة إلى متانة العلاقات المغربية الإفريقية، ويقول: «أما علاقتنا مع عمقنا الإفريقي الذي يشكل مجالا لفرص واعدة، فإننا حريصون على نهج مقاربة متجددة، قائمة على التضامن، ومبنية على تعزيز الأمن والاستقرار، خاصة في منطقة الساحل والصحراء، فضلا عن خلق شروط التنمية البشرية، تسهم بالنهوض بالإنسان الإفريقي طبقا لأهداف الألفية للتنمية».[2]

وعندما دبَّ النزاع والشقاق بين صفوف المسلمين بغرب إفريقيا، وعجزت الأسلحة عن كبح جماحها «عالج المغربُ المسألة داخليا بأدوات دينية من قبيل ترسيخ قيم الإسلام، ودعم التيارات الصوفية المحافظة، والتعايش مع المكوِّنات الإسلامية التي تعترف بإمارة المؤمنين ومستلزماتها السياسية والدستورية» [3]وهذا

1 - المرجع السابق.

2 - مقتطف من خطاب جلالة الملك بمناسبة الذكرى الثانية لعيد العرش، طنجة 30/7/2001م.

3 - محددات السياسة الخارجية، ص: 82.

من جماليات السياسة الرشيدة لإمارة المؤمنين التي تقطع دابر الفساد عن طريق العلم والتربية، وبيان ذلك هو الحديث القادم.

ثانيا: الأبعاد الروحية لإمارة المؤمنين في السياق الإفريقي:

إن الإسلام قد دخل إفريقيا صوفيًّا من أوَّل يومٍ بفضل الحركة المرابطية التي كان نظامُ الدولة عندها يقوم على أُسس روحية وإيمانية، ومن ثَمّ فإن العناية بالتصوف يعتبر عناية بهوية إفريقيا الروحية والثقافية، حيث «لم يخل مصدرٌ سودانيٌّ من تراجم وأحداث تُظْهِرُ طبقةً من الناس بمظهر التبتُّل والتقشُّف والزُّهد، كما أنّ الحديث عن الربط والزوايا يتجلى في تلك المصادر بشكل لا يحمل على الشك بأن الحركة الصوفية في السودان سارت بنفس القوة التي عرفها المغرب»[1] والمغرب العربي يبني علاقاته دائما على مرتكزات روحية وثقافية، ويرى محقا بأن «أيّ مبادرة دولية يتمُّ التنسيق بشأنها دون إيلاء البُعد الثقافي والعقائدي الأهمية التي يستحقها، سيكون مصيره الفشل».[2]

وإن المغرب دولةٌ أقيمت أركانُها على قواعد التصوف، وشُيِّد بنيانُها بلبنات الأخلاق والتزكية الروحية، فقد عُرف يوسفُ بن تاشفين بأخلاقه الكريمة وزهده وعزوفه عن الدنيا، ولم يكن يلبس من الثياب سوى الصوف، وفي دولة الموحِّدين أظهر يعقوبُ المنصور زُهدًا وتقشُّفًا فائقين، واستدعى إلى بلاده جماعةً من الصوفية الأخيار، وكان لا يخرج إلى الجهاد إلا معهم، ولعظيم عنايته بالتصوف زَعَمَ ابنُ بطوطة وابن خَلِّكان أنه ترهْبَنَ وانخلع من الملك. وعلى إثر سلفها سعت الدولة المرينية في الاعتناء بالتصوف والصوفية، من أمثال الأمير أبي محمد عبد الحق، والأمير أبي يوسف الذي بنى الزوايا في الفلوات وأوقف عليها الأوقاف لخدمة عابري السبيل، وقُل مثل ذلك عن أبي الحسن المريني والسلطان عبد الله الغالب، وهكذا.. وهكذا.. ذيول الكثرة.[3]

1 - بداية الحكم المغربي للسودان الغربي، د. محمد الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الصفا- الكويت ص: 559.

2 - من نص الخطاب الذي ألقاه الملك محمد السادس في حفل تنصيب رئيس مالي الجديد في باماكو 19/9/2013م.

3- انظر معطيات الحضارة المغربية، عبد العزيز بن عبد الله، الطبعة الثالثة، دار الكتب العربية، ج: 1، ص: 164-162

وقد قامت زوايا لبعض الطرق الصوفية بعضها مشرقية المنشأ مثل القادرية والرِّفاعية، لكنها انحدرت جميعا إلى إفريقيا عبر المداخل المغربية بعد أن اصطبغت بالصبغة المغربية، ثم انتشرت في إفريقيا، فالطريقة القادرية مثلا انتشرت بفضل الشيوخ الكنتيين «الذين أقامت أسرتهم فترةً بمنطقة توات ثم تعمقوا في قلب الصحراء ومناطق السودان الغربي». ويرى البعض بأن الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي هو أول من أدخل الطريقة القادرية في غرب إفريقيا، فالمجاهِدُ الكبيرُ عثمانُ بن فودي مؤسِّسُ الدولة الإسلامية الفودية، تتصل سلسلةُ إسناده في الطريقة القادرية بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

لكن التطور الحقيقي للعلاقة الروحية بين المغرب وإفريقيا إنما بدأ مع قيام الزاوية التجانية في فاس على يد مؤسِّسها مولانا أبي العباس الشيخ أحمد بن محمد التجاني، الذي بذل المولى سليمان كلَّ تالدٍ وطريفٍ لتيسير واجب الدعوة له في ربوع القارة، حتى عمّ طريقُه جنوبَ الصحراء، وظلَّ أتباعُ هذه الطريقة محتفظين بالولاء الكامل لهذه الدولة العلوية السنية، وصارت زواياها امتدادات روحيّة لهذه الدولة، فلا تسأل عن الولاء والحب وخالص الدعوات في الخلوات الجلوات في جميع أوقات العبادة والأذكار.

ولا زال التجانيّون يُؤدون واجب هذا الولاء الروحي للدولة العلوية الكريمة، ومن أنصع صور هذا الوفاء التجاني أن الشيخ إبراهيم انياس الكولخي التجاني كان من بين القلة الذين بادروا بزيارة المغفور له الملك محمد الخامس في منفاه بمدغشقر عندما نفاه المحتل. [1]ولم لا والولاء التجاني لن يكتمل شكلا ومضمونا بدون العهد العلوي الشريف، حيث كان المغفور له المولى سليمان هو الذي آوى سيِّدَنا الشيخ أحمد التجاني وعزّره ونصره حتى انتشر النور الذي كان معه، وقد أكَّد لهذه البيعة والولاء جماعةٌ من الشيوخ والمقدَّمين التجانيّين في الجمع الأخير للمنتسبين إلى الطريقة التجانية الذي انعقد بفاس عام 2007م حيث أشادوا بالدور الذي تقوم

1 - السيد أحمد التوفيق، وزير الأوقاف المغربية في خطاب ألقاه في الدورة الثالثة والأربعين لأكاديمية المملكة المغربية يوم 10 ديسمبر 2015م.

به إمارةُ المؤمنين بالمغرب في تمتين الروابط الروحية بين المغرب وإفريقيا، وجدّدوا بيعتهم لإمارة المؤمنين وأقرّوا باتخاذهم مدينة فاس العاصمة الروحية والثقافية لهم أينما كانوا.[1]

وقد أسَّس الحاجُ عمر الفوتي حركةً تجانيةً إصلاحيةً تقوم على العلم والتربية والإصلاح، وخلفه ابنه إبراهيم الذي درس بمراكش واشتغل بالعلم فيها كمُدرِّس، واتخذ بيته منتدًى للوزراء والعلماء، وكان يذهب مذهب المتصوفة على طريقة ابن عربي الحاتمي، ويُعَدُّ في المغرب من أعلام الطريقة التجانية.

وعلى كل، فإن إفريقيا وصحراءها قد وجدتا في الثنائية السنية أي الدولة العلوية والطريقة التجانية خيرمزيج لنشرالفكرالإسلامي ومعالم السنة المحمدية فاكتسب المغرب بذلك عن حق صيتا جعل من الملوك العلويين رُوَّادَ الوحدة الإسلامية من المتوسط إلى النيجر.

ومن ناحية أخرى نرى الأمراء الغانيين وقد «اعتنقوا الإسلام وانضووا تحت الإمارة المرابطية مع أتباعهم من السراكولي والوانغارا والديولا والماندیغا، وأصبحوا يقومون نيابة عن المرابطين بحملات لنشر الدين الإسلامي بين القبائل الوثنية من البهل والموسى»[2]ولا يخفاك أن نشر الإسلام عند المرابطين وسائر أصحاب السلطة المغربية ينبني على الترغيب لا الترهيب، وفي الغالب على البيان لا على السنان.

وليس يخفاك ما تقوم به إمارة المؤمنين تحت حكم العلويين الأشراف من بناء الجوامع والمساجد في بعض عواصم غرب إفريقيا، كما فعلت في نواكشوط، وداكار وباماكو، وسعيها الحثيث لترسيخ قيم المذهب المالكي، والعقيدة السنية السنية اللذين تشرّبا بروح المغرب الصوفية، في البلدان الإفريقية كما سيأتي تفصيله في المحور القادم.

1 - وكالة المغرب العربي للأنباء تحت عنوان «التجانية لعبت دورا متميزا في تمتين الروابط الروحية الخاصة بين المغرب وإفريقيا عام 2007م.

2- بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص: 40

ثالثا: الأبعاد العلمية لإمارة المؤمنين في السياق الإفريقي:

إن الأسرة العلوية الشريفة مشهورةٌ باهتمامها البالغ بنشر العلم وتكريم العلماء، مما جعلها قبلة المسلمين العلمية طلابا وعلماء، فلجأ إليها الكثير من العلماء الشوام والمصريين والحجازيين حين أثخنت بلادهم الحروبُ المتتالية من التتار والصليب وغيرهما.

وكأن القدريُهيِّئها للريادة العلمية والثقافية فقامت السيدة فاطمة أم البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري ببناء أقدم جامعة على وجه الأرض وهي جامعة القرويين عام 245هـ، الجامعة التي غدت مدينةُ فاس بفضلها مصدرَ إلهام إفريقيا، ومصنعَ قادتها الكبار، حتى قال عنها باديا لابليش المعروف بعلي باي العباسي: «إن مدينة فاس هي في إفريقيا أشبه بأثينا (عاصمة الفكر) في أوربا» ،[1]وقد رحل إليها المشارقة قبل المغاربة، فلا تسأل إذن عن قائمة أسماء القادة الأفارقة الذين نهلوا من معينها وكرعوا من غدرانها الفائضة ليعودوا إلى بلدانهم شعلة نور تضيء الآفاق، فتلك قائمة تمتد مدّ البصر.

وقد تجاوزت العلاقة المغربية الإفريقية في المجال العلمي مجرد الأخذ إلى التثاقف التام بكلِّ ما تحمله الكلمة من أبعاد تفاعل عناصر وجود الإنسان، ويتجلى تأثير المغرب القوي على إفريقيا في هذا المجال من خلال المذهب المالكي الذي انتشر في غرب إفريقيا ولا يزال يتمتع بوجوده القوي متحديا جميع الأعاصير التي تحاول زعزعته عن مراسه، وقد أورد المرحوم الأستاذ إبراهيم الكتاني في مقدمة تحقيق فتح الشكور للولاتي قائمة طويلة بأسماء الكتب المغربية التي يتخرج عليها طلاب العلم في السودان الغربي جميعه.

وأما المنهج المتَّبع في التعليم فقد رسمه العلماءُ المغاربة، ولا تزال جميعُ المعاهد العلمية العتيقة تتبناه «منذ الدخول إلى الكُتّاب والبدء في حفظ القرآن على رواية ورش إلى تعلم الكتابة بالخط المغربي المعروف المتميزبشكله ورسمه ونقطه وترتيب

1- انظر معطيات الحضارة المغربية ص: 121-119

حروفه، ثم يستقل الطالب لحفظ المتون العلمية الفقهية واللغوية والأدبية، وهذا التأثير أحيانا ما يكون مباشرا عن طريق الاحتكاك الفعلي بالعلماء المغاربة الذين لم ينقطع ورودهم على هذه الأقطار للإفادة، وقد يكون أحيانا غير مباشر عن طريق الكتب والمؤلفات المغربية التي انتشرت واشتهرت في إفريقيا وأصبحت المصادر المعتمدة والمعوَّل عليها».

وعن ممالك جنوب الساحل وجميع الوافدين الأفارقة إلى المغرب، يقول الشاعرُ الكانمي الكبيرُ إبراهيمُ بن يعقوب (ت 609هـ) أقدمُ الوافدين الأفارقة بالإطلاق ورودا على المعاهد المغربية فيما يحفظ التاريخ، يؤشر بالولاء الذي تكنه إفريقيا للمغرب، قال:

أزالَ حجـابه عـنِّي فعـيني ... تـراه من المهـابة في حجـاب

وقـرَّبني تفضُّلـه.. ولكـن ... بعُدتُ مهـابةً عند اقـترابي

وكان من جملة الزعماء الأفارقة الذين تلقّوا علومهم في المغرب الشيخُ محمد الأمين الكانمي الذي أقام في فاس سنتين وزار طرابلس والقيروان وتلسمان وبعد عودته إلى برنو قام بأدوار جليلة في نشر العلم، وقُلِّد منصبَ إمارة مملكة كانم برنو، واشتهر بعلمه وعدله وورعه وسفاراته إلى البلاد العربية ومساجلاته مع زعماء الممالك الإسلامية المتاخمة والبعيدة.

وإن المشاريع الدعوية والتنموية في إفريقيا لم تجد قطُّ يدًا أحنى ولا أدنى من إمارة المؤمنين تمهد لها الطريق وتسهل لها أعباء الدعوة التي ينوء بحملها أولو القوة، فأسّست الإمارةُ رابطةَ علماء المغرب والسنغال لينطوي بذلك البُعدُ الجغرافي ويتلاقح بذلك الشعبان ثقافة وفكرا وسلوكا.

وإن اهتمام إمارة المؤمنين بمشروع التنمية الإفريقية هو الذي حَرَّض وحثَّ العلماءَ المغاربةَ ويسَّر لهم سبل الرحلة إلى بلدان إفريقيا ليدخلوا فيها وينشروا العلم والثقافة والطريق، وفي هذا السياق أورد الدكتور محمد الغربي في كتابه قائمةً بعشرات الأسماء من العلماء المغاربة الذين دخلوا إفريقيا لغرض نشر العلم،

جاء فيها الأستاذ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وأبو القاسم التواتي، والشيخ محمد القوري من تلاميذ الشيخ أحمد زرُّوق الذي هاجرت عائلتُه إلى المغرب، وذاع صيتُه في العلم، وانتقل إلى إفريقيا ونشر العلم والتربية الصوفية، ومنهم القاضي عبد الله بن أحمد الزموني المؤرخ الكبير، وشارح كتاب الشفا، وقد تتلمذ على يديه قاضي تمبكتو وعدد كبير من علماء مالي، وأما عبد الرحمن القصري فقد أوغل في إفريقيا حتى دخل أرض كنو وكشنة النيجيريين وغيرهما، «وحدَّث بمحضر ملوكهم وأَجْلَوْه للتحدُّث على الفُرش الرفيعة ووصلوه الصلات الجزيلة من جَوارٍ وغيرها حتى وُلِد له من أهلها، وبعد جولته في بلاد الهوسا عاد إلى فاس وتقلّد منصب الإفتاء إلى أن توفي بها سنة 956هـ[1].

وعموما فإن فضل إمارة المؤمنين على إفريقيا مما لا يحتاج إلى أن يساق بين سلاسل الشواهد وأغلال الأدلة، فلولاها لما «توارد على بلاد السودان عشرات العلماء من المغرب، واستقبلت جامعة القرويين الآلاف أيضا ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفا من كتبٍ في مختلف الفنون» .[2]

وإذا كانت تمبكتو عاصمة الثقافة للمدن الإفريقية، فإن وراء ذيوع صيتها مركزان كانت شهرتهما لا تقل عن شهرة جامعتي القرويين والزيتونة في فاس وتونس، وهما جامعتا سنكري أو سنكوري وسيدي يحيى في تمبكتو. فالمركز الأول من حصيلة العلماء المغاربة الذين وفدوا إلى الديار الإفريقية لغرض الإفادة ودرسوا فيها كما سبقت الإشارة إليه، وأما المركز الآخر فهو لسيدي يحيى، وهو عالمٌ مغربي من سوس، بنى المسجد وأنشأ فيه حلقاتٍ علمية يقصدها الكثير من الطلبة والعلماء، وعندما توفي دفن بجوار المسجد.

وقد اعتمد العلامة الشيخ عثمان بن فودي على مؤلَّفات الإمام المغيلي في تنظيم شؤون إمارته إداريا وسياسيا وتدبير شؤون الحكم والجهاد، وقبل ذلك في التنظير للأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة الفودية، لدرجة أن بعض الدارسين يرون

1 - انظر كتاب بداية الحكم المغربي للسودان الغربي ص: 518-514

2 - بداية الحكم المغربي للسودان الغربي ص: 514

بأن الشيخ عثمان لم يتأثر بشخصية واحدة تأثره بالمغيلي، وهذا جليٌّ في كل ما ألّف وخلّف، وقد تتبع أحدُ الباحثين المغاربة مصادرَ الشيخ عثمان بن فودي من مؤلَّفاته التي تربو على مائة فوجدها جميعا مصادر مغربية إلا في النزر اليسير.

وإذا كان مُؤَلَّف واحد يُستأثر دون غيره بتوجيه الحركة الفودية الإصلاحية فلا شكَّ أن ذلك الكتاب هو المدخل لابن الحاج العبدري الفاسي، الكتاب الاجتماعي التربوي الذي وصف فيه صاحبه كثيرا من أوضاع المجتمع الإسلامي، وما كان عليه أهل زمانه من البدع والانحرافات، واهتم فيه بمعالجة سلوك المسلم في حياته اليومية. حتى لقد بلغ اهتمام الشيخ عثمان بن فودي بالمدخل إلى اختصاره في كتاب سماه «لباب المدخل» ثم الحذو على منواله بكتاب آخر سماه «إحياء السنة وإخماد البدعة».

وتمتد يدُ العناية المغربية بعد عهود وعهود ليؤسس الملك الحسن الثاني «معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس حتى لا يبقى التراث الإفريقي خاملا بين رفوف المكتبات، ولكن يُدرَس وتعاد قراءته وتنزيله، ثم يأتي صاحب الجلالة أمير المؤمنين الملك محمد السادس حفظه الله بمبادرة غير مسبوقة في نوعها لمكافحة التشدد والإرهاب بين صفوف المسلمين في إفريقيا فيؤسس معهد الملك محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدات.

وليس يخفى على ذي بصر مدى عناية إمارة المؤمنين في الوقت الراهن بتكوين العلماء في البلدان الإفريقية، حيث كانت تستقبل كل عام «منذ أزيد من نصف قرن آلاف الشباب من البلدان الإفريقية للتكوين في مختلف التخصصات العلمية والتقنية، ولم يكن أحد قبل أزمة الهوية الدينية القائمة اليوم، وتهديد الإرهاب، يفكر في التكوين في مجال الإمامة.[1]

1- أحمد التوفيق، في الخطاب المذكور سابقا

خاتمة:

لقد اتضح فيما سبق أن الثوابت الدينية من آكد المقاصد الضرورية الواجبة حفظها إقامة واستدامة بإجماع علماء الشريعة الغراء، وكانت الإمامة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيقها والتمكن من حراسة الدين ورعاية مصالح المسلمين، كما ظهرت جليا المكانة المرجعية والتحكيمية التي تمثلها إمارة المؤمنين للمسلمين عامة وللأفارقة خاصة في المناحي الدينية والثقافية والحضارية.

وقد تحملت إمارة المؤمنين مسؤوليتها الشرعية هذه عبر التاريخ فمدت جسر التواصل لينحدر علمها وثقافتها وروحها الطيبة إلى إفريقيا، وانبثق عن ذلك الإشعاع الروحي والثقافي وعم التسامح والوسطية، وبزغ الربيع العلمي الزاهر في جميع القارة.

وإن الهوية الدينية لإفريقيا الآن لا يمكن تشخيصها بعيدا عن العناصر المغربية التي غذت من لبانها الطاهرة حتى ربت وأنبتت، فالعقيدة الأشعرية والفقه المالكي والتصوف السني هي مكونات الجسد الإفريقي المسلم، وهي من جملة ما سخرت إمارة المؤمنين نفسها لنشره في العالم.

أثر المشترك المذهبي والعقدي في الوحدة الإفريقية

د. محمد أمباكي جوف
أستاذ الدراسات العربية الإسلامية، والثقافة السياسية – السنغال.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛ فلقد جاء الإسلام آخر الرسالات السماوية لتنظيم حياة الناس وهدايتهم إلى طريق السعادة الدنيوية والأخروية. وقد تضمن هذا الدين الحنيف جميع التعاليم التي يحتاج إليها الإنسان من عقائد وعبادات وقيم تصلح بها حياة الفرد والمجتمع. يقول تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ[1]} . فربي النبي محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام على هذه العقيدة وهذه القيم فاهتدوا وهدوا، وكانوا خير جيل نشروا الإسلام وتعاليمه في فترة قياسية. وظهر أثر الإسلام في جميع نواحي الحياة : الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها. وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأكارم نماذج في الإصلاح بالحكمة والموعظة الحسنة. والإنسان بصفته مدنيا بالطبع يحتاج إلى غيره في كثير من الأمورلتتحقق سعادته، وهذه السعادة تكمن أحيانا في الوحدة، والوحدة ضرورة حضارية طرحها الإسلام منذ قرون عديدة من الزمن، فبها يتأسس ويتطور المجتمع. والمذاهب الفكرية، والمعتقدات، والطرق الصوفية بحكم كونها مرجعية دينية تهدف إلى تهذيب النفوس لإقامة مجتمع سعيد، لها دور في إيجاد ظروف تهيئ الوصول إلى جو يسوده التقدم والنمو.

واعتمادا على كل هذا سأحاول في هذا البحث تسليط الضوء على الموضوع (أثر المشترك المذهبي والعقدي في الوحدة الإفريقية) وفق النقاط الآتية:

1- سورة الأنعام، آية:38.

أولا: أهمية الوحدة.

ثانيا: لماذا الحاجة إلى وحدة إفريقيا.

ثالثا: خصائص المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية.

رابعا: دور التصوف في تعزيز مبادئ الوحدة في إفريقيا.

خامسا: أثر المشترك العقدي والمذهبي في الوحدة الإفريقية.

أولا: أهمية الوحدة.

الوحدة مطلب ديني، يدعو إليه الإسلام، ويحث عليه القرآن الكريم في أماكن عدة، يقول الله تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا[1]} ويقول عليه الصلاة والسلام: «يد الله مع الجماعة[2]» . كما يقول: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن[3]» ، وهذا دليل على أن الوحدة أمر رباني قبل أن يكون مطلبا إنسانيا لتحقيق المصالح الدنيوية. فالرحمة وعاء حوى كل الخيرات، ورسول الإسلام أرسل رحمة للعالمين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}،[4] وقد قورنت هذه الرحمة بالجماعة.

ثانيا: لماذا الحاجة إلى وحدة إفريقيا؟

ظلت إفريقيا حتى منتصف القرن العشرين، مسرحاً للتنافس الاستعماري لعدد من الدول الأوروبية، التي سيطرت عليها واستغلت مواردها المختلفة، وشهد بداية عقد الستينات استقلال بعض الدول، ثم ازداد هذا العدد إلى أن استقلت جميع دول إفريقيا، إلا أن هذا الاستقلال بقي شكليا، في بعض الأحيان حيث إن المستعمرين خرجوا من الباب ورجعوا عبر النافذة، حيث إن الاستعمار الاقتصادي

1 - سورة آل عمران، آية 103

2 - سنن الترميذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة.

3- سنن الترميذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة.

4- سورة الأنبياء آية 107.

لا زال موجودا في كثير من الدول. والقارة الإفريقية بعد مرورها بمراحل عديدة شهدت خلالها التفرقة والتقزم، والحروب الأهلية والصراعات الدموية والاستعمار الأجني وما خلفه من آثار سلبية، ولذلك فهي في حاجة اليوم إلى الوحدة والتجمع في ظل كيان واحد يحقق لها القدرة التفاوضية والندية أمام التكتلات الأخرى في الوقت الذي لم يعد هناك مكان للكيانات القزمية. ولعل الاتحاد الإفريقي هو الطريق السالك إلى تحقيق هذا المطلب المنشود، حيث إن قيامه يعتبر صدور شهادة ميلاد لتأسيس عصر إفريقي جديد، بعد عقود من الزمن يناضل فيها الأفارقة من أجل تحقيق هذا الحلم. إلا أنه تعددت محاولات التجمع والوحدة بين هذه الدول، حتى ظهرت منظمة الوحدة الإفريقية كمنظمة إقليمية تسعى لإخراج القارة من وطأة الهيمنة والاستغلال[1] .

وهناك جوانب متعددة يمكن الاعتماد عليها لتجسيد هذا الحلم، ومنها الجانب العقدي الذي يمكن اعتماده قاسما مشتركا بين كثير من بلدان القارة. ويتمثل هذا الجانب المهم في المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني.

ثالثا: خصائص المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية

المذهب المالكي[2] هوالمذهب الذي اختاره معظم مسلمي إفريقيا– أو على الأقل غرب إفريقيا- فجمع شملهم ووحد كلمتهم وعصمهم من التفرق والاختلاف. وذلك بسبب توسعه في استثمار الأصول المتفق عليها توسعا كبيرا مما ساعد ويساعد على سد الفراغ الذي يمكن أن يحس به المجتهد عند ممارسة الاجتهاد والاستنباط،

1- للتوسع حول مسار الاتحاد الإفريقي ينظر: محمد أمباكي جوف، أزمة النظم السياسية في إفريقيا، من عهد الاستعمار إلى وقتنا الحاضر، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا، الطبعة الأولى 2006م، ص 197.

2- مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري المدني، ولد في المدينة سنة ثلاث وتسعين على أرجح الأقوال. بدأ رحلته العلمية وهو ابن بضع عشرة سنة، أول شيخ تلقى عنه العلم هو: ربيعة الرأي الفقيه المدني المعروف، ثم لزم ابن هرمز سبع سنين أو ثمان، لم يخلطه بغيره، فأخذ عنه علم الحديث، ثم مال إلى ابن شهاب الزهري، كما أخذ عن نافع، وابن المنكدر، وعبد الله بن دينار، وصالح بن كيسان، وسعيد مقبري، وغيرهم كثير ممن أخذ عنهم مالك، حتى قيل إن عدد شيوخه فاق تسعمائة شيخ، منهم ثلاثمائة من التابعين، وستمائة من تابعي التابعين. هو عالم المدينة ومؤسس المذهب المالكي. قال عنه سفيان بن عيينة: «مالك عالم أهل الحجاز». وقال الشافعي: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم».

وهكذا نجده في التعامل مع الكتاب والسنة لا يكتفي بالنص والظاهر بل يقبل مفاهيم المخالفة والموافقة. كما توسع في باب القياس فقبل أنواعا من القياس لا يقبلها غيره ولم يخصه بباب من أبواب الفقه ولا نوع من أنواع الحكم. بينما نجد كثيرا من الفقهاء يردون بعض أنواع القياس ويضيقون مجالات المقبول عندهم. فلا يقبلون القياس على ما ثبت بالقياس ولا القياس المركب والقياس على مخصوص وقياس العكس. ولا يجيزون القياس في الحدود والكفارات والرخص والتقديرات والأسباب والشروط والموانع. فقد نحا الإمام مالك منحى فقهاء أهل المدينة في الأصول التي بنى عليها اجتهاده، واتخذت بعده أساسا لمذهبه.

وللمذهب المالكي خصوصيات جعلته متميزا عن بقية مذاهب أهل السنة ولعل أهمها:

أ - خصوصيات المذهب على مستوى أصول الفقه

يمتاز المذهب المالكي على مستوى أصول الفقه بعدة مزايا وخصوصيات من أهمها:

1. وفرة مصادره وكثرة أصوله المتمثلة في الكتاب والسنة وإجماع الأمة وعمل أهل المدينة والقياس والاستحسان والاستقراء وقول الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف وعمل أهل المدينة والأخذ بالأحوط ومراعاة الخلاف. بالإضافة إلى القواعد العامة المتفرعة عنها والتي أنهاها بعض المالكية إلى ألف ومائتي قاعدة تغطي جميع أبواب الفقه ومجالاته[1] .

هذه الكثرة أغنت الفقه المالكي وأعطته قوة وحيوية ووضعت بين أيدي علمائه من وسائل الاجتهاد وأدوات الاستنباط ما يؤهلهم لبلوغ درجة الاجتهاد ويمكنهم من ممارسته ويسهل عليهم مهمته. وإذا كانت بعض المذاهب شاركت المذهب المالكي في

1 ينظر : الدكتور محمد بن محمد بن قاسم التأويل، خصائص المذهب المالكي، مراجعة وتقديم : الدكتور امحمد العمراوي، منشورات البشير بنعطية، فاس، المغرب، الطبعة الأولى 2019م، ص 27- 42.

بعض هذه الأصول فإن ميزة الفقه المالكي تكمن في الأخذ بجميع هذه الأصول بينما غيره لم يأخذ إلا ببعضها ورد الباقي.

2. تنوع هذه الأصول والمصادر ذلك أنها تتراوح بين النقل الثابت والرأي الصحيح المستمد من الشرع والمستند إليه كالقياس. هذا التنوع في الأصول والمصادر والمزاوجة بين العقل والنقل والأثر والنظر وعدم الجمود على النقل أو الانسياق وراء العقل هي الميزة التي ميزت المذهب المالكي عن مدرسة المحدثين ومدرسة أهل الرأي ويسره ووسطيته وانتشاره والإقبال الشديد عليه وضرب أكباد الإبل إلى إمامه في أيام حياته.

3. توسعه في استثمار الأصول المتفق عليها توسعا كبيرا مما ساعد ويساعد على سد الفراغ الذي يمكن أن يحس به المجتهد عند ممارسة الاجتهاد والاستنباط وهكذا نجده في التعامل مع الكتاب والسنة لا يكتفي بالنص والظاهر بل يقبل مفاهيم المخالفة والموافقة وتنبيه الخطاب كما يقبل دلالة السياق ودلالة الاقتران والدلالة التبعية، وقد استدل بقوله تعالى: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها[1]) على عدم وجوب الزكاة في الخيل لاقترانها بالحمير التي لا زكاة فيها، كما توسع في باب القياس فقبل أنواعا من القياس لا يقبلها غيره ولم يخصه بباب من أبواب الفقه ولا نوع من أنواع الحكم. بينما نجد كثيرا من الفقهاء يردون بعض أنواع القياس ويضيقون مجالات المقبول عندهم، فلا يقبلون القياس على ما ثبت بالقياس ولا القياس المركب والقياس على مخصوص وقياس العكس. ولا يجيزون القياس في الحدود والكفارات والرخص والتقديرات والأسباب والشروط والموانع[2] .

1 - سورة النحل، الآية 8.

2 - - ينظر: الدكتور محمد بن محمد بن قاسم التأويل، خصائص المذهب المالكي، ص 27-42.

ب. في خصوصياته على الصعيد الفقهي

1. رحابة صدره وانفتاحه على غيره من المذاهب الفقهية والشرائع السماوية السابقة واعترافه بالجميع واستعداده للتعايش معه والاستفادة منه بفضل قاعدة شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ التي اتخذها مالك أصلا من أصوله التي بنى عليها مذهبه وأسس عليها فقهه وانطلاقا من إيمانه بحرية الاجتهاد ووجوبه، وأنه لا يقلد مجتهد غيره، وأن المصيب واحد كما يراه مالك وأكثر علماء الأصول[1] .

2. قابليته للتطوير والتجديد، سعة أصوله وكثرة قواعده، فهو قائم على أصول نقلية وعقلية، وأخرى ترجع إلى الأعراف والعادات، أصول وقواعد تتصف –في نسقها العام- بالسعة والمرونة، مما جعلها تضمن لهذا المذهب صلاحية دائمة على استيعاب التطورات واحتواء المستجدات. فقيام المذهب المالكي على إجماع أهل المدينة وفقههم، وامتزاج ذلك بأصول عقلية في غاية من الدقة والمرونة كاعتماد المصالح المرسلة والاستحسان في الاجتهاد الفقهي، كل ذلك أضفى على المذهب صفة الاعتدال والتوسط، ما بين العقل والنقل، بين الشرع والواقع. لذلك كثيرا ما تجده يتوسط في المسألة بين مذهبين متقابلين مراعاة للمصلحة العامة.

3. المرونة، في تصحيحه حكم المخالف لمذهب مالك ومنع نقضه وإن خالف المشهور أو الراجح في المذهب المالكي، وهي القاعدة المعروفة بحكم الحاكم يرفع الخلاف المشار لها بقول خليل: «ورفع الخلاف لا أحل حراما».

4. السماحة والتيسير في آرائه، كما نراه في استحسانه العمل برأي المخالف ابتداء في بعض مواطن الخلاف من باب الورع والخروج من الخلاف، مثل قراءة البسملة سرا، وقراءة الفاتحة خلف الإمام للخروج من خلاف الشافعي.

1 - المرجع السابق، ص 54.

5. الوسطية والاعتدال، كما نراه في رفضه تكفير المسلمين بالذنب والهوى فقد سئل مالك عن المعتزلة أكفار هم؟ «فقال من الكفر فروا». وكذلك ما قرره الفقه المالكي في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن المختلف فيه لا يجب فيه الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر، وهي قاعدة من أهم القواعد التي تحقق التعايش بين المذاهب.

واعتمادا على هذا، يرى الباحث أبو مدين شعيب تياو أن العلماء الأفارقة كانوا يفتخرون بانتمائهم إلى المذهب المالكي، مبرهنا ذلك بقوله: «ويقول الشيخ ماجور سيسه Madior cissé[1] في مقدمة كتابٍ له في الفقه هبة الكريم المالك في أحكام الطهارة والصلاة على مذهب الإمام مالك: « يقول العبد الفقير إلى ربه... المالكيُّ القادر». ولم يقتصر العلماء على ذلك، بل أوصوا تلامذتهم بذلك، وندبوهم إلى التقيد بالمذهب المالكي، فنرى الشيخ أحمد بامبا- خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]- يقول لتلاميذه: «فأمرتكم جميعا بالمذهب المالكيّ». وقال: «عليكم بالمالكيّة، فإنها مُطهَّرةٌ مُنَوَّرة[3]» ، بالإضافة إلى مراعاتهم ذلك في تواليفهم وفتاوَاهم[4]»، ومدارسهم لا زالت تتميز بهذه الميزة إلى يومنا هذا.

العقيدة الأشعرية

أسهمت الأشعرية رفقة المذهب المالكي والتصوف السني في خلق انسجام مذهبي وعقدي في إفريقيا، خاصة الجانب الغربي منها، جنبها كثيرا من القلاقل والفتن التي كانت تقع في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي بسبب الخلافات العقدية.

1 -هو عالم سنغالي من مدينة سان لويس، عاش ما بين -1899 1974م كان فقيها وأديبا، له مؤلفات في الفقه المالكي.

2 - ومؤسس الطريقة المريدية التي عاصمتها الروحية مدينة طوبى في السنغال، وهي طريقة صوفية سنية، أسسها على الإيمان والإسلام والإحسان. تعتمد على العلم والعمل والعبادة والآداب الحسنة بمقتضى أحكام التوحيد والفقه والتصوف. وتنتسب الطريقة المريدية إلى أهل السنة والجماعة، وإلى المدرسة المالكية في الفقه بحكم تكوين مؤسسها في منطقة حوض السنغال التي لم يغادرها إلا عندما نفته السلطة الاستعمارية إلى الغابون. وهي طريقة تأخذ بالأوسط في كل الأمور في العبادة والعمل في الدين والدنيا في الفقه والتصوف بعيدة عن الإفراط والتفريط.

3 - المجموعة المشتملة على أجوبة الشيخ الخديم وفتاويه ص: 143.

4 - من إسهام علماء سنغال في خدمة الفقه المالكي، الأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك 1435هـ / 2013م، الجامعة الأسمرية، زليطن، ليبيا.

ونظرا لما امتاز به منهج الأشعري من وسطية واعتدال، وما طبع مناظراته ومؤلفاته من قوة الحجة، فقد وفقه الله لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم وإفحام الخصوم والمعاندين، قد ظهرت حاجة الأمة إلى أبي الحسن الأشعري من خلال الأسئلة التي تواردت عليه من أقطار العالم فأجاب عنها؛ فطبق ذكره الآفاق. وقد استحق بما كتبه في نصرة السنة أن يسمى إمام أهل السنة، وأن يتفق الجمهور على أنه مجدد المائة الثالثة. وتجرد بعد ذلك أصحابه وأتباع مذهبه في العقيدة من المذاهب الفقهية الأربعة، ينشرون عقيدة أهل السنة والجماعة التي جمع الله عليها السواد الأعظم بعد فرقة وشتات وتمزق[1] . ويتبين مما سبق أن المذهب المالكي المبني على العقيدة الأشعرية[2] وجد في إفريقيا أرضا خصبة وباحة مريعة للنموّ، وألفى بها علماء وفقهاء ضحّوا بالغالي والنفيس من أجل الحفاظ عليه ونشره، كما أنهم لم يألوا جهدا في المساهمة فيه بالتأليف والتصنيف نظما ونثرا، فضلا عن إفتاء الناسِ وفقَ المذهب،وتأسيسِ مناراتٍ علمية لتعليم العلوم الشرعية والفقه المالكيّ.

رابعا: دور التصوف في تعزيز مبادئ الوحدة في إفريقيا

يقول البا حث يوسف بن حيدة: « لعبت الطرق الصوفية دورا أساسيا في نشر الإسلام في أجزاء كبرى من القارة الإفريقية... وكان دور الطرق الصوفية في هذا، مرتبطا بالدعوة والجهاد بفضل نشاط شيوخها الذين استطاعوا ان يلقنوا تلك الشعوب مبادئ الدين الإسلامي، ويرفعوا رايات الإسلام والدعوة المحمدية في المنطقة. وقد تعزز نشاط الطرق الصوفية بشكل كبير في مستهل القرن السادس عشرميلادي، تزامنا مع قيام قوى التبشير المسيحية، وخاصة البرتغالية، بحركتها التبشيرية[3]» .

1 - للتوسع في هذا الموضوع، ينظر موقع وزارة الأوقاف المغربية : http://www.habous.gov.ma/2012-01-26-16-14-32.html.

2- ينظر: نفس المرجع السابق.

3- يوسف بن حيدة، الطرق الصوفية وأثرها في نشر الوعي الديني في القارة الإفريقية، المجلة السنغالية للدراسات العربية، جامعة الشيخ أنت جوب، دكار، العدد الرابع، 2016، ص 61.

واتساقا مع ما سبق، نشير إلى أن التصوف السني الذي هو مسلك في التخلق يطهر الباطن ويزين الظاهر ويضبط التصرفات بضابط الإنصاف، هو الذي يهمنا في هذا الموقف، وسنورد بعضا من تعريفاته:

• التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا، وهي الخلق الإلهية. وقد يقال بإزاء إتيان مكارم الأخلا ق وتجنب مفاسدها[1] .

• يقول شيخ الإسلام إبراهيم عبد الله نياس الكولخي: «سئل سيدنا ومولانا وأستاذنا السيد أبو العباس التجاني رضي الله عنه عن حقيقة التصوف، فأجاب رضي الله عنه بقوله: اعلم أن التصوف هو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى[2]» .

• يرى الدكتور أبو الوفاء التفتزاني بأن التصوف: «فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس أخلاقيا، وتتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا وعقلا، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية[3]» .

وبهذا نفهم أن التصوف ترجمة لأخلاق القرآن؛ لأن القرآن– كما يرى الدكتور قاسم عزيز الوازني- «كتاب أخلاق، وتعاليمه في هذا الجانب تشهد على أنه كتاب روحي يسمو فوق كل المذاهب الفلسفية والأخلاقية والدينية[4]» .

وبناء على هذا، يمكن القول بأن الطرق الصوفية هي المدارس الروحية التي تتولى إعداد النفوس للترقي بها أخلاقيا. أو بعبارة أخرى هي استمرارية لمهمة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، لإتمام مكارم الأخلاق. وقد تعددت تسمياتها على مر التاريخ

1-الشيخ الدكتور أنور فؤاد أبي خزام، معجم المصطلحات الصوفية، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1993م، ص 60.

2-- شيخ الإسلام إبراهيم عبد الله نياس، في حقيقة التصوف وأصل تلقين الأذكار، دار الحسام للنشر والتوزيع، ص 14.

3-السائح علي حسين،لمحات من التصوف وتاريخه، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، 1997م، ص30.

4-- راجع : دكتور قاسم عزيز الوازني، منهج التربية الخلقية في الإسلام، مجلة الاستذكار، المجلس العلمي المحلي بمكناس، العدد الأول، مايو 2017، ص -141 148.

وعلى مختلف الأماكن لكن تبقى مهمتها الأولى هي تهذيب النفوس للوصول إلى سعادة روحية. وقد ثبت أن تاريخ المجتمعات والأديان مليء بسير المصلحين وحركات الإصلاح. وتختلف المناهج المتبعة في الإصلاح وفي تغيير ما في المجتمع من المنكرات ويعود هذا التنوع إلى الاختلاف في الرؤية وفي التشخيص لطبيعة التحديات والمشكلات التي تواجه المجتمع. فهناك من ينطلق من الدين وإصلاح ممارسات الناس[1] له لتغيير ما في المجتمع من أنواع الفساد، معتمدا على التربية، وهناك من ينطلق من السياسة لمحاولة تنظيم المجتمع وتوجيهه بالسلطة والحكم.

إن محاولات الإصلاح الديني في إفريقيا قد تعددت في واقع الأمر، وتنوعت مشارب الدعاة وتوجهاتهم: فمنهم من رأى أن الحل يكمن في إصلاح العقيدة، ومحاربة غيره وصولا إلى تكفيرمن سواهم، ووجوب حمل السلاح ضده بحجة الدفاع عن راية الإسلام.

ولعل هذا الذي دفع الأستاذ أحمد توفيق إلى القول: «إن الجهاد شرع للدفاع، ولا يعلنه وينهيه إلا الإمام الأعظم، وإن الإرهاب الذي يسمونه جهادا يتناقض مع أهداف الإسلام الكبرى في نشر السلم والتعاون بين الناس» . ومنهم من رآه في إصلاح السياسة والحكام وتطبيق الشريعة، ومنهم من ركز على ضرورة تزكية النفوس وتطهير القلوب. وهذا الاختيار هو اختيار المتصوفة في غالبيتهم.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام في إفريقيا– خاصة الجزء الغربي منها- يتميز بالطابع الصوفي، مما جعل معظم مسلمي إفريقيا ينتمون إلى طرق صوفية، مثل: القادرية، التيجانية، الشاذلية، المريدية، وغيرها من الطرق. وهذه الميزة ساهمت في تقريب المسافات بينهم، وتوحيد الرؤى في كثير من المسائل العقدية، والتي لايختلف اثنان في أنها ركيزة أساسية في توحيد الصفوف سياسيا واقتصاديا.

1-الأستاذ أحمد التوفيق، دور علماء المغرب في حماية الهوية الوطنية، الدرس الثاني من سلسلة الدروس الحسنية الرمضانية، يوم الأحد 2 رمضان 1438(28 مايو 2017م).

الخلاصة

وخلاصة ما سبق: إن القارة الإفريقية بعد مرورها بمراحل عديدة شهدت خلالها التفرقة والتقزم، والحروب الأهلية والصراعات الدموية والاستعمار الأجني وما خلفه من آثار سلبية، إنها لفي حاجة اليوم إلى الوحدة والتجمع في ظل كيان واحد يحقق لها القدرة التفاوضية والندية أمام التكتلات الأخرى في الوقت الذي لم يعد هناك مكان للكيانات القزمية. ولعل الوحدة الإفريقية هي الطريق إلى هذا المطلب المنشود، حيث إن قيامها يعتبر صدور شهادة ميلاد لتأسيس عصر إفريقي جديد، بعد عقود من الزمن يناضل فيها الأفارقة من أجل تحقيق هذا الحلم[1] .

وتعتبر العقيدة من أكثر العوامل تأثيرا على الإنسان، لذا نجد أن الحركات الاستعمارية لما أرادت السيطرة على إفريقيا اتخذت حركات التنصيروسيلة لتحقيق أهدافها حتى صار الاستعمار والتنصير وجهين لعملة واحدة[2]. فحركات التنصير ساهمت بشكل كبير في استعمار القارة الإفريقية[3] ... وعليه ينبغي لنا أن نستفيد من دروس التاريخ لنجعل القاسم المشترك بيننا، -والمتمثل في المذهب المالكي والعقيدة الشعرية والتصوف السني- أداة فعالة في إنجاح الوحدة الإفريقية، ذلك لأن الفلاسفة يقولون: «الحكمة، هي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي». والحكمة اليوم- ونحن في عصر التكتلات، أن نجمع قواتنا، ونلُم شملنا لإثبات وجودنا، في ظل العولمة التي لاتعترف إلاّ بالأقوياء. خاصة وأنه اتفق الباحثون على أن الإسلام أثَّر في إفريقيا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا. يقول الدكتور الهادي المبروك الدالي: «فمن الناحية السياسية والإدارة والحكم، لايمكن إنكار ما أفادته بلاد السودان الغربي من احتكاكها بالعرب المسلمين وبالمراكز الثقافية والحضارية، سواء أكان ذلك الاحتكاك بالشمال الإفريقي أو الشرق الإسلامي، وأقوى برهان على

1-- للتوسع حول مسار الاتحاد الإفريقي، ينظر: محمد أمبكي جوف، أزمة النظم السياسية في إفريقيا، ص197.

2-ينظر: عبد العزيز الكحلوت، التنصير والاستعمار في إفريقيا السوداء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة الثانية، 1992، طرابلس، ص -65 82

3-بالنسبة لموضوع الاستعمارفي إفريقيا، ينظرمحمد امباكي جوف، أزمة النظم السياسية في إفريقيا، من عهد الاستعمار إلى وقتنا الحاضر، ص -47 71.

ذلك هو ازدهار مملكة مالي الإسلامية وبلوغها شأنا لم تبلغه دولة ما في المنطقة، من التقدم والرقي الحضاري. وما ذلك في الواقع إلا لكونها قد اختارت أسلوب حياة أو حكما إسلاميا فاقت به ما سبقها في حكم المنطقة» .

ويرجِح البروفيسور روحان أمبي أن اختيارالتصوف الجنيدي السني للمغاربة قد امتد إفريقيا إنْ عَلَى مستوى المدارسة أو الممارسة، ومما هو معلوم أن حلقات التواصل الصوفي انتظمت بين المغرب وإفريقيا في وقت مبكر، حيث تنص المصادر على أن بلاد الشنقيط شكلت جسرا لعبور المدارس الصوفية المغربية من المغرب إلى إفريقيا مرورا بالسنغال. ولقد عمل الشيوخ المغاربة على ترسيخ قيم التسامح والتعايش ورفع التحديات والأخطار التي كانت تهدد القارة السمراء. كما ساهموا في تقوية الروابط الروحية والأخلاقية في إشاعة قيم الإسلام المعتدل. كما حَرِصَ المغربُ عَبْرَ التاريخ على مواصلة رعاية المنتسبين إلى الطرق الصوفية بهذه البقاع والعناية بهم وذلك من خلال العمل على الحفاظ والارتقاء بالرابطة الروحية التي تجمع سكان البلدان الإفريقية بمؤسسة إمارة المؤمنين وحماية الملة والدين. هذا الإرث التربوي الروحي الذي ساهم في نشروترسيخ قيم السلم والتسامح والوسطية والاعتدال لِيَحْصُلَ اليقين والاطمئنان والسكينة والاستقرارفي ربوع إفريقيا[1] .

والله من وراء القصد، والحمد لله على كل حال.

1-- ينظر: البروفيسور رَوْحَانْ امْبَيْ: الثوابت الدينية المشتركة عامل وحدة بين المغرب والدول الإفريقية، الدرس الثاني من سلسلة الدروس الحسنية الرمضانية، الرباط، يوم الثلاثاء 06 رمضان 1439(22 مايو 2018).

مصادرومراجع البحث

- القرآن الكريم.
- كتب السنة.
- أبومدين شعيب تياو، من إسهام علماء سنغال في خدمة الفقه المالكي، الأعمال الكاملة لمؤتمر الإمام مالك 1435هـ/2013م، الجامعة الأسمرية، زليطن، ليبيا.
- أحمد آيت إعزة، إدريس بن الضاوية وآخرون، سبيل العلماء، المجلس العلمي الأعلى، الرباط، الطبعة الأولى، 2016م.
- الأستاذ أحمد توفيق، دور علماء المغرب في حماية الهوية الوطنية، الدرس الثاني من سلسلة الدروس الحسنية الرمضانية، يوم الأحد 2 رمضان 1438(28 مايو 2017م).
- البروفيسور رَوْحَانْ امْبَيْ: الثوابت الدينية المشتركة عامل وحدة بين المغرب والدول الإفريقية، الدرس الثاني من سلسلة الدروس الحسنية الرمضانية، الرباط، يوم الثلاثاء 06 رمضان 1439هـ(22 مايو 2018م).
- الدكتور قاسم عزيزالوازني، منهج التربية الخلقية في الإسلام، مجلة الاستذكار، المجلس العلمي المحلي بمكناس، العدد الأول، مايو 2017م.
- الدكتور محمد بن محمد بن قاسم التأويل، خصائص المذهب المالكي، مراجعة وتقديم: الدكتور امحمد العمراوي، منشورات البشيربنعطية، فاس، المغرب، الطبعة الأولى 2019م.
- السائح علي حسين، لمحات من التصوف وتاريخه، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، 1997م.
- الشيخ أحمد بمب أمباكي، المجموعة المشتملة على أجوبة الشيخ الخديم وفتاويه، مكتبة شيخ الخديم، طوبى، السنغال، الطبعة الأولى.

• شيخ الإسلام إبراهيم عبد الله نياس، في حقبقة التصوف وأصل تلقين الأذكار، دار الحسام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2015م.

• الشيخ الدكتورأنور فؤاد أبي خزام، معجم المصطلحات الصوفية، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1993م.

• عبد العزيز الكحلوت، التنصيروالاستعمارفي إفريقيا السوداء، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الثانية، 1996م.

• محمد أمباكي جوف، أزمة النظم السياسية في إفريقيا، من عهد الاستعمار إلى وقتنا الحاضر، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا، الطبعة الأولى، 2006م.

• موقع وزارة الأوقاف المغربية: http://www.habous.gov.ma.

• الهادي المبروك الدالي، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب إفريقيا، دار صنين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

• يوسف بن حيدة، الطرق الصوفية وأثرها في نشر الوعي الديني في القارة الإفريقية، المجلة السنغالية للدراسات العربية، جامعة الشيخ أنت جوب، دكار، السنغال، العدد الرابع 2016م.

في البعد الإفريقي للإسلام المغربي[1]

عبد الله بوصوف

الأمين العام لمجلس الجالية المغربية بالخارج.

إن تاريخ العلاقات التي تربط «الدولة المغربية[2]» بباقي بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، منذ فترة حكم الأدارسة في القرن العاشر، إلى حين وصول الأسرة العلوية للسلطة وإلى اليوم، مرورا بمختلف الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب، إنما هو تاريخ ثري وغني بالعبر والدروس.

إنه تاريخ مهم لأنه يساعد أولا، على إماطة اللثام عن المرحلة التي تزامنت مع أسلمة إفريقيا جنوب الصحراء. ثانيا، لأن استحضار هذا التاريخ من شأنه أن يسدل الستار عن مكانة المغرب في الفضاء الإفريقي الذي وصله الإسلام. وأخيرا، لأنه يرفع اللبس عن العديد من الجوانب المتعلقة بالعلاقات الحالية، التي تترجمها فلسفة البعد الإفريقي في السياسة الخارجية للمغرب[3].

إن المقاربة الموضوعية والمنصفة لهذه العلاقات إنما تستوجب وضع إطار كرونولوجي شامل للملكيات والأمبراطوريات التي سادت في إفريقيا جنوب الصحراء، وكذا لتلك التي كانت قائمة في المغرب من منظور نفس الإطار، ثم العمل على رصد وتتبع تشكيلة فضاء التبادل القائم بين الطرفين، ومن ثمة تحديد طبيعة البعد الإفريقي الذي ترتب عنه.

هو عمل شاق بالنسبة لأي مؤرخ جاد وصارم. وشاق أيضا لكل عمل مونوغرافي يشتغل وفق منطق «الزمن الطويل».

1-راجع: Ziani. M. L'Africanité du Maroc et l'émergence du droit international. Texte sans référence.

2-يتفق المؤرخون على القول بأن فكرة «الدولة» في المغرب قد بدأت مع الأدارسة، وتقوت مع المرابطين ثم مع الموحدين، ثم مع باقي الأسر الحاكمة التي أتت بعدهم، أي قبل قدوم الدولة الوطنية في أوروبا. التصور التاريخي بخصوص هذه الحقبة، السابقة على الاستعمار، يجب أن ينسلخ عن أية مركزية أوروبية، قد يكون من الوارد إعمالها هنا أو هناك.

3-راجع : Cambon. C et Alii. Le Maroc : le pays des défis. Rapport du Groupe Interparlementaire d'Amitié France-Maroc. Sénat. Paris. novembre 2016.

بيد أن جدولا كرونولوجيا مقارنا ومختصرا، من شأنه أن يساعدنا على استخراج هذه «التلازمية»، واستنباط الخطوط الكبرى للبعد الإفريقي المرتبط بالتجارة وبالإسلام، قبل الاستعمار وما أتى به من «حق الناس» ذي المصدر الأوروبي، ومن باقي «الحقوق» التي فرضها على الشواطئ الغرب إفريقية، وضمنها المغرب.

في فترة ما قبل الاستعمار، كان فضاء التبادل بين «الدولة المغربية» وباقي «الدول المركزية» جنوب الصحراء، يتضمن معايير محددة ليس فقط للمجالات الترابية، بل وللفضاءات ذات الحدود الطبيعية، بسكان محددين وبسلط شرعية ذات سيادة. كان المهم، في حينه، هو ضبط معنى هذه المعطيات، في سياقها وليس بمنطق «حق الناس» كما تم تطويره في أوروبا.

الخريطة التالية[1] تبين فضاء التبادلات التاريخية بين المغرب و«عمقه الإفريقي»:

إن «البعد الإفريقي» للمغرب، ذي الخاصية التاريخية الثابتة، إنما يبين بوضوح كيف استمرت القطيعة في استمرار العلاقات البينية، كي لا نقول الهوياتية، من طرف قانون مهيمن، مفروض من الخارج. وعلى الرغم من استكمال دورة الاستقلالات في القرن العشرين، والتي كانت تبرر كفاح المغرب من أجل إعادة الاعتبار للاستمرارية المجالية والزمنية الأصلية، فإن معنى ومضمون الوحدة الترابية لا يزال يشكل طموحا من أجل «التخلص الحقيقي من الوصاية الخارجية[2]» .

1-راجع: Buresi. P. Vie et mort des empires berbères. L'Histoire. n° 336. novembre 2008.

2-مفهوم «الحدود»، الذي فرضه سياق الاستعمار في إفريقيا، والذي سن «حق الناس»، يطرح مشكلا حقيقيا من طبيعة

المغرب ما قبل الاحتلال وتاريخ استمرارية علاقاته مع الشمال

ثمة حقيقة تاريخية ثابتة، لم تفتأ، منذ أمد بعيد، تفرض نفسها علينا بقوة. إنها تكمن في وجود «تجارة للقوافل» مزدهرة بين إفريقيا والمغرب العربي بوجه عام، وبين إفريقيا والمغرب بوجه خاص. لقد ترتبت عن هذه التجارة فيما بعد، تطورات عميقة أدت بالتدريج، إلى بناء فضاء تبادل واسع ومستدام.

إن الدعوة الإسلامية (الرسمية منها، وتلك التي تمت على يد الزوايا الصوفية) وعلاقات القوة السائدة، قد ميزت الاستمرارية المؤسساتية والثقافية القائمة، والتي أدت عملية إعادة النظر فيها من لدن الاستعمار، إلى قطيعة ثم إلى تشظي العلاقات التاريخية، وتعويض بعضها بأشكال من التنافر والاحتقان، ثم من الاحتراب والاقتتال، قَلّ نظيرها في التاريخ.

يجب أن نذكر بأن ميلاد الأسرة المالكة الشريفة في المغرب في العام 788هـ، قد تزامن مع بروز تجارة مربحة عبر الصحراء، تربط الأمبراطوريات السودانية للعصور الوسطى (بلاد السودان، بلاد السود) بموانئ البحر الأبيض المتوسط في الشمال[1] .

تبين الخريطة السابقة بجلاء، الأصول الثابتة لعلاقات الأمبراطورية المغربية مع بلدان الصحراء الممتدة إلى حدود غانا في الجنوب. بيد أن «بلاد السودان»، التي تم اكتشافها في القرن السابع، كانت مكونة من أمبراطوريات سواحلية ممتدة بين نهر السنغال وبحيرة تشاد: أمبراطورية غانا (من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر)، وأمبراطورية مالي (من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر) وأمبراطورية سونغهاي (من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر[2]) .

ترابية، والذي بسببه انفجرت النزاعات والحروب بين «الدول»، لا تزال نيران بعضها مشتعلة. بيد أن «الحدود» غالبا ما تحمل في طياتها مخاطر جمة، لا سيما عندما تكرس الطغيان أو تستثني هذه المنطقة أو تلك، عبر سلخها من امتداداتها الجغرافية. ولعل حالة الطوارق حالة معبرة بهذا الخصوص. أما مسألة «عدم المساس بالحدود»، والتي ترتبت عن فترة ما بعد الاستعمار، فقد نشأت من منطلق «الأمر الواقع»، في حين كان من المفروض أن تبنى على أساس التوافق والتراضي. إنها غير عادلة، وغير عملية فضلا عن ذلك.

1- راجع: Ennaji. M. Soldats. domestiques et concubines. L'esclavage au Maroc au XIXe siècle. Éd. Eddif. 1994.

2- راجع: Bennafla. K. Mise en place et dépassement des frontières entre Maghreb et Afrique noire : ap-proche géo-historique. Cahiers Sud. n° 169. avril-juin 2008.

من الطبيعي، والحالة هاته، أن يعمد الملوك الأفارقة، الذين كانوا في حاجة ماسة للسلاح والخيول والمواد الصناعية القادمة من الشمال، إلى اعتناق ديانة التجار الأغنياء الذين كان بإمكانهم توفير هذه السلع والخدمات.

يعتقد تريو[1] أن الأسلمة التي تمت عبر ومن خلال «جهاد» المرابطين (1060-1147) لم تكن في واقع الأمر، إلا وسيلة من وسائل منح الشرعنة الدينية لعلاقات تجارية كانت أصلا مهيكلة. وعلى الرغم من أن هذا الموقف يضمر في صلبه، بعدا إيديولوجيا من خاصية ما، فإنه يعترف ضمنيا بالقيمة الاعتبارية التي مثلها قدم علاقات التبادل وعمقها، واستمرارها في الزمن دون انقطاع. إنه يؤكد من جهة أخرى، أن الإسلام الأصلي الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية، إنما كان مرتبطا هو الآخر، بتجارة القوافل.

لقد كانت هذه المبادلات التجارية تتم، حتى وإن تغيرت طرقها مع مرور الزمن، حول حوض نهر السنغال، وهي الحدود التاريخية للقوافل القادمة من الشمال ونقطة الربط بين الاتجاهين معا[2] . لقد كان إدراكها شاقا وإلى حد بعيد، إذ كانت تقتني فيافي الصحراء، في رحلات طويلة قد تصل مدتها في بعض الأحيان، إلى 50 يوما بالأرجل[3] .

كانت تجارة مربحة بكل المقاييس: يستقدم من الجنوب، العبيد والذهب والتوابل، وريش الطيور والأقمشة والمخدرات والحبوب، ويستقدم من الشمال، بما فيها أوروبا، الملح والخيول، والتمور والجواهر والنحاس، و«الممحاة العربية» والأنسجة الراقية والكتب والموسوعات وغيرها.

بيد أن وصول القوى الاستعمارية أسهم في تقويض هذه التجارة الإفريقية العابرة

1-راجع: Triaud. J. L. La relation historique maghrébo-africaine....Art. Précité.

2-راجع: Konate. D. Les relations économiques entre Fès et l'Afrique. In Fès et l'Afrique. relations économiques. culturelles et spirituelles. série Colloques et Séminaires. Publication de l'Institut d'Études Africaines. Rabat. 1993.

3-Ennaji. M. Soldats. domestiques et concubines...Op. cit.

للصحراء، وأجبر روادها على التأقلم مع متطلبات وإكراهات الاقتصاديات الغربية المهيمنة.

وعلى الرغم من هذا «الحصار الشديد» الذي تعرضت له التجارة إياها بين المغرب وأمبراطوريات إفريقيا جنوب الصحراء، فإن «التجارة الموازية» بين الطرفين، صمدت بقوة في وجه الهيمنة التجارية الأوروبية، لا سيما على مستوى محور السنغال- المغرب[1] .

لقد كان محور القوافل الأساسي يخترق بلاد شنكيط (موريطانيا الحالية)، ليصل إلى الصويرة، عبر سان لوي من جهة أولى (مرورا ب»روسو» و»عطار» و»إيدجيل» وتندوف) وعبر «نيورو» (بمقربة من عطار، شنكيط، وادان وتندوف) من جهة ثانية[2] .

«قواعد» الفضاء الإفريقي ما قبل الاستعمار

تنطلق هذه المقاربة البسيطة من واقع تاريخي، هو إلى تسلسل الأحداث أقرب منه إلى «الكتابات» المعمقة والمتراصة منهجيا. إنها فرضية عمل تأخذ من الواقع التاريخي للعلاقات القائمة بين الشمال والفضاءات جنوب/صحراوية، موضوعها ومادتها.

ويبدو لنا هنا أن الدراسات العلمية المتعلقة بهذه الزاوية، لا تزال في بداياتها الأولى، إذ إن البحوث المتمحورة حول «المركزية الأوروبية» (اللهم إلا بعض الاستثناءات النادرة) اكتفت بدراسة المجال الساحلي، في صيرورته وتموجاته، بمعزل شبه تام عن علاقاته ببلدان شمال إفريقيا.

ولذلك، فإن التفكير انطلاقا من مفاهيم هي من مجال القانون والأنتروبولوجيا

1-- راجع: Pian. A. Les sénégalais en transit au Maroc. La formation d'un espace temps de l'entre-deux aux marges de l'Europe. Thèse. Université de Paris 7-Diderot. 2007.

2-- راجع: Marfaing. L. Relations et échanges des commerçants sénégalais vers la Mauritanie et le Maroc au XXe siècle. In Marfaing. L. Wippel. S (Dir.). Les relations transsahariennes à l'époque contemporaine : un espace en constante mutation. Paris. Éd. Karthala. 2003.

الغربيين، لا يسعفنا كثيرا كي نتلمس طبيعة وملابسات هذه الفترة الطويلة من العلاقات بين شمال القارة وجنوبها. بيد أننا لا يمكن، في الآن ذاته، أن نتجاوزها أو نغض الطرف عنها، على الأقل من باب العمل على تبيان نواقصها ومحدودية طرحها.

إن طرحنا ينطلق من مفهوم «الدولة (الدولة الوطنية) كما تشكلت واستقرت ابتداء من القرن الخامس عشر في أوروبا.

المؤرخون الأفارقة، وضمنهم بالتحديد جوزيف كي- زيربو[1]، وصفوا الأمبراطوريات والملكيات و»الدول» بالرجوع إلى مصطلح «السلط المركزية»، تلك التي تخضع لتراتبية هرمية قارة، وتمارس «السيادة» على مجال تحدده جغرافيته وساكنته. الحدود هنا حدود طبيعية، لا تداعيات لها كبرى من منظور عدم الاستمرارية البشرية للإثنيات التي تعتبر إفريقيا جنوب الصحراء موطنها وحاضنها دون منازع.

ما المقصود ب«الدولة» في إفريقيا الغربية القديمة؟

من الثابت تاريخيا، أنه كان ثمة أنماط قديمة للشرعية خاصة بالسلطات المركزية للأمبراطوريات الإفريقية. لقد كانت أمبراطوريات غير متمركزة، بحكم شساعة المجالات الترابية التي تغطيها، وتعذر سبل التحكم فيها، كما الحال تماما في وقتنا الراهن مع فارق السياق. لقد كانت الكثافة السكانية من بين ظهرانيها ضعيفة للغاية، وكان النشاط الأساس للسكان مرتبطا بالهجرات المنتظمة للتجار والرعاة الرحل.

في صلب ذلك، أفرز ظهور الإسلام وانتشار المذهب المالكي/السني القادم من الشمال، منظومات ولاء جديدة، بقيت سائدة إلى حين وصول البعثات الاستعمارية الأوروبية الأولى. لقد استمرت «المشايخ» المحلية الأساس (وإن في اختلاف توجهاتها) في الالتزام بمقتضيات الولاء والبيعة، معتبرة أن طاعة الله وأولي الأمر منصوص

1- Ki-Zerbo. J. Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain. Éd. Hatier. 2002.

عليها في الكتاب والسنة، ناهيك عن القيمة الكبرى التي توليها لها المدرسة المالكية[1].

جل الكتابات التاريخية والسوسيولوجية والأنتروبولوجية، المتمحورة حول دراسة الظاهرة الدينية في إفريقيا الغربية، تشير إلى هيمنة الديانة الإسلامية ذات الأغلبية السنية/المالكية، على ما سواها من ديانات. لقد كانت المسيحية (الكاثوليكية) موجودة وممارسة، وبعض الحركات الإنجيلية فاعلة ونشيطة (لا سيما في إفريقيا الاستوائية)، لكنها لم تستطع منافسة الإسلام ولا الاقتطاع من المساحة المعتبرة التي كان يحتلها في حينه.

ومع ذلك، فإن هذا لا ينفي أن مجال الإسلام السني ذاته كان مخترقا، وإن بصورة متباينة حسب البلدان، من طرف حركات سنية ذات توجه وهابي، سلفي متشدد، ومن طرف حركات شيعية إحدى عشرية مرتبطة بمنظومة التشيع القادمة من إيران أو من بعض بلدان الشام.

يجب أن نذكر، بخصوص هذه الجزئية الهامة، إلى أن تمركز السلفية الجهادية في إفريقيا جنوب الصحراء، هو ظاهرة مستجدة ومحدودة، بيد أنها تراهن على مقاصدها الإرهابية أكثر ما تدفع بمنظومة دينية أو فقهية يعتد بها: بوكو حرام2 في نيجيريا وفي البلدان المجاورة لها، حركة الشباب الصومالية التي وسعت من نشاطها ليطال كينيا، منظمة القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي التي تنشط في الجزائر، ويصل مدها لعمق الصحراء الإفريقية الكبرى...الخ.

يجب أن نذكر أيضا بأنه إذا كان واقع التعددية في الممارسات الدينية في إفريقيا، قد بات واقعا قائما وثابتا، فإن المعتقدات والتمثلات المحلية الموغلة في القدم، قد نجحت وإلى حد كبير، في التعايش جنبا إلى جنب مع الإسلام ومع المسيحية على حد

1- الإحالة هنا على إمارات وسلطنات بلدان جنوب الصحراء، المحاذية لمالي وغانا. راجع: Ki-Zerbo. J. Histoire de l'Afrique noire...Op.cit.

2-راجع: De Montclos. M. A. P. Bouko Haram et le terrorisme islamiste au Nigéria : Insurrection religieuse. contestation politique ou protestation sociale?. Centre d'Études et de Recherches Internationales. Questions de Recherche n° 40. juin 2012.

سواء.

بموازاة ذلك أو في صلبه، فإن ثمة مظهرين أساسيين اثنين، جد جليين في الدول ذات الأغلبية المسلمة، يستدعيان التتبع عن قرب:

• يتعلق المظهر الأول بحركة الزوايا ذات الأصول الصوفية الخالصة، والتي لم تفتأ تهيكل مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء، بل أصبحت الخاصية والمحرك الأساس في الممارسة الدينية والاجتماعية هناك.

• يرتبط المظهر الثاني بتزايد نفوذ حركات سلفية من خاصية جهادية متشددة، تنشد العنف والترهيب، من قبيل بوكوحرام ، التي تتحدى جهارا نهارا بلدان الساحل (نيجيريا، تشاد، مالي...)، ثم تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، والذي ينشط بكثافة في الشمال (بجنوب الجزائرتحديدا)، كما يتحرك في مالي وتشاد وموريطانيا وغيرها[1] .

إن إعادة إحياء وتنشيط مقاصد الإسلام السني، إسلام الاعتدال وإسلام الصوفية[2] ، إنما بات مطلبا وضرورة مستعجلة لمواجهة وصد هذه الموجة الجديدة من التطرف والإرهاب.

ولعله من الضروري هنا أن نعترف بأن الصوفية والزوايا بإفريقيا جنوب الصحراء، قد غدت حقا من السبل الناجعة القوية لإعادة إحياء العلاقات القوية التي كانت قائمة بين المغرب وبلدان جنوب الصحراء، ولقرون طويلة مضت. لقد لعبت الحركة الصوفية هذا الدور، حتى في ظل أحلك فترات الاستعمارو الحماية، ويبدو أنه بمقدورها اليوم تطوير آليات وأشكال التجديد والإبداع، كي يكون بمستطاعها الصمود، ومن ثمة الفعل في سياق حقل ديني معقد، غير مستقرومخترق فضلا عن

1-راجع: Ngassam. R. N. Les défis du terrorisme en Afrique : AQMI. une menace stratégique ?. Mémoire. Université de Douala. 2011.

2-راجع: Cheikh Moussa. I. Le soufisme. un remède contre les dérives de l'Islamisme radical ?. In Chadli. E (Dir.). Les Islamistes au défi du pouvoir : discours. représentations et médiatisation. Konrad Adenauer Stiftung (Bureau de Rabat). 2016.

ذلك، من لدن رهانات وحسابات وترتيبات لا تعمل كلها في واضحة النهار.

حركة الزوايا السنية في إفريقيا جنوب الصحراء

ثمة حركتان مركزيتان اثنتان ميزتا الممارسة الصوفية في مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء، وذهبتا لحد هيكلة السياسة الدينية لهذه الدول: التيجانية[1] والمريدين[2] لقد كانتا ولا تزالان، إحدى الطرق الصوفية الكبرى التي تعمل على إحياء مقاصد الإسلام.

إن الصوفية السنية في إفريقيا جنوب الصحراء (وفي غيرها من جهات إفريقيا) إنما هي «ظاهرة» ملازمة لأصول الأسلمة التي أتت من الشمال، ومن المغرب على وجه التحديد.

بيد أن ثمة أطروحات «مركزية/أوروبية» جد شائعة، مفادها أن الصوفية الإفريقية إنما ولدت وتهيكلت بطريقة مستقلة، أولا لمواجهة الدخول الأوروبي (الاستعماري)، وثانيا لمواجهة «عجرفة عرب الشمال[3]» .

صحيح أن الصوفية في إفريقيا جنوب الصحراء قد كانت محور مقاومة صلبة، كما الحال في المغرب في ظل حكم السعديين مثلا، لكنها بقيت في غالبيتها العظمى صوفية سنية، مالكية ومرتبطة بالطريقة القادرية (المريدين) والتيجانية، واللتان ولدتا معا بالشمال، على الرغم من أن النتائج السياسية لعلاقاتهما مع الدول المحلية كانت ذات طبيعة خاصة[4] .

الفارق هنا هو فارق تاريخي ليس إلا، إذ تندرج الصوفية الإفريقية في سياق

1-راجع: Adnani. J. La Tijaniya (1791-1880) : les origines d'une confrérie maghrébine. Rabat. Éd. Marsam. 2007.

2-المريدون أو المريدية هي ثاني زاوية تظهر في السنغال بعد التيجانية. تتواجد بقوة في غامبيا أيضا. أسست في بداية القرن العشرين من طرف الشيخ أحمادو بامبا، ولم تفتأ من حينه تلعب دورا سياسيا واقتصاديا متميزا. الرئيس السنغالي عبدو واد، الذي انتخب رئيسا للبلاد في العام 2000، هو أول رئيس مريدي بالسنغال.

3-راجع: Sambe. B. L'Islam dans les relations arabo-africaines : rôles et usages des confréries et associations islamiques dans les rapports entre le Sénégal et les pays du Monde arabe. Thèse. Université Lyon 2. 2003.

4- راجع: O'Brien. D. C. La filière musulmane : Confréries soufies et politique en Afrique noire (Traduit de l'anglais par Christian Coulan). Politique africaine. novembre 1981.

استمرارية وتقاليد الصوفية السنية، على اعتبار أن أصل المذهب السني يكمن، في حد ذاته، في استقلاليته التنظيمية، وفي طبيعته التراتبية المتوافقة مع أشكال الولاء السائدة. الصوفية الإفريقية هي إذن، وبصرف النظر عن بعض القراءات غير المنصفة، عنصرا مركزيا وحيويا ضمن عناصر الإسلام السني الأخرى.

ولكي نفهم معنى الزاوية، علينا أن نعود إلى أصولها، أي إلى أصول الطرق الصوفية في الإسلام. إن أصل الزوايا يحيل على مصادر الإلهام لدى كبار الصوفية المسلمين للقرون الأولى من الإسلام.

عندما جاء الإسلام، عمد العديد من الرجال والنساء، من خلال فهمهم للقرآن الكريم والتأمل في ملكوت الله، ومن خلال نفورهم من الحياة المادية، إلى الانعزال والاعتكاف كي يركزوا أكثر على الحب الإلهي والتقرب إلى الله عزوجل. هؤلاء الرجال والنساء (القديسون، في نظر البعض) هم الذين أطلقت عليهم تسمية «الصوفية»، بحكم (حسب ما تردد) ثياب الصوف التي كان بعضهم يتدثر بها[1].

فيما بين القرنين التاسع والعاشر، وهما قرنا الصوفية بامتياز، عرفت الديانة الإسلامية بروز كبار الشيوخ الصوفية. كان مجمل كلامهم يروى شفويا، أو يتم تدوينه وحفظه في كتب من طرف تلامذتهم ومريديهم.

ابتداء من القرن الثاني عشر، سيتحلق تدريجيا حول هؤلاء المؤسسين الصوفية (من أجل تلقي علمهم الديني والتبرك بتقواهم وإشعاعهم الروحي) تلامذة ومريدون، متلهفون لتعلم بعض العلوم والآداب التي تمكنهم هم الآخرون، من أن يدخلوا في علاقة مع الله تعالى بطريقة حميمية ومباشرة. هكذا نشأت الطرق الصوفية باعتبارها مسلكا من مسالك خلاص الروح.

كل زاوية من الزوايا تحمل اسم مؤسسها. إنه صاحب المذهب المستنبط من الإسلام. وبالتالي، فهي مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي، يؤسسها ويقوم عليها زعيم ديني، يساعده في ذلك معجبون وأتباع[2].

1-راجع الكتاب التأسيسي: Coppolani. X. Depont. O. Les confréries religieuses musulmanes. Alger. 1897.

2-راجع: Sbai. J. Confréries et pratiques traditionnelles dans l'Islam marocain du XIe au XXe siècle. Mé-

كل أعضاء الزاوية ملزمون بفرائض الإسلام الخمس. بيد أن لكل زاوية مميزات خاصة بها على مستوى الممارسة، لا سيما فيما يخص الذكر والورد. لكل زاوية ورد، وهي عناصر مميزة وهوياتية تحدد من خلال استحضار أسماء الله الحسنى والدعوات للرسول صلى الله عليه وسلم، قريبة من التأمل، عن طريق سبحة من 99 إلى 100 حبة، مصحوبة باستظهار مسترسل ومتواتر لبعض السور القرآنية، يتم إعمالها في بعض فترات الليل والنهار، بطريقة منتظمة وقارة[1].

تمارس الزوايا إذن تمرينا روحيا عميقا، يطلق عليه «الذكر». وهي ممارسة روحية سامية، تقود أعضاء الزاوية لمستوى يكونون خلاله «في وحدة كاملة مع الخالق»، من خلال تكرار سور من القرآن، تنهل من تعبيرات الشهادة، ومن تلك التي توحد الله وتمجد سيرة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إنها حصص من الذكر تمثل اللحظات القوية للمحاكاة الجماعية لدى الزاوية.

تعود الطريقة التيجانية، في نشأتها وتطورها، إلى سيدي أحمد التيجاني، المتوفى بفاس في العام 1815 وهي مدرسة تنهل مبادئها من النصوص الدينية التقليدية للإسلام، وخصوصا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يضاف إلى هذه المبادئ، استظهار العبر المستقاة من القرآن، والتي تسمى «ورد الذكر» (ذكريات، تذكير إلهي...الخ). أما تسلسل التيجانية، فإنه يتم على يد الزعيم الديني، أو من المقدم (وهو من أعيان الزاوية) لفائدة المريد (التلميذ). هو الذي يمنح الورد التيجاني.

تتكون التيجانية من عدة أنواع من الورد، من قبيل الوصيفة (الصلاة) والحضرة أو الوظيفة، وهي حصة ذكر جماعية، غالبا ما تتم في أيام الجمعة. ثم إن الالتحاق بالتيجانية يستثني أي انتماء آخر لزاوية أخرى، كما أن على المريد أن يؤدي قسم الالتزام بممارسة الورد، لأنه مصدر التطهير الأخلاقي وباب النفاذ للمراتب الروحية

moire. Institut National des Langues et Civilisations Orientales. septembre 1993.

1-راجع: Dermenghem. E. Le culte des saints dans l'Islam maghrébin. Paris. Gallimard. 1982.

المتقدمة[1] .

دخلت التيجانية «الإفريقية» إلى السنغال في العام 1835م، على يد الزعيم الديني المعروف شيخ عمر تال (1864-1799م)، والذي سيتم استخلافه من لدن الحاج مالك سي (1922-1855م). هذا الأخير هو الذي استطاع أن يوسع من نفوذ الزاوية إلى بلاد وولوف (السنغال).

في العام 1902، سيستقر الرجل نهائيا في «تيفاوان» (منطقة في السنغال). من حينه، أصبحت المنطقة من أكبر عواصم التيجانية في السنيغال. كما تحولت إلى مركز حقيقي لتعليم الثقافة الإسلامية، في سياق التقليد الصرف السائد في المغرب (فاس ومراكش).

تمثل الزاوية التيجانية، في زمننا الحاضر، أكثر من 51 بالمائة من مسلمي السنيغال. الخليفة هو ممثل الجماعة. للمريدين التيجانيين زعيم واحد، هو الذي يقود عملية الكمال من أجل بلوغ المراتب الروحية العليا. إنهم لا يخرجون عن نطاق المصادر التالية: القرآن، السنة والورد التيجاني الذي يحمل اسم المؤسس.

إن الزعيم الأشهر للطريقة التيجانية هو الشيخ أحمد التيجاني2 . هو الذي ورث علمه الحصري، فيما يقال ويروى، عن سلسلة مرتبطة ومتراصة، تنهل من معين بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما بقية المقدمين (أعيان الزاوية)، فإن دورهم يقتصر على مساعدة المريدين الجدد. هم الذين يرسمون لهم الطريق ويساعدونهم لإدراك السمو الروحي النقي.

تتم الخلافة داخل عائلة «سي» المنحدر من تيفاوان، من الأب لابنه، أو من ضمن الإخوة البالغين المنحدرين من الزعيم/المؤسس. جل أعضاء الطريقة التيجانية يلتقون سنويا وبانتظام، من بين ظهراني مدينة «تيفاوان» المقدسة، أو في مدينة أخرى من السنيغال، يوجد بها أتباع كثر. ينصب الاحتفال ب»غامو»، أو المولد،

1- راجع : نياس.س.إ، «إضاءات على الطريقة التيجانية»، منشورات فيضة، دكار، 2010.

2-راجع من أجل مزيد من التفاصيل عن حياة أحمد التيجاني، موقع الطريقة: www.tidjania.com

ذكرى ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، على الأغاني الدينية وعلى القراءات القرآنية، فيما تبقى مدينة فاس، وجهة «الحج» الدورية لكل تيجاني، حيثما وجد.

أما المريدية (المتطلع إلى الله، مريد الله أو المريدية)، والتي أسسها وقام عليها الشيخ أحمادو بامبا، فهي مجموعة من الممارسات الثقافية ومن قواعد السلوك الأخلاقية. إنها صوفية مبنية على صفاء الحب وعلى تقليد سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، تتمثل مقاصدها السامية في الكمال الروحي للفرد. إنها ليست فقط مجموعة من المعتقدات والممارسات، بل هي نمط حياة يستنبط مصادره ومعانيه من سيرة وسلوك نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم.

استلهم أحمادو بامبا (1927-1850م) صوفيته من الطريقة القادرية بسان لوي بالسينغال، من طرف الزعيم الديني الموريطاني الشيخ سيديا. أسس في العام 1880م المريدية. وهي مدرسة مبنية على التمرس والتجربة وعلى الإيمان الداخلي للفرد. هي سبيل يقود إلى ملاقاة الله تعالى، وإلى الانفصال التام عن الحياة المادية، من خلال الزهد.

وبغض النظر عن نية الشيخ أحمادو بامبا تكوين إطار ديني «رسمي» (زاوية)، فإنه كان يهتم أكثر بما يجب أن يكون عليه المسلم، بما يشكل حياته الروحية، وبالواجبات التي عليه أن يتحملها في كل مجالات الحياة.

عندما نعود لكتابات الشيخ أحمادو بامبا («القصائد[1]») ، فإننا نلاحظ أن المريدية هي إطار للسمو الروحي والاجتماعي للمسلم. كل مريد من مريدي هذه الطريقة عليه أن يكون مسلما، «يشتغل» على روحانياته، انطلاقا من المكونات الثلاثة الثابتة للديانة الإسلامية: الإيمان والإسلام والإحسان. وهو نفس مقصد الصوفية السنية التي اعتمدها المغرب رسميا، وجعل منها جزءا لا يتجزأ من نمط تدينه.

الإيمان هو الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، وبالرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره آخر الأنبياء والمرسلين. الفرائض الأساسية تتمثل في الامتثال لله عزوجل، ثم النهوض

1-راجع: Sylla. A. K، La doctrine de cheikh Ahmadou Bamba : Origines et enseignements، Paris، Éd. L'Harmattan، 2015.

بالفرائض الخمس: الشهادة (شهادة وجود الله الواحد الأحد، وبمحمد كآخر رسله)، الصلاة (خمس صلوات في اليوم)، الزكاة (ضريبة أو صدقة قانونية للفقراء)، صوم رمضان، وحج مكة لمن استطاع إلى ذلك سبيلا.

أما الإحسان (عمل الخير) فهو علم يختص بتجميل أفعال وأعمال الفرد. يجب على المريد، أن يكون متوافقا هنا، في سلوكه وفي نمط عيشه، مع مقتضيات الدين، من خلال نضال مستمر ومنتظم، كي يتمكن من التخلص من عيوبه وذنوبه. إنها المرحلة الأكثر صعوبة، لأن إدراكها لا يتم إلا باتباع المريد وتقليد تصرفات معلمه.

يجب على المريد أن يكون صاحب عقل نقدي، أن تتوفر لديه القابلية للتمييز، لا سيما على مستوى اختيار المعلم. النقطة الأساس هنا هي التلقي على يد الشخص الذي من المفروض أن ينحدر مباشرة من العلامة الشهير الراحل أحمادو مباكي، المسمى «سيرين توبا». ولذلك، فإن ضمان استمرارية وإشعاع الطريقة، إنما يستوجب توارث «الخلافة» بين الأب وأحد أبنائه البالغين، وتدبيرا صارما في التنظيم: الزعيم أو الخليفة/المعلم، ثم المريدون، بمثابة ومقام المستشارين، ثم الأعضاء، وينحدرون من مختلف الشرائح والطبقات الاجتماعية.

يقدر عدد أعضاء الزاوية المريدية اليوم بحوالي 30 بالمائة من ال 90 بالمائة من مسلمي السنغال. تتوفر الزاوية على العديد من المدارس القرآنية موزعة بكل البلاد، يلقن فيها القرآن ومبادئ الإسلام الصحيح، وتدرس بها كتب الأب/المؤسس. أما أعضاء الجماعة المريدية، فإنهم يتواجدون كل سنة، في المدينة المقدسة «توبا»، من أجل الاحتفال بعودة أحمادو بامبا من المنفى. يطلق على هذه الاحتفالات مسمى: «مغال توبا[1]».

المغرب والصوفية الإفريقية

1-راجع: Monteil. V. Une confrérie musulmane : les mourides du Sénégal. Archives de sociologie des religions. vol. 14. n° 1. Année 1962.

يجب أن نتوقف هنا عند العناصر الجوهرية التالية:

يعتبر الماضي المرابطي والموحدي، وماضي باقي الأسر التي توالت على حكم المغرب، الخميرة الطبيعية التي ترتبت عنها وتولدت منها عملية أسلمة إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بصرف النظر عن الجدل الذي يعزو ذلك لتأثير الحروب والغزوات وتجارة الرقيق. إن دراسة تاريخ تجارة القوافل إنما تدلنا على الطرق البرية القادمة من فاس ومن مراكش، والمتوجهة صوب كبريات عواصم الأمبراطوريات والملكيات الجنوب/إفريقية[1].

لقد عمدت القوى الاستعمارية إلى تشديد إغلاق الطرق الرابطة بين الشمال وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وأخضعت كل الفضاءات القادمة أو المؤدية إليها، لاعتبارات الأولوية العسكرية في التبادل مع أوروبا، مع القبول ببعض المبادلات المحدودة مع شمال إفريقيا، في أفق إدماجها في الاقتصاد الاستعماري الغرب/إفريقي.

إن الإسلام، الذي كان خلف قيام حضارة إسلامية حقيقية في بلدان جنوب الصحراء، والتي استمرت إلى حين فترة الاستعمار وما بعدها، قد أسهمت بحق في ربط الجنوب بالشمال. لقد كانت عنصر تقاطع تجارة القوافل مع القداسة، مع التعليم الديني ومع تيارات الهجرة العابرة للصحراء.

وقد كانت تومبوكتو النموذج المباشر المعبر عن هذا التقاطع. نحتاج هنا إلى استرجاع دقيق للوثائق المخزنة بالأرشيفات الوطنية، لا سيما ضمن ما يتوفر من مخطوطات تومبوكتو، التي تؤرخ لأثر المغرب هناك. يوفر فن الخط بدوره مادة غنية لتتبع هذا الأثر[2]. كل هذا يستحق تعميقا وتدقيقا حسب نوعية المادة المتعامل معها، انطلاقا من المعلومات الموثقة، وانتهاء بمرويات التقاليد الشفوية المستعملة

1- راجع: Grégoire. E. Schmitz. J (Ed). Afrique noire et monde arabe : continuités et ruptures. Éd. de l'Aube. 2000.

2-راجع: Sebti. A. L'homme qui a conquis Tombouctou. Revue Zaman. 3 décembre 2012.

في الذكر أو في القراءة.

إن الزيارات الأولى التي قام بها الملوك المغاربة لرؤساء الدول الإفريقية، في عهد محمد الخامس والحسن الثاني رحمهما الله، وزيارات محمد السادس نصره الله أيضا، غالبا ما كانت تكتسي حلة احتفالية خاصة، تبرز بجلاء علامات الانتماء والتعلق بالإسلام: صلاة رسمية يوم الجمعة، استقبال الملك للزعماء والوجهاء الدينيين (الزوايا) بصفته أميرا للمؤمنين، استقبال مشايخ المجموعات الإثنية مع تقدير خاص لمعتقداتهم المحلية...الخ.

بالإضافة إلى ذلك، فغالبا ما يتم، في الأوقات العادية، تبادل التهاني بين الجانبين، بمناسبة الأعياد الدينية، أو في التعازي الموجهة لعائلات الخلفاء الصوفية، والزيارات التي يقوم بها إليهم الحاجب الملكي أو وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أو ما سواهما...كلها أمور تبين الارتباط والتعلق الشديدين بالمشترك السني، بالمحبة الصوفية وبذكريات الماضي المتقاسم.

ولعل أمسيات شهر رمضان، لا سيما الدروس الدينية التي يستدعى لها الدبلوماسيون المسلمون الأفارقة، والزيارات البروتوكولية التي يقومون بها لضريح سيدي أحمد التيجاني بفاس[1] ، لدليل آخر على عمق العلاقات المتمحورة حول القيم الكبرى التي تجسدها ثلاثية المالكية والأشعرية والتصوف السني، ويتقاسمها المغرب مع غالبية مسلمي إفريقيا جنوب الصحراء.

الإسلام والمعتقدات الإفريقية التقليدية

ركزت السوسيولوجيا الدينية التي اتخذت من إفريقيا مادة للبحث والتنقيب، كل جهودها على دراسة مكانة الإسلام والمسيحية، في الوقت الذي كان من المفروض أن تأخذ بعين الاعتبار أيضا، الديانات التقليدية، وكذا إشكاليات تعايش الأديان

1-راجع: Berriane. J، Intégration symbolique à Fès et ancrages sur l'ailleurs: les Africains subsahariens et leur apport à la zaouia d'Ahmad Al-Tijani، L'Année du Maghreb، n° 11، 2014.

والمعتقدات، والتوترات التي تنتج وتترتب على ذلك في الزمن والمكان.

لا تزال الديانات الإفريقية التقليدية حية إلى يومنا هذا. إنها تتوافق وتتعايش مع الإسلام ومع المسيحية دون صعوبة أو تشدد؛ فإذا كانت الغالبية العظمى من الأفارقة هم اليوم إما مسلمون أو مسيحيون، فإنهم ظلوا مع ذلك، جد متأثرين بالديانات الأصلية التي كانوا يؤمنون ويتعلقون بها[1] .

صحيح أن هذه الديانات تعرف تراجعا مطردا يوما عن يوم، إذ باتت في منظور العديد من الأفارقة أقل ثراء وإغراء، قياسا إلى ما تمنحه الديانتان الإسلامية والمسيحية على مستوى الممارسة والطقوس. إلا أن هذا التصور يبقى مع ذلك، نسبيا ويحمل بعدا «ثقافويا» جافا، إذ لا تزال المعتقدات القديمة المتجذرة، تتخلل ثقافة وتَمثّل الملايين من الأفارقة.

إن انتشار الإسلام والمسيحية لم «يسهل المهمة» حقا على واقع ومستقبل الديانات الإفريقية، والتي تعتبر بالنسبة للعديدين، مجرد سحر وشعوذة ومجموعة من الطقوس الخرافية. بيد أن ثمة بلدانا وشعوبا لا تزال تبدي مقاومة عنيدة في وجه هذا النزوع. إنها لا تزال «متقوقعة» حول الديانات الإفريقية الأولى، ولا تفسح في المجال لأي تعدد ديني يذكر. أدناه بعض الأمثلة من واقع الحال هذا:

في بنين، ثمة أغلبية لا تزال تمارس الديانة الإفريقية.

في العديد من بلدان خليج غينيا، هناك شعوب «فون غبي» و«إيوي» و «يوريبا»، لا تزال تمارس ال «فودو».

في الكاميرون، تمارس الديانة الإفريقية من لدن ال «باميليكي» و ال «بامونس».

في الغابون، ثمة جزء من ال «فانغس» وال «ميتسوغو»، بال «بويتي».

1-راجع: Tremblay. E، Représentations des religions traditionnelles africaines : Analyse comparative de réseaux régionaux et disciplinaires africains et occidentaux، Mémoire، Université de Montréal، juin 2010.

في مالي، من لدن العديد من ال «مادينغ»، لا سيما ال «المليني»، «البامباراس» و«الدغون».

في السنيغال، من لدن «السريري»، الديولا، وقبائل المنطقة الشرقية، البادياراني.

في إفريقيا الوسطى، ضمن الغالبية العظمى من وطن الكونغو.

من لدن شعوب نيلوتس بهضبة ال «أومو»، «ديانكا»، «نوير»، «حامر» و «نياغاطوم».

من لدن المجموعات المختلفة «ماسياس» نحو كينيا وتنزانيا

في إفريقيا الاستوائية، من طرف ال «شوناس[1]» .

كما توجد مجموعات ال «فودو» وتيار ال «كيميت»، لدى الدياسبورا الإفريقية وبإفريقيا ذاتها. للتذكير فقط، فمصطلح «كيميت» مشتق من كلمة كيمت، وهو الاسم الذي كان يعطى لمصر القديمة من لدن المصريين القدامى، والذي يعتبره الأفريكانيون تعبيرا عن «أرض السود». هذا التياريضم أسماء المكونات التي تحتويه والتي استعادتها الديانة المصرية القديمة.

ومع ذلك، فليس ثمة من شك في أن الديانات الإفريقية القديمة تعرف تراجعا ملحوظا، إذ إن معظم الذين كانوا يعتنقونها شاخوا وهرموا، وقليلون هم اليوم (من ضمن الشباب الإفريقي تحديدا) من يقبل بالاستمرار على هديها أو يعمد إلى تعلمها وتوريثها لأبنائه وللأجيال القادمة. وهو ما يدفع البعض إلى اعتبار مستقبل البعد الروحي في إفريقيا ضمن مجال المجهول.

1-راجع: Sene. A. Les structures anthropologiques de l'imaginaire en Afrique noire traditionnelle : ou vers une archetypologie des concepts de pratiques rituelles et de représentations sociales. Thèse. Université Pierre Mendès France. 2004.

آفاق التعاون: تحديد مجال التقليد والتجديد الديني

يعدّ البعد الديني مفصلا من مفاصل السياسة الخارجية للمغرب، في علاقته (الثنائية ومتعددة الأطراف) ببلدان إفريقيا جنوب الصحراء. بيد أنه بُعدٌ يحيل أيضا وفي الآن ذاته على العلاقة بين شرائح وطبقات اجتماعية عدة.

انطلاقا من هذه المسلمة، بإمكاننا فهم سياق ومتغيرات وآليات فعل الحقل الديني الذي يعمل المغرب على التعاون في إطاره، مع هذه الجهة من إفريقيا الشاسعة جغرافيا، والمتنوعة ثقافيا ودينيا وإثنيا. لنذكّر هنا بأهم عناصر هذا السياق، وبالمتغيرات الكبرى التي تنتظم في إطاره:

أولا: للدولة المغربية خصوصياتها ومميزاتها الأساس: أهمها على الإطلاق، مركزية مؤسسة إمارة المؤمنين (الإمامة العظمى). هذه اللازمة أساسية، في نظرنا، في تحديد طبيعة وتوجه العلاقات الرسمية التي تربط المغرب ببلدان إفريقيا جنوب الصحراء. ثم هي أساسية أيضا من زاوية البعد الرمزي الذي جسدته هذه المؤسسة، ولا تزال تجسده لدى العديد من الوجاهات الدينية في هذا الجزء من إفريقيا أو ذاك.

ثانيا: يتوفر المغرب على بنيات أساسية ذات مصداقية معتبرة في مجال تدبير الشأن الديني. تكمن نقطة قوة هذا الأخير في كون تدبيره يتم عن طريق المستويات الإدارية المعنية، فيما يتم التنظيم تحت الإشراف المباشر للملك/أمير المؤمنين.

ثالثا: إن خلق مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة مؤخرا، إنما هو بمثابة إشارة قوية ومباشرة إلى عزيمة المغرب على تقوية وتعميق التعاون في المجال الديني مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء. ثم هو تعبير إضافي على انفتاحه على باقي الدول والمجتمعات الإفريقية.

يبين الشكل التالي مفاصل عناصر السياق إياه:

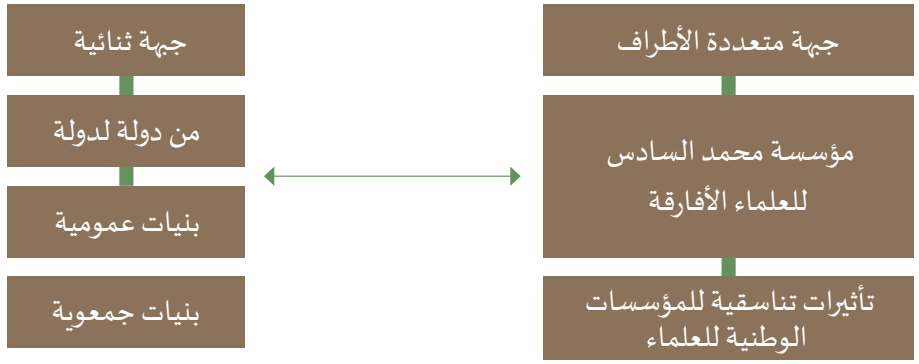

يرتكز هذا الرسم على براديغم النموذج المفتوح والمتناسق. إن ديناميته تستحق أن تكتمل وتغتني بأثر وتأثير التواصل...الإسلام نفسه ديانة تواصل...أليس هو رسالة من الله تعالى...رسالة إلهية خالدة؟

المذهب المالكي في إفريقيا وكتبه المعتمدة عرض لمنظومة بوطليحيه

د. يحيى ولد البراء
جامعة نواكشوط- موريتانيا.

تمثل القارة الإفريقية مجالا مهما من مجالات الإسلام. ومن ميزات الحياة الدينية فيها أنها في الغالب الأعم على مذهب أهل السنة سواء تعلق الأمر بالاعتقاد أو بالفقه أو بالسلوك. ويبدو أن المذهب المالكي هو الأكثر انتشارا بين الناس سواء في الشمال الافريقي أو في دول جنوب الصحراء. ولذا يمكن أن نعتبر هذا المذهب من المشترك بين مسلمي هذه القارة.

ونظرا لكثرة المؤلفات في هذا المذهب وتعدد الفتاوى واختلاف مستويات أصحابها ودرجاتهم في الورع فقد كان الاهتمام بنقد الكتب وفحص محتوياتها أمرا ضروريا. وصدرت عن العلماء المالكية في ذلك آراء وأقوال متناثرة في الكتب. غير أننا لم نجد تآليف متمحضة لهذا الموضوع بالذات إلا في حالات نادرة. ولذا سأتعرض في هذا المقال لمشغل طالما أهمَّ العلماءَ وإن لم يظهر موردا لكثير من التأليف والبحث. وهو مشغل تقييم الكتب الفقهية والفتاوي.

لذا سنهتم في هذا المقال بمبحثين رئيسيين يتعلق أحدهما بتطور وانتشار هذا المذهب في مختلف الدول الإفريقية المعنية ويتعلق الثاني بمشغل المحافظة على سلامة المذهب من خلال تسييج كيفية الفتوى داخله ومن خلال ضبط الكتب والمعلومات.

ولأن محمد النابغة بن اعمر الغلاوي نظم في هذا المجال منظومة معروفة بين الناس متداولة ومفيدة فقد أردنا أن نقدمها للقارئ نموذجا لهذا المشغل الذي نحسبه البذرة الأولى لما يمكن أن نسميه بابيستيمولوجيا الفقه الإسلامي.

ونحن اليوم في حاجة ماسة لإعادة النظر في تراثنا الفقهي لداعيين أساسيين:

• أحدهما حضاري يتمثل في تعقد النوازل الجديدة وتشابكها، واختلاف مُوَجِهاتها المعرفية والفلسفية عن الثقافة الإسلامية وتعدد زوايا نظر المفتين إليها، ودخول أطراف أخرى من غير أهل الشأن في الميدان: مسلمين وغير المسلمين، كل ذلك جعل الناهضين بمهمة النظر وصناعة الفقه يجدون عسرا كبيرا في صياغة فقه يجيب على الوقائع ويستجيب لمتطلبات الواقع.

• وثانيهما ديني يستدعي التقيد أكثر بالقيود والشروط المنظمة لخطة الفتوى، نظرا لكثرة الفوضى التي تعرفها بعد أن فتحت وسائل التواصل والاتصال الباب على مصراعيه لكل من هبَّ ودبَّ ليدلي بدلوه في هذا الميدان الخطير، ويتجرأ على الكلام فيه بدون إذن ولا أذان ولا إقامة. وكانت ثمرة ذلك، - حسب رأيهم - التخبط في الإجابات الفقهية والشذوذ الظاهر، وضعف التأصيل والنظر، لضحالة العُدة العلمية وانعدام الوازع الديني، وإعجاب كل ذي رأي برأيه. فقد أصبح الحال كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا[1]»

ولرد هذا التوجه الخابط خبط عشواء يؤكد هؤلاء على وجوب الاستمساك بقولة الشيخ يوسف بن عمر الأنفاسي (ت. 761هـ) عند قول صاحب الرسالة: «ويستعمل سائر ما ينتفع به طيبا»، «الحلال ضالة مفقودة فيجتهد الإنسان في المتفق عليه في المذهب، فإن لم يجد فالأقوى من الخلاف. فإن لم يجد فالشاذ من المذهب. فإن لم يجد فينظر الخلاف خارج المذهب ولا يخرج عن أقاويل العلماء. وكذا ينبغي في كل مسألة[2]».

1-أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح: 31/1.

2-الحطاب الرُّعيني، محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر،

وسنتناول في هذا المقال محورين أساسيين يتعلق أولهما بالتعريف بالمذهب المالكي كمشترك بين أغلب مسلمي القارة الإفريقية وبتعرف العلماءالموريتانيين عليه، أما المحور الثاني فيتم فيه الحديث عما به الفتوى وما يعتمد من الكتب من خلال منظومة النابغة الغلاوي المسماة «بوطليحيه».

1. المذهب المالكي هو معتمد الملايين من مسلمي إفريقيا

يمكن أن نقول دون بالغ مجازفة أن المذهب المالكي يمثل المشترك في الميدان الفقهي بين العديد من شعوب القارة الإفريقية إن لم نقل إن جل المسلمين الأفارقة هم مالكيون. والمذهب المالكي فرع من تفرعات الشريعة الإسلامية ظهر بدار الهجرة مهد الصحابة والتابعين. وهووثيق الصلة بآراء علماء التابعين، قوي الارتباط بأقوال أكابر فقهاء الصحابة من مثل عمر بن الخطاب (ت. 23هـ) الذي لفتت فتاويه، مما نقل ابن شهاب الزهري (أحد شيوخ الإمام مالك البارزين) عن سعيد بن المسيب، نظرَ الإمام مالك (ت. 179هـ)، فسار على نهجه وترسم خطاه واتبع أكثر آرائه. وقد نص القاضي عياض أوائل كتابه المدارك على أن التمسك به نجاة، واعتبره فقهاء المالكية من المذاهب المبنية على الاحتياط[1].

وقد عرف المذهب المالكي في القرون الأولى للهجرة انتشارا واسعا في مناطق عديدة من دار الإسلام كالعراق والجزيرة العربية ومصر والغرب الإسلامي وبلاد السودان، وإن لم يأخذ توسعه إلا في بلاد المغرب والأندلس حيث عم التمذهب به كل الناس وبه كانت خطة الفتوى والقضاء وعليه المعول في الدراسة. وما زال المذهب المالكي إلى اليوم معروفا وذا حضور قوي في بلدان المغرب ومصر وفي البلدان الإفرقية جنوب الصحراء.

كما مر هذا المذهب بعدة مراحل في مسيرته نحو الاكتمال، بدءا بمرحلة التأسيس التي تكفل بها الإمام مالك نفسه، ثم مرحلة التفريع التي ظهر فيها أتباع الإمام مالك

الطبعة: الثالثة، 1412هـ/1992م: 33/1.

1-المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل أهل غرب وجنوب غرب الصحراء، نواكشوط 2010م.

فأخذوا بمنهجه وأسسوا الإفتاء في الحوادث والوقائع بربطها بأصوله وقواعده. ولقد كانت المدونة الكبرى برواية سحنون (ت. 240هـ) عن عبد الرحمن بن القاسم (ت. 191هـ) التلميذ الأكبر لمالك الميدان الخصب لهذا النشاط والنواة الأولى لهذه المرحلة بالذات.

ثم جاءت من بعد ذلك مرحلة النظر فيما أنتجه أصحاب التفريع الفقهي والاجتهاد المذهبي في تحقيق المناط في الوقائع المستجدة فيما ينطبق عليها من تلك الصور الفرعية وفيما لا ينطبق عليها كل حكم منها على حدة بمراعاة أصول المذهب في كل ذلك.

ويتسم المذهب المالكي بالواقعية. إذ من المعروف عن مالك أنه لم يكن يوغل في الافتراضات النظرية الصرف، بل يكره ذلك ويقول: «إن تكلم الفقيه فيما وقع من المسائل أعين وإن تكلم في غير ما وقع خذل[1]». فكان يحرص كل الحرص على التشبث بما يقع وينزل بالناس.

وأصول مالك جامعة بين النظر والأخذ بالأثر ومراعية المقاصد الشرعية وما تعارف عليه الناس في حياتهم ومعاملاتهم مما لا يتعارض وأدلة الشرع. ولذا كثرت النوازل في هذا الفقه بالخصوص لما لها من وثيق اتصال بالواقع.

كما كثرت كتب هذا المذهب الفقهية وتباعدت في مستوى الجمع والتحرير وإن كانت المدونة التي جمعها وحررها عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون تمثل أول كتاب جمع فقه مالك فأوعب. ومن بعدها بدأ علماء المالكية يكتبون عليها ويعلقون، فجاءت أكثر الكتب الجامعة إما تعليقا أو شرحا على المدونة التي تعد إحدى أمهات المذهب المالكي الأربع إلى جانب «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب (ت. 238هـ)، و«العتبية» أو «المستخرجة» لمُحَمَّد بن عتب (ت. 255هـ)، و«الموازية» لمُحَمَّد بن إبراهيم المعروف بابن المواز (ت. 269هـ).

1-محمد بن أحمد مياره الفاسي، الروض المبهج بشرح بستان فكر المهج في تكميل المنهج، تحقيق محمد فارس الشيخ، دار الكتب العلمية: ص. 42،

وفي موريتانيا انتشر هذا المذهب منذ عدة قرون وعرف تطورا وتعمقا منعدمي النظير. فكان للحركة المرابطية يد قوية في تعميمه وترسيخه بين السكان وتم بأمر منهم اعتماده بشكل مطلق في الفتوى والقضاء والتدريس. فكان أول مذهب فقهي معروف أخذ به العامة واعتمدوه في تدينهم وفي شؤون حياتهم.

كما يعود انتشاره أيضا لسببين آخرين أشار لهما ابن خلدون (ت. 808هـ). يقول في السبب الأول: "فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب[1]".

ويشير إلى السبب الثاني بقوله: «وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته[2]".

ونظرا لقوة تشبث فقهاء المنطقة بالمذهب المالكي فإننا لا نجد أي أثر كان للمذاهب الفقهية الأخرى التي انتظمت عموم العالم الإسلامي كالحنفية والشافعية والحنبلية والظاهرية إلا ما يرد استطرادا في رد الأقوال المذهبية أو اعتمادا في بعض الحالات الاستثنائية النادرة كالأخذ بدليل المخالف أو عند انعدام قول في المذهب يتعلق بالنازلة المسؤول عنها. وقد أدى ذلك بالعلماء إلى الفتوى بوجوب التشبث بالمذهب المالكي والعض عليه بالنواجذ وصرف النظر عن ما سواه متعللين بافتقاد كتب المذاهب الأخرى والجهل بفقهها وتلقي الناس بالقبول للمذهب المالكي

1-المقدمة، دار المصحف، مصر: ص، 21.

2-المرجع نفسه.

2. ما به الفتوى وما يعتمد من الكتب من خلال منظومة بوطليحيه

قبل الحديث عن مضمون هذا التأليف يبدولنا من الضروري التعريف بصاحبه لأنه ذو أثر بالغ في الحياة العلمية لا في موريتانيا فحسب بل في دول جنوب الصحراء وشمالها. فهذا الرجل يبدومن أهم الذين تدعوحياتهم إلى التأمل والتفكير. فبالإضافة إلى علوكعبه في الفقه، وجُرأته وصراحته في الحق، فهو ذلك الرجل الجَوَّالة الآفاق الذي ضرب يمينا وشمالا طلبا للعلم حال الظمآن، فما قرَّ قراره وما رضي بالمتاح، بل طوحت به السبل حتى أوصلته، وكان في مبدأ الشرق من البلاد إلى أقصى نقطة في جنوبها «القبلة[1]»( )، زاوية الاتصال بين المحيط الأطلسي ونهر السنغال. كما أنه ذلك الفقيه صاحب التحري والتحقيق الذي دوَّى صيته في الفضاء الموريتاني ليعيد النظر والتساؤل حول الكثير من القضايا التي عدها معاصروه مسلمات لا تحتاج نقاشا ولا جدلا.

2 . 1 . حياة المؤلف

هو محمد (النابغة) بن عبد الرحمن بن أعمر بن بنيوك من قبيلة الأغلال. ورغم معرفتنا بتاريخ وفاة هذا الرجل، فإن تاريخ مولده يبقى أمرا مجهولا، وإن برزت قرائن تؤكد أن عمره تجاوز السبعين( )، وعلى هذا الأساس يكون من مواليد العقد السابع من القرن الثاني عشر الهجري أو قريبا من ذلك. أخذ العلم قبل أن يسافر إلى القبلة عن خاله عبد الله بن الحاج حماه الله[2]. ولكنه لم يكمل دراسته فيما يبدو على شيخه السالف الذكر، وهذا ما يعني أنه غاب عنه في مقتبل العمر، فاستمر في الدرس على ابنيه من بعده «الرحمة» و«الحامد[3]». وما إن استكمل علوم بلدته «الحوض الشرقي» حتى ارتحل مغربا في طلب المزيد، فكان

1-القبلة: مدلول جغرافي وثقافي يدل على الجنوبية الغربية من موريتانيا الحالية. يحدها من الجنوب نهر السنغال، ومن الشمال تخوم آدرار، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق أفطوط الشرقي. ولهذه المنطقة خصائصها الطبيعية والاقتصادية، وسماتها الثقافية والحضارية المتميزة. انظر: «الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني: ص 71 – 72.

2-موسوعة حياة موريتانيا، جزء الأغلال: ص 125.

3-المباشر على ابن عاشر: ص 5.

سفره الطويل البعيد الشقة والبالغ المشقة في حساب ذلك الوقت[1]( ).

والنابغة يمثل أحد أقطاب العلم المتميزين ومظهرا أخاذا من مظاهر التفاني في طلبه لا يقل شأنا على ما نسمعه عن كبار العلماء والمحدثين عبر التاريخ، وهو يُعيد تقليدا لا غنى عنه للتحقيق في الرواية والدراية، ويُتوج عادة برحلة قد تطول، ويرضى بعدها العالِم بالمقام في مكان ما يبث به العلم ويحيي دارسه.

وينقل أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت: 1331هـ[2])( ) عن رحلته هذه التي قادته في نهاية المطاف إلى منطقة «القبلة»، حيث ألقى عصا التسيار[3]، ورضي بالمكث، ما نصه: «كان كلما اجتمع بعالم وعرض عليه طلبه يسأله أي فن يريد أن يقرأ، فلا يراجعه الكلام بعد ذلك حتى لقي العلامة الشهيرولي الله أحمد بن العاقل الديماني، فقال له: «مشّي»، كلمة يقولها العالم هناك للتلميذ إذا أمره أن يبتدئ في درسه فألقى عصا التسيار»( ).

ونجده بأرض القبلة مرافقا لشيخه أحمد بن العاقل في أسفاره العديدة إلى الأمراء والتلامذة والمراسي، وفي شنقيط أو في الحوض مع شيخه الأول عبد الله بن الحاج حماه الله. كما نراه في منطقة «فوتَه[4]» مع الإمام عبد القادر[5] أحد أعلام المعرفة والسياسة المشهورين في تلك المنطقة، بل في مناطق أخرى عديدة من البلد. ولقد ارتبط بهذا الأخير في علاقة ودية حميمة ومدحه بقصائد وتعاطف معه في محنته وأبدى أسفه الشديد وحزنه على ذهاب دولته، فيقول:

1-راجع كتابه المباشر على ابن عاشر، تحقيق محمد صالح ولد فضيلي (1990م)، المعهد العالي، ص 4: فقد ذكر المحقق بعض المعلومات عن هذا السفر.

2-أديب من قبيلة إيدوعلي، درس على يحظيه بن عبد الودود، وسافر إلى الحج، واستقر بالقاهرة، له كتابه المشهور: «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط».

3-- الوسيط: ص 93.

4-منطقة سهلية زراعية تقع في المنطقة الوسطى من نهر السينغال محاذية لضفتيه، ويعمرها من قديم الزمان شعب البولار.

5-عالم وقائد سياسي بارز. درس في منطقة إيكيدي مع المختار بن بونه وأحمد بن محمد العاقل. ويعد الإمام الثاني من أئمة دولة الخلافة في فوتا، خلف الإمام سليمان بال المؤسس الأول لها. ولقد جاهد الوثنية والنصارى والظلمة. وحاول إصلاح الأحوال السياسية في إمارتي الترارزة ولبراكنه، فحارب الأمير أعلي شنظورة وانتصر عليه في عدة معارك.

ولـعبت بـالمـامِ عبد القـادر وغـادرتـه بـيـن كـل غـادر
وجـيـشت لـه مـن البـنـابر من هدَّ ما بـنـاه مـن مـنابـر
ومزقـت ما عـنـده مـن خزنه وصـيـرت دولــته للخــزنه
وفات فوتَ عدل ذاك الصالح وأصبحوا من بعدُ قوم صالح
لـذاك لـم يصلح لهـا إمام عـوض كـما قـد قاله أعـلام

ولقد كان الإمام عبد القادر الفوتاتوري هو الآخر يجل النابغة ويحترمه ويعطف عليه، بل فوق ذلك يصرح في إحدى رسائله أنه من شيوخه. يتجلى ذلك في التعميم الذي أرسله إلى أهل دولته طالبا منهم العناية والرفق بهذا الرجل مادام في أرضهم جنوب النهر، يقول: «من أمير المؤمنين الشيخ عبد القادر إلى من سيقف على الصك من قاض ومفت ووزير ورئيس قرية، موجبه إليكم أعلمكم بأن حامل هذا الكتاب هو شيخي محمد القلاوي شيخنا. فكل من مر به منكم فليحسن عليه وعلى عياله حتى يجاوز البحر. ومن أراد الجواز من عنده فلا يأخذ منه ولا من رفقته فتيلا ولا نقيرا ولا قطميرا. ومن امتثل ما أمِر به فجازانا وجازاه الله أحسن جزائه. ومن خالف فلا يلومن إلا نفسه. ولله عبد حسان، والسلام»[2].

ويقول في تعميم آخر: «إلحاق أيضا من أمير المؤمنين إلى رئيس كل موضع أن يضرب صفحا عن النابغة وعن قومه من كل من خاصمهم من سود وبيض[3]».

ويعد النابغة من أبرز العلماء الذين عرفتهم منطقة القبلة، وأكبرهم شهرة وذيوع صيت، وأكثرهم تميزا واستقلالا، فقد كان ثقة محققا ضابطا كثير التحرير والتثبت، قائما بالأمر، ولقد أحدث هذا الرجل ضجة عظيمة في منطقة القبلة لما قدم على

1-من نظم أم الطريد في العبر بحوادث الدهر وتقلباته: ص 2.

2-هذه الوثيقة اعتمدناها من تحقيق الأستاذ محمذن بن باباه للنجم الثاقب: ص 13.

3-المرجع نفسه.

أهلها أول مرة، فنهض سيفا مسلولا على ما يراه مخالفا للشرع من سلوكيات وعوائد أهل هذه المنطقة، وداعية ماضي العزم لا تأخذه في الله لومة لائم، فكانت أول بادرة منه عند مقدمه حسبما تروي ذلك الحكاية الشعبية المتواترة أنه انتقد مجموعة من الظواهر التي تعارفها أبناء المجتمع وألفوها.

كما انتقد الكثير من المسائل التي اعتادها المجتمع ودرج عليها عمله، فيقول:

علامـة الجهـل بـهذا الجيل تـرك الرسـالة إلـى خـليل
وترك الأخضري إلى ابن عاشر وتـرك ذيـن للرسـالة احذر
وتـرك الآجـرُومـي للألـفـيـة وتــرك الألــفـية للـكـافـية
إن خــــليلا صـار مثل الشم يشـمـه كـل قـلـيل الـفهـم
قداستوت فيه الكلاب و الذئاب ما أبعد السماء من نبح الكلاب

ولقد كان منهجه في التأليف قائما على أساس التبسيط والضبط لحد يبرز فيه الهاجس التعليمي غالبا، وكأنه يخاطب الصبيان أو العامة والمبتدئين. ومن أهم مؤلفاته: شرح نظم البليم في العقيدة، وشرح على إضاءة الدوجنة في اعتقاد أهل السنة للمقري، والمباشر شرح ابن عاشر، ونظم التندغية (وهي نازلة فقهية دار حولها خلاف بين العلماء، وقد عارض فيها موقف شيخه أحمد بن محمد العاقل)، وشرح لمختصر خليل بن إسحاق (لم يكمل)، ونظم في ذم بعض الممارسات التي لا تتماشى والشريعة، سماه «خطية فم الحاسي»، وشرح عشرينيات ابن يخلفتن وتخمسيها لابن مهيب، وشرح قصيدة أحمد زروق: «لقد كان خير الخلق»، وشرح قصيدة كعب بن زهير المعروفة بـ»بانت سعاد»، وفتح المربي على صلاة ربي لمحمد اليدالي، وهو شرح كمل به شرح محمد اليدالي لهذه القصيدة المسماة «المربي»، وشرح همزية البوصيري، ويسمى: «تكبير المزية في شرح الهمزية»، وشرح ميمية البوصيري، ونظم أم اطريد في العبر والتاريخ، والسند العالي في مناقب اليدالي.

2 . 2 . المنظومة:

تعتبر منظومة بوطليحيه من أهم النصوص التي ألفت حول الكتب والفتوى على مذهب المالكية. وهي أرجوزة من ثلاث مائة وأربعة عشر بيتا. يمتاز نظمها بالسلاسة والانسياب وله طلاوة ورواء مما يجعله سهل الحفظ مقبولا عند الناس.

ويبدو أن الموضوع لم يطرق كثيرا فلم نجد خلال بحثنا في المؤلفات الفقهية الموريتانية أي كتاب يهتم بالموضوع عدا نظم لمحمدن بن محمذن فال بن أحمدُّ فال التندغي (ت: 1400هـ) جمع فيه بعض الكتب المعتمدة في المذهب المالكي وقد شرحه بنوع من التفصيل والإضافة والتمحيص محمد عبد الرحمن بن السالك العلوي (ت: 1397هـ) في كتابه: «عون المحتسب فيما يعتمد من كتب المذهب[1]»

وتكمن أهمية هذا النص في محاولة صاحبه تأسيس نظرية عامة للفتوى في المذهب المالكي، وهو لا شك قد سبق لهذا الميدان، ولكنه جمع الكثير من المتفرقات في نظم سلس وأسلوب رفيع، وألبسه لبوسا من الخصوصية المحلية، زادت من طرافته وجدة مادته. كما انفرد أيضا بنوع من الاهتمام والاستهلاك خاصين، فبالرغم من أنه قد طبع بالمطبعة الملكية بفاس عام (1282هـ/1865م) ضمن الأعمال الفقهية التي اختيرت في تلك الفترة للنشر، وبُرمج تدريسه في الزيتونة ردحا من الزمن، فإنه أيضا قد حقق مرتين في الأعوام الأخيرة الماضية، كما تدوول كثيرا في المدارس الموريتانية، واستنسخ بشكل مذهل، حتى لا يكاد يخلو منه بيت يهتم أهله بالعلم والمعرفة. هذا بالإضافة إلى قيام أحد أعلام البلد ودعائمه في الفتوى والقضاء، وهو محمد بن محمودن بن أمين بن الفراء[2] بشرح مستغلقاته. كما علق أحمد سالم بن سيدي محمد الأبهي[3] (ت: 1408هـ/1989م) على أماكن منه.

بيد أن ما دفعنا أكثر إلى الاهتمام بنظم النابغة الغلاوي هذا يعود في الحقيقة

1-ولقد حقق هذا الشرح محمد الأمين بن محمد فال بن اباه في إطار عمل لنيل شهادة المتريز من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، وذلك خلال السنة الجامعية: (1994– 1995م).

2-فقيه من قبيلة تندغه، عاش إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري.

3-فقيه بارز وقاض مشهور من بني ديمان من إيدابهم. له فتاوى كثيرة مجموعة، وديوان شعر مجموع.

إلى داعيين أساسيين، أحدهما: كثرة ورود ذكره والاستشهاد به عند فقهاء البلد في أنظامهم ومؤلفاتهم وفتاواهم، لدرجة كاد أن يصبح معها سلطة مرجعية لازمة الأخذ بعين الاعتبار، ومتنا علميا معروفا يكثر النظامة والمفتون من نقله وتضمينه في نصوصهم وفتاواهم.

وثانيهما: أهميته العلمية البالغة، باعتباره أول نص تأصيلي للفتوى في البلد حاول صاحبه أن يعالج بشيء من الدقة والصرامة أهمّ وأعوص قضية طرحت على الفقهاء منذ عدة قرون، وما زالت معلقة، لم يتفقوا فيها على كلمة سواء، وهي ترددهم بين ضرورة الأخذ بالاجتهاد وتبنيه وممارسته من جهة، لكثرة النازلات الطارئة والحادثات المستجدة والمتلاحقة، والتي قد تكون لصيقة بفضاء معين تعبر عن همومه ومشاغله، ولها أيضا مسحتها الخصوصية والمميزة إلى حد كبير. أو الإحجام عن ذلك، لخطورة فتح هذا الباب على مصراعيه لانعدام الكثير من الشروط التي تسمح به من جهة أخرى، وشدة وقع القرار الذي أجمع عليه فقهاء المالكية المغاربة منذ قرون بعيدة، والقاضي بسد بابه بتاتا. فيكون مآل القضايا المطروحة في النهاية أن تعلق فلا يحسم من شأنها بشكل واضح وصريح.

مضمون التأليف

تعرض النابغة الغلاوي لعشرة مباحث في تأليفه وهي تدور كلها حول تقييم كتب المذهب والتعليق على بعض الفتاوى التي يذهب إليها بعض العلماء أحيانا. وقبل الشروع في ذلك أتى بمقدمة من ثمانية عشر بيتا عرف خلالها بنفسه، وبين أنه اختار أن يأتي تأليفه نظما لأنه أحظى عند الطلبة وأحرى أن تصغي له العقول وينتفع به الناس. ثم بدأ في ذكر دواعي إنشائه لهذه المنظومة فذكر أن فقهاء زمنه لم يعودوا يأبهون بالتزام ما به الفتوى أو نسوا أنهم مطالبون بذلك وأنه هو عمل هذا التأليف لنصرة الراجح والمشهور. يقول:

هـذا ولـما كـان جـل الـنـاس لـما بـه الـفـتوى غـدا كالناسي

فـخلـط الـصـحـيح بالسقـيم وخـلـط الـمـنتـج بـالـعقـيـم

جلبت في ذا النظم بعض المعتمد وفـيـه ذكـر بعـض ما لـم يعتمد

وذكر أنه بنظمه هذا أحيى علما درس ولم يعد مطلوبا يقول:

أحييت فيه ذكر علم دارس أرجو به الدعاء في المدارس

وقد اعتمد في كتابه كما صرح بذلك على كتاب نور البصر في شرح المختصر. يقول:

وكل ما أطلقت عزوه انحصر من سائر الكلام في نور البصر

ونور البصر تعليق لأبي العباس سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي، وضعه على خطبة مختصر أبي الضياء خليل بن إسحاق المالكي، طبع سنة (1309هـ) بفاس على الحجر في مائتين وثمان وثمانين صفحة من القطع الكبير. يقول عنه مؤلفه ما نصه: «فإني قاصد بهذا التقييد مستمدا من الله تعالى التسديد والتأييد إتحاف المقتنع بالقليل في شرح مختصر خليل، مطرزا بزيادة تحرير لتعريف الماهية الفقهية وإفادة تقرير للتوجيهات البهية، وتنزيل المتن على نوازل وقتية، وتذييله بمسائل لا يتجاوزها الاستحسان[1]». ولم يتجاوز الهلالي في شرحه بداية باب الطهارة عند قول المصنف: «وبخار مصطكى»، ولكنه أسهب وأطال واستطرد كثيرا. فيقول:

كما صرح النابغة بأنه ينقل المعلومات أيضا من مصادر أخرى عديدة، يقول:

وربما سقيت من نظام أو من كلام الغير كل ظام

1-نور البصر: ص 2.

وهذه المصادر أشار إلى بعضها بالاسم وأغفل بعضها. ومن التي أشار إليها:

- كتاب العمليات للفاسي.
- مراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي.
- إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة للمقري.
- شرح ناصر الدين اللقاني لخطبة الشيخ خليل
- شرح مختصر خليل للتاودي.
- نور البصر للهلالي.
- شرح مختصر خليل للبناني.
- شرح قواعد مياره للسجلماسي.
- شرح مختصر خليل لابن عاشر.
- شرح المختصر للونكري.
- حاشية المصطفى على التتائي على المختصر.
- شرح المختصر للخرشي.
- منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى لناصر الدين اللقاني.
- فتوى المغيلي.
- حاشية على المختصر للزرقاني
- مرتقى الأصول لابن عاصم
- فتح الرب اللطيف في تخريج بعض ما في المختصر من الضعيف، للقاضي طالبن سنبير بن القاضي سيدي الأرواني
- التكميل لمحمد بن أحمد القاضي سنبير.

- نظم سلم المنطق للأخضري

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمدو بابا بن أحمد المسك التنبكتي.

- الكافية الشافية لمحمد بن مالك.

- التكميل لمياره.

- تحفة الناظر للعقباني.

- المعيار للونشريسي.

ثم أكد أن تأليفه هذا تأليف رائق لفظا ومفيد محتوى ولا يعرفه حقه ويقدره قدره إلا من كان له انتباه وعلم. يقول:

وهناك نظما بارعا قد يشتهى لا ينتهي طلاوة إذا انتهى

فصوله في كعب جذر أربع محصورة فارتع بذاك المرتع

وجذر العدد الذي ذكر هنا يقصد به ما تركب منه كالأربعة مركبة من اثنين. وتكعيب العدد ضربه في الخارج الناتج. كضرب الاثنين في الاثنين، الخارج أربعة فإن ضربت اثنين في الأربعة يخرج الكعب وهو ثمانية، فالمراد في البيت أن فصول النظم ثمانية تنضاف إليها مقدمة في تحريم التساهل في الفتوى، وخاتمة في أقل أوصاف المفتي في هذه الأزمة.

والفصول الثمانية هي: فصل في المعتمد من الأقوال في الكتب والفتوى، وفصل في الكتب لا يعتمد على ما انفردت بنقله، وفصل في الكتب والأقوال الشيطانية الليطانية، وفصل في التحذير من البحث والفهم وأنهما غير نص، وفصل في شروط العمل فيما جرى به العمل، وفصل في الترجيح بالعرف، وفصل في الترجيح بالمفاسد والمصالح، وفصل في طبقات المفتين الثلاث.

1. تحريم التساهل في الفتوى

هذا هو الفصل الأول ويتكون من 16 بيتا. وقد تعرض فيه الناظم لمسألة حرمة التساهل في الفتوى التي قال عنها ابن فرحون: «اعلم أنه لا يجوز للمفتي أن يتساهل في الفتوى، ومن عرف بذلك لم يجز أن يستفتى، وكذلك الحاكم[1]». وقال ابن الصلاح في معنى التساهل: «وذلك قد يكون بأن لا يتثبت ويُسرع بالفتوى قبل استيفاء حقها من النظر والفكر. وربما يحمله على ذلك توهمه أن الإسراع براعة، والإبطاء عجز ومنقصة، وذلك جهل. ولأن يُبطيء ولا يُخطيء أكمل به من أن يعجل فيضل ويُضِل. وقد يكون تساهله وانحلاله بأن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبع الحيل المحظورة أو المكروهة، والتمسك بالشبه طلبا للترخيص على من يروم نفعه أو التغليظ على من ريد ضره، ومن فعل ذلك فقد هان عليه دينه[2]».

وتستخلص حرمة الفتوى بغير الأقوى من قول الزرقاني: «الحلال ضالة مفقودة، فيجتهد الإنسان في المتفق عليه في المذهب، فإن لم يجد فالقوي من الخلاف، فإن لم يجد فالشاذ من المذهب، فإن لم يجد فينظر الخلاف خارج المذهب، ولا يخرج على أقاويل العلماء[3]».

كما ذكر حرمة الفتوى بالمرجوح عند الأئمة: وهو يعني القول الضعيف أو الشاذ. قال الهلالي: «فاعلم أنه لا تجوز الفتوى ولا الحكم بالمرجوح وهو شامل للشاذ والضعيف بالإجماع، حكاه القرافي في غير موضع[4]». وقال أيضا: «قال ابن الصلاح: اعلم أن من يكتفي بأن يكون في فتواه أو علمه موافقا لقول أو وجه في المسألة، ويعمل ما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر في الترجيح، فقد جهل وخرق الإجماع[5]».

1-التبصرة: 1/74.

2-أدب المفتي والمستفتي: ص 113

3-شرح حاشية اللقاني على خطبة المختصر: ص 151 – 152

4-نور البصر: ص 163

5- نور البصر: ص 160

ثم تعرض لمسألة الحجر التي قال فيها الونشريسي: «فقد نص الأئمة المحققون من علمائنا رضي الله عنهم وأرضاهم على أن المقلد الصرف مثلي ومثل من اشتملت عليه هذه الأوراق من الأصحاب، وأكبر منا طبقة وأعلى منزلة وأطول يدا، ممنوع من الاستدلال بالحديث وأقوال الصحابة رضي الله عنهم، بل ذلك عندهم من الأولويات. قالوا: وإنما يستعظم عدم استدلال المقلد بذلك ويمتنع القول فيه الجهال حتى نقل أبو بكر بن خير أن على تحريمه إجماع الأمة[1]».

وذكر أن القولة المتداولة: «من قلد عالما لقي الله سالما» ليست على إطلاقها. يقول محمد يحي الولاتي: «إذا تقرر منع الفتوى والعمل بغير المشهور كقول بعضهم: من قلد عالما لقي الله سالما غير مطلق، أي غير باق على إطلاقه، بل إنما يسلم إذا قلده في الراجح أو الضعيف الذي ألجأته إليه ضرورة محققة في نفسه مع حصول سائر الشروط المذكورة، أو رجحه العامل به إذا كان من أهل الترجيح[2]».

2. المعتمد من الأقوال في الكتب والفتوى

في هذا الفصل المكون من 27 بيتا، عدّد النابغة الأقوال التي يعتمد عليها في الفتوى، والكتب المعتمدة.

فبدأ بالأقوال وذكر منها أربعة تتدرج تنازليا بحسب حجيتها. أولها المتفق عليه: وهو القول الفقهي الذي اتفق عليه علماء المذهب الواحد فيما بينهم بإجماع،

ثم الراجح وهو الذي قوي دليله، ثم إن كان المفتي أهلا للترجيح أفتى بما اقتضت القاعدة ترجيحه عنده، وإلا قلد شيوخ المذهب في الراجح، فأفتى بما رجحوه[3]. قال الهلالي: «ومقتضى نصوص الفقهاء والأصوليين أن العمل بالراجح واجب». وقال أيضا: «ويمكن الجواب بتقييد ذلك، أي وجوب العمل بالراجح بما إذا أمكن العمل

1- المعيار: 1/353

2- فتح الودود على مراقي السعود: ص 362

3- نور البصر: 174

به، أي لوجوده وإلا عمل بالشاذ، فإن لم يكن في مذهبه نص انتقل لمذهب غيره، وهل الأولى مذهب الشافعي لأنه أدرى بقواعد مذهب مالك وهو ما يفيده ابن غازي عند قوله: «وإن لم يقدر إلا على نية» فيصير كأنه مذهبنا في تلك النازلة المقلد فيها. أو مذهب أبي حنيفة لقلة الخلاف بيننا وبينه حتى حصره بعضهم في اثنين وثلاثين مسألة[1]».

ثم المشهور وهو الذي كثر قائله. والفرق بينه وبين الراجح مع أن كلا منهما له قوة على مقابله هو أن الراجح نشأت قوته من الدليل نفسه من غير نظر للقائل. والمشهور نشأت قوته من القائل. فإن اجتمع في قول سبب الرجحان والشهرة ازداد قوة، وإلا كفى أحدهما، فإن تعارضا بأن كان في المسألة قولان أحدهما راجح والآخر مشهور فمقتضى نصوص الفقهاء والأصوليين أن العمل بالراجح واجب، وقيل: المشهور ما قوي دليله، فيكون مرادفا للراجح، ولا يعتبر صاحب هذا القول كثرة القائلين كما لم يعتبر في تعارض البيتين كثرة شهود إحداهما. وقيل: المشهور قول ابن القاسم في المدونة[2].

والذي جرى به عمل المتأخرين اعتبار تشهير ما شهره المصريون والمغاربة[3]». ولم يصرح الهلالي بترجيح ما شهره المغاربة عند تعريفه لأقسام ما يفتي به. وإن كان رجحان ما شهروه يبدو بديهيا لأنهم في مجملهم مالكيون.

ثم المساوي وهو القول الفقهي المساوي لمقابله بحيث لا يوجد في المسألة رجحان. قال الهلالي: «واختلف هل يحمل المفتي مستفتيه على معين من المتساويين فأكثر، أو يحكي له ما في المسألة ويخبره بالقائلين فيختار هو لنفسه؟ قال ابن غازي: قيل: وبالأول جرى العمل[4]».

1- نور البصر: ص 156

2- نور البصر: 174

3- ابن فرحون، التبصرة: 1/71

4- نور البصر: ص 175

ولقد علق الفقيه أحمد سالم بن سيدي محمد الأبهي (ت: 1408هـ/1986م) على قولة النابغة هذه بما نصه: «وبعد فإعلام لناظره أن قول النابغة الغلاوي: فما به الفتوى تجوز المتفق عليه فالراجح سوقه نفق». فقوله: «فالراجح سوقه نفق» كلام ضل به كثير من الناس. وهو غير مسلم. ففي العدوي على الخرشي عند قول خليل: «مبينا لما به الفتوى»: الذي يفتي به هو المشهور أو المرجح، ثم هذا ظاهر إن كان هناك مشهور فقط أو راجح فقط، فلو وُجد الأمران فكان بينهما تناف فيقدم المشهور كما في مسألة الدلك[1]».

وبعد ذكر الأقوال التي تجوز بها الفتوى شرع الناظم في عد الكتب المعتمدة. فذكر 30 مرجعا من المؤلفات المالكية سردها معلقا عليها أحيانا بشكل خاطف ومغفلا للتعاليق عليها أحيانا. وهي بحسب ترتيبها لها:

• التهذيب على المدونة: للبرادعي: خلف بن محمد الأزدي القيرواني (ت. 400هـ، أو430هـ). وهو اختصار للمدونة اتبع فيه مؤلفه طريقة اختصار أبي محمد بن أبي زيد، إلا أنه ساقه على نسق المدونة وحذف ما زاده أبو محمد، وعلى هذا الكتاب كان معول الناس ببلاد المغرب والأندلس.

• شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني: لأحمد بن محمد بن عبد الله التونسي (ت. 863هـ). يقول محمد عبد الرحمن بن السالك عنه: «ولما طالعته عرفت أنه واضع يده وعينيه على التوضيح في شرحه هذا[2]».

• تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن فرحون المدني، (ت: 799هـ).

• التبصرة على المدونة لأبي الحسن اللخمي (ت: 478هـ). قال عنها الحطاب:

1- فتوى بخطه ضمن المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء، المجلد الرابع.

2-عون المحتسب: ص 74

«تبصرة اللخمي تعليق كبير محاذ للمدونة، وهو حسن مفيد[1]». قال الهلالي ناقلا عن عياض في المدارك: «وللخمي اختيارات خرج بكثير منها عن المذهب[2]». قيل إن وجه الانتقاد عليها أنها لم تصحح عليه، ولم تؤخذ عنه، وذلك لإدراجه فيها فروعا خرّجها على غير أصول المذهب المالكي، وإنما على أصول بعض المذاهب الأخرى[3].

• الجامع على المدونة لأبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي (ت. 451هـ). وهو كتاب حافل جامع لمسائل المدونة، وأضاف إليها غيرها من النوادر والأمهات.

• البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت. 520هـ). وهو من أمهات كتب المالكية، استغرق تأليفه اثني عشرة سنة، قال عنه محمد حجي: «وقد أودعه ابن رشد جميع معارفه الفقهية التي اكتسبها من دراساته الواعية المستوعبة للمدونة وما كتبه عليها أئمة المذهب في نحو سبعة أجيال من الشروح.

• المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات لابن رشد أيضا.

• شرح التلقين للقاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري (ت. 536هـ). وطريقة الإمام المازري في شرح التلقين طريقة مبتكرة، وهي أنه يذكر ما ذكره القاضي عبد الوهاب في كتابه التلقين ثم يعقب على ذلك بأسئلة ويجيب بإطناب عن كل سؤال، وقد قال ابن فرحون عن هذا الكتاب ما نصه: «لم يبلغنا أنه أكمله[4]».

• الشرح الأوسط لمختصر خليل لبهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميري (ت: 805هـ). قال عنه الحطاب: «وقد اعتنى بحل عبارته (أي مختصر خليل) وإيضاح إشارته وتفكيك رموزه، واستخراج مخبآت كنوزه، وإبراز فوائده، تلميذه العلام

1-مواهب الجليل: 1/35

2-نور البصر: ص 150

3-المعيار: 2/479.

4- الديباج: ص 280.

الهمام قاضي القضاة تاج الدين أبو البقاء بهرام، شرحه ثلاثة شروح صاربها غالبه في غاية البيان والوضوح، واشتهر منها الأوسط غاية الاشتهار، واشتغل الناس به في سائر الأقطار، مع أن الشرح الأصغر أكثر تحقيقا[1]». وقال أحمدُ بابا التنبكتي: «وبهرام من أجل من تكلم على مختصر خليل... فشرحه الكبير كاف لتحصيل المطالب، مغن عن غيره، وهو والصغير من الكتب المعتمد عليها في الفتوى[2]»().

• مواهب الجليل في شرح مختصر خليل لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالحطاب الرعيني (ت. 954هـ). وهذه الحاشية تتبع فيها الحطاب ما يحتاج للشرح، وتكلم على مسائله مع ذكر ما تحتاج إليه كل مسألة من تقييدات وفروع مناسبة وتتمات مفيدة من ضبط وغيره، بالإضافة إلى ذكر أكثر الأقوال وعزوها وتوجيهها غالبا، والتنبيه على ما في كلام الشروح التي وقف عليها لهذا الكتاب، وهي شروح بهرام الثلاثة، وشرح ابن الفرات والأقفهسي والبساطي وحاشية الشيخ ابن غازي وشرح الفصلين الأولين من كلام العلامة المحقق أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق التلمساني. قال أحمدُ بابا التنبكتي عن هذه الحاشية ما نصه: «وألف تآليف حسانا، أجاد فيها ما شاء كشرحه على مختصر خليل، مات عنه مسودة، فبيضه ولده الشيخ يحيى في أربعة أسفار كبار، وفيه دليل على جودة تصرفه وكثرة اطلاعه وحسن فهمه. لم يؤلف على خليل مثله في الجمع والتحصيل بالنسبة لأوائله. والحج منه استدرك فيه أشياء على خليل وشراحه وابن عرفة وشراح ابن الحاجب[3]».

• تيسير الملك الجليل لجمع الشروح وحواشي خليل لسالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري (ت. 1015هـ). وقد اختصر فيه شرح الحطاب في حاشيته على المختصر، واختل عليه المعنى في بعض العبارات المنقولة بالمعنى. قال الهلالي: «ومن الكتب المعتمدة... شرح الشيخ سالم، غير أنه قد يقع له خلل في بعض المواضع عند اختصاره كلام الحطاب[4]».

1-مواهب الجليل: 1/3.

2-نيل الابتهاج: ص 101.

3-نيل الابتهاج: 338.

4- نور البصر: ص 162.

• التاج والإكليل شرح مختصر خليل»، وهو الشرح الكبير و»المختصر في الفقه المالكي»، للمواق: محمد بن يوسف الغرناطي. قال التنبكتي: «والكتابان متقاربان في الحجم، يزيد كل على الآخر في بعض المواضع[1]». وقال الهلالي: «ومن الكتب المعتمدة ... شرح المواق الكبير والصغير سوى أنه وقع له في مواضع قليلة خلل عند نقله بالمعنى[2]». وقال أحمدُ بابا عن المواق ما نصه: «نحا طريقا انفرد به وبالاقتصار على عزو مسائل الأصل. ونقل فقهه من أصول المذهب بما يُوافقه أو يُخالفه من غير تعرض لألفاظه البتة، بحيث إن لم يقف على نص مسألة خليل بيض لتلك المقولة، وهما (أي شرحاه على المختصر) في غاية الجودة في تحرير النقول مع الاختصار البالغ[3]».

• شرحا مختصر الشيخ خليل: الكبير والصغير لحلولو: أحمد بن عبد الرحمن بن موسى. كان حيا سنة 875هـ أو 895هـ. قال أحمد بابا التنبكتي عن الشرح الكبير: «وقفت على أجزاء منه حسن مفيد، فيه أبحاث وتحرير، ويعتني بنقل التوضيح وابن عبد السلام وابن عرفة، ويبحث معهم وينقل الفقه المتين[4]». وقال فيه أحمد محمد الخليفي: «قد اعتنى فيه مؤلفه بالنقل من ابن عبد السلام والتوضيح وابن عرفة، وله أبحاث معهم في ما ينقله منهم[5]».

• المختصر لمحمد بن محمد بن محمد بن عرفة الورغمي (ت: 803هـ). قال عنه ابن السالك: «ومختصره هذا هو حقيقة مختصر مذهب مالك، فلعل من اتسع نظره وتحصيله إذا طالعه كله لا يبقى عليه من المذهب إلا ما لا حاجة فيه لأنه اختصر المذهب كله[6]».

1- نيل الابتهاج: ص 325.

2- نور البصر: ص 162.

3-نيل الابتهاج: ص 325.

4-نيل الابتهاج: ص 83.

5-المسائل المختصرة من كتاب البرزلي، تحقيق: د. أحمد محمد الخليفي، الطبعة الأولى 1991م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، الجماهيرية العظمى – طرابلس، ص 27.

6-عون المحتسب: ص 45.

• المنزع النبيل في شرح مختصر خليل: لمحمد بن أحمد الخطيب بن محمد بن محمد بن مرزوق (ت: 842هـ). وقد ذكر الناظم أن شرح ابن مرزوق لم يكمله، وإنما شرح أوله وآخره، قال عنه الحطاب ما نصه: «ولم أر أحسن من شرحه لما اشتمل عليه من تفكيك عبارة المصنف وبيان منطوقها ومفهومها والكلام على مقتضى ذلك من جهة النقل، ولكنه عزيز الوجود مع أنه لم يكمل[1]». وقال عنه أيضا: «وهو حسن من جهة تحرير النقول، لكنه لا يتعرض لحل كلام المصنف[2]». وقال عنه ابن السالك: ««المنزع النبيل في شرح مختصر خليل» شرح منه الطهارة في مجلدين، ومن الأقضية لآخره في سفرين في غاية الإتقان والتحرير والاستيفاء، وذلك هو معنى قول الناظم (محمد بن أحمدّ فال التندغي):

ونجل مرزوق على خليل ما عم بل سروله وعمما[3]

• النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام للمتيطي: علي بن عبد الله بن إبراهيم الأنصاري (ت. 570هـ). وهو كتاب كبير في الوثائق اعتمده المفتون وعوّلوا عليه، ولكنه نادر الوجود، قليل التداول.

• تسهيل السبيل لمقتطف أزهار روض خليل، وفيض النيل على مختصر خليل لإبراهيم بن فائد الزواوي القسنطيني (ت 857هـ). وهما شرحان نادرا الوجود. قال أحمد بابا التنبكتي: «وقد وقفت على السفر الثالث من شرحه المسمى: «تسهيل السبيل» من القسمة إلخ، حسن من جهة النقول يستوفيها، يعتمد فيها على ابن عبد السلام والتوضيح وابن عرفة إلخ. وفي آخره جامع كبير محتو على فوائد لخصها من البيان لابن رشد وغيره[4]».

• الإعلام بنوازل الأحكام للقاضي عيسى بن سهل الغرناطي (ت. 486هـ). وهو كتاب عوّل عليه شيوخ المذهب المالكي كثيرا في الفتيا، وهو يشبه إلى حد كبير

1- مواهب الجليل: 1/3.

2-مواهب الجليل: 1/4.

3-عون المحتسب: ص 76.

4-نيل الابتهاج: ص 53.

كتاب المعيار للونشريسي، بحيث أنه يعرض المسألة ضمن أبواب كتابه، ثم ينقل الفتوى عن مجموعة من القضاة أهمهم محمد بن عبد الحكم صاحب كتاب آداب القضاة، وكتاب الشروط لابن حارث، وأحكام ابن زياد هي الغالبة على نوازل الأحكام هذا، وقد نقل الونشريسي عنه مجموعة من الأبواب في «كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية» بأمانة كاملة.

• شفا الغليل في حل ألفاظ خليل لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي، (ت 919هـ). وهو من أحسن الشروح الموضوعة على مختصر الشيخ خليل. قال عنه الحطاب: «ثم شرحه (يعني المختصر) جماعة من المتأخرين، وبقيت في الكتاب مواضع يحتاج إلى التنبيه عليها فتتبع شيخ فاس ابن غازي من ذلك أماكن كثيرة وفكك مواضع من تراكيبه العسيرة، فأوضحها غاية الإيضاح، وأفصح عن معانيها كل الإفصاح، وبقيت فيه مواضع إلى الآن مغلقة ومسائل كثيرة مطلقة[1]»( ). وقال أحمد بابا عنه ما نصه: «وقد تتبعت أنا حاشية الشيخ ابن غازي فوجدته يعتمد فيها على المواق ويتكلم فيها أحيانا على المواضع التي أشار المواق لاستشكالاتها وربما ذكر بعض إصلاحاته وعزاه لبعضهم، والله أعلم[2]».

• المقصد الكفيل بحل مقفل خليل لأحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر أقيت التنبكتي (ت 1036هـ). وهو شرح على المختصر من الزكاة إلى النكاح.

• شرح على مختصر خليل لشرف الدين الطخيخي، وهو من العلماء الذين اعتمد عبد الباقي الزرقاني على أقوالهم في شرحه لخليل، حيث ذكر في مقدمته أنه يشير له بما صورته (طخ[3]).

• حاشية على شرح الشمس التائي لمختصر خليل: لمصطفى بن عبد الله بن موسى

1-- مواهب الجليل: 1/3.

2-نيل الابتهاج: ص 325.

3-نيل الابتهاج: ص 340.

الرماصي (ت. 1136ه). وهي حاشية جيدة، قال ابن السالك: «وأما الشيخ المصطفى فحاشيته على التتائي، وأظن أنه شرحه الصغير، ويعتمدها الشيخ بناني كثيرا كأنه واضع عينه عليها أبدا[1]».

• الطرر على التهذيب: لعبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن الأعرج الحسيني (ت 726ه). قال الهلالي: «ومن ذلك الطرر لأبي إبراهيم بن الأعرج على التهذيب، وهي من الكتب المعتمد عليها الموثوق بصحة ما فيها[2]»( ).

• الطرر على التهذيب لعلي بن عبد الرحمن بن تميم الطنجي المكناسي (ت 734ه). قال الهلالي: «وكذلك العلم والدين والورع، وغالب ما فيها منسوب إلى محله[3]».

• النوازل لإبراهيم بن هلال السجلماسي (ت: 903ه). وقد جمعها ورتبها سيدي علي بن أحمد الجزولي، يقول عنها: «وبعد فإني لما رأيت الطلبة بدرعة المحروسة يتشوفون كثيرا لنوازل الشيخ العالم العامل سيدي إبراهيم بن هلال بن علي الفلالي قدس الله روحه... وكانت غير متجانسة بل جمعوها حسب الورود والوقوع، ونهضت بي القريحة الساكنة لترتيبها على حسب الإمكان، فرتبتها على أربعة فصول: الفصل الأول في الوضوء والصلاة والزكاة والإيمان وما ضارعها، الفصل الثاني في النكاح والطلاق والنفقات وما ضارعها، الفصل الثالث في البيوع والإجارات والعطايا وما ضارعها، الفصل الرابع في مسائل مختلفات من الحلال والحرام والأدب وأسماء الله مما لا تعلق له بالخصومات، وأضفت لكل فصل مسائل أجاب عنها شيخه سيدي محمد بن قاسم القوري، وقع عليها وصححها وذيل بعضها، وذيلت كل فصل بنبذة من مسائل وجدت بخط يده، وأكثرها نقله عن الأم[4]».

• الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير وهو كتاب شرح فيه ابن هلال أيضا

1-عون المحتسب: ص 81.

2-نور البصر: 159.

3-نور البصر: 159.

4-إبراهيم بن هلال، النوازل، ص 2.

أجوبة أبي الحسن الصغير. يقول ابن السالك: «وقد رأيت له من التحقيق في دره النثير ونوازله ما لم أره لغيره[1]». ويقول أيضا: «وأما أجوبة أبي الحسن الصغير جمعها تلميذه التسولي وشرحها ابن هلال بالدر النثير، وكيفية شرحه لها أنه يأتي بالسؤال والجواب من أبي الحسن، ثم يقول: قلت: وينقل من كلام أئمة المذهب ما يوافق فتوى الشيخ أبي الحسن ويزيد، ولا أعرف كتابا في فقه مذهب مالك أحسن من دره النثير[2]».

• الدرر المكنونة في نوازل مازونة ليحيى بن موسى بن عمران المغيلي المازوني (ت. 883ه). وهو كتاب في الفتاوى الفقهية جمع فيه مؤلفه فتاوى معاصريه من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وأفاد منه الونشريسي في المعيار.

• المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب: لأحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني (ت: 914ه). يقول الهلالي: «ومن كتب النوازل المعتمدة المعيار وهو من أجمع ما رأينا من كتب النوازل، لكن فيه بعض الفتاوى ضعيفة[3]».

3. الكتب التي لا يُعتمد على ما انفردت بنقله

في هذا الفصل المتكون من 45 بيتا، تعرض لسبعة عشر كتابا من الكتب التي لا يعتمد ما انفردت به من أحكام فقهية. وقد ذكر من ضمن هذه الكتب ثلاثة شروح لعلماء موريتانيين مشهورين.

• شروح مختصر خليل: الصغير(في مجلدين) والأوسط (في خمسة مجلدات) والكبير (في اثني عشر مجلدا) لعلي الأجهوري بن محمد بن زين العابدين بن الشيخ عبد الرحمن المصري (ت: 1066ه). قال الهلالي: «قال زروق: ومن الكتب التي لا

1-عون المحتسب: ص. 81.

2-عون المحتسب: ص. 82.

3- نور البصر: ص 162.

تعتمد على ما انفردت به شرح العلامة الشهير المكنى بأبي الإرشاد نور الدين الشيخ علي الأجهوري على المختصر، كما ذكر ذلك تلميذه العلامة النفاذ أبو سالم سيدي عبد الله العياشي في تأليفه: «القول المحكم في عقود الأصم والأبكم». وأشار إلى ذلك في رحلته، ومن مارس الشرح المذكور وقف على صحة ما قاله تلميذه المذكور، والمراد شرحه الوسط، وأما الصغير فقد ذكره الشيخ أبو سالم وسألت عنه بمصر فما وجدت من سمع به، وأما الكبير فذكر لي أنه لم يزل في مبيضته لم يخرج، وقد نقل منه تلميذه الزرقاني في بعض المواضع من شرحه على المختصر[1]».

• شروح خليل لكل من الشرخيتي (ت. 1106ه)، وعبد الباقي الزرقاني (1099ه)، ومحمد الخرشي (1105ه)، ومحمد بن عبد الله النشرتي (ت: 1120ه). يقول الهلالي: «وما قيل فيه (يعني شرح الأجهوري) يقال في شرح تلامذته وأتباعه المشارقة كالشيخ عبد الباقي، والشيخ إبراهيم الشبراخيتي، والشيخ محمد الخرشي لأنهم يقلدونه غالبا[2]». وقد ذكر الفقيه أحمدّ بن احبيّب ناقلا عن شيخه البشير بن امباركي أن كلا من عبد الباقي والخرشي والشبرخيتي وذي النشرة كان شرح مختصر خليل فقدموا شروحهم لشيخهم الأجهوري، فلما نظرها وتأملها قال للخرشي: أتعبت الناظر، وقال للشبرخيتي: أصبت الصواب، فأصابه عجب من ذلك، فلم ينتشر كتابه جدا، وقال لعبد الباقي: كتابك هذا لا ينبغي الاعتماد عليه لكثرة خطئه، ولا تركه لكثرة فقهه، فقال: ادع الله لي القبول، فدعا له فكتب عليه البناني والتاودي والرهوني وكنون، كلهم إما مراقب يصحح أو مسلم بالسكوت، أو زائد على ما فيه. قال: ولم يرد ما قال علي الأجهوي لذي النشرة في شرحه[3].

• الأجوبة لأحمد بن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي (ت: 1129ه). وهي عبارة عن بعض الردود والنوازل التي أجاب بها في عصره وجمعها تلامذته دون علمه، فعزوها إليه باعتبار صدورها منه، لا باعتبار تأليفها.

1- نور البصر: 161.

2- نور البصر: 161.

3 - كتاب الأعداد: 1/87 و88.

• النوازل لأحمد بن محمد بن عبد الله الورزازي (ت. 1166ه). يقول الهلالي: «ومن النوازل الجديدة المحتاجة إلى التحرير لإجمالها واشتمالها على غير المشهور، نوازل الفقيه سيدي محمد الورزيزي، وهي بأيدي كثير من أصحابه يعتمدونها، وفيها ما ليس بمعتمد[1]».

• جواهر الدرر للتتائي: قال الهلالي: «ومنها شرح التتائي الصغير، فقد قيل: إنه مات قبل تحريره، ويدل لذلك ما يوجد فيه مما هو سبق قلم لا يخفى عمن دونه، وقد بالغ في الإنكار عليه الشيخ ابن عاشر[2]»(). بينما ذهب أحمدُ بابا التنبكتي إلى أنه هو الشرح الكبير، فقال: «على أن شرحه الكبير على خليل فيه مواضع كثيرة جدا، حصل له فيها الوهم نقلا وتقريرا وبحثا تتبعها سيدي والدي ثم شيخنا الفقيه محمد بغيغ[3]». قال ابن عاشر في حاشيته على التتائي ما نصه: «ولما جلست بين يدي الشيخ سالم السنهوري سألني عن الذي نقرؤه بفاس من كتب الفقه، فقلت له: المختصر، فقال: بأي شروحه؟ فقلت له: كانوا يقرؤونه بشرح بهرام وشفاء الغليل، ثم دخل هذه السنين شرحا التتائي، فأقبل الطلبة عليهما، فرأيت أثر الإنكار في وجهه، فقلت له: يا سيدي رأيت فيه فسادا كثيرا فلا أدري أهو من النساخ أو من أصله، فقال لي رحمه الله: بل من أصله[4]».

• الطرر الموضوعة على الوثائق المجموعة لابن عات: أحمد بن محمد بن هارون النفزي (ت: 460ه). وقد ناقض ما قال النابغة عن هذه الطرر قول الهلالي: «ومن الكتب المعتمدة الموثوق بصحة ما فيها... الطرر لابن عات على الوثائق المجموعة[5]». وناقضه قول محمد عبد الرحمن بن السالك عنها: «وهي من كتب النوازل العزيزة الوجود[6]».

1 - نور البصر: ص 162.

2- نور البصر: ص 162.

3- نيل الابتهاج، ص. 336.

4- تحقيق عون المحتسب لمحمد الأمين بن اباه بن عبد الله: ص. 79.

5- نور البصر: ص 159.

6- عون المحتسب: ص 70.

• طرة على الرسالة لأبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي (ت: 741ه).

• طرة على الرسالة ليوسف بن عمر الأنفاسي (ت: 761ه) وهو تقييد من الطلبة عنه. قال الشيخ زروق في مقدمة شرحه للرسالة عند ذكره الكتب التي اعتمد عليها في تأليفه هذا ما نصه: «فأما الجزولي وابن عمرومن في معناهما فليس ما ينسب إليهم بتأليف، وإنما هو تقييد قيده الطلبة زمن إقرائهم، فهو يهدي ولا يعتمد، وقد سمعت أن بعض الشيوخ أفتى بأن من أفتى من التقاييد يؤدب والله أعلم[1]»( ).

• كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت. 544ه).

• طرة على مختصر الشيخ خليل لحبيب الله بن القاضي (ت: 1240ه)، وهذه الطرة تعرف عند العامة باسم: «معين حبيب الله».

• طرة على مختصر الشيخ خليل للطالب أحمد بن محمد رارَ التنواجيوي (ت: 1210ه).

• طرة على مختصر الشيخ خليل لألفغَ الخطاط عمر بن محمد بن عمر بن أوبك (ت. 1196ه)

وقد تعرض في هذا الفصل أيضا لانتقادات لصنيع بعض أكابر فقهاء المالكية، فذكر أن العلماء كانوا يحذرون من إجماعات يوسف بن عبد البر (ت. 463ه). فإنه إذا قال انعقد الإجماع، فإنما يعني في العادة ما عليه الجمهور من الفقهاء. كما كانوا يحذرون من اتفاقات ابن رشد (ت. 520ه) فإنه إذا حكى الإتفاق فإنما يقصد في العادة المشهور.

ويحذرون أيضا من خلافيات أبي الوليد سليمان بن خلف التميمي (ت. 473ه) لأنه غالبا ما يذكر أن حكما مختلفا فيه، وهو غير مختلف فيه. قال زروق: «حذروا

1- شرح الرسالة: 1/4.

(أي النساخ) من إجماعات ابن عبد البر، واتفاقات ابن رشد، وخلافيات الباجي، فإنه يحكي الخلاف فيما قال اللخمي يختلف فيه[1]». وقال الونشريسي: «إجماعات أبي عمرو (يعني ابن عبد البر) مدخولة، وقد حذر الناصحون منها ومن اتفاقيات ابن رشد واحتمالات الباجي واختلافات اللخمي[2]».

كما كانوا يحذرون أيضا من الحواشي التي يكتبها الطلاب على المتون أيام الدرس، ويأخذونها عادة بالنقل بالمعنى للتقميش والجمع، لا للتحرير والتفتيش. يقول الهلالي: «وكذلك حواشي الكتب تحرم الفتيا بها لعدم صحتها والوثوق بها[3]» وقال الهلالي: «قال ابن هارون على قول القرافي وكذلك حواشي الكتب تحرم الفتوى بها لعدم صحتها. مراده إذا كانت الحواشي غريبة النقل، وأما إذا كان ما فيها موجودا في الأمهات أو منسوبا إلى محله وهي بخط من يوثق به فلا فرق بينها وبين سائر التصانيف، ولم يزل العلماء وأئمة المذهب ينقلون ما على حواشي كتب الأئمة الموثوق بعلمهم المعروفة خطوطهم[4]».

4. الكتب والأقوال الشيطانية الليطانية

في هذا الفصل الوارد في 31 بيتا تابع النابغة في بيان الكتب التي لا يجوز الإفتاء منها لبطلان نسبتها إلى من نسبت إليه. وقد ذكر منها أربعة وهي:

• عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق: لأحمد بن يحيى الونشريسي.

• التقريب والتبيين لابن أبي زيد.

• ذو الفصول والدلائل لابن أبي زيد وقد ورد في كتاب «نور البصر» باسم كتاب «الدلائل والفصول» ونسب لأبي عمران الفاسي.

2- المعيار: 12/31.

3- نور البصر: ص 158.

4- نور البصر: ص 159.

• أجوبة محمد بن سحنون. قال الهلالي: «وقد حذر العلماء من تآليف موجودة بأيدي الناس تنسب للأئمة ونسبتها باطلة، ففي نوازل ابن هلال حذر من الأجوبة المنسوبة لابن سحنون، وما زال الأشياخ يحذرون الطلبة منها. وفي نوازل الشيخ عبد القادر الفاسي ما نصه: «قال القوري: أجوبة ابن سحنون لا يجوز الفتوى بما فيها، ولا عمل عليها بوجه من الوجوه، وكذلك التقريب والتبيين الموضوع لابن أبي زيد، وكذلك أجوبة القرويين وكذلك أحكام ابن الزيات، وكذلك كتاب الدلائل والأضداد، فجميع ذلك باطل وبهتان. قال الإمام القوري رحمه الله: وقد رأيت جميع تلك التآليف، ولا يشبه ما فيها قولا صحيحا. وفيما وجد من شرح المختصر للشيخ الزقاق حذر الأشياخ من الفتوى من أحكام ابن الزيات والدلائل والأضداد المعزو لأبي عمران ومختصر التبيين المعزو لابن أبي زيد، لأنها أباطيل وفتاوى الشيطان، وهي موضوعة غير صحيحة النسبة[1]»( ). قال الهلالي: «وكذلك أجوبة القرويين لا تجوز الفتوى بما فيها ولا عمل عليها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام ابن الزيات لا تجوز الفتوى بما فيها[2]»( ).

وبعد ذلك تعرض النابغة لمسائل قال فيها بعض العلماء بأقوال باطلة، وعدّد منها خمسا:

• مسألة بطلان القول بعدم تطليق أم العيال

وقد أشار الناظم إلى أن ذلك أفتى به شيخه أحمد بن محمد العاقل (ت: 1244هـ). ونص فتواه: «أما بعد فقد سألنا شيخنا أحمد بن العاقل عمن حلف بالحرام على كذا فحنث، فهل تحرم عليه زوجته على المشهور أم لا تحرم بناء على أن النكاح من المسائل التي يفتى فيها بالضعيف أو لكونها أم عيال، وأم العيال لا تطلق لما في تطليقها من الضرر عليها وعلى زوجها وأولادها لكونهم صغارا؟ فأجاب بما نصه: الجواب عندي أن الحرام نقله العرف عن معناه اللغوي الذي فيه الأقوال المعلومة

1-نور البصر: 166 – 167.

2- نور البصر: ص. 160.

التي مشهورها لزوم الثلاث مطلقا إلى هذا المشهور. فصارت كثرة استعمال العامة له ناسخة لمعناه الذي فيه الخلاف. فلا خلاف أن العرف ناسخ للغة، فلا يجوز الإفتاء برد هذه المرأة. وأما دعوى الضرر فلا يجوز سماعها، لأن في ذلك تطرقا إلى قطع المسببات الشرعية عن أسبابها، فيدعي ذلك كل من أبت الطلاق وحدث له تعلق قلبه. ولا التفات إلى مثل ذلك. وجعله من ضرر الذي يزيله الشرع منكر إجماعا، قال تعالى: {فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ}، وقال صلى الله عليه وسلم: «حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»، فتخصيص الكتاب والسنة الإجماع بغير من تعلق بها قلب مطلقها أو بغير أم العيال تخصيص شيطاني وُجد في ورقة يغتنمها كل سارق، والمذهب محفوظ من السرح أن يطرقه طارق أو يلم بساحته مسترق، فالدسائس تزال من كتب الأئمة المعلومة الصحة فضلا عن ورقة لا يدعي أحد أن ما اشتملت عليه يوجد في كتاب فقهي أو حديثي أو تفسيري[1]»( ).

• مسألة بطلان القول بعدم مضي طلاق الغضب

قال الناظم:

وقـولـهم إن طـلاق الغضـب ... ليـس بـلازم لضعفه أغضب

أن قـاله بـعض مـن الحنابلة ... فـلم يجد فـي بيـدر سنابله

وقد رماه العلما كابن حجر ... عـلـى البخـاري بنـبل وحجر

لـذلك القـول بـه لـم يقبل ... في المالكي والشافعي والحنبلي[2]

والقول إن الطلاق في الغضب لا يقع، مروي عن بعض متأخري الحنابلة، ولم يوجد عن أحد من متقدميهم إلا ما أشار إليه أبو داود[3]( ). وقد ورد الشطر الثاني في نسخة أخرى من المنظومة بصيغة:

لذلك القول به لم يقبـل ... في مذهب سنوي شذوذ حنبلي

1-المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل أهل غرب وجنوب غرب الصحراء: المجلد الثامن.

2-من نص منظومة بوطليحيه.

3-- ابن حجر، فتح الباري: 9/388.

وهذه الرواية يبدو أنها أكثر موائمة لما يعرف عن هذه المذاهب، فالصيغة التي أثبتنا في المتن يوهم مدلولها أن الحنفية لا يعتبر عندهم طلاق الغضب، وفي ذات الوقت يجعل الحنابلة كلهم في نفس الرأي مع المالكية والشافعية الذين يعتبرون طلاق الغضب ويمضونه، وهذا يخالف الواقع، لأن الحنفية يعتبر عندهم طلاق الغضب شأنهم شأن المالكية والشافعية. أما الحنابلة فكذلك هم مثل الجمهور باستثناء شذوذ من بعض متأخريهم، حيث ألغوا طلاق الغضب.

وحاصل هذه الأبيات من قوله: «وقولهم إن طلاق الغضب» إلى قوله: «فإنما الإغلاق عند مالك» أن طلاق الغضبان ماض ولا يعذر بغضبه، وذلك لأن العلماء فسروا الإغلاق الوارد في الحديث أنه لا طلاق لصاحبه بالإكراه باستثناء بعض متأخري الحنابلة وأبي داود صاحب السنن من متقدميهم، فإنهم فسروا الإغلاق بالغضب، والحديث المذكور أخرجه البخاري تعليقا «لا طلاق في الإغلاق»، وأخرجه أبو داود في سننه «لا طلاق في إغلاق»، وأخرجه أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه، كلهم عن عائشة، وكلهم فسره بالإكراه باستثناء أبي داود فإنه فسره بالغضب، حيث ترجم عليه بالطلاق على غيظ، وقال بعد رواية الحديث: «والإغلاق أظنه في الغضب».

• مسألة بطلان القول باشتراط تراضي الأزواج في الطلاق

أشار الناظم إلى بطلان قول البعض بأنه لابد من تراضي الأزواج في الطلاق. وهذه المسألة أي اشتراط رضى كل من الزوجين بالطلاق لإيقاعه، قال بها البعض محتجا بدلالة المشاركة المفهومة من صيغة «يتفرقا» من الآية: {وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ[1]} .

وذكر الناظم أن الاعتماد على ظواهر القرآن والسنة قد يجر إلى الضلال. وهذه القولة ذكرها الصاوي حين قال: «ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية فالخارج عن المذاهب ضال مضل، وربما أداه ذلك إلى الكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر[2]».

1- النساء: 130
2 - حاشية على تفسير الجلالين: 3/9.

ثم ذكر أن المرأة لا حق لها في الطلاق لحديث «إنما الطلاق بيد من أخذ بالساق[1]». ذلك لأن الزوج بمجرد أن يلفظ الطلاق يكون حكمه لازما لأنه يصبح حقا لله وليس للزوجة فتقبله أو ترفضه ما لم يكن تخييرا أو تمليكا أو توكيلا. ولقد ذكر الونشريسي هذه المسألة في كتاب فروق الطلاق، ونص ما قاله: «وإنما لزم الطلاق في قول الرجل إن تزوجت فلانة فهي طالق، ولم يلزمه إسقاط الشفعة في قول الرجل إن اشترى فلان فقد أسقطت عنه الشفعة، لأن الطلاق حق لله عزوجل، لا يملك المطلق رده إذا وقع، ولا يستطيع الرجوع فيه برضى المرأة المطلقة، إذ ليس ذلك حق لها فيلزم بعد النكاح كما ألزمه نفسه قبل النكاح وإسقاط الشفعة ليس بحق لله عزوجل، وإنما هو حق له قبل المشتري، فيصح له الرجوع فيه برضاه، فلا يلزم إلا بعد وجوبه له عليه، قاله بعض الشيوخ[2]».

• مسألة بطلان القول بعدم لزوم اليمين على معصية

يقول الناظم:

ومن يقل لا تلزم اليمين على كقطع رحم يمين

وهذا هو قول الهلالي: «... وأن الحالف بالحرام على قطع رحم أو غيره من المعاصي لا يلزم، ويعتمدون على تقاليد مشتملة على أحاديث وآثارا من السلف وعلى نسبة ما فيها لكتاب معزو لابن أبي زيد وغيره وهم لا يعرفون من قيد تلك التقاييد ولا صحة شيء مما فيها ويستبيحون بها الفروج المحرمة بالإجماع وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا نسأل الله العافية[3]».

• مسألة بطلان القول إن النكاح والذكاة والحج يعمل فيها بالقول الضعيف

1- رواه ابن ماجه من طريق ابن لهيعة عن ابن عباس. يراجع كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي: 1/248.
2- عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق: ص 95.
3- نور البصر: 160

قال الناظم:

وقولهم ثلاثة قد يعمل بالقول الضعيف مهمل
وهي نكاح وذكاة حجومن ومن يقله العلماء حجوا
بأنه قويلة ضعيفه فيهن زيفها المعيار في صحيفه

وإلى ما أورد صاحب المعيار أشار سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم في أجوبته، فقال: «وقول الداودي إنه يجوز العمل بالضعيف في الطلاق والذكاة والحج ضعيف أيضا لا يعتمد عليه[1]».

5. التحذير من البحث والفهم وأنهما غير نص

في هذا الفصل الذي جاء في 28 بيتا تعرض الناظم لبعض المصطلحات الفقهية التي كثيرا ما يقع الناس في الغلط في فهمها. فذكر أن الخلاف بين شارحي المدونة ليس نصا لأنه خلاف في التصورات. والخلافات الراجعة للتصورات ليست خلافات فقهية وإنما هي خلافات عقلية.

فبيَّن أن قول الفقيه بحثت فلم أجد، غير نص لأن عدم الوجدان لا يقتضي عدم الوجود. وألفاظ البحث كثيرة منتشرة في كتب الفقه وصاحبها لا يحكم في الأمر بجزم وإنما يستعرض الاحتمالات ويسكت عن البت فيها. فمن أمثلة لفظ الظهور قول عبد الباقي عند قول الشيخ خليل في الجنايات: «فهرب وطلبه وبينهما عداوة» «وانظر إذا لم يكن عداوة هل الدية بقسامة أو لا دية[2]».

6. شروط العمل فيما جرى به العمل

في هذا الفصل الوارد في 18 بيتا، تعرض الناظم لما جرى به العمل، وبيّن ما يترجح به القول الضعيف والشروط اللازمة في حال الفتوى بالضعيف.

والذي جرى به العمل: هو الذي استمر عليه عمل الفقهاء في مكان معين سواء

1- المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل أهل غرب وجنوب غرب الصحراء: المجلد الثامن.

2- عبد الباقي الزرقاني، شرح مختصر خليل: 2/116.

أكان مشهورا أو شاذا أو كان راجحا أو ضعيفا. وليس كل ما جرى به العمل معتبر شرعا. قال الهلالي: «وقد اعتقد بعض الأغبياء أن كل ما حكم به قاض فقد جرى به العمل وأنه يقدم على المشهور من غير نظر لما فيه من الخلل[1]».

«ووجه تقديم الجاري به العمل على المشهور مع أن كلا منهما راجح من وجه، أن في الخروج عنه تطرق التهمة إلى الحاكم فوجب عليه اتباع العمل سدا للذريعة. هذا في المقلد الصرف. وأما المجتهد فمشكل. والذي يدل عليه كلام الشاطبي وغيره وجوب اتباع الراجح في اعتقاده[2]».

وقد عد الفقهاء شروط تقديم ما به العمل خمسة: أولها ثبوت جريان العمل بذلك القول[3]، والثاني معرفة محلية جريانه عاما أو خاصا بناحية من البلدان، والثالث معرفة زمانه فإنه إذا جهل المحل أو الزمان الذي جرى به العمل لم تتأت تعديته إلى المحل الذي يُراد تعديته إليه، إذ للأمكنة خصوصيات كما للأزمنة خصوصيات[4]. والرابع إذا جرى العمل ممن يُقتدى به بمخالف المشهور لمصلحة وسبب: فالواقع في كلامهم أنه يُعمل به جرى به العمل وإن كان مخالفا للمشهور. وهذا ظاهر إذا تُحُقِّقَ استمرار تلك المصلحة وذلك السبب، وإلا فالواجب الرجوع إلى المشهور[5]. والخامس: معرفة السبب الذي لأجله عدلوا عن المشهور إلى مقابله[6].

وقد ذكر التواتي أن شروط الفتوى بالضعيف أربعة: «الأول: أن يسلم من شدة الضعف. الثاني: أن يثبت عزوه لقائله. الثالث: أن يكون قائله ممن يقتدى به في الدين لعلمه وورعه وشهرته. الرابع: أن يتحقق الضرر في نفسه أو فيمن استفتاه خلافا لما في فتح الودود على مراقي السعود من أنه إذا تحقق الضرر في نفسه جاز

1- نور البصر: ص 163.

2-نور البصر: ص 162.

3- نور البصر: ص 163.

4- نور البصر: ص 164.

5- البناني، الفتح الرباني فيما ذهل عنه الزرقاني: 7/124.

6- نور البصر: ص 164.

له العمل بالضعيف. ولكنه لا يجوز أن يفتي به لغيره ولو تحقق ضرره إذ لا يتحقق الضرورة في غيره كما يتحققها في نفسه[1]».

ثم عرّج الناظم على مسألة أن الأعمال لكي تكون صحيحة يجب أن تعرض على القرآن لأن الله لا يعبد إلا بما شرع. واستثنى من ذلك أحكام الأولياء، فذكر أنهم لا يقلدون في أفعالهم بخلاف العلماء الذين قد يستأنس بأفعالهم على مذاهبهم كما ذكر الشيخ محمد المامي بن البخاري (ت: 1282) في قصيدته الدلفينية عازيا للتوضيح في قوله:

وإنْ فعل سوى المعصوم معتبر حلى به حلل التوضيح سحنون

يشير بذلك إلى ما نقله التوضيح عن سحنون من قوله: لم يزل العلماء يستدلون بأفعال العلماء على مذاهبهم. ومن ذلك قولهم كان يفعله فلان على وجه التزكية.

7. الترجيح بالعرف:

هذا هو الفصل السادس من فصول المنظومة ويتكون من 17 بيتا وقد بدأه الناظم بقوله:

ورجحوا بالعرف أيضا وهوا من سائر المرجحات أقوى

وقد تعرض لعدة مسائل من أحكام العرف. فأورد تعريفه أولا كما جاء في منظومة ابن عاصم الغرناطي (ت. 829هـ) «مرتقى الوصول إلى علم الأصول». ومفاد ما ذكر أنه غلبة معنى من المعاني على جميع البلاد أو بعضها. ثم صرَّح بأن العرف هو أقوى المرجحات، وأن العادة كالشرع ما لم تخالفه، وأن الترجيح به لا يقتصر على رفع الخلاف، بل يعتمد عليه أيضا في إنشاء الأحكام مقابل تلك المتفق عليها. وذلك في الأحكام التي مستندها العرف[2]»( ). ولذا لا يعمل به إلا في الأحكام التي وكَّل الشارع أمرها للعرف، كتقدير نفقات الزوجات والأقارب وكسوتهن، وما يختص به الرجال

1-مرجع المشكلات في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والجنايات: ص 139.

2- نور البصر: ص 221 – 222.

عن النساء من متاع البيت، وما يخص النساء وألفاظ الناس في الأيمان والعقود والفسوخ. وإذا تغير العرف في هذه المسائل تبعه الحكم في ذلك[1].

وذكر أن الترجيح بالعرف لا يختص بالمجتهد بل المقلد الصرف يدركه لأن العرف سبب ظاهر يشترك في إدراكه الخاص والعام كما صرح بذلك الهلالي[2].

والفقه إذا انبنى على الأعراف والعوائد يتغير بتغيرها طردا وعكسا. انطلاقا من القاعدة الفقهية: «العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما». قال القرافي في الفرق الثامن والعشرين من كتاب الفروق بعد تقريره معنى العرف القولي والفعلي وذكره أمثلة من الأحكام المبنية على العوائد وتغيرها بتغير العوائد ما نصه: «وبهذا القانون تعتبر جميع الأحكام المرتبة على العوائد[3]». وقال الهلالي: «فإذا تبدل العرف تبدل الحكم، فإن كان العرف الطارئ عاما عم الحكم المتجدد وإن كان خاصا ببلد أو قوم اختص الحكم[4]». وقال القرافي: «الجمود على أمر الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة وليس تجديدا للاجتهاد من المقلدين حتى يشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد[5]».

1- محمد يحي بن محمد المختار الولاتي، شرح مرتقى الوصول، بيروت: ص 221 – 222.

2- نور البصر: ص166.

3- نور البصر: ص167.

4- نور البصر: ص165

5-الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام: ص 11.

8. الترجيح بالمفاسد والمصالح

تكلم في هذا الفصل السابع في 10 أبيات عن كيفية الترجيح بالمفاسد والمصالح، فقال:

ورجحوا بالدرء للمفاسد ... وبالمصالح لقول كاسد
وخصصوا الترجيح بالمصالح ... وبالمفاسد لثبت صالح
لكونه أهلا للاجتهاد ... قد أتقن الآلات بالسهاد
فقيه نفس لم يكن مغفل ... وبأصول الفقه قد تكفلا
أحاط بالفروع والقواعد ... فكان ساعيا لكل قاعد

المفاسد: جمع مفسدة وهي كل ما نهى عنه الشارع سواء أدركت العلة فيه أم لم تدرك، والمصالح: جمع مصلحة وهي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده، سواء تجلت في حفظ دينهم، أو نفوسهم، أو عقولهم، أو نسلهم، أو أموالهم، حسب ترتيب ملتزم فيها بينها وسواء كانت ضرورية أو حاجية أو تكميلية. قال الهلالي: «وثانيها أن الأمور التي توجب ترجيح غير المشهور كونه طريقا لدرء مفسدة، وثالثها كونه طريقا لجلب مصلحة إذا عرضت واحتيج للدرء والجلب ولم يكن إلا مقابل المشهور. ووجه ذلك أن الشريعة جاءت بدفع المفاسد وجلب المصالح[1]».

ويقول الشاطبي: «المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد. فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معا[2]».

ثم ذكر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح وأنه في حال تصادم المصالح يجلب أنفعها. وذلك اعتبارا للقواعد الفقهية الواردة في هذا المعنى مثل: «الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف». و«يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام» إلخ.

1- نور البصر: 168.

2-الموافقات: 1/32.

وكذلك القولة المتداولة على ألسنة الفقهاء: «ليس الفقه أن تعرف أن الخير خير من الشر ولكن أن تعرف أن الخير من الخير وأن الشر خير من الشر».

9. طبقات المفتين الثلاث

خصص الناظم الفصل الثامن من تأليفه لطبقات المفتين وقد جاء هذا الفصل في 47 بيتا. وذكر في مستهله أن طبقات المفتين الذين يجوز لهم الإفتاء لتحصلهم على مستوى مخصوص من العلم والتقوى هم ثلاث فقط.

• **أولهم:** المجتهد المطلق كمالك بن أنس. وهذا الصنف يجب عليه العمل بما أداه إليه اجتهاده. قال الهلالي: «أن يكون المفتي قادرا على الاجتهاد المطلق بأن توفرت عنده دواعيه وآلاته، وثبتت فيه شروطه، وهي تلك الصفات المخصصة للمجتهد والمقررة في علم أصول الفقه فيجب عليه الفتوى بما أداه إليه اجتهاده واقتضته أدلته ولا يقلد غيره».

• ثانيهم مجتهد المذهب كابن القاسم. قال الناظم في هذين المستويين أي الاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهبي:

والاجتهاد في بلاد المغرب ... طارت به في الجو عنقا مغرب
فصاحباه اليوم منسيان ... «فذكره وحذفه سيان»

• ثالثهم مجتهد الترجيح كالشيخ خليل بن إسحاق.

أما الطبقة الرابعة من الفقهاء وهي التي نعت الناظم صاحبها بأنه المفتون؛ فهو المقلد الذي يكون قد حصل بعض المختصرات من كتب المذهب فيها مسائل عامة مخصصة في غيرها أو مطلقة مقيدة في غيرها أو فيها ضعيف أو غيره، ولا علم له بالمخصصات والقيود وتمييز المشهور من الضعيف، فهذا تحرم عليه الفتوى بما حصله لأنه هو والعامي سواء.

قال الونشريسي عازيا للمدخل: «وإذا رجع إلى المقلد رجوع اضطرار كرجل يذكر المسائل كمن يحفظ المدونة والعتبية والواضحة، وما جمع منها كالنوادر ونحو ذلك، فإن استفتي مثل هذا، فالفرض عليه أن لا يفتي في مسألة إلا كالنوادر ونحو ذلك، فإن استفتي مثل هذا، فالفرض عليه أن لا يفتي في مسألة إلا حسبما هي في ديوان

من هذه الكتب. فيكتب الجواب عنها حاكيا من غيرزيادة حرف ولا نقصان حرف، لا في بساط ولا عرف فيكون كمن يخرج الوصية من داخل الدار إلى رجل بالباب، فإن زاد أو نقص فالفرض عليه السكوت لأن التقليد فاته والاجتهاد فاته[1]».

10. خاتمة في أقل أوصاف المفتي في هذه الأزمة

جاءت خاتمة النظم في 48 بيتا. وقد ضمنها مجموعة من المسائل ركز فيها على أن مسألة الإفتاء تدور، رغم شروطها التي بيّن، مع الإمكان والاستطاعة.

فالتكليف مربوط بالإمكان وقد عبر عن ذلك الإمام الشاطبي في أكثر من مكان. يقول: «ذلك لأن الشارع لا يقصد التكليف بالشاق ولا الإعنات به[2]». ويقول أيضا: «إذا كانت المشقة خارجة عن المعتاد بحيث يحصل بها للمكلف فساد ديني أودنيوي، فمقصود الشارع فيها الرفع على الجملة[3]». ويقول في مكان آخر: «القصد إلى المشقة باطل لأنه مخالف لقصد الشارع ولأن الله لم يجعل تعذيب النفوس سببا للتقرب إليه ولا لنيل ما عنده[4]».

وبالرغم من ذلك ينقل الناظم عن الفقهاءالمالكية أن من لم يختم المدونة وشروح المختصر مطالعة في كل عام لا يجوز له أن يفتي بما حصله من الفقه؛ بل فتاوه لغو كالريح. ولقد اشترط العلماء في المفتي أن يكون عالما بالأدلة التفصيلية مع إلمامه التام بالمعلوم من العربية والمهارة في علم أصول الفقه، ويعرف كيف يطبق النصوص على النوازل ويعرف تنزيل الأحكام على القضايا مدرجا الجزئيات تحت الكليات عارفا بأحوال الناس وعاداتهم وأعرافهم، عالما بما يجري به عملهم مستحضرا نصوص المذهب الذي يفتي به، مفرقا بين مطلقها ومقيدها وعامها وخاصها، مطلعا على اصطلاحات العلماء سالكا في فتواه سبيل التبصروالأناة بعيدا عن التسرع والاندفاع مكثرا من مطالعة أقوال الأئمة ومراجعة الكتب المتخصصة

1- المعيار: 12/26-27.

2- الموافقات: 2/121

3- الموافقات: 2/156.

4-الموافقات: 2/129.

لتحصل له ملكة الفتوى[1].

قال الونشريسي: «قال مالك: لا ينبغي للعالم أن يفتي حتى يراه الناس أهلا لذلك ويرى هو نفسه أهلا لذلك. وما أفتى مالك حتى أفتاه أربعون محنكا[2]». وقال ابن فرحون: «قال مالك: وليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلا لذلك جلس، وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أني موضع لذلك[3]». وقال السيوطي: «وأخرج أبو نعيم عن أبي مصعب، قال: سمعت مالكا يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون شيخا أني أهل لذلك[4]».

وقد تأسف الناظم على جراءة المتفقهة اليوم على الفتوى فقال:

اليوم أهل البدو والقصور يفتون جرأة مع القصور

قال الهلالي: «وربما ظن الجاهل نفسه وظنه الجهال عالما، لكونه يتلفق بعض الجزئيات من بعض كتب النوازل من غير أن يأخذها عن عالم، ولا يفهم المراد منها ولا عنده من الآلات ما يمكنه التصرف به فيها وتطبيقها على نازلة ولا يعرف صحة نقلها، فيتصدرللفتوى وهوفي الحقيقة مساوللذين يستفتونه في الجهل، وربما كان فيهم من هو أفهم منه، وإنما تميزعنهم بما رأوا عنده من الكتب[5]».

الخاتمة

يمكن من خلال هذا التتبع لمنظومة الغلاوي في المعتمد من الكتب والفتوى أن نقرر أن الفقهاء المالكية بحاجة اليوم إلى كتاب يعاود النظر في كتب المذهب ويبين مواطن الضعف والقوة فيها ويعطي معلومات تقييمية عنها. كما يحتاج المالكية إلى ضبط الفتوى والعمل على كفايتها. فأغلب الفتاوى اليوم يطبعها نوع من التشويش

1- أحكام ابن حزم: 2/693 .695.

2- المعيار: 10/39.

3- الديباج: ص21.

4- تزيين الممالك بمناقب سيدنا مالك: 1/8.

5- نور البصر: ص 148

والاضطراب الراجع إلى الإفراط في استعمال أدلة تُضعف، في عين الناظر، من حجيتها لمعارضتها للنص المحكم والدليل الأرجح. وهذا الخلل يتجلى في عدة مظاهر؛ منها:

أولا: النقص البيّن أحيانا في فهم المتصدين للإفتاء لتفاصيل المستجدات والقدرة على مواكبتها نظرا لتلاحق حلقاتها السريع والمطرد، والعجز الظاهر عن نفاذ الرؤية فيما يتعلق بالتشخيص والتكييف وتنزيل الحكم على الوقائع. ويبدو أن هذين المأخذين هما مكمن الضعف في فتاوى أكثر الفقهاء مما جعلهم إما متجاوزين فلا يستأمرون ولو كانوا حضورا، لأن هذه الوقائع النازلة المجهولة الحكم الشرعي تفرض نفسها في الواقع، وجماهير المسلمين يتجرؤون على تقحمها أو بعضها دون الوقوف على حليتها أو حرمتها ودون سؤال العلماء، وإما مدفوعين إلى التوقف في الحكم عليها أو إلى الذهاب مباشرة نحو تحريمها إذا لم يظهر وجه دخولها تحت دليل من الأدلة المعتبرة والمأذون فيها. لأن أغلب هؤلاء يرى أن الاجتهاد قد انقطع كما هو القول القوي، وأن الفتوى توقيع عن الله، وأن إحداث قول على أقوال أهل المذاهب لا يجوز، وأن النظر الفقهي له ضوابط قتلها الأصوليون على مر القرون درسا وتمحيصا.

ثانيا: فوضوية الاجتهاد والفتوى التي تفاحشت وتقوت مع مناخات الحرية في العالم وتطور وسائل الاتصال والتواصل وضعف الهيئات العلمية الممركزة للفتوى وغياب رقابة يقظة على هذا الحقل الديني.

ثالثا: الميول الجامح نحو الإفتاء اللامذهبي الذي يتحلل أصحابه من كل شرط ومنهج، فيأخذون من كل مذهب حسب ما يشاءون وبكامل الحرية، والنتيجة التي يخرجون بها خليط غير منسجم من الآراء الفقهية تتضارب أدلتها إذا فحصت، ويضعف محتواها الأخلاقي والقيمي إن هي طبقت على أرض الواقع. ومن المعلوم في الدراسات العرفانية أن المنهج جزء مهم من المحتوى، ومن المعلوم أيضا أن لكل مجتهد منهجه المستقل الذي يصوغ من خلاله فتاواه واجتهاداته، وأن الأحكام الفقهية كما تنقل المحتوى القانوني للخطاب التشريعي، فإنها تحمل في ذات الوقت

أبعاده الروحية والقيمية والدينية.

رابعا: الضعف الملاحظ في التحصيل والتأصيل العلميين. فقد انتهض اليوم للإفتاء والاجتهاد أقوام كثيرون تزببوا وهم حِصرم، فهم ما بين طالب علم أو حامل فقه، أو متكل على عقله غير متزود من العلم الشرعي بكبير زاد، اللهم إلا صولة العاطفة واندفاع الحماس، أو مستظهر لبعض نصوص الوحيين دون التسلح بالعلوم المساعدة الأخرى الضرورية لفهمهما، ودون الأخذ بأقوال العلماء. فربما أخذ بالمنسوخ وأعرض عن الناسخ، وعمل بالعام وترك مخصصه، واختار المطلق وأهمل مقيده، وغابت عنه كيفية الجمع بين النصوص، أو الترجيح بين ما ظاهره التعارض، أو قاس مع وجود الفارق أو فساد الاعتبار، فجاءت فتاوي هؤلاء المتشبعين بما ليس فيهم خارقة للإجماع، بالغة في الضعف والشذوذ حدَّ الرد والنبذ بالعراء.

وهذا ما جعل العلماء قديما، يصفون اجتهادات مَن هذه صفته بـ»الرأي المذموم» الذي يخالف النص ولا يعضده دليل، بل يبالغون في التشنيع عليهم مستدلين بكثرة مستفيضة من الآثار عن السلف في ذم الفتيا بغير علم، والنهي عن سؤال غير العلماء، والتنفير من الاستماع للجاهل، صيانة للإسلام وحماية لبيضته أن تستباح، ونصحاً لعباد الله المؤمنين، فكيف بمن جمع - في نظرهم - حشَفاً وسوء كيلة.

لائحة المصادروالمراجع

1. أحمد محمد الخليفي،

- تحقيق المسائل المختصرة من كتاب البرزلي: الطبعة الأولى 1991م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، الجماهيرية العظمى – طرابلس.

2. ابن احبيب (أحمدو):

- الأعداد، الجزء الأول، مطبعة سنان لويس السينغال، 1957م.

3. ابن الحاج إبراهيم (سيدي عبد الله):

- نشر البنود على مراقي السعود (مجلدان)، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب.

- النوازل (مخطوط).

4. ابن حامدن (المختار):

- موسوعة حياة موريتانيا، جزء الأغلال (مرقون).

5. ابن حجر (شهاب الدين أبو العباس أحمد العسقلاني):

- فتح الباري (1 – 13) المطبعة السلفية، القاهرة 1380هـ.

6. ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن):

- المقدمة، دار المصحف، مصر.

7. ابن السالك محمد عبد الرحمن:

- عون المحتسب في ما يعتمد من كتب المذهب، تحقيق: محمد الأمين بن محمد فال بن اباه، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، انواكشوط 1995م.

8. ابن سيدي محمد (أحمد سالم الأبهمي):

- تعليق على بوطليحية (مخطوط).

9. ابن الصلاح الشهرزوري:

- أدب المفتي والمستفتي، تحقيق: د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر، دار الوفاء للنشر والتوزيع.

10. ابن عاصم:

- مرتقى الوصول إلى علم الأصول (مخطوط).

11. ابن العاقل (أحمد):

- الفتاوى والأحكام، تحقيق: يحيى بن البراء، (مرقون).

12. ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم):

- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت 1301هـ.

- الديباج المذهب (1 – 2)، تحقيق: محمد أبو النور، دار التراث، مصر.

13. ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم):

- لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت (بدون تاريخ).

14. ابن هلال:

- النوازل، تصحيح الفقيه: الشريف سيدي المهدي الوازاني العمراني، الطبعة الحجرية (260 صفحة)، فاس، بتاريخ: 1310هـ.

15. أبو زهرة (محمد):

- أصول الفقه، دار الفكر العربي، القاهرة 1977م.

- مالك، حياته وعصره. آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة 1978م.

16. الباجوري:

- شرح السلم (مخطوط).

17. الباجي (أبو الوليد):

- إحكام الفصول في أحكام الأصول، تحقيق: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م.

18. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي:

- الجامع الصحيح (1 – 9)، طبعة مصطفى البابي الحلي، القاهرة – مصر، 1947م.

19. البناني (هو محمد بن الحسين أبو عبد الله):

- الفتح الرباني في ما ذهل عنه الزرقاني (ثمانية أجزاء)، وقد طبعت بحاشية شرح الزرقاني على المختصر، في أربعة مجلدات، بدار الفكر، لبنان 1978م.

20. التنبكتي (أحمد بابا):

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون تاريخ).

21. التواتي:

- كتاب مرجع المشكلات، وهو شرح نظم محمد العاقب بن مايابا لنوازل سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، طبعة: مكتبة النجاح، طرابلس – ليبيا، (بدون تاريخ).

22. الجرجاني (الشريف):

- التعريفات، إيران 1952م.

23. الجراحي (الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني):

- كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس.

24. الحطاب (محمد بن عبد الرحمن المغربي، ت: 954هـ):

- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، طبعة دار الفكر 1317هـ، (6 أجزاء)، 1978م، بيروت – لبنان.

25. الرصاع (أبو عبد الله بن الأنصاري):

- شرح حدود ابن عرفة، تحقيق: محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، 1993م.

26. الزرقاني (عبد الباقي):

- شرح على حاشية اللقاني على خطبة خليل، مطبعة فاس الحجرية 1309هـ.

- شرح مختصر خليل، طبعة دار الفكر (بدون تاريخ)، ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات، بيروت – لبنان.

27. الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى):

- الموافقات في أصول الشريعة (أربعة أجزاء)، طبعة: دار الفكر، بيروت 1341هـ.

28. الصاوي (الشيخ أحمد):

- حاشية على تفسير الجلالين، طبعة دار الجيل، بيروت (بدون تاريخ).

29. القرافي شهاب الدين أبو العباس أحمد:

- الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام.

- أنوار البروق في أنواء الفروق (1 – 4)، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف، دار الفكر، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى 1973م.

30. اللقاني (السيد خليل بن إبراهيم بن علي بن غرس الدين أبو مفلح):

- منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى، دار الأحباب للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت، بتحقيق: الشيخ زياد محمد محمود حميدان، الطبعة الأولى 1992م.

- حاشية على خطبة المختصر بهامش كتاب نور البصر للهلالي، مطبعة فاس الحجرية 1309هـ

31. محمد بن أحمد مياره الفاسي:

- الروض المبهج بشرح بستان فكر المهج في تكميل المنهج، تحقيق محمد فارس الشيخ، دار الكتب العلمية.

32. النابغة الغلاوي:

- نظم أم الطريد (مخطوط بحوزتنا).

- المباشر على ابن عاشر، تحقيق محمد صالح ولد فضيلي (1990م)، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط.

33. الهلالي (سيدي أحمد بن عبد العزيز):

- نور البصر في شرح المختصر، مطبعة فاس الحجرية 1309هـ

34. الولاتي (محمد يحي):

- فتح الودود على مراقي السعود، مراجعة بابا محمد عبد الله، مطابع عالم الكتب للطباعة والتجليد، الرياض – المملكة العربية السعودية 1992م.

- شرح مرتقى الوصول لابن عاصم، طبعة ببيروت.

35. ولد باباه (محمذن):

- تحقيق كتاب النجم الثاقب في بعض ما لليدالي من مناقب للنابغة الغلاوي، المطبعة المدرسية بالمعهد التربوي الوطني، انواكشوط 1994م.

36. ولد البراء، يحيى

- المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل أهل غرب وجنوب غرب الصحراء، نواكشوط 2010م.

37. الونشريسي:

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي ببيروت، 1981م، (13 مجلدا)، تخريج جماعة من الفقهاء، إشراف الدكتور محمد حجي.

- عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تحقيق: حمزة أبو فراس، الطبعة الأولى 1990م، مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت في 757 صفحة.

جهود العلماء الأفارقة في نشر المذهب المالكي

د. محمد زين العابدين الحسيني
باحث في تاريخ المغرب.

مما لاشك فيه أن روابط المغرب بالقارة الإفريقية روابط عريقة ومتعددة المكونات، وفي مقدمتها الروابط الروحية، وهو ما لخصه الخطاب الملكي السامي بالقول: "فإفريقيا بالنسبة للمغرب، أكثر من مجرد انتماء جغرافي، وارتباط تاريخي. فهي مشاعر صادقة من المحبة والتقدير، وروابط إنسانية وروحية عميقة. إنها الامتداد الطبيعي، والعمق الاستراتيجي للمغرب[1]." وما أكده أحد المفكرين الأفارقة، حيث قال: "ثمة ثلاثة مفاتيح أساسية لتقوية العلاقات المغربية الإفريقية هي: التنمية والأمن والدين. فلا أمن ولا سلام ولا استقرار في إفريقيا بدون دور ديني فعال يواجه معضلة التطرف والإرهاب[2]" . ويبدو من ذلك أن العنصر الديني يشكل إلى جانب الاقتصاد والأمن منظومة ثلاثية المكونات ترسخ العلاقات المغربية الإفريقية.

والملاحظ أن المغرب انخرط في المنظومة الإسلامية منذ مجيء الفاتحين الأوائل، غير أن ترسيخ العقيدة الإسلامية لم يتم إلا على يد مولاي إدريس الأول، الذي تمكن من التفاعل مع قبيلة أوربة وإقناع زعمائها بمبادئ الإسلام السمحة، المنبعثة من الكتاب والسنة النبوية. وخلال هذه الظرفية تم انتقال المذهب المالكي إلى المغرب، حيث كان لدخول موطأ مالك بن أنس إلى المغرب من طرف عامر بن محمد بن سعيد القيسي، على عهد المولى إدريس الثاني، الأثر البارز في نشر المذهب، واتخاذه مذهبا رسميا للدولة. كما كان لتأسيس جامع القرويين، الفضل في تطويره وترسيخه، وإعداد نخبة من العلماء خدموه تأصيلا وتفريعا وتنظيرا[3]. وانتقل من المغرب إلى باقي بلدان إفريقيا الغربية، وفي هذا الشأن يقول ابن بطوطة، في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار: «أما السودان الغربي قديما فهو الآن الغرب الإفريقي،

1-من الخطاب الملكي السامي بمناسبة، 20 غشت 2016

2- الحاج الأمين بامبا، كوديفوار.

3-أبو العباس أحمد ابن عبد الحي الحلبي، "الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس ابن إدريس".

ومذهبهم هو المالكي... ولما أسلم كثير من أبناء السودان الغربي على أيدي التجار المغاربة المالكيين، كان من الطبيعي أن ترتكز تعاليمهم الفقهية على المذهب المالكي، وهذا غالبا يكون بعد حفظ القرآن». ومن بين أسباب انتشار هذا المذهب صمود فقهاء المالكية في وجه المذاهب المخالفة منذ وقت مبكر، وفشل المذهبين الشيعي والخارجي في التغلغل بين شعوب بلاد السودان. إضافة إلى ربط شيوخ وعلماء الزوايا بالسودان علاقات جد وطيدة بملوك المغرب.

ومما يدل على تشبث هؤلاء بالمذهب المالكي، وجود العديد من مؤلفات علماء السودان مثل أحمد بابا التنبكتي، المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الشنقيطي التنبكتي... لتبسيط وتفسير وتوضيح المذهب مما كان له الدور الكبير في انتشاره واستمراره، ومن بين المخطوطات التي يمكن الاستشهاد بها في هذا الشأن: «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك»، «القواعد الفقهية من الأصول القريبة»، «حاشية ابن عبد الرحمن على شرح الخراشي لمختصر خليل»، «الشرح الصغير على مختصر خليل»... وغيرها كثير. ومن بين أسباب انتشار المذهب واستمراريته سواء بالمغرب أو البلدان الإفريقية خصائصُه القائمة على أصول وقواعد تتصف بالسعة والمرونة، مما جعلها تضمن لهذا المذهب صلاحية دائمة على استيعاب التطورات واحتواء المستجدات. كاعتماد المصالح المرسلة والاستحسان في الاجتهاد الفقهي، كل ذلك أضفى على المذهب صفة الاعتدال والتوسط بين العقل والنقل، بين الشرع والواقع.. ومن ثمة نجد من بين الحجج على استمرارية هذا المذهب مخطوطات السلطان سيدي محمد ابن عبد الله، خصوصا منها «طبق الأرطاب فيما اقتطفناه من مسانيد وكتب مشاهير المالكية، والإمام الحطاب». وانفتاح المغرب على إفريقيا في إطار إمارة المومنين، حيث شكلت الزيارات الملكية السامية للبلدان الإفريقية، وإقامة الدروس الحسنية، وإنشاء المؤسسات، كمؤسسة محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، ومؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة... وتنظيم العديد من الندوات، مناسبة لترسيخ الروابط الدينية المتصفة بالاعتدال والوسطية، والمرتبطة بالمذهب المالكي.

انطلاقا من ذلك فإن هذا الموضوع سيتم تناوله من خلال المحاور الرئيسية التالية:

+ المذهب المالكي بالمغرب منذ عهد الأدارسة.
+ وسائل ومظاهر انتقال المذهب المالكي إلى إفريقيا.
+ امتداد انتشار المذهب المالكي إلى الوقت الحاضر.

• المذهب المالكي بالمغرب منذ عهد الأدارسة:

لقد كان لدخول موطأ مالك بن أنس إلى المغرب من طرف عامر بن محمد بن سعيد القيسي، على عهد المولى إدريس الثاني، الأثر البارز في نشر المذهب، واتخاذه مذهبا رسميا للدولة. كما كان لتأسيس جامع القرويين، الفضل في تطويره وترسيخه، وإعداد نخبة من العلماء خدموه تأصيلا وتفريعا وتنظيرا. وقد مر وجود المذهب المالكي بالمغرب بعدة مراحل، يبينها الخط الزمني التالي:

الموضعة الزمنية لمراحل المذهب المالكي

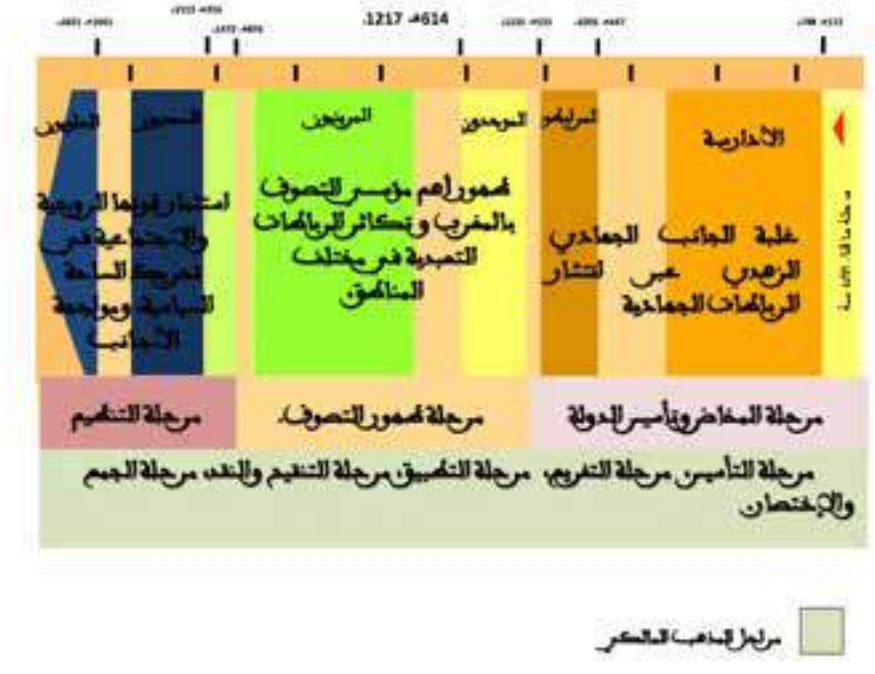

على أن اعتماد المغاربة للمذهب المالكي انعكس بشكل واضح على معاملاتهم مع الذين قد ينحرفون عن المباديئ الإسلامية، ومن أمثلة ذلك مواجهة المرابطين للمتنبئين الذين ظهروا بالمغرب بعد وفاة إدريس الثاني، ومن بين هؤلاء المتنبئين حاميم الذي ظهر بجبال غمارة، وقد أورد ابن أبي زرع الحديث بتفصيل عن الديانة التي شرعها في مخطوط «روض القرطاس»:

إضافة إلى ظهور متنبئ آخر هو صالح ابن طريف... وقد عمل المرابطون بتوجيه من عبد الله ابن ياسين على مواجهتهم بالبراهين والحجج دون استعمال السلاح أو الحرب، ويظهر ذلك من خلال الخطبة التي خاطب بها المرابطين بعد أن أتم تكوينهم الديني والعسكري، وقد أورد ابن أبي زرع هذا الخطاب الذي قال فيه: «وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى الطريق المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر... اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته...»

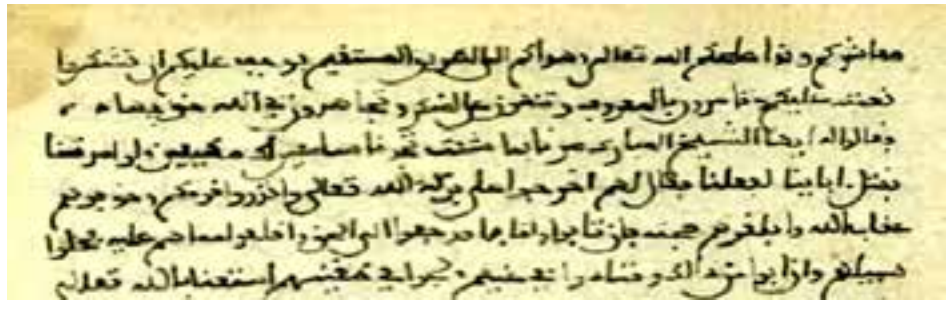

خصوصا وأن المذهب المالكي يتصف بالاعتدال والوسطية، وعدم العنف في التعامل، والتطور والتجديد؛ والواقعية التي تعني الاهتمام بما هو واقع وجرى عليه الناس في حياتهم؛ والمرونة التي تتجلى بوضوح في قاعدة مراعاة الخلاف التي تَرجِعُ أهميتُها أساسا إلى محاولة التقريب بين المذاهب. وهو الأمر الذي بلور وحدة مذهبية أصبحت من القواسم المشتركة بين هذه البلدان، ومما يؤهلها لتحقيق وحدة جزئية عظيمة للأمة الإسلامية، في هذا الجَناح الغربي من العالم الإسلامي وفي كل إفريقيا.

وهو ما يؤكده كتاب الموطأ: «قال يحي وقال مالك في الرجل يقول كفر بالله أو أشرك بالله ثم يحنث، إنه ليس عليه كفارة وليس بكافر ولا مشرك، حتى يكون قلبه مضمرا على الشرك والكفر، وليستغفر الله ولا يعد إلى شيء من ذلك، وبئس ما صنع».

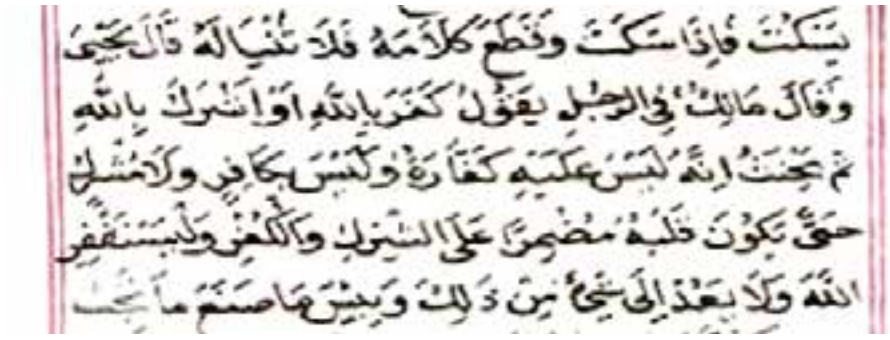

والملاحظ أن كتاب الموطأ يتضمن العديد من الأحاديث النبوية التي تحض على عدم قتل النساء أو الأطفال أو الشيوخ في الحرب، مع المحافظة على البيئة مثل عدم قطع الأشجار والنخيل أو إحراقها، أو إتلاف الآبار، والنهي عن الغدر بجميع أنواعه.

ولعل وسطية المذهب المالكي واعتداله كانتا من بين عوامل استمراره بالمغرب، وانتقاله إلى إفريقيا فيما بعد. فقد ذكر الشريف الإدريسي أن سكان تارودانت يتمذهبون بمذهب المالكية من المسلمين.

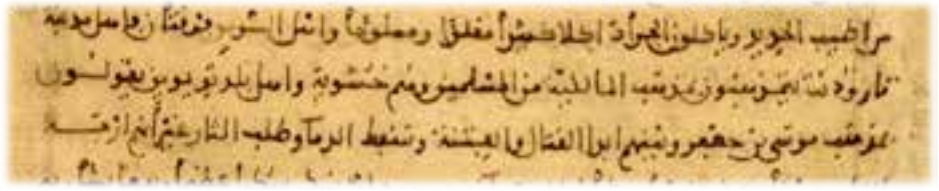

الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، مخطوط.، م و ف. رقم 1513. 2221

كما ذكر أبو القاسم محمد بن أبي جعفر، في كتابه: «كتاب في قوانين الأحكام الشرعية»، أن المذهب المالكي هو مذهب أهل المغرب، حيث يقول: «على مذهب أهل المدينة عبد الله مالك بن أنس الأصبحي رضي الله عنه إذ هو الذي اختاره أهل بلدنا

بالأندلس وسائر المغرب، اقتداء بدار الهجرة وتوفيقا من الله تعالى، وتصديقا لقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم»

ومما يدل على استمرا المذهب المالكي في الزمن بالمغرب، ما كتبه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في مخطوطه طبق الأرطاب، حيث أكد بأنه: «مالكي المذهب».

السلطان سيدي محمد بن عبد الله، مخطوط طبق الأرطاب، خ ح. رقم 628.

وارتبط المذهب المالكي في المغرب بالعقيدة الأشعرية، وطريقة الجنيد، التي هي من الاتجاهات الصوفية التي تعتمد على الاعتدال والوسطية.

وفي هذا الشأن يقول ابن عاشر في منظومته:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك[1]

على أنه إذا كانت الوسطية والاعتدال من بين أسباب انتشار المذهب في الزمن والمكان بالنسبة للمغرب، فإن هناك عوامل أخرى ترتبط بخصائص ومميزات المذهب المالكي، ساهمت في ذلك، تبرزها الخطاطة التالية:

إضافة إلى تبسيط وتفسير وتوضيح المذهب على يد العديد من العلماء، مثل مختصر خليل، ومجالس ابن القاسم التي سأل عنها مالك رحمه الله... مما كان له دور كبير في انتشاره واستمراره.

• وسائل ومظاهر انتقال المذهب المالكي إلى إفريقيا:

إن استقرار المذهب المالكي في المغرب واستمراره في الزمن والمجال، شكل منطلقا أساسيا للانتقال نحو القارة الإفريقية، حيث أصبح السكان انطلاقا من غربها يتمذهبون بالمذهب المالكي، وهو ما ذكره ابن بطوطة، في كتابه «تحفة النظار في

1-متن ابن عاشر، المسمى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين.

غرائب الأمصار، حيث يقول: «... أما السودان الغربي قديما فهو الآن الغرب الإفريقي، ومذهبهم هو المالكي». ويؤكد ذلك ما ذكره أحد العلماء النيجيريين في ندوة الإمام مالك: "إنني من نيجيريا البلد الإفريقي الذي يعيش به ستون مليونا من المسلمين على مذهب الإمام مالك.. إذ المغرب هو المنطلق الأساسي للمذهب المالكي بعد المدينة المنورة... حتى وصل إلينا في جميع انحاء إفريقيا، وإفريقيا لا تعرف إلا مذهب مالك عبر تاريخها الطويل[1]" .

فكيف انتقل المذهب المالكي إلى التخوم الإفريقية؟. إن انتقال المذهب المالكي إلى إفريقيا تم عن طريق عدة وسائل:

- دور العلماء والدعاة المغاربة، الذي يقول عنه شارل أندري جوليان: "عمد المغرب الأقصى طيلة ما يقارب القرن إلى إرسال العلماء ورجال الدين والصلحاء الدعاة وتغلغلت الحضارة المغربية بمدن ولاته وتومبوكتو وغاو[2]..." .

- دور التجار المغاربة، الذي يقول عنه ابن بطوطة: "لما أسلم كثير من أبناء السودان الغربي على أيدي التجار المغاربة المالكيين، كان من الطبيعي أن ترتكز تعاليمهم الفقهية على المذهب المالكي، وهذا غالبا يكون بعد حفظ القرآن...» [3].

- دور شيوخ وعلماء الزوايا الأفارقة، الذي يقول بشأنه ابن بطوطة: "كان يربط شيوخ وعلماء الزوايا بالسودان علاقات جد وطيدة بملوك المغرب... وكانوا كوسطاء لضبط المجالات الترابية بين المغرب والسودان... إن المدرسة المالكية التنبكتية تعتبر امتدادا للمدرسة المالكية الفاسية[4]" .

ومن أسباب انتشار المذهب المالكي من بلاد المغرب إلى الصحراء وما وراءها كذلك،

1-إبراهيم الحسيني، نيجيريا، ندوة الإمام مالك، 1980م، فاس، ص 38.

2-"تاريخ إفريقيا الشمالية"– شارل أندري جوليان - تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة – الدار التونسية للنشر، ط 1978.

3- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار.

4- المصدر السابق نفسه.

صمود فقهاء المالكية في وجه المذاهب المخالفة منذ وقت مبكر، وفشل المذهبين الشيعي والخارجي في التغلغل بين شعوب بلاد السودان.

ومن بين الممالك الإفريقية التي انتشر بها المذهب المالكي، مملكة غانا التي كان نفوذها يمتد إلى شمال النيجر الأعلى، وحدودها الشرقية نهر النيجر، والغربية نهر السينغال، والشمالية الصحراء المغربية. ومملكة مالي التي اتسعت حدودها اتساعا كبيرا نحو الشرق، حتى النيجر الأوسط، كما اتسعت نحو الغرب فشملت أراضي السينغال الحالية عدا الأجزاء الممتدة في الصحراء. ومملكة سنغاي التي كانت تقع على نهر النيجر الأوسط، وكانت عاصمتها مدينة غالر، وهي في مالي الحالية. ومملكة كانم التي كانت في أقصى الشرق حول بحيرة تشاد وامتد نفوذها إلى أراضي غانة ومالي في الغرب.

وقد كان انتقال المذهب المالكي إلى المناطق الإفريقية دافعا للعلماء في هذه المناطق للتشبث به وتأليف العديد من المؤلفات من أجل شرحه وتبسيطه ونشره أكثر، لما يتميزبه من اعتدال ووسطية. كما كان للممالك والعواصم والمراكز العلمية التي ذاع صيتها في غرب إفريقيا، مثل: تمبكتو وجنى وأغاديس وكنو وكتشنا، الفضل العظيم في نشره، ضمن نشر الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، حيث وصلت الثقافة العربية الإسلامية إلى ذروة ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وذلك في عهد (إمبراطورية سنغي الإسلامية) التي اشتهرت بكثرة علمائها ومؤلفاتهم العلمية التي أسهمت بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية في غرب القارة وخارجها.

وقد حفلت مدينة تمبكتو– العاصمة الثقافية لإمبراطورية سنغي– بالعديد من مشاهير العلماء الذين ألفوا في شتى العلوم الدينية واللغوية والتاريخية، خصوصا منها المتعلقة بالمذهب المالكي. ومن أشهر هؤلاء العلماء؛ الشيخ أحمد بابا التمبكتي، الذي كان عالماً موسوعياً، مؤرخاً، عالماً بالشريعة، ومن المتبحرين في اللغة العربية وآدابها، يذكر مترجموه أنه ألف ما يزيد عن أربعين كتاباً. وقد درس في دولة سونغاي وفي مدينة مراكش، وحضر دروسه مئات من طلاب العلم في مراكش وخارجها. ومن

أشهر مؤلفاته: (كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج)، وهو كتاب ذيَّل به كتاب ابن فرحون المالكي (الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)، وله شرح على (مختصر خليل)، و(كفاية المحتاج)، و(معراج الصعود) وغيرها من الكتب. والشيخ شمس الدين النجيب بن محمد التيجداواي، قال أحمد بابا التمبكتي عنه: «أحد شيوخ العصر، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين: كبير في أربعة أسفار، وصغير في سفرين»، وله تعليق على كتاب (المعجزات الكبرى) للإمام السيوطي، و(شرح العشرينيات للفازازي)، وله أيضاً (الطريقة المثلى إلى الوسيلة العظمى). والشيخ أحمد فورتو البرنوي، والشيخ عثمان بن فوديو...

وتمثل الخطاطة التالية بعض المؤلفين الأفارقة الذين كتبوا حول المذهب المالكي من أجل تيسير تناوله من طرف الأفارقة، وهو ما يبرهن على الجهود التي بذلوها من أجل نشر المذهب، باعتباره من الثوابت المشتركة بين المغرب وإفريقيا:

ومن ثمة فإن تبسيط وتفسير وتوضيح المذهب على يد العديد من العلماء ومن بينهم العلماء الأفارقة كان له دور كبير في انتشاره واستمراره في القارة الإفريقية. وهو ما يدل على الجهود الكبرى التي بذلها هؤلاء العلماء من أجل ذلك. مما ساهم في استمراره إلى الوقت الحاضر.

بل إن العديد من المكتبات الإفريقية تتوفر على العديد من المخطوطات المالكية، وفي مقدمتها «كتاب الموطأ» للإمام مالك ابن أنس. الذي ما تزال مكتبة (تومبكتو) تحتفظ بنسخة أصلية منه.

نسخة من موطأ الإمام مالك محفوظة بمكتبة أحمد بابا بتومبكتو

إضافة إلى مخطوطات أخرى مثل مخطوط «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك»، الذي توجد نسخ منه في العديد من المكتبات الوطنية والإفريقية:

أبو العباس أحمد الونشريسي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام أبي عبد الله مالك، مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء.

وكتاب الشرح الصغير على مختصر خليل:

الشرح الصغير على مختصر خليل، مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء.

على أنه قد يتبادر إلى ذهن البعض أن انتقال المذهب المالكي إلى إفريقيا تم بطرق عنيفة، بل إن بعض المؤرخين يتحدثون عن «غزو السودان» من طرف السلطان أحمد المنصور السعدي، وهو ما لا يمكن قبوله علميا، حيث إن الحدث التاريخي لا يمكن فصله عن إطاره المجالي والزمني، ذلك أن «الحملة إلى السودان» كانت في ظروف خاصة ارتبطت بالاكتشافات الجغرافية، حيث إن الإيبيريين عملوا على إنشاء مراكز لهم على السواحل الغربية للمغرب، أثناء توجههم إلى خليج غينيا، حيث أقاموا هناك عدة مراكز، وأخذوا ينتقلون منها نحو الشمال، الشيء الذي أصبح يهدد الامتداد الاقتصادي الحيوي للمغرب، في الوقت الذي لم تعد فيه الأندلس متنفسا عموديا للمغرب من الجهة الشمالية، ولم يعد فيه الامتداد الأفقي مستمرا بسبب الوجود العثماني في الشرق، والذي تربطه بالمغرب روابط الجوار والدين. وبذلك كان الهدف من التوجه إلى السودان هو إيقاف المد الإيبيري بعد الاكتشافات الجغرافية. بل يمكن القول بأن ذلك كان بمثابة حرب استباقية لإيقاف هذا المد، وقد بين ذلك اليفرني في مخطوطه نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، حيث تحدث عن «بعث المنصور جيوشه للسودان» ولم يتكلم عن «غزو السودان»:

اليفرني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء.

ومن ثمة فإن انتقال المذهب المالكي إلى إفريقيا وانتشاره بشكل كبير لم يشهد انقطاعا أو توقفا طيلة المراحل التاريخية، لكنه أحيانا وبسبب الفتور في التعامل مع مبادئه المتسمة بالوسطية والاعتدال، كانت تتعرض العديد من المناطق لمشاكل متنوعة. لذلك كان المغرب يسعى دائما إلى تجديد ترسيخ المذهب المالكي وقيمه السامية. وهو ما جعله يستمر حسب الامتداد المجالي والزمني.

• امتداد انتشار المذهب المالكي إلى الوقت الحاضر:

إن وسطية واعتدال المذهب المالكي جعلت منه صمام أمان بالنسبة للمغرب وسائر الدول الإفريقية من أجل مواجهة مظاهر التطرف والعنف والإرهاب بكل أنواعه، حيث أظهر هذا الامتداد أن المغرب بلد التسامح والتعايش والتساكن، بل مُصَدِّر العديد من القيم التي يتشبث بها. وتمثل الخطاطة المرفقة بعض خصائص المذهب المالكي التي جعلته يستمر زمنيا:

- شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل.

إلى جانب كثرة التصانيف التي تبسط وتفسر وتوضح المذهب المالكي، الشيء الذي كان له دور كبير في انتشاره واستمراره، من بينها «شرح ابن رحال المعداني على مختصر خليل، و«إتحاف ذوي الذكاء والمعرفة بتكميل تقييد أبي الحسن وتحليل تعقيد ابن عرفة، تكميل التقييد وتحليل التعقيد على المدونة...»

إضافة إلى تفعيل واستمرار الروابط الدينية والروحية بين المغرب وإفريقيا في إطار إمارة المومنين، وما الزيارات الملكية السامية إلى العديد من هذه البلدان إلا دليل على متانة الروابط الدينية التي تجمعها بالمغرب. وكذلك تنظيم ندوات مشتركة مغربية إفريقية حول الإمام مالك إمام دار الهجرة، مثل «ندوة الإمام مالك» التي نظمت بمدينة فاس، في أبريل 1980م، والتي دعا إلى عقدها جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه. والتي بين الهدف منها في الرسالة السامية التي بعثها للمؤتمرين:

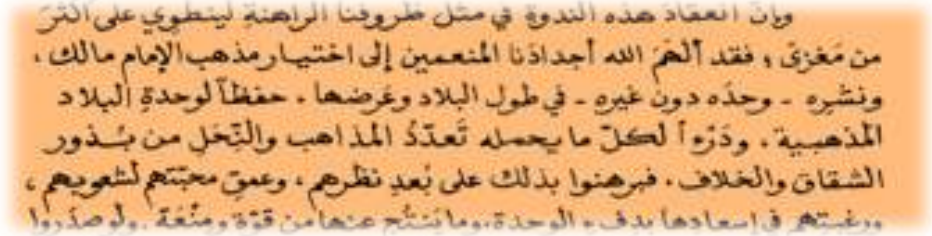

من الرسالة الملكية السامية التي بعثها جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه إلى «ندوة الإمام مالك» التي نظمت بمدينة فاس، في أبريل 1980م.

إضافة إلى تدشين «معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات» يوم 06 جمادى الثانية 1436هـ موافق 27 مارس 2015 م. الذي يضم جنسيات متعددة يشكل الأفارقة منها 68 بالمائة، ويمثل المبيان التالي توزيع جنسيات طلبة هذا المعهد:

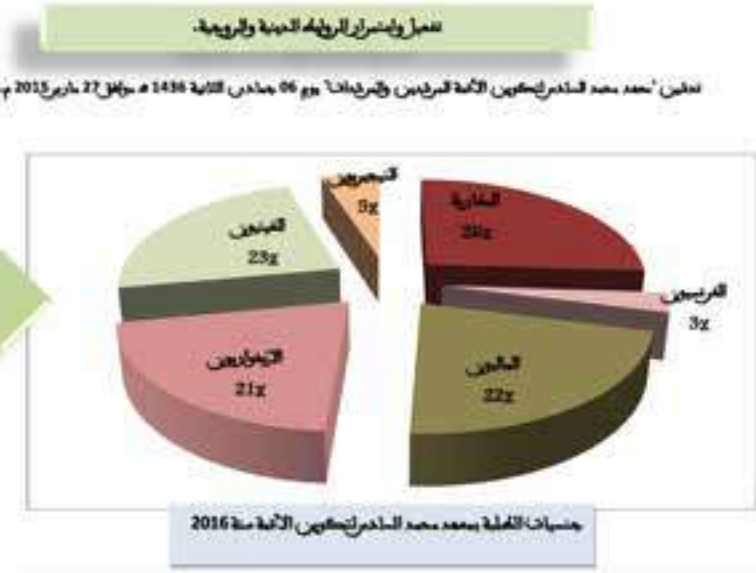

وإنشاء مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة وفق ما ورد في الظهير الشريف رقم 1.15.75 المؤرخ في 7 رمضان 1436هـ (24 يونيو 2015م) المتعلق بإحداثها.

الظهير الشريف رقم 1.15.75 مؤرخ في 7 رمضان 1436هـ (24 يونيو 2015م) يتعلق بإحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

وهكذا فإن إنشاء هذه المؤسسات، ومشاركة العلماء الأفارقة في العديد من المناسبات ومن بينها الدروس الحسنية، سيشكل حافزا لهم للاستمرار في بذل الجهود من أجل نشر المذهب المالكي وتوظيف الرمزية الدينية والروحية بالنسبة لسكان دول منطقة الساحل وإفريقيا الغربية، المتسمة بالاعتدال والوسطية. لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً[1]} . وهو ما سيجعل جهود العلماء الأفارقة وضمنهم المغاربة تصب في اتجاه واحد، بهدف تحقيق الأمن والاستقرار الروحي بكامل التراب الإفريقي، مما يعتبر مصلا واقيا لمواجهة مظاهر التطرف والكراهية والحقد والإرهاب.

1-سورة البقرة، الآية 143.

جهود علماء شرق إفريقيا في خدمة مذهب الإمام الشافعي

د. عبد الرحمن محمد علي شمس الدين
رئيس الهيئة العليا للإفتاء في جمهورية جيبوتي.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فمن المعلوم أنَّ الإمام الشافعي– رحمه الله– هو أحد كبار العلماء المسلمين الذين سجلوا أسماءهم بقوة في سجل التاريخ الإسلامي، وأحد أئمة المذاهب الأربعة، وكان عالما تنوعت معارفه، واتسعت مداركه، وأخذ من كل فن بحظ وافر فهو مجدد وصل إلى رتبة الاجتهاد المطلق، أسس مذهباً قويا في الفقه الإسلامي، وانتشر مذهبه في كثير من أنحاء العالم الإسلامي ومنها منطقة القرن الإفريقي التي تقع فيها جمهورية جيبوتي والجمهورية الفيدرالية الصومالية وجمهورية إثيوبيا الفيدرالية وهي منطقة استراتيجية يمثل المسلمون أغلبية سكانها، كما أنها تطل على المحيط الهندي من ناحية، وتتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ومضيق باب المندب من ناحية أخرى.

والبحث الذي بين أيدينا يسعى إلي إبراز العلماء المشاهير من أبناء شرق إفريقيا الذين قدموا إسهامات علمية سواء في التأليف أو في التدريس لخدمة المذهب الشافعي، وكان هدفهم من ذلك نشر العلم الشرعي وتبليغ رسالة الإسلام، والعمل المثمر الذي يعود على الناس بالنفع في أمور دينهم ودنياهم، **وقد استطاع علماء المنطقة بعون اللّه وتوفيقه أن يحافظوا على هويّة شعوبهم الإسلامية في مرحلة كان فيها الاستعمار الأوروبي يستخدم كل ما لديه من وسائل لغرس ثقافته الأجنبية ومحاربة الهوية الإسلامية والعربية. وكانت العناية بالتعليم الديني المتخصص من أسباب بقاء العلم الشرعي الذي هو أصل الدين وقوامه، بل هو** سرّ قوتها ونهضتها، ولا يخفى على أحد ما للعلم والعلماء من أثر كبير في الدعوة إلى

اللّه، وحث الناس على الالتزام بشرائع الإسلام وإقامة فريضة الأمربالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا رفع اللّه شأن أهل العلم بقوله تعالى: (يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات واللّه بما تعملون خبير[1]). **وخصّ النبيّ صلى اللّه عليه وسلم الخيرية فيمن يرغب أن يتعلم ويتفقه أمور الدين لحديث** مُعَاوِيَةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (**من يرد الله به خيرا يفقه في الدين**[2])[3].

الهيكل التنظيمي للبحث:

لقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وثلاثة فصول، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة.

الفصل الأول: تاريخ انتشار المذهب الشافعي في المنطقة وأبرز المراكز الحضارية:-

المبحث الأول: تاريخ انتشار المذهب الشافعي في المنطقة.

المبحث الثاني: أبرز المدن الحضارية ونظام تدريس الحلقات.

المبحث الثالث: خصائص الحلقات العلمية.

الفصل الثاني: تأليف الكتب ودوره في التمكين للمذهب الشافعي:-

المبحث الأول: المؤلفات الفقهية والأصولية لعلماء الصومال.

المبحث الثاني: مؤلفات العلماء الجيبوتيين.

المبحث الثالث: مؤلفات العلماء الإثيوبيين.

الفصل الثالث: العلاقة بين تطبيق الشريعة الإسلامية وتطور الفقه الإسلامي:-

المبحث الأول: السلاطين والأمراء الذين طبقوا نظام الشريعة.

المبحث الثاني: النظام التقليدي للقبائل.

وختاماً: أسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن ينفع بهذا البحث، وأن يسدد خطى الجميع على طريق العمل لخدمة الإسلام والمسلمين، والله ولي التوفيق.

1-سورة المجادلة، الآية 10.

2-رواه البخاري برقم 71، ومسلم برقم 1037.

3-انظر: الشافعي حياته وعصره، لأبي زهرة (ص: 33).

الفصل الأول: تاريخ انتشار المذهب الشافعي في المنطقة وأبرز المراكز الحضارية

المبحث الأول: تاريخ انتشار المذهب الشافعي في شرق إفريقيا

يعتبر المذهب الشافعي هو السائد في منطقة القرن الإفريقي منذ القرن السابع الهجري، ونجد ذلك من خلال الكتابات، وكانت أول إشارة تفيد بوجود المذهب الشافعي في القرن الإفريقي، رحلة ابن بطوطة (ت779هـ)، بقوله: «وسافرتُ من مدينة عدن في البحر أربعة أيام، ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين: أولها زيلع، وآخرها مقديشو[1]» . فهذا من الدلائل التي تشير إلى أن المذهب الشافعي قد انتشر في عهد مبكر في القرن الإفريقي، عن طريق اليمنيين الحضارمة الذين هاجروا إلى هذه المناطق بحكم القُرب، وغيرهم ممن كانوا يدينون بالمذهب السني، كما كانوا شوافع في الفقه ووصلوا إلى الصومال وأرتيريا وجيبوتي.

وأما أثيوبيا (الحبشة) فبها قسم كبير من الشافعية، خصوصاً في الأقاليم المجاورة للصومال، وقد اشتهر منهم مجموعة من العلماء. وفي جنوب إثيوبيا، وخاصة في ولاية بني شنقول وهي قومية مسلمة، يوجد هناك المذهب المالكي بحكم مجاورتهم للسودان[2].

إن اليمن أكثر البلاد التي تأثرت بها الحركة العلمية في منطقة القرن الإفريقي بشكل عام، فالإسلام وصل إلى الصومال عن طريق اليمن، وكذلك الطرق الصوفية دخلت عن طريقها، وكانت مدينة زبيد أقرب المراكز العلمية اليمنية إلى مدينة زيلع الصومالية، ونشأت بين المدينتين علاقة تأثروعطاء، فالعالم الذي ينبل في زيلع كان يدرس في زبيد، وبالعكس أحيانا[3].

1-ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (2/114).

2-محمد الطيب اليوسف، أثيوبيا والعروبة والإسلام عبر التاريخ، (المكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1، 1416هـ).

3-محمد عبد اللّه ريراش، كشف السدول عن تاريخ الصومال، ص: 166.

يقول التاج السبكي (ت771هـ): «ومنهم أهل اليمن والغالب عليهم الشافعية، لا يوجد غير شافعي، إلا أن يكون بعض زيدية[1]» . وفي عهد الدولة القعيطية كتب مشروع قانون للمحاكم الشرعية مستمد بأكمله من المذهب الشافعي، وتعد هذه ظاهرة فريدة تميزبها هذا القطر، يقول المؤرخ السيد سقاف الكاف: وكانت جميع المحاكم الشرعية والنظم البلدية تأخذ أحكامها من هذا المذهب، ولا يجوز للقاضي ولا غيره الخروج عن المذهب والانتقال إلى غيره مطلقا، إلا في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي، حيث أدخل على نظام التشريع والقضاء مسائلَ مختارة من المذاهب الفقهية الأخرى، رأى أن المصلحة تقتضيها، وذلك سنة 1341هـ. وللإمام الشافعي صلة باليمن وطيدة، وله إليها عدة رحلات، ولكن انتشار المذهب الشافعي في اليمن كان في بداية القرن الخامس الهجري، أي بعد استقرار المذهب، وللأيوبيين دور كبير في نشر دعائم المذهب باليمن[2].

المبحث الثاني: أبرز المراكز الحضارية ونظام التدريس

هذه المراكز نشأت في الصومال كما في زيلع ومقديشو ومركا وبراوة وباربرا وجكجكا وهرجيسا وبورما. وفي جمهورية جيبوتي: العاصمة جيبوتي، وعلي صبيح، وتجرا. وفي إثيوبيا نجد مثل «هرر»، و»دردوا «، و»ودى» في منطقة وللووجما. وأيضا في إقليم أوسا مركز العفر، ومراكز أخرى. وهذه المراكز اهتمت بالبحوث والمسائل الفقهية والنحوية، والتعليقات على الحواشي، ووضع شروح للمختصرات، ونظم المنثورات، واختصار المطولات، وشيء من مؤلفات التاريخ، إلا أن جل ما كان يكتب ويدرس للطلبة لم يجد طريقه إلى الطبع، وذلك لقلة الإمكانات[3] .

وقد تأسست المراكز العلمية بفضل الهجرات العربية، وقيام مدن تمثل وحدات إدارية على شكل مشيخات وسلطنات، وكان طلاب العلم في جميع العهود السابقة وإلى اليوم يرتحلون إلى المناهل العلمية في مقديشو، وفي غرب الصومال (نواحي هرر

1-التاج السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 1/228.

2-محمد بن أحمد الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، دار المهاجر، اليمن، 1994م، ط3، (2/401).

3-الدكتور علي الشيخ أحمد أبو بكر، الدعوة الإسلامية المعاصرة في القرن الإفريقي، ط 1987م.

وجكجكا وما جاورها)، أو إلى عمق بلاد الأورمو لوجود عوامل جذب مهمة، وهو توفر الإقامة وعدم الظعن والتنقل كما في مناطق القحط والجفاف.

وقد انتشر المذهب وتوسع نطاقه عن طريق تلك المراكز في قراءة المصنفات الفقهية على مذهب الإمام الشافعي، وهي المصنفات المعهودة في الفقه الشافعي والوصول إلى مستويات معقولة في فهم المسائل وتصويرها. وكل هذا يجري على سبيل التدرج في التعليم، ووفق منهج متبع في المراكز العلمية المعروفة. ومن هذه الكتب: سفينة النجاة، وسفينة الصلاة، ومتن أبي شجاع وشروحه كالقاسمي، والتوشيح وحاشية الباجوري، والإقناع، والبجيرمي على الإقناع، وعمدة السالك، والمنهاج للنووي. وأخيرا عرف كتاب الإرشاد لابن حجر الهيثمي. وقد قال الفقيه الشيخ محمد بن عبد السلام المشهور بالشيخ محمد جود: إن المنهج العلمي المتبع في الحلقات العلمية في الصومال يبدأ من المتون الصغيرة، ثم يتدرج إلى المؤلفات المتوسطة ثم الكبيرة؛ فيبدأ من كتاب سفينة الصلاة، ومتن أبي شجاع لأحمد القاضي حسين، وشرح ابن القاسم، والتوشيح الذي هو أحد شروح أبي شجاع، ويليه منهاج الطالبين للإمام النووي، ثم الإرشاد لابن المقرئ، ويليه التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي. ثم يحصل الطالب على الإجازة العلمية، ويسمح له بالتدريس في الحلقات العلمية.

وهناك كتب تعتبر مراجع مثل فتاوى ابن حجر الهيثمي، ونهاية المحتاج للرملي (8 مجلدات)، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني. وهناك عبارة معروفة لدى الدارسين في الحلقات العلمية بحيث يقولون: فلان تعلم الأحكام الاثني عشر، ويعنون بذلك (4 أجزاء للمنهاج، و4 أجزاء للإرشاد، و4 أجزاء للتنبيه).

أمّا في العصر الحاضر فإنّ كثيرا من طلبة العلم الذين أكملوا المرحلة الثانوية في المدارس العربية فإنّهم يسافرون إلى بعض الدول العربية مثل السعودية ومصر والسودان واليمن لدراسة المرحلة الجامعية والدراسات العليا، ومع ذلك لا يزال تدريس الحلقات التقليدية في المساجد وغيرها.

المبحث الثالث: خصائص الحلقات العلمية:

يتعلم الناس في الحلقات العلمية أصول الدين وفروعه ومتطلباته في العقيدة والتفسيروالحديث والفقه واللغة العربية، لأن الدروس العلمية الشرعية هي أسلم طرق التربية في نشر الدين الإسلامي، وهي كذلك أعظم وسائل العلم والتعليم والتربية في القديم والحديث[1].

ومن خصائص ومميزات هذه الحلقات العلمية:

1 - أنها مجالس يتحقق فيها الذكر أكثر من غيرها؛ لأنها تكون في بيت من بيوت الله وهو المسجد.
2 - أن المتلقي فيها يكون أكثر التزاما للأدب والإنصات.
3 - أن المتلقي فيها يكون أكثر استعدادا لقبول العلم.
4 - أن الحلقات العلمية تساهم في الحفاظ على الهوية الإسلامية.
5 - أنها تحصن الفرد والمجتمع من الأفكار الهدامة والمذاهب المنحرفة.
6 - أن الدراسة فيها مجانية غالبا.
7 - أن المواد التي تدرس فيها كثيرة ومتنوعة وشاملة للعلوم الشرعية واللغوية2.

الفصل الثاني: تأليف الكتب ودوره في التمكين للمذهب الشافعي

المبحث الأول: المؤلفات الفقهية والأصولية لعلماء الصومال

فيما يتعلق بالمؤلفات الفقهية على مذهب الشافعي في الصومال- على سبيل المثال- نذكر منها ما يلي:

1. شرح الإرشاد، مع ما في شرحيه جواهر النفائس ونفائس الجواهر، للشيخ بروا شيخ عبد اللطيف؛ وهو كتاب في الفقه الشافعي، يتناول: أحكام الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وهو مخطوط.

1-الدكتور ناصر العقل، أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد، بتصرف ص16-17.

2-نعيمة عبد الحكيم، مفهوم الحلقات العلمية ومكانتها لدى الصوماليين، ص 33-32

2. تنبيه مختصر في أحكام النكاح، للشيخ حسن يوسف محمد علي، مخطوط.

3. حاشية الشاشي، للشيخ أحمد بن عثمان محمد الشاشي المقدشي المعروف بـ (أحمد منبر)، وهي حاشية وضعها على كتاب إعانة الطالب للنووي في شرح إرشاد الغاوي، لابن عبد الله الحسين بن أبي بكر النزيلي، وما زالت هذه الحاشية مخطوطة.

4. الاعتماد في حل ألفاظ الإرشاد، للشاشي نفسه، وهو شرح لطيف على كتاب (الإرشاد)، الذي هو من أهم الكتب المعتمدة في التدريس والإفتاء في الصومال.

5. فتح الغوامض لمريد علم الفرائض، للشيخ علي مؤمن الشافعي الصومالي، وهو شرح لكتاب الفرائض من كتاب (المنهاج) للإمام النووي، وهو صغير الحجم، يقع في 67 صفحة، وطبع بدار العالم العربي بالقاهرة في عام 1407هـ/1987م.

6. الغيث الفائض في علم الفرائض، للشيخ بشير محمد عثمان المقدشي الصومالي، وهو كتاب نفيس ومطول جداً، وقد حرص المؤلف على أن يسهل علم الميراث لطلبة العلم، ويقرب مسائله، بسهولة العبارات، ووضوح المعاني، وقد طبع الكتاب بمطبعة المركز الصومالي للطباعة مقديشو 1420هـ/1999م.

7. كشف الغمام عن أحكام مخالفة الإمام، للشيخ حاج على بن عبد الرحمن فقيه (رسالة مخطوطة).

8. الشيخ علي عبد الرحمن فقي خيرى (علي المجيرتيني)- عاش في منطقة شرق الصومال، في بداية القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وكانت له رحلات إلى الحجاز ثم الشام ثم اليمن ثم الهند وكذلك زنجبار وغيرها من البلدان. وقد أسس عدة مراكز لنشر العلم، وكان يتجول في القبائل الصومالية في مناطق الشرق يدرس أحوالها، ويصلح ما يجري فيها من الخلافات والتعصب القبلي. وقد ترك مساهمات كثيرة بعضها في الفقه وأكثرها في العلوم الشرعية الأخرى، وأغلب تلك المصنفات مفقود، ومن أشهرها، كشف الغمام عن أحكام مخالفي الإمام، وكشف القناع عند أولي التعصب والابتداء، والقول المقبول بتحريم الملاهي

والطبول، وفتاوي بعنوان (فتح المولى في أجوبة الشيخ علي)، والأجوبة الغيبية للسؤلات الغربية.

9. الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بالشيخ صوفي: هو العالم الكبير والأستاذ الشهير شيخ علماء الصومال في عهده، ينتمي في نسبه إلى الإمام أبي بكر القفال الشاشي الزهري أحد أركان المذهب الشافعي، ومن سلالة عبد الرحمن بن عوف الصحابي رضي الله عنه. ولد بمقديشو 1245هـ ونشأ بها، وكان للشيخ عبد الرحمن الصوفي دور ملموس في إنهاض الثقافة الإسلامية في بلاده، وقد جلس للتدريس والدعوة والإرشاد ومحاربة المنكرات، وله ديوان شعري متميز يتضمن أكثر من ستين قصيدة. وتوفي في 29 من شهر صفر عام 1322هـ.

10. الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الزيلعي، فقيه شافعي شهير، وصوفيّ قادريّ، وأديب شاعر، ومؤلف متعدد الثقافة. ولا تعرف سنة ميلاده بالتحديد، ولكن المشهور أنه ولد بقرية جدلى بمنطقة باي بكول في جنوب الصومال، ونشأ في منطقته نشأة صالحة، وله مؤلفات في معظم الفنون الإسلامية في النحو والصرف وعلم القراءات، وله شعر في المدائح النبوية مشهور لدى المناطق الصومالية، وتوفي في قرية قلنقول في الخامس من شهر ربيع الأول عام 1299هـ الموافق 24 يوليو 1882م.

11. الشيخ علي جوهر بقرى والد الشيخ عبد الله بن علي جوهر، من علماء بورما، ولد رحمه الله تعالى في نواحي بورما 1892م، وتعلم في هرر المعمورة والمشهورة بالعلم، وتجول في المناطق الغربية الصومالية ثم سافر للحجاز من طريق زيلع، وسكن الحرمين الشريفين واستفاد من علماء الحجاز كثيرا من العلوم. له تلاميذ كثيرون، وتوفي بجيبوتي 1972م (19/12/1391هـ)، وصلى عليه رفيقه السيد علي السقاف قاضي جيبوتي، ونقل جثمانه إلى بورما ودفن بها.

وأما المؤلفات الأصولية، فمنها الآتي:

أ. «حجية الإجماع في الشريعة الإسلامية»، للشيخ أحمد حاج محمد شيخ ماح،

تناول فيه المؤلف الأدلة الشرعية في الإسلام، ثم حقيقة الإجماع وأركانه، ثم تناول حجية الإجماع بإسهاب، مبيناً آراء الأصوليين فيه، ويقع الكتاب في 241 صفحة.

ب. رسالة بعنوان: «كشف القناع عن أهل التعصب والابتداع»، للشيخ حاج علي بن عبد الرحمن فقيه (مخطوطة).

المبحث الثاني: مؤلفات العلماء الجيبوتيين

1 - قرة العين في الرحلة إلى الحرمين الشريفين، للشيخ القاضي، عبد الله بن علي أبي بكر رحمه الله؛ وكان لهذا الكتاب من مسماه أوفر نصيب، وقد حوى كل ما يحتاجه المسلم من شروط وأركان وواجبات الحج، مع أنوار تتلألأ برسومات للأماكن المقدسة والبقع المباركة، في وقت لم يكن يعرف فيه كثير من الناس رسومات تلك المقدسات؛ لعدم توفر التقنيات الحديثة التي تنقل لنا الصور الحية من المشاعر المقدسة وقتئذ.

2 - مقدمة في مبادئ القواعد الفقهية، للشيخ عبد اللّه علي جيله، كما ألف الشيخ كتبا أخرى مثل كتاب لمحات في آيات وأحاديث الصفات، وكتاب بحوث في المعاملات المالية. وقد قضى الشيخ عبد الله علي جيله أكثر من 35 سنة في تدريس الفنون العلمية المختلفة، ولا يزال مستمرا حفظه الله. والجدير بالذكر أن الشيخ له طريقة فريدة في التدريس، يبدأ بالمختصرات ويتدرج بالطلبة للوصول إلى المطولات؛ ففي مصطلح الحديث- مثلا- يبدأ بالبيقونية حتى يصل إلى الألفيات المعروفة، مثل ألفية العراقي وألفية السيوطي. وفي الحديث يبدأ بالأربعين النووية، وصولا في النهاية إلى تدريس البخاري ومسلم والترمذي. والشيخ من عادته الاعتناء بإعداد الدرس، حيث يمضي جزأ كبيرا من الوقت في الإعداد والبحث، ولا يكتفي بالترجمة الحرفية، بل يقصد توصيل المفاهيم والمعلومات، ويحل الإشكالات على حسب فهم الطلبة.

3 - رسالة المسجد في الإسلام للشيخ أمين محمد عمر المولود عام 1958م في تاجوره، وقد نشأ في أسرة علمية، حيث كان والده عالما جليلا، فحفظ على يديه

القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين، كما درس عليه مبادئ العلوم الشرعية، ثم رحل إلى مكة المكرمة في عهد الملك فيصل رحمه الله لطلب العلم، فدرس في المسجد الحرام على يد كبار العلماء، منهم: الشيخ ابن حميد، والشيخ حسن مشاط، رحمهما الله.

4 - ألف الشيخ ياسين أحمد ياسين رحمه الله تفسيرا كاملا للقرآن باللغة العفرية، مكتوب بالحرف العربي، مطبوع منه ثلاثة أجزاء (جزء قد سمع، وجزء تبارك، وجزء عم).

5 - في منطقة توجورا نجد الشيخ عبد القادر حُمُد جبا، من كبار علماء جيبوتي في عصره، وكان قاضيا، توفي عام 1407هـ.

المبحث الثالث: مؤلفات العلماء الإثيوبيين

1. مفتي داوود، واسمه داوود بن أبي بكر بن حسين بن أبي بكر بن أدهم الهاشيمي، الذي غلب عليه اللقب بـ/ مفتي داوود. ولد في قرية « سبقل « في 27 رجب 1156هـ الموافق 16 سبتمبر 1734م ونشأ بها، وهي إحدى القلاع العلمية الإسلامية المشهورة في «دوي». ويعتبر العلامة مفتي داوود بن أبي بكر من علماء القرن الثامن عشر- من وسط إثيوبيا - هو أحد الأمثلة النموذجية لخدمة المذهب الشافعي في منطقة القرن، ويعد رائدًا للحركة العلمية الإسلامية في إثيوبيا بشكل أخص. يقول الشيخ محمد تاج الدين في ترجمة مفتي داوود: وأحيى العلم الديني في الحبشة بعدما خبت أنواره ودرست آثاره، وأفتى وأفاد وكان مجددا للدين، وأقبل إليه العلماء الكبار وتلمّذوا له، واشتهر عند الخواص والعوام ولقبوه بمفتي الأنام، ولعمري إنه هو الشافعي الثاني للعلماء الشافعية الحبشيين.[1]

خلف مفتي داوود إنتاجا علميا غزيرا، تمثل فيما نسخه من الكتب في المجالات المختلفة، بعضها ضخم متعدد الأجزاء، مثل: كتاب فتح الباري، وتفسير البغوي. كما كانت له أعمال خاصة به، مثل كتاب مختصر الترغيب والترهيب، كتاب

1-محمد سعيد عبد الله، مساهمات مفتي داوود (1819-1743م) في نشر العلم والثقافة الإسلامية في الحبشة، وأصلها ورقة قدمت بمؤتمر الشباب الإفريقي بالخرطوم 2008م، جامعة أمدرمان الإسلامية.

الفتاوي الكبير والصغير، كتاب في التاريخ، كتاب في العقيدة، وغيرها من الكتب التي كانت جميعها ثمرة انقطاع للتدريس والتفاني في نشر العلم، وإكباب على النسخ والتصنيف سنين عديدة. وقد نسخ مفتي داوود وهو في مدينة الزبيد ما يزيد على ثلاثة مائة كتاب، حسبما يرويه أهل البلاد بشكل تواتري.

2. شيخ محمود(السبقلي)، كان عالما علامة فقيها في المذهب الشافعي نحويا مفسرا عارفا بعلم أصول الدين، وكان قاضيا للمسلمين في بلاد دوّي وما دناها مدة طويلة، وكان مع كونه مشغولا بأمر القضاء مدرسا في الفقه والنحو والتفسير وأصول الدين، وأخذ عنه مفتي داوود قبل رحيله إلى الجزيرة العربية العلوم المذكورة، وتوفي رحمه الله في آخر رمضان سنة 1215هـ.

وفي أريتريا وإقليم أوسا العفري، نجد- مثلا- الشيخ محمد عمر الشهير بالحاج سيد، المفتي العام لأوسا، وهو والد الأمين العام للمجلس الإسلامي بجيبوتي حاليا الشيخ أمين محمد عمر، وكان الحاج سيد صاحب مساهمات قوية في نشر المذهبين الحنفي والشافعي، ومبرزا في الفقه المقارن، وتوفي رحمه الله عام 1408هـ/1988م[1].

الفصل الثالث: العلاقة بين تطبيق الشريعة الإسلامية وتطور الفقه الإسلامي

المبحث الأول: السلاطين والأمراء الذين طبقوا نظام الشريعة

العلاقة بين تطبيق الشريعة وبين العلوم الإسلامية ولاسيما الفقه علاقة وثيقة جدا، إذ أن العلم لا ينتشر إلا في ظل تطبيقه، وحل المشكلات على ضوئه، ونشوب المعضلات التي تتطلب الحلول من الفقهاء. وإن وجود دولة تطبق المذهب نصر كبير له، فالمذهب الشافعي أيدته الدولة الأيوبية والدول التي تعاقبت على حكم المدن، وعلى هذا الأساس عدَّ الجيزاني المشهور بعرب فقيه صاحب كتاب (فتوح الحبشة، ص4-3 من المقدمة) الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي (أحمد غري) بأنه كان أحد المجددين، فقال: «منهم من يجدده بنشر العلوم في الآفاق، ومنهم من يجدده بضرب

1-انظر الشيح محمد تاج الدين، حياة عظماء إثيوبيا من العلماء والأولياء وسلاطين الإسلام وأساطين الأصفياء (مخطوط).

السيف لذوي الشقاق والنفاق، ومنهم من يجدده بحسن السياسة والدراية».

قال عرب فقيه: ثم إن الإمام قال للأمراء والسلطان الذي سلطنه مكان أخيه أبي بكر كما ذكرناه واسمه عمر دين في أمر الزكاة؛ لأن السلطان والأمراء وأربابهم ومن تولى بر سعد الدين يأخذون الزكاة من المسلمين يأكلونها ويصرفونها في مصالحهم، ولا يعطون للفقراء والمساكين ومن يستحقها منها شيئا، فقال لهم الإمام أحمد– رحمه الله-: «الحمد لله إن الله أكرمنا بالإسلام، وأعزنا، وأحل لنا الغنائم من أموال المشركين، وغنمنا غنائم ما غنموها، آباؤنا ولا أجدادنا ولا من كان قبلنا، فهي تكفينا نأكلها ونشتري منها آلة الحرب للقتال، وأما الزكاة ففرِّقوها على الثمانية الأصناف. فقال الأمراء والسلطان في حال الموقف– من خيفة الإمام أحمد رحمه الله تعالى: مرحبا بالذي تأمرنا فيه، ولا نخالفك فيه. فحينئذ أرسل الإمام أحمد عمَّاله على أهل البلاد وأهل المواشي والزارعين، وأخذ منهم الزكاة».

وقد رأينا أحد المؤرخين الكبار وهو العلاّمة الشوكاني يترجم لبعض ملوك تلك الممالك، فقد ورد في البدر الطالع ترجمة رقم 421: محمد بن أبي البركات بن أحمد بن علي بن محمد بن عمر الجبرتي الحنفي المعروف بابن سعد الدين سلطان المسلمين بأرض الحبشة.. أصلهم فيما قيل من قريش فرحل بعض سلفهم من الحجاز حتى نزل بأرض جبرت، فسكنها إلى أن ملّك ملك الحبشة بعضهم مدينة أفات (كذا) وأعمالها، فعظم وقويت شوكته، وحمدت سيرته وتداولها ذريته حتى انتهت إلى صاحب الترجمة في سنة 828 هجرية فملك كثيرا من تلك البلاد، وامتلأت الأقطار من الرقيق الذين سباهم، ودام على ذلك حتى مات شهيدا في بعض غزواته في جمادى الآخرة سنة 835 خمسا وثلاثين وثمان مئة. قال السخاوي: وكان ديّنا عاقلا عادلا خيّرا وقورا مهابا، ذا سطوة على الحبشة، أعزّ الله الإسلام في أيامه. وملك بعده أخوه فاقتفى أثره في غزواته وشدّته». وقال ابن حجر في أنبائه: وكان صاحب الترجمة شجاعا بطلا مديما للجهاد، وعنده أمير يقال له حرب لا يطاق في القتال، كان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه، فهزم الكفار من الحبشة مرارا وغزاهم السلطان مرّة وهو معه، فغنم غنائم عظيمة، حيث بيع الرأس من الرقيق بربطة (ورق– أي– قات). وكان من خير الملوك دينا ومعرفة، يصحب الفقهاء والصلحاء،

وينشر العدل في أعماله حتى في ولده وأهله، وأسلم على يديه خلائق من الحبشة، حتى ثار عليه بنو عمّه فقتلوه في التاريخ المتقدم.

أما في الصومال فقد «كان الصوماليون وخاصة في الجنوب يحتكمون لأحكام الشريعة الإسلامية، وكان العلماء والفقهاء يمثّلون السلطة الحقيقية، ويتمتّعون بولاء الأمة قاطبة، وكان العالم الفقيه في منطقة معيّنة يحترم ويقدر قضاء وفتوى غيره في منطقة أخرى. فإن أشكل عليه حكم حادثة معيّنة أمر مستفتيه بالانتظار حتى يتأكد ويستبين نص الحكم في المسألة من أولي العلم والحكمة، وقد يسافر لمسافات بعيدة، ويقطع القفار طلبا لحكم القضية من عالم آخر. وخير ما نمثّل به، ما فعله الشيخ محمد شيخ حسين الورشيخي، أشكل عليه حكم مسألة فقهيّة عرضت عليه في مجلسه، فما كان منه– على غزارة علمه في الفقه– إلا أن سافر مع رفقائه إلى الشيخ الجليل الحاج شعيب بن الحاج عمر نزيل مدينة مصر الشهيرة (قرب جوهر) بعلمائها الأقطاب، والشيخ الحاج شعيب بعد أن عرضت عليه المسألة أمر بإحضار كتاب التحفة لابن حجر فوجدت المسألة في الجزء الأخير منه، وهنا رجع الشيخ– رحمه الله– مغتنما بفائدة حكم المسألة.[1]

في عهد أبي بكر بن عمر هلوله (من قبيلة أبغال) زار ابن بطوطة مدينة مقدشو، وتحدّث طويلا عن سلطانها، وعن مجلس وزرائه، وطعامه وشرابه، وتكلّم بإسهاب عن كرمه وتقديره للفقهاء والعلماء، وعن نظام الشورى الذي كان متبعا في مملكته، وعن الأبنية العظيمة بالمدينة، مما يفيد أنّ مدينة مقدشو كانت تنعم بحياة الرّفاهية والازدهار وكان يلقب الأمير بلقب الإمام، وكان يوم تنصيبه عيدا، يفد الناس من البادية والقرى المجاورة لمدينة مقديشو لاستقباله، وإعطاء البيعة والولاء له. كما ذكر ابن بطوطة عن ممباسا وكلوة أن أهلها أهل جهاد لأنهم في برّ واحد متصل مع كفّار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية». ومن الواضح أن الجهاد عملية تحتاج إلى وجود قيادة تنظم الشؤون، وتوجه الطاقات نحو البناء والجهاد، فاقتضى ذلك وجود نظام إسلامي أيا كان شكله ودرجة تطبيقه

1-البدر الطالع، ص: 657-658، طبعة بيروت.

للشريعة الإسلامية.

أضف إلى ذلك، أن الممالك المسماة بممالك الطراز الإسلامي التي قامت في الأجزاء الشمالية الشرقية، في فترة بعيدة جدا من التاريخ، كانت تلك الممالك اتخذت الشريعة الإسلامية شعارا لها وأساسا لوجودها وشرعيتها. وهذا يتبين من جهاد بعض هذه الممالك المتواصل، ومن الدور الدعوي الذي لعبته أكثر هذه الممالك، وبالجملة، فقد تشدد السلاطين على الالتزام بخلق الإسلام في السلوك الاجتماعي وفي الإدارة الحكومية، واتخذ سلاطين مملكة أوفات التي تزعمت حركة الجهاد الإسلامي، ألقابا متصلة بالدين مثل سعد الدين، وجمال الدين، ونصر الدين، وشهاب الدين. كما أصبح العلماء طبقة ذات وجود مؤثر في البلاط السلطاني وفي الحياة الثقافية والاجتماعية، فقادوا حركات الجهاد، حيث استشهد في موقعة واربلى في سنة 1414م، والتي كانت بين السلطان سعد الدين وبين النجاشي إسحاق– استشهد فيها 400 شيخ من الشيوخ الكبار، تحت كل منهم عدد كبير من العلماء والطلبة والشبان. كما استشهد فيها السلطان سعد الدين نفسه. وقد ورد في تقرير هيئة أركان حرب مأمورية هرر في محرم 1292هـ أثناء دخولها لهرر في 11 أكتوبر 1875م، عن حالة القضاء فيها[1]: كان النظام المتبع في القضاء وفي الفصل في الدعاوى الهامة يشبه النظام القبلي، فلكل قبيلة في هرر مجلس للفصل في المنازعات، وللمجلس رئيس يلقب (بالبوكو) يغير كل ثلاث سنوات، كما كان هناك مجلس آخر أعلى من المجالس السابقة يتكون من 30 شخصا يختارون من كبار أعضاء مجالس القبائل المتعددة، وله رئيس يلقب (بالبوكو الكبير). وهذا المجلس الكبير له السلطة العليا على مجالس القبائل، وتعرض عليه المسائل الخطيرة، كمسائل الحرب والسلم. ولا شك أن هذا النظام يتيح لهم إلى حد ما فرصة اختيار الرؤساء الصالحين، فهو نظام ديمقراطي. وقد كانت أحكام هذه المجالس محترمة وملزمة للجميع إلى حد كبير.

ثم قال التقرير: والقاتل في مدينة هرر يقتل والسارق تقطع يده، ومن يقترف جريمة أقل يجلد أو يسجن، وقد كان يوكل إلى قاضي هرر الفصل في القضايا العادية بينما

1-أحمد سيد يحيى، الصحوة الإسلامية في الصومال مهددة بالانهيار، بتصرف ص: 148-147.

يفصل أميرها بنفسه في القضايا الهامة.

وقد أبقى المصريون على جوهر هذا النظام الديمقراطي، مع الاهتمام بنشر التعليم وبخاصة التعليم الديني، وأدى ذلك إلى القضاء على الشوائب المخالفة للدين الصحيح، فأصبحت أحكام الشريعة الإسلامية الغراء هي النافذة، ولم يكن الحكام المصريون يتدخلون في شؤون القضاء إلا فيما يمس الأمن العام. وقد أنشئ في هرر مجلس للفصل في قضايا الأهلين على نسق المجالس التي شكلت في مصوع وسواكن.

وإلى جانب هذه الإشارات الدالة على تطبيق الأحكام الشرعية، فإنهم في أحكامهم العامة يلتزمون إلى حد ما بأحكام القرآن الكريم والمذهب الشافعي كما يفهمونه. وهم هنا يتفقهون في الدين إلى حد كبير.

المبحث الثاني: النظام التقليدي للقبائل

إنّ أهل بربرة أو زيلع أو غيرهم من سكان هذه الجهات، الذين كما ذكرنا كانوا يدينون بالإسلام، لكنهم يجهلون كل الجهل أحكام الشريعة، وسادت الأعراف القبلية، وعادات الشعوب الإفريقية في مناحي الحياة، فعلى سبيل المثال نجد من العادات العميقة الجذور في المجتمع الصومالي عادة (الحير) وهو نظام يضعه أفراد القبيلة الواحدة أو القبيلتان فيما بينهما أو مجموعة قبائل مختلفة ليتحاكموا إليه، وليصدروا عنه، وليس مستمدا من الشريعة الإسلامية، ولكنه خلاصة تجارب القبائل وما استحسنوه من أفعال، وهذا النظام ليس مكتوبا على الإطلاق، بل محفوظ في صدور الأفراد، وله رجاله المختصون الذين يعرفون دقائقه وفروعه، والذين يستدعون عند الحاجة إليهم، وهؤلاء يشبهون رجال القانون والقضاء، وبهذا فإن (الحير) بمثابة قانون وضعي ينظم شؤون الأفراد والقبائل لفصل القضايا الطارئة ومعالجتها، وبهذا المعنى فهو قانون غير مكتوب. فإذا حدثت حادثة بين الأفراد أو القبائل، واحتيج إلى مشاورة الذين تخصّهم القضية هل يذهبون إلى الفقيه المتخصص بالشريعة الإسلامية أو إلى رجال الحير المتخصصين به؟ منهم من يختار حكم ذلك القانون، وآخرون يختارون حكم الشريعة، ويتفق الطرفان في

نهاية المطاف على اختيار إحدى الطريقتين في إنهاء الحكم. وغالبا ما يكون الاختيار للقانون المذكور الذي لا علاقة له بالشريعة الإسلامية.

قلت: وهذه الازدواجية في نظام الحكم قد أشار إليها أيضا المؤرخ جامع عمر عيسى فقال تحت عنوان (نظام الحكم في الصومال): «إن الصوماليين كانوا يدينون جميعا بالدين الحنيف من أول ظهور الإسلام إلى اليوم، ويتمسكون بقواعده الأصلية يسيرون على أساس الشريعة، ويخضعون لأوامرها ونواهيها، ومع ذلك كانت الأمور في أيدي القبائل وزعماء القبائل، وكانت الخصومات يفصل فيها طبقا للشريعة الإسلامية تارة، وتحل بالطرق القبلية والعرف المحلى تارة أخرى.[1]

1- تاريخ الصومال في العصور الوسطى والحديث، ص: 29.

إمارة المؤمنين وحوار الأديان من خلال «نداء القدس»

دة. وداد العيدوني
عضو مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة..

تقديم:

تمثل القدس بمختلف مكوناتها وأبعادها، رمزاً من رموز الهوية الدينية، والثقافية، بما تحتويه من موروث حضاري وإنساني، تشترك فيه وتتصل معه مختلف الشعوب العربية والإسلامية، على امتداد تاريخها العريق، فهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وأرض الرسالات السماوية، وفيها من الآثار والمعالم التراثية ما يميزها عن باقي المدن التاريخية، وتأتي أهميتها الدينية من كونها المدينة التي عرج منها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذكرت في القرآن الكريم، وأنها المدينة الأهم للعالم المسيحي لأنها تضم كنيسة القيامة، والحدث الأهم في حياة رسول السلام عيسى عليه السلام .

ومن أهم وأبرز معالم القدس التراثية والأثرية، المسجد الأقصى بما فيه من مساجد ومعالم دينية وحضارية أهمها قبة الصخرة، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الكنائس والمصليات الكنيسية والأديرة التاريخية، والتي ما زالت تؤدي وظيفتها ويستخدمها المقدسيون في القدس للعبادة والتعليم، وهي مقصد ديني للشعوب العربية والإسلامية والمسيحية، ومقصد للمهتمين في دراسة فنون العمارة والتاريخ والآثار.

والقدس الشريف بهذا، يشكل أيقونة كونية، لطالما سعت مختلف الشعوب والملوك والسلاطين والأمراء في البلاد العربية والإسلامية وغيرها، إلى حمايتها والمحافظة عليها، وأهمها مؤسسة إمارة المؤمنين سواء في المشرق أو المغرب، فإمارة المؤمنين بالمغرب دائما ما كانت حريصة على وضع القدس ضمن أولى الأولويات، وحمايتها والمحافظة عليها كانت من الواجبات التي لطالما حرص عليها أمراء وملوك المغرب، بمقتضى الإمامة العظمى لإمارة المؤمنين، ولعل آخر ما يدل على ذلك

«إعلان القدس»، الموقع مؤخرا بالمغرب، بين ملك المملكة المغربية، محمد السادس نصره الله وأيده، بصفته أميرا للمؤمنين، وقداسة البابا فرنسيس، بابا الفاتيكان، حيث أصدرا هذه الوثيقة التاريخية الفريدة من نوعها، والتي من شأنها أن تتضمن في عمقها وأبعادها معالم التسامح والتعايش والحوار بين الأديان والشعوب والثقافات، وكذا من شأنها أن تأسس لمستقبل مشرق لأيقونة الشعوب والأديان «مدينة القدس».

ومنه، فما الرسالة التي تبعثها مؤسسة إمارة المؤمنين من خلال نداء القدس؟ وما خلفيات وجهود إصدار النداء؟ وما الإضافة التي يشكلها هذا النداء ضمن جهود تحقيق التعايش والحوار بين الأديان في العالم؟ وما تجليات حضور أدوار وجهود إمارة المؤمنين من خلال نداء القدس؟

المحور الأول: «نداء القدس» كرسالة لقاء واتحاد الصف بين مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية ومؤسسة إمارة المؤمنين.

شكل نداء القدس، فرصة تاريخية لبعث رسالة عالمية للقاء والتفاهم واتحاد الصف بين مؤسسة الكنيسة ومؤسسة إمارة المؤمنين، رسالة مفادها تجديد وتأكيد الحوار بين الأديان، بحيث شكلت بداية محطة لاستحضار قيم الحوار والتعايش في رحاب الأمة الإسلامية (أولا)،ثم إن وثيقة النداء صدرت من قبل مؤسستين تعرفان تاريخا مشتركا من العلاقات العريقة (ثانيا)، أدى إلى جانب العديد من الجهود المبذولة إلى بروز هذا النداء «نداء القدس» (ثالثا)، وهو النداء الذي شكل مرجعية يمكن الرجوع إليها والبناء عليها مستقبلا (رابعا).

أولا : نداء القدس كمحطة لاستحضار قيم الحوار والتعايش لدى الأمة الإسلامية

شكلت الأمة الإسلامية ولازالت، فضاء رحباً مشتركاً لحسن الوئام والتعايش المتبادل والإيجابي، نابع من حسن تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء،

والتي تضمنت في جميع مصادرها ابتداء من القرآن الكريم، ومروراً بالسنة النبوية الشريفة، وكذا في اجتهادات الفقه الإسلامي، قيم ومبادئ وتعاليم التعارف والحوار والتعايش وقبول الآخر بل والإقبال عليه[1].

فمنهج الشريعة الإسلامية ينطلق من التعارف كمنطلق أساسي، لتحقيق عملية الحوار والتعايش، بحيث جاء في القرآن الكريم، قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا [2]) ، فلا يمكن أن يكون هناك تعايش بدون تعارف، وخلال عملية التعارف والتواصل، فإن تعاليم الشريعة الإسلامية تجعلنا ونحن نمارسها لا نفرض على الآخر اختيار أو معتقد ديني معين، حيث جاء في محكم كتابه العزيز: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[3]).

ووفق نفس القيم والمبادئ والتعاليم الإسلامية، تعامل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم، ونفس الأمر في عصر الخلفاء الراشدين، وبعدهم مختلف أمراء وسلاطين الدولة الإسلامية، وهكذا تواتر واستمر تطبيق تلك القيم، إلى يومنا، حيث يعمل علماء الأمة على مواكبة مختلف التطورات والأحداث بفتاوى تحرص على نبذ العنف والتطرف بدواعي دينية، كما تحرص في المقابل على الدعوة لقيم السلام والتعايش والقيم الإسلامية الحقيقة، التي عاشت عليها الأمة الإسلامية لقرون عديدة.

ومنه، وأمام ما يشهده العالم من تحديات مرتبطة بتزايد حدة العنف والتطرف، فإنه لا بديل للأمة الإسلامية اليوم، إلا أن تحشد كل طاقاتها من أجل التشبث أكثر بقيمها العليا ومبادئها السمحاء، من أجل أن يتحقق تواؤم الإنسان المؤمن مع نفسه

1-رجاء ناجي المكاوي، إمارة المؤمنين وحوار الأديان من خلال نداء القدس، مداخلة ضمن اليوم الثالث من الدورة التواصلية العلمية الثالثة التي تنظمها مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة تحت عنوان: إمارة المؤمنين ومكانتها المرجعية في حفظ الثوابت الدينية المشتركة أيام 12 و13 و14 رمضان 1440 هـ الموافق لـ 18 و19 و20 ماي 2019 بالرباط.

2-سورة الحجرات، الآية 13 .

3-سورة يونس، الآية 99 .

ومجتمعه وبيئته[1]، فهناك دور كبير ينتظر الحضارة الإسلامية كي تقوم بالإسهام في صنع الاستجابة الصحيحة لتحديات العصر ومعالجة مشكلات عالمنا المعاصر[2]، وفق تلك القيم والمبادئ.

ثانيا : إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية والكنيسة الكاثوليكية من تبادل الزيارات إلى «نداء القدس»

ترجع العلاقات التاريخية المشتركة بين سلاطين وملوك[3] المملكة المغربية والكنيسة الكاثوليكية إلى عهد قديم مند عهد الأدارسة[4]، مرورا بالمرابطين، [5]وما بعدها وصولا إلى العلويين، فبالرجوع إلى التاريخ، نجد العديد من المحطات التي تؤرخ للحضور المسيحي في إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية ولحسن صنيع إمارة المؤمنين مع المسيحيين[6]، سواء كمقيمين أوكضيوف أوحتى كأسرى، ففي عهد المولى إسماعيل، أصدر السلطان ظهيرا[7] في 8 محرم 1092هـ موافق 28 يناير 1681م، يتعلق بتسهيل عمل الرهبان الفرنسيين بالمملكة الشريفة، وما تلا ذلك من تبادل للرسائل التي تخص الشأن الديني مع الملك الفرنسي لويس الرابع عشر.

كما أنه في عام 1980م، قام الملك الحسن الثاني، طيب الله ثراه، بزيارة رسمية إلى

1-أحمد صدقي الدجاني، الحوار مع الآخر في الإسلام، مجلة التسامح، عمان، العدد 2، السنة 1، ربيع 1423 هـ - 2003 م ، ص : 18 .

2-عبد الهادي الفضلي، الإسلام والتعدد الحضاري بين سبل الحوار وأخلاقيات التعايش، الطبعة الأولى، بيروت 2014م، ص : 167 .

3-تم تغيير لقب «السلطان» إلى لقب «الملك»، في دولة المغرب الحديث، واعتمد هذا اللقب منذ سنة 1957م.

4-للاطلاع أكثر انظر : سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب – العصر الذهبي، الطبعة الأولى 1987م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت .

5-عباس الجراري، دولة المرابطين، مجلة دراسات أفريقية، العدد الثاني، أبريل 1986م.

6-جامع بيضا وفانسانفيرولدي، الحضور المسيحي بالمغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الأولى، منشورات دار أبي رقراق للتواصل – الرباط .

7-ظهر مصطلح الظهير في عهد الموحدين، وقد تمسكوا به ليشيروا به إلى كل ما يصدر عنهم من القرارات والأوامر والأحكام المخزنية، (بهيجة سيمو، نظم الدولة المغربية وآليات تصريف أحكامها، مقال ضمن أشغال الندوة العلمية في موضوع الجريدة الرسمية مائة سنة في خدمة القانون، الأمانة العامة للحكومة، 2012م، الصفحات 37 – 45)، والظهير حسب الدستور المغربي لسنة 2011، هو الشكلية القانونية التي يمارس بها جلالة الملك اختصاصاته سواء في المجال الديني، أو المجال العسكري، أو الدبلوماسي، أو المدني أو غيره، ينص الفصل 41 في فقرته الأخيرة «يمارس الملك الصلاحيات الدينية المتعلقة بإمارة المؤمنين، والمخولة له حصريا، بمقتضى هذا الفصل، بواسطة ظهائر»، كما ينص الفصل 42 في فقرته ما قبل الأخيرة على أنه «يمارس الملك هذه المهام، بمقتضى ظهائر، من خلال السلطات المخولة له صراحة بنص الدستور» .

دولة الڤاتيكان، عدت هي أول زيارة من نوعها إلى الحبر الأعظم بروما من قبل رئيس دولة مسلمة يحمل صفة أمير المؤمنين.

وبعد أربع سنوات من زيارة الملك الراحل دولة الفاتيكان صدر ظهير ملكي شريف يؤكد مركز الكنيسة الكاثوليكية بالمغرب، وحقها في ممارسة مهامها بحرية خاصة في ما يتعلق بالعبادة، والتعليم الديني، وإنشاء إطار قانوني للتعايش السلمي بين المسلمين والكاثوليك، وهو ما تلاه في سنة 1985، زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للمملكة المغربية.[1]

وهكذا استمرت العلاقة الدينية بين إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية، والكنسية الكاثوليكية بدولة الفاتيكان، إلا أن تمت مؤخراً وبعد 34 سنة، الزيارة الثانية من نوعها من قبل الحبر الأعظم، وهي زيارة قداسة البابا فرنسيس، بدعوة كريمة من أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، التي استمرت يومين، وهمت تناول موضوع الحوار بين الأديان وقضايا المهاجرين، وقد توجت هذه الزيارة بإصدار وثيقة تاريخية هي الأولى من نوعها، وهي «نداء القدس»، ينادى من خلالها إلى احترام قيم السلم والسلام والتعايش والمحافظة على مدينة القدس، وطابعها الديني الفريد من نوعه، باعتبارها أرضا للتعايش واللقاء بين الديانات السماوية الثلاث المسيحية واليهودية والإسلامية .

ثالثا: نداء القدس كثمرة لجهود إمارة المؤمنين في سبيل تحقيق قيم السلام وحوار الأديان السماوية الثلاث.

يشكل «نداء القدس» ثمرة طيبة للتفاهم والحوار بين الأديان، القائم فعلا، ولاسيما بين المملكة المغربية ودولة الفاتيكان، ولسنوات طوال، كما مر بنا، فهو ثمرة للعديد من المجهودات التي يبذلها جلالة الملك، محمد السادس، أمير المؤمنين[2]، من أجل إحلال قيم التسامح والسلم والحوار بين الثقافات والأديان، في مختلف دول العالم، وذلك من خلال مجموعة من الآليات والمواقف والمبادرات السابقة والممهدة

1- للاطلاع أكثر عن تفاصيل الزيارة، يرجى زيارة الموقع الالكتروني الرسمي للقناة الثانية، على الرابط التالي :https://cutt.us/g45ot

2-الفصل 41 : الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية .

والداعمة لتصورات وأسس احتضان وتبني وإصدار نداء القدس من قبل المملكة المغربية وفوق أرضها.

فالمملكة المغربية، ومنذ قيام إمارة المؤمنين بها، كانت ولازالت أرضاً للتعايش بين جميع سكانها بمختلف دياناتهم، الإسلامية والمسيحية واليهودية، وحرص مختلف سلاطينها وملوكها المسلمون، على العناية بأتباع الديانات السماوية الأخرى، وحمايتهم، وضمان حقهم في ممارسة مختلف شعائرهم الدينية.

كما تعتبر المملكة المغربية، في الوقت المعاصر، وكدولة حديثة واعية بتحديات الواقع المعاصر، وحرصا منها على مواجهة تلك التحديات، متمسكة في ذلك بروح التعاون الدولي، فهي تعتبر عضواً مؤسساً لمنظمة تحالف الحضارات، المنظمة التي تعنى بحشد جهود الفاعلين على الصعيدين الوطني والدولي، من أجل تعزيز قيم السلم والسلام والالتزام المشترك بقيم التعايش وقبول الآخر.

كما أن جلالة الملك محمد السادس، ما فتئ يؤكد في العديد من خطبه الملكية السامية وبرقياته ورسائله على قيم التسامح والسلام والتعايش والحوار، ولاسيما في رسائله التي يبعثها إلى الملتقيات الدولية حول الموضوع، ومن أجل ذلك منح "التحالف العالمي من أجل الأمل[1]"، برعاية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونيسكو)، لصاحب الجلالة الملك محمد السادس، أمير المؤمنين، جائزة الاعتراف الخاص للريادة في النهوض بقيم التسامح والتقارب بين الثقافات، سنة 2017م، وذلك للقيادة السديدة لجلالته في تعزيز الانسجام بين مختلف الثقافات سواء في المغرب أو على الساحة الدولية.

وتبعا لذلك، فإن «نداء القدس» لم يصدر صدفة، وإنما لاختيار وقناعة ومسار طويل من الجهود في سبيل دعم قضية التعايش والسلام بين الشعوب والأديان، كما أنه لم يصدر عن مؤسستين دينيتين كبيرتين هما مؤسسة إمارة المؤمنين

1- وهي مبادرة جديدة ضد التطرف، جرى إطلاقها يوم 18 شتنبر 2017م، في قمة التحالف العالمي من أجل الأمل المنعقدة في نيويورك على هامش اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد ترأس القمة السيدة المديرة العامة لليونيسكو، وعرفت حضور عدد من قادة القطاعين العام والخاص والناشطين في المجتمع المدني في إطار المعركة ضد التعصب والتطرف العنيف، بما فيهم صاحب السمو الأمير مولاي رشيد، للاطلاع أكثر حول الموضوع، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني الرسمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، على الرابط التالي : http://www.unesco.org/new/ar/social-and-human-sciences/themes/sv/news/director_general_chairs_global_initiative_against_violent_ex/

بالمملكة المغربية، وعلى رأسها جلالة الملك محمد السادس أمير المؤمنين، ومؤسسة الكنيسة الكاثوليكية، وعلى رأسها البابا فرنسيس، إلا لوجود ثقة وتقدير متبادلين بين الطرفين، فالكنسية الكاثوليكية ترى في المملكة المغربية دولة فاعلة ومؤثرة في تحقيق الحوار بين الأديان.

ومنه فلولا ذلك التفاهم القائم والعلاقات العريقة والجهود المبذولة لما كان التنسيق والتفاهم واتخاذ القرار من أجل إخراج بيان بين مؤسستين دينيتين كبرتين أطلق عليه «نداء القدس»، ينادى من خلاله إلى إحلال قيم السلم والسلام، والتعايش والحوار، وهو في نفس الوقت شعلة موقدة وستظل من أجل الدعوة دائما إلى حوار الأديان واحترام الثقافات الأخرى والتعايش السلمي بين جميع الديانات.

رابعا: نداء القدس كأرضية مرجعية وتأكيد من إمارة المؤمنين على قيم التسامح والحوار بين الأديان

يشكل «نداء القدس»، في عمقه وأبعاده ومختلف مستوياته، إطاراً مرجعياً، ومنطلقاً أساسياً، وميثاقاً مستقبلياً، للتصورات الكفيلة بتحديد ملامح القيم والمبادئ العالمية المتفق عليها للتسامح والحوار والتعايش بين الأديان، منطلقها القدس الشريف كأيقونة لتلاقح تلك القيم جميعها.

ومن ثم فإن النداء حرصت من خلاله مؤسسة إمارة المؤمنين ومعها الكنيسة الكاثوليكية، على تسطير الإطار العام الممهد لاتخاذ أي قرار أو للقيام بأي خطوة أو مبادرة بناءة في اتجاه توطيد وتقوية وتطوير أفاق الحوار والتعاون بين أتباع جميع الديانات السماوية، في مختلف بقاع العالم، من أجل مواجهة التحديات التي يطرحها الواقع المعاصر والمرتبطة أساسا بتنامي خطاب الكراهية والتطرف الديني والصراع الطائفي.

كما يشكل نداء القدس، تأكيدا راسخاً من المملكة المغربية على رغبتها الفعلية والصادقة في المضي قدما بمسلسل دعم جهود تحقيق السلم والحوار بين الأديان، وتأكيدا منها كذلك على دورها الريادي الذي لطالما التزمت به، ونقلا لذلك الدور إلى المستوى الدولي والعالمي، وتفعيلا لذلك، وضمن ذات النهج، ومباشرة بعد إصدار

نص النداء، عملت المملكة على تقديم مشروع قرار إلى منظمة الأمم المتحدة، يروم تعزيز قيم الحوار بين الأديان والثقافات ومحاربة خطابات الكراهية، وهي الخطوة التي عرفت تقديرا كبيرا من المنتظم الدولي، وأخذاً منه بعين الاعتبار مختلف المبادرات والجهود المبذولة ولاسيما مبادرة «ميثاق القدس»، ومنه فقد تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة، يوم الخميس 25 يوليوز 2019م، القرار المتقدم به، وصادقت عليه بالإجماع، وهو ما يعكس توافق وتأييد تسعين بلداً حول العالم، يمثلون كافة المجموعات الإقليمية ومختلف الحساسيات الدينية والثقافية والعقائدية، كما يعكس المصداقية التي تتمتع بها المملكة المغربية وإمارة المؤمنين بها، ملكاً وشعباً، على الساحة الدولية ودورها كداعم للحوار والاعتدال، ويجسد تقدير رسالة السلام واحترام الأديان والتنوع الثقافي التي تحمل المملكة المغربية لواءها وتدافع عنها في جميع المحافل.

المحور الثاني: تجليات حضور أدوار إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية في نص وروح نداء القدس

تقوم إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية، بالعديد من الأدوار الكبرى في سبيل مأسسة حوار الأديان (أولا)، والحرص على تحقيق مجموعة من الحقوق كما كرسها نداء القدس (ثانيا)، كما تعمل على المحافظة على القدس وعلى طابعها الفريد من نوعه (ثالثا).

أولا : إمارة المؤمنين ومأسسة حوار الأديان

تقوم إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية، بأدوار جسام في سبيل مؤسسة حوار الأديان، والتسامح والتعايش، بداية من رئاسة لجنة القدس وبيت مال القدس (أ)، ثم المجالس والهيئات الدينية بالمملكة (ب).

أ- رئاسة لجنة القدس:

تعتبر لجنة القدس[1] ، المنبثقة عن منظمة التعاون الإسلامي[2]، من المؤسسات التي اضطلع برئاستها منذ نشأتها سنة 1975م جلالة المغفور له، الحسن الثاني، طيب الله ثراه، وخلفه في ذلك جلالة الملك محمد السادس، نصره الله .

وتعتبر رئاسة لجنة القدس التي يضطلع بها جلالة الملك محمد السادس نصره الله، من أهم الآليات المؤسسية التي لطالما عبر من خلالها جلالته عن مواقفه الداعمة والمساندة والداعية لإقامة حوار الأديان، ومن خلالها وباسمها دائما يخاطب جلالة الملك، العالم الإسلامي والغربي ومختلف الدول، للتعريف بالأهمية الدينية لمدينة القدس ودورها في بعث رسالة السلام والتعايش والحوار بين الأديان بوصفها رمز وأيقونة للتجانس والتلاقح الديني فيما بين الديانات السماوية الثلاث.

ب- المجلس العلمي الأعلى والهيئات الدينية بالمملكة المغربية:

يعتبر جلالة الملك أمير المؤمنين، بالمملكة المغربية، وهو بهذه الصفة يترأس المجلس العلمي الأعلى، وما يتبعه من مجالس علمية محلية، وكذا تتبع له مختلف الهيئات الدينية بما فيها مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ويعمل جلالته من خلال هذه المؤسسات على تأطير وترسيخ قيم التسامح والحوار بين الأديان داخل المملكة المغربية، وخارجها، ووسائل وآليات التشجيع عليها.

كما يسهر جلالته من خلال معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات، على ترسيخ تلك القيم، قيم التسامح والتعايش والحوار بين الأديان، لدى مختلف الطلبة الأئمة، الذين بدورهم سيساهمون في تلقينها وترسيخها في كافة المساجد والمؤسسات التعليمية التي سيشتغلون بها، ولا يقتصر الأمر على الأئمة المغاربة، بل إن المعهد يستقبل كذلك الطلبة الأجانب من مختلف الدول ولاسيما

1-للاطلاع أكثر على اللجنة، انظر الموقع الالكتروني الرسمي الخاص بها :-http://www.bmaq.org/page/al-quds-committee

2-للاطلاع أكثر على منظمة التعاون الإسلامية، انظر الموقع الالكتروني الخاص بها :https://www.oic-oci.org

من الدول الإفريقية، وبالتالي فالمعهد وخريجوه من أئمة مرشدين ومرشدات سيساهمون في تأطيروتكوين أجيال على قيم التسامح والإخاء.

ثانيا: ضمان حرية ممارسة الشعائرالدينية بين إمارة المؤمنين ونداء القدس

تعتبر مؤسسة إمارة المؤمنين، بما لها من أدوارومهام، أكبر ضمان لحرية ممارسة الشعائر الدينية، وذلك باعتبار أن جلالة الملك بالمملكة المغربية، وبصفته أمير المؤمنين، فهو أميرلجميع المؤمنين، بمن فيهم المسلمون والمسيحيون واليهود، وبالتالي فهو يضمن لجميع المؤمنين بالديانات السماوية الثلاث الحق في ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، وذلك يتطابق مع ما جاء في نص النداء، حيث نص على : «ضمان حق أصحاب الديانات السماوية الثلاث في أداء شعائرهم الخاصة فيها».

وهو الأمر الذي عبرعنه جلالة الملك محمد السادس صراحة في خطابة الذي ألقاه أمام قداسة الباب فرنسيس، بمناسبة زيارته الأخيرة للمملكة المغربية[1]، حيث جاء فيه:

«وبصفتي ملك المغرب، وأمير المؤمنين، فإنني مؤتمن على ضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية. وأنا بذلك أمير جميع المؤمنين، على اختلاف دياناتهم.

وبهذه الصفة، لا يمكنني الحديث عن أرض الإسلام، وكأنه لا وجود هنا لغير المسلمين. فأنا الضامن لحرية ممارسة الديانات السماوية.

وأنا المؤتمن على حماية اليهود المغاربة، والمسيحيين القادمين من الدول الأخرى، الذين يعيشون في المغرب».

وهو كما كان معمولا به على مر التاريخ الإسلامي دائما، فقد تم ترسيخه في أحكام دستور المملكة المغربية، لسنة 2011م، حيث نص في الفقرة الأولى من الفصل 41 على أن: «الملك، أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية».

1-وهي الزيارة التي تمت يومي 30 و 31 مارس 2019، وعرفت مجموعة من الأشغال انتهت بإصدارنداء القدس، للاطلاع على نص الخطاب يرجى زيارة الموقع الرسمي لوكالة المغرب العربي للأنباء، على الرابط التالي :https://cutt.us/ZFB0l

كما أن نفس الفصل الثالث من الدستور، يسيرفي نفس النهج، حيث ينص على أن «الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية».

ثالثا: المحافظة على الطابع الخاص لمدينة القدس

تبذل إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية، جهودا حثيثة من أجل المحافظة على مدينة القدس، وذلك ما جاء في نص النداء، وتسوعب تلك المحافظة على مستويين، المستوى الأول إنساني، حيث تحرص المحافظة على مدينة القدس باعتبارها تراثا مشتركا للإنسانية (أ)، ثم المستوى الثاني ديني، وهو المحافظة على مدينة القدس كونها مدينة متعددة الأديان (ب).

أ- المحافظة على مدينة القدس باعتبارها تراثا مشتركا للإنسانية:

نص نداء القدس على ضرورة المحافظة على مدينة القدس باعتبارها تراثا مشتركا للإنسانية، ولعل ذلك من صميم حرص إمارة المؤمنين بالمغرب كذلك على المحافظة على هذا التراث الإنساني المشترك، والمغرب بصفته عضوا نشيطا في منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، ساهم في جهود المنظمة، هذه الأخيرة التي عملت منذ سنة 1965 ولغاية سنة 2017م على إصدارما يقارب تسعة قرارات، كان أبرزها القرار الصادرفي العام 2016م عندما أدرجت اليونسكو 55 موقعا تراثيا في العالم، على قائمة المواقع المعرضة للخطرومنها البلدة القديمة في القدس المحتلة وأسوارها.

كما أصدرت منظمة اليونسكو خلال اجتماع بالعاصمة الفرنسية باريس في شهر أكتوبر 2016م قراراً اعتبرفيه الحرم الشريف المسجد الأقصى تراثا إسلاميا خالصاً، وجاء قرار المؤتمر الإسلاميّ الثامن لوزراء الثقافة لعام 2014م، الذي تعتبر المملكة المغربية عضوا فيه، حيث تم فيه اعتماد القدس كعاصمةً للثّقافة الإسلامية للعام 2019م.

ويشكل قرار اعتماد القدس عاصمة دائمة للثقافة الإسلامية، تتويجا وتعبيراً صادقاً عن مدى أهمية وقيمة مدينة القدس للأمة العربية والإسلامية، وهي قرارات

تليق بقيمة القدس ومكوناتها المادية والروحية.

ب- المحافظة على مدينة القدس كونها مدينة متعددة الأديان:

ينص نداء القدس على المحافظة على الطابع الخاص لمدينة القدس، وهو دائما ما يحرص عليه أمير المؤمنين، ملك المغرب، ويجعل من تلك المحافظة على طابعها الخاص، العربي والإسلامي، موقفا ثابتا لطالما عبر عنه وأكده جلالته في العديد من المناسبات، ولاسيما في رسالتيه الأخيرتين الموجهتين إلى كل من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السيد دونالد ترامب[1]، وإلى الأمين العام للأمم المتحدة السيد أنطونيو غوتيرس[2]، على إثر رغبة الإدارة الأمريكية في نقل سفارتها إلى القدس الشريف.

كذلك هو الشأن، فإن جلالة الملك يسهر من خلال وكالة بيت مال القدس ـ التابعة للجنة القدس، والتي تحظى برئاسة جلالة الملك محمد السادس نصره الله ـ على الحفاظ على هوية مدينة القدس الشريف وطابعها الديني والثقافي والحضاري من خلال المساهمة في دعم تمويل المشاريع والبرامج التي تعزز الوجود العربي والإسلامي فيها بالشراكة والتعاون مع المؤسسات والفعاليات العربية الإسلامية والدولية.

ناهيك عن العديد من المبادرات المستقلة أو الثنائية، والتي تدل على حرص جلالته على العناية بالمسجد الأقصى، والقدس الشريف، آخرها إصدار جلالته الأمر بتخصيص منحة مالية كمساهمة في ترميم وتهيئة بعض فضاءات المسجد الأقصى، كما أمر بإرسال معماريين وصناع تقليديين مغاربة لصيانة الأصالة المعمارية العريقة للمسجد الأقصى، دفاعاً من جلالته عن الوضع التاريخي لمدينة القدس وتأكيداً على هويتها الحضارية ورمزيتها الدينية كفضاء مفتوح للتعايش والتسامح بين مختلف الأديان السماوية[3].

1-للاطلاع على نص الرسالة يرجى زيارة الرابط التالي :-http://www.mapnews.ma/ar/discours-messages-sm-le-roi/

2- للاطلاع على نص الرسالة يرجى زيارة الرابط التالي :http://www.mapnews.ma/ar/discours-messages-sm-le-roi

3-حسب بلاغ وزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي، للاطلاع أكثر انظر https://2u.pw/kWZCl .

خاتمة:

شكل نداء القدس، بما احتواه من قيم ومبادئ، وما بعثه من رسائل، وما سيمثل من مرجعية صلبة لأجيال المستقبل، ميلاد وثيقة عالمية، متوافق عليها بين مؤسستين دينيتين كبريتين لهما من التأثير الشيء الكثير، انصهرت فيه جهود وطموحات وآفاق هاتين المؤسستين، وتأكدت فيه رغبتها في المضي قدما في مسلسل دعم قيم التسامح والتعايش بين الشعوب والأديان.

ومن خلال دراستنا للموضوع، يمكننا الوقوف على مجموعة من النقاط الهامة، نوردها كالآتي:

- نداء القدس جاء بعد مسار طويل من العلاقات الوطيدة بين مؤسسة إمارة المؤمنين بالمملكة المغربية، ومؤسسة الكنيسة الكاثوليكية؛

- نداء القدس جاء ثمرة لمجموعة من الجهود التي يبذلها جلالة الملك محمد السادس، نصره الله، بصفته أمير المؤمنين، واعتراف المجتمع الدولي والعالمي بتلك الجهود؛

- نداء القدس يعبر عن الثقة القوية التي تحظى بها المملكة المغربية، وعلى رأسها جلالة الملك، أمير المؤمنين، من قبل الكنيسة الكاثوليكية، ورغبتها في تقوية وتوطيد والاستثمار في هذه الثقة؛

- نداء القدس يأكد على الأهمية الكبرى التي تحظى بها مدينة القدس، وطابعها الديني الفريد، وعلى الرغبة القوية في المحافظة عليها وفق ذلك؛

- نداء القدس يشكل ميثاق عالمي وأرضية مستقبلية ومرجعية صلبة متوافق عليها لقيم التعايش بين الأديان والثقافات والشعوب؛

- نداء القدس انعكاس لأدوار إمارة المؤمنين المرتبطة بالحرص على تحقيق التعايش بين الأجناس والأديان، والمحافظة على القدس وعلى طابعها الديني الفريد.

المراجع المعتمدة:

كتب:

1. أحمد صدقي الدجاني، الحوار مع الآخر في الإسلام، مجلة التسامح، عمان، العدد 2، السنة 1، ربيع 1423 هـ - 2003 م .

2. عبد الهادي الفضلي، الإسلام والتعدد الحضاري بين سبل الحوار وأخلاقيات التعايش، الطبعة الأولى، بيروت 2014 .

3. جامع بيضا وفانسانفيرولدي، الحضور المسيحي بالمغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، الطبعة الأولى، منشورات دار أبي رقراق للتواصل – الرباط .

4. سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب – العصر الذهبي، الطبعة الأولى 1987، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت .

مقالات ومجلات:

1. بهيجة سيمو، نظم الدولة المغربية وآليات تصريف أحكامها، مقال ضمن أشغال ندوة العلمية في موضوع «الجريدة الرسمية مائة سنة في خدمة القانون، منظمة من قبل الأمانة العامة للحكومة، 2012 .

2. رجاء ناجي المكاوي، إمارة المؤمنين وحوار الأديان من خلال نداء القدس، مداخلة ضمن اليوم الثالث من الدورة التواصلية العلمية الثالثة التي تنظمها مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة تحت عنوان: إمارة المؤمنين ومكانتها المرجعية في حفظ الثوابت الدينية المشتركة أيام 12 و13 و14 رمضان 1440 هـ الموافق لـ 18 و19 و20 ماي 2019 بالرباط.

3. عباس الجراري، دولة المرابطين، مجلة دراسات أفريقية، العدد الثاني، أبريل 1986 .

المواقع الإلكترونية:

1. الموقع الالكتروني الرسمي لمنظمة تحالف الحضارات :

https://www.unaoc.org/

2. الموقع الالكتروني الرسمي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة :

http://www.unesco.org

3. الموقع الالكتروني الرسمي لوكالة بيت مال القدس :

http://www.bmaq.org

4. الموقع الالكتروني الرسمي لمنظمة التعاون الإسلامي :

https://www.oic-oci.org

5. على الموقع الالكتروني للبوابة الوطنية للمملكة :

http://www.maroc.ma

الشيخ عثمان بن فودي ومنهجه في التربية الروحية لأتباعه

د. علي يعقوب
الجامعة الإسلامية بالنيجر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فقد شهدت القارة الإفريقية عامة وغربها بخاصة في القرن التاسع عشر الميلادي موجة من الحركات الإصلاحية لنشر الإسلام في المنطقة على أيدي شيوخ الطرق الصوفية وغيرهم، ولتجديد ما اندثر من معالم الإسلام لطول الزمن بعد انهيار الإمبراطوريات الإسلامية، وإطباق الجهل على بعض المجتمعات في المنطقة، ولمواجهة الاستعمار الغربي الذي بدأ يتوغل فيها وبخاصة على السواحل، وقد زخرت المنطقة بالعديد من العلماء الربانيين الذين ساهموا مساهمة فعالة في دفع عجلة الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية والسياسية في مجتمعاتهم، وخلفوا تراثا فكريا ضخما في جميع مجالات العلوم الإنسانية والتربوية، غير أن معظم التراث الذي خلفوه ظل مغمورا، وسار محبوسا في المكتبات، ودور المخطوطات، مما قلل من الاستفادة منها، زيادة على قلة الكتابات عن هؤلاء العلماء، وبخاصة في المجال التربوي الذي يعد من أهم مجالات إعداد الأمم، وأغلب الكتابات الحالية عنهم تاريخية أو حربية سياسية، والإهمال شبه الكلي للمجال التربوي والمنهجي الذي يعتبر من أهم الجوانب التي ينبغي الاعتناء بها سواء في مؤلفاتهم أو دروسهم للوقوف على أسس التربية الروحية التي اعتمدوا عليها في بناء جيل يؤمن برسالة نشر الإسلام والدفاع عنه.

ومن العلماء الذين قاموا بحركات إصلاحية في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر الشيخ عثمان بن فودي في شمال نيجيريا وجنوب النيجر وشمال بوركينا

فاسو والكامرون، الذي جدد معالم الإسلام ، وأحيى ما اندثر منها بسنانه وقلمه، واتبع منهجا تربويا في تهذيب نفوس أتباعه وتزكيتهم حتى استطاعوا أن يؤسسوا دولة اسلامية ذات رقعة جغرافية واسعة وتعتبر كذلك من أكثر الدول الإسلامية في السودان الغربي في مجال الإنتاج العلمي، وذلك لتفرغ المؤسس للتربية وللعلم والعبادة، أي جمعه بين العلم والعمل.

وهذه ورقة بحثية بعنوان: الشيخ عثمان بن فوديو ومنهجه في التربية الروحية لأتباعه، نريد من خلالها تسليط الضوء على منهج الشيخ عثمان بن فوديو في التربية الروحية التي نجحت في تكوين أتباعه تكوينا علميا وروحيا في السودان الغربي في القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد قسمناها إلى مبحثين بعد المقدمة:

المبحث الأول: نبذة عن حياة الشيخ عثمان بن فوديو.

المبحث الثاني: منهجه في التربية الروحية.

والخاتمة التي فيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: نبذة عن الشيخ عثمان بن فوديو ودولته الإسلامية

ولادته ونشأته: ولد الشيخ عثمان بن فوديو «يوم الأحد في أواخر صفر سنة ألف ومائة وثمانية وستين من الهجرة» [1]الموافق ديسمبر 1754م في قرية مرتاتا(Maratata)) في أرض غوبر Gobir)) إحدى ولايات الهوسا السبع (وتقع القرية حاليا في جمهورية النيجر) ولد لأبوين صالحين، ونشأ في حجرهما، كان أبوه محمد عالما من العلماء في المنطقة، اشتهر بالعلم والصلاح والتقوى والزهد، وكذلك والدته (حواء) كانت من أهل العلم والصلاح.

نشأ الشيخ عثمان في أسرة صالحة وعلى التربية القوية، والخلق الحسن طاهرا زكيا حتى استوي عوده على التدين والخلال الكريمة[2] قد أولع منذ صغره بالعبادة

1- الشيخ الوزير جنيد، ضبط الملتقطات، مخطوطة في مكتبة الباحث ، ص16، وقد اختلف في تاريخ ولادته على أقوال وكذلك مكان الولادة، والذي أثبتناه هو المشهور

2-محمد بلو ، إنفاق الميسور، طبعة 1964، القاهرة، مصر، ص 66

والعلم معا، وظل هذان الخلقان يلازمانه من صباه إلى موته، حتى عرف عنه فكان يلقب بذي النورين- أي نور العلم والعمل-.

دراسته: بدأ تعليمه على يدي والده الشيخ محمد بن عثمان، فقرأ عليه القرآن الكريم ، ومبادئ العلوم الشرعية واللغوية، كما أخذها عن والدته (حواء)، ثم أخذ في تحصيل العلوم الأساسية المعهودة في تعليم النشء المسلم، فدرس النحو وعلوم اللغة على يدي الشيخ عبد الرحمن بن أحمد، ثم درس الأدب وفنونه على يدي الشيخ عثمان المعروف ببندر الكبوي، وقرأ مختصر خليل، وغيره من كتب الفقه المالكي على عمه المعروف ببندور، ودرس التفسير على يدي خاله الشيخ أحمد بن محمد الأمين، وصحيح البخاري على الشيخ محمد بن راج وأجازه الشيخ محمد جميع مرويا ته، ثم رحل لطلب العلم إلى مدينة- أغاديس Agades)) في شمال جمهورية النيجر للدراسة على الشيخ جبريل بن عمر. ومكث عنده سنة يدرس الحديث وعلومه، ثم رجع إلى أهله لسفر الشيخ جبريل بن عمر إلى الحج، ولم يستطع الشيخ عثمان السفر معه، لأن أباه لم يأذن له في المسير إلى الحج[1] .

يعتبر الشيخ جبريل من الشيوخ الذين أثروا في الشيخ عثمان تأثيرا كبيرا، وبخاصة في حركته الإصلاحية ويقول الشيخ محمد بلو بن عثمان: «إنه- أي الشيخ جبريل- أول من قام بهدم هذه العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، وكان كمال ذلك ببركته على أيدينا[2]» ، وما إن عاد جبريل من الحج حتى رجع إليه الشيخ عثمان مع أخيه الشيخ عبد الله بن فوديو، ووجدا الشيخ جبريل في مورد الماء المسمى كودي (Kodi) ومكثا مدة، ثم رجع الشيخ عثمان وترك عبد الله عنده ينهل من علمه ، وبقي عنده مدة ثم رجع إلى أهله[3].

1-الوزير جنيد المصدر السابق، ص17. وهذا يفند القائلين بأن الشيخ عثمان قد ذهب إلى الحج ، وتأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ثم رجع ودعا إليها في السودان الغربي ، وإنما تأثر الشيخ عثمان بشيخه جبريل بن عمر الذي حج وجاور ، وبعد رجوعه ، قام بالدعوة إلى تجديد معالم الإسلام والعقيدة الصحيحة في المنطقة ، ومن تلاميذه الشيخ عثمان بن فوديو.

2- الشيخ محمد بلو، المصدر السابق ، ص54

3- انظر تزيين الورقات للشيخ عبد الله بن فوديو، مخطوط في مكتبة الباحث ، ص8

وعنه أخذ الشيخ عثمان الطريقة القادرية الصوفية، ويقول الشيخ عثمان في السلاسل القادرية وهو يتحدث عن سلسلته في السند: (أما أنا فشيخي أبو الأمانة جبريل بن عمر، وشيخه محمد مرتضى الحسيني والواسطي ... إلى آخر السلسلة المنتهية عند عبد القادر الجيلاني)[1] .

تدريسه ودعوته إلى الإسلام: بعد تبحر الشيخ عثمان في العلوم الدينية واللغوية، جلس للعلم وطلابه، فكان يدرس الطلاب ويعظ الناس– العوام- ويرشدهم إلى الإسلام الصحيح ونبذ العادات السيئة المخالفة للإسلام الصحيح، وجعل ينتقل من قرية لأخرى مع أخيه الشيخ عبد الله بن فوديو للإرشاد، يقول الشيخ عبد الله بهذا الصدد: «أقمنا مع الشيخ نعينه على تبليغ الدين نسير لذلك شرقا وغربا يدعو الناس إلى دين الله بوعظه وقصائده العجمية ويهدم العوائد المخالفة للشرع... إلى أن سرنا معه إلى بلاد كبي(kibbe) فدعاهم إلى إصلاح الإيمان والإسلام والإحسان، وترك العوائد الناقضة لها فتاب كثير منهم[2]» وكان الشيخ عثمان في دعوته لا يسير إلى الملوك ولا يحب التقرب إليهم، لكن «لما كثرت الجماعة عنده واشتهر أمره عند الملوك وغيرهم، ورأى أن لا بد من السير إليهم فسار إلى ملك غوبر (Gobir) باوا، وبين له الإسلام وأمره بالعدل في بلاده، ثم رجع إلى وطنه[3]» .

وبعد استراحة قليلة بين أهله، انتقل الشيخ عثمان إلى بلاد زنفر (zanfara) للدعوة إلى الله تعالى، وأقام فيها خمسة أعوام للدعوة والتعليم، وسبب طول إقامته فيها هو أنه قد «غلب على أهلها الجهل لم يشم غالب أهلها رائحة الإسلام[4]» ولما اطمئن على إسلامهم وتفقههم في الدين، رجع الشيخ إلى وطنه واستمر في الدعوة إلى الله تعالى بالوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتدريس، فازداد أتباعه وكثروا إلى حد ضاق به السلطان ذرعا فاستدعاه لحضور عيد الأضحى مع باقي العلماء،

1- انظر عثمان بن فوديو ، السلاسل القادرية ، مخطوط في مكتبة الباحث ، ورقة 1

2- المصدر السابق ، ص8

3- عبد الله بن فوديو ، المصدر السابق ، ص4

4- المصدر السابق ، ص4

لكنه في الحقيقة كان يدبر لقتل الشيخ عثمان، ولما اجتمع العلماء عند السلطان تصدق عليهم بالأموال، فقام الشيخ عثمان بين يديه وقال له: «إني وجماعتي لا حاجة لنا إلى أموالك، ولكن أسألك كذا فعدد له أمورا كلها من إقامة الدين، فأجابه السلطان: «بأني أعطيتك ما سألت ورضيت لك بجميع ما تحب أن تفعل في بلادنا هذه[1]» ، ثم رجع الشيخ إلى قريته سالما غانما، واستمر في دعوته وتدريسه إلى أن مات ذلك السلطان (باوا) وخلفه أخوه ياكُبُو، وجعل يكيد للشيخ كسلفه لكنه ما لبث أن هلك، وتولى بعده أخوه نفاتا (Nafata) الحكم، وصار على نهج سلفيه في الكيد للشيخ إلى أن مات، فتولى السلطة ابنه يُنْفَ (Yunfa)– تلميذ الشيخ سابقا- وكان قد وعد الشيخ عثمان قبل توليه السلطة بإلغاء المرسوم الذي أصدره سلفه بمنع الوعظ، ومنع الدخول في الإسلام لمن لم يرثه من أجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم[2] ، وغير ذلك من القرارات الجائرة ضد الشيخ وأتباعه، لكن ما أن وصل (ينف) إلى سدة الحكم حتى انقلب رأسا على عقب، وبدأ يحاكي المكايد والمؤامرات للفتك بالشيخ وأتباعه، ووصل به الأمر أن أغار على جماعة أحد أتباع الشيخ. اسمه الشيخ عبد السلام لما رفض الانصياع لأوامر السلطان بالرجوع عن هجرته، أغار عليهم في نهار رمضان وهم صائمون ونهب أموالهم، وأسر ذراريهم، واستهزأ بالإسلام وأتباعه ، فزاده ذلك طغيانا فجعل يهدد الشيخ وجماعته إلى أن أمر الشيخ أن يخرج بين جماعته ويفارقهم هو وعياله فقط «فأرسل إليه الشيخ بأني لا أفارق جماعتي، ولكن أفارق بلادك وأرض الله واسعة»[3] ، ثم هاجر الشيخ إلى مكان في أطراف بلاد غوبر يسمى قُدُ (Godo) لكن هذه الهجرة لم تشف غليل السلطان الذي يريد القضاء على الإسلام وأهله، لذلك استمر في مضايقة الشيخ وأتباعه بأخذ أموالهم، وهذا ما أشار إليه الشيخ محمد بلو بقوله «ثم جاوز الأمر إلى أن كانوا يرسلون الجيوش إلينا فاجتمعنا لما اشتد ذلك فأمّرنا الشيخ علينا لينضبط أمرنا[4]» كانت هذه البيعة بداية الجهاد وإيذانا بتأسيس الدولة الإسلامية، فبدأ الشيخ وأتباعه

1- المصدر السابق ، ص7

2- انظر إنفاق الميسور، ص95

3- عبد الله فوديو، المصدر السابق، ص30

4- المصدر السابق ص30

يدافعون عن أنفسهم بإرسال السرايا إلى القرى التابعة للسلطان، مثل: قرية غيغ ومَتَنْكرى، فحالف السرايا الحظ حيث انتصرت وعادت سالمة وغانمة، ولما رأى السلطان أن الشيخ عثمان وأتباعه، بدأوا يشكلون خطراً كبيراً على دولته، راسل أمراء الهوسا يطلب منهم العون والمساعدة للقضاء على الشيخ وأتباعه، فأرسلوا له العون المطلوب، فجهز السلطان جيشا عرمرما للقضاء على الشيخ وأتباعه، فالتقى الجيشان قرب بحيرة تسمى «كتو» فهزم الله جيش السلطان هزيمة نكراء، وتعتبر هذه المعركة من أعظم المعارك التي جمعت بين سلطان غوبر «ينف» والشيخ عثمان بن فوديو وأتباعه، وهي كما وصفها الشيخ محمد بلو بمثابة يوم التقى الجمعان[1] وكانت بداية الانطلاق، وصاروا يغزونهم في عقر ديارهم إلى أن فتح الله عليهم كل بلاد هوسا، وعين فيها أمراء من تلاميذه لتعليم الإسلام ونشره وحفظ بيضته.

وفي عام 1812 بعد استتابة الدولة وقيامها على سوقها قام الشيخ عثمان بتقسيمها إلى قسمين:

1– القسم الشرقي للدولة وضعه تحت إمرة ابنه محمد بلّو وعاصمته مدينة سكتو.

2 – القسم الغربي للدولة وضعه تحت إمرة أخيه عبد الله بن فوديو وعاصمته مدينة غندو (Gondo).

ثم تفرغ الشيخ للعبادة والعلم في مدينة سفاوا (Sifawa) واعتزل السياسة وأمور الحكم، لأنها ليست من أهدافه الأساسية، بل اضطر إلى ذلك، فلما استتب الأمن، وانتشر الإسلام الصحيح، رجع إلى هدفه الذي فرغ نفسه له، وهو العلم والعبادة والذكر.

في عام 1817م توفي الشيخ عثمان بن فوديو في مدينة سفاوا وحُمل إلى مدينة سكتو، ودفن فيها رحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين.

قد خلَّف الشيخ دولة تمتد من غربي النيجر غربا إلى حدود البرنو شرقا، وإلى الجنوب حتى أدماوا شمال الكمرون، وإلى الشمال حتى مشارف الصحراء الكبرى.

1-انظر إنفاق الميسور، ص103

ومجمل القول أنه قد حكم دولة سكتو الإسلامية من عام تأسيسها على يدي الشيخ عثمان بن فوديو إلى عام 1903م حيث سقطت على يدي الإنجليز أحد عشر خليفة، وقد حاول كل واحد منهم أن يحافظ على الكيان الذي تركه مؤسس الدولة من حيث الجهاد والتعليم، وتطبيق الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني: منهج الشيخ عثمان في التربية الروحية

قد رفع الإسلام مكانة العلم والعلماء وخصهم الله تعالى بخشيته من بين سائر عباده وقال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء[1]» وجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء فقال صلى الله عليه وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر[2]» .

ولا تقتصر مهام العلماء على التدريس في المدارس والمساجد بل تمتد لتشمل جميع أنشطة الحياة لأنهم قدوة المجتمع وشعلته المضاءة، مما يحتم عليهم أن يكونوا في مقدمة المشاركين في الأنشطة الاجتماعية والسياسية والتصدي للمصائب التي تحل بالأمة إما باللسان أو بالقلم أو بالسنان.

ويعتبر الشيخ عثمان بن فوديو من العلماء الذين أولو العلم والتربية كل الاهتمام، لأنه آمن أن العلم والتربية لا يفترقان، وأنه لا علم بغير تربية، وتميزت دولته باهتمام مؤسسها وخلفائه بالعلم، بل إن أغلبهم من العلماء الفطاحل، واهتموا بفتح المدارس القرآنية لتعليم الصغار وتربيتهم تربية دينية، وكذلك فتحوا الحلقات العلمية للكبار، وكان العلماء يفتحون أبواب بيوتهم على مصارعها للتدريس واستقبال طلاب العلم، وكانوا يدرسون العلوم الدينية والتربوية واللغوية.

إن الحياة البشرية لا تستقيم ولا ترقى، ولا يحدث لها توازنها المنشود الذي يُسعد الإنسان كفرد أو جماعة في الدنيا ويفوز في الآخرة إلا إذا ظللتها الحياة الروحية

1-سورة فاطر، الآية: 28

2-أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل تعليقا ، صحيح البخاري ، ط2، 1999، مكتبة دار السلام، ص16

التي تقوم على صفاء الروح وطهارة النفس، كثمرة من ثمرات التربية الروحية التي أمر بها الإسلام والتزمها الربانيون من العلماء في حياتهم الخاصة وفي تربية أتباعهم، وتمكنوا من صناعة جيل يؤمن بالإسلام ويدافع عنه مع الالتزام بالأخلاق الإسلامية، ويعتبر الشيخ عثمان بن فوديو من العلماء الذين نجحوا في تربية أتباعه واتبع في ذلك منهجا رسمه لنفسه، ويظهر منهج الشيخ عثمان في التربية الروحية في عدة مجالات التي اهتم بها في تعليمه ووعظه وإرشاداته من أهمها:

1. تهذيب النفس: اهتم الشيخ عثمان بالتربية الروحية في دعوته وتدرسيه وذلك بتهذيب النفس وتزكيتها على منهج التصوف السني، ورسم لذلك منهجا هادفا الذي من خلاله يصلح الفرد الذي بصلاحه يصلح المجتمع وينمو، ووضّح المنهج الذي ينبغي سلوكه في تهذيب النفس وإصلاحها من خلال دروسه ومواعظه بقوله: «واعلم أن من قواعد الصلاح مراقبة الأوقات بحقوقها بالتوبة عند العصيان، وشهود المنة بالطاعة، والرضى بقضاء الله في البلية، والشكر في النعمة وينال ما ذكر مع عون الله تعالى برياضة النفس، والخلوات والصمت إلا عن ذكر الله، وترك النوم إلا في الضرورة حتى يخلص القلب من الصفات المذمومة ويتصف بالمحمودة بنور يقذفه الله فيه بلا واسطة فضلا منه أو بعقل كامل، وعلم واسع واجتهاد صاف، أو بصحبة شيخ مرب أو اخ صالح مع إدامة ذكر الصلاح[1]» . ونرى الشيخ هنا يركز على تهذيب النفس بالتوبة والرضى بقضاء الله وقدره، ورياضة النفس وملازمة الخلوات والصمت إلا عن ذكر الله مع قلة النوم إلا للضرورة، وأن هذا كله يتحقق بعلم واجتهاد أو بصحبة شيخ مرب، وهذا كله لتهذيب النفس وتنقيتها من أدران المعاصي التي تدنس صفاءها ونقاءها، ويربي مريديه ويرشدهم إلى آداب السلوك والمعاملة، والقدوة الحسنة.

2. التعليم : للشيخ عثمان نوعان من الطلاب الصفوة والعوام

أ. الصفوة وتعليمهم وتربيتهم: وهم عبارة عن صفوة من طلابه الممتازين الذين أطلق عليهم اسم «الجماعة» وقد تكونت هذه الجماعة في الأساس من تلاميذه الذين نهلوا

1-عثمان بن فوديو ، قواعد الصلاح مع فوائد الفلاح ، مخطوط في مكتبة الباحث ، ورقة 2

العلم على يديه حيث قام بصقلهم فكريا وتهييئهم ذهنيا وعلميا وتهذيب نفوسهم، وذلك بهدف قيامهم بمسؤولياتهم التربوية والدعوية في المجتمع، وينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: قسم ملازم للشيخ في حضور دائم، ذلك لأن مسؤوليتهم كانت تقوم على شرح دروس الشيخ ونسخ كتبه ونشرها في أرجاء البلاد، وذلك بهدف التمكين لرسالة الإسلام في الانتشار والتمكين لها في أذهانهم على أن الإسلام دين شامل تتكامل فيه الروح والعقل والجسم ويعنى بالتربية الروحية والجسمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[1].

أما **القسم الثاني** من الصفوة فقد كانوا يخرجون من عند الشيخ بعد إكمال تربيتهم علميا وروحيا وينتشرون في مناطق شتى من بلاد السودان الغربي والأوسط يُعلمون الناس الدين الإسلامي وينشرون الدعوة في مناطقهم عن طريق الدرس والوعظ والتربية الروحية، ولا يكتفون بذلك، بل كانوا يرسلون بعضا من تلاميذهم النجباء ليتلقوا العلم عند الشيخ الشيء الذي يحفظ لهم علاقاتهم بشيخهم، إما مباشرة أو عن طريق مؤلفاته التي كانوا يقومون بتدريسها وشرحها ونسخها وتوزيعها على تلاميذهم الذين يقومون بتدريسها[2] .

قد اتخذ الشيخ عثمان في تربية جماعته (الصفوة) طريق التربية الروحية التي تعمل على نقاء الباطن وإصلاحه، أي على الزهد والتواضع والإخلاص، ودربهم على مختلف الأعمال من حفظ القرآن الكريم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أسلوب التعليم والدعوة بالموعظة الحسنة والحكمة. [3]

قد لعب هؤلاء (الصفوة) دورا كبيرا في نشر العلم والإسلام في مناطق واسعة

1-د. أحمد عمر عبيد الله ، الأسس التربوية لحركة التجديد عند الشيخ عثمان بن فوديو، ضمن بحوث الندوة العالمية حول الشيخ عثمان بن فوديو بجامعة إفريقيا العالمية ، الخرطوم 21.19 نوفمبر 1995م ، ص 110 بتصرف.

2-وما زالت بعض الحلقات العلمية في المنطقة تُدرس بعض كتبه .

3-المصدر السابق ، ص 111

من السودان الغربي، بل نجح بعضهم في إقامة ممالك إسلامية تابعة لدولة الشيخ عثمان في مناطقهم مثل مودبو آدم في منطقة أدماوا (شمال شرق نيجيريا وشمال الكمرون) والشيخ صالح بن محمد بن جنتا الذي أسس أول حكومة إسلامية في إلورين ilorin)) ببلاد يوربا في الجنوب (نيجيريا) والشيخ يعقوب في ولاية باوتشى، وغيرهم.

ب. تعليم العوام: لم يقتصر الشيخ عثمان على تعليم الصفوة فقط بل خرج إلى العامة يعلمهم ويحدثهم ويكسبهم إليه بجذب قلوبهم بما كان يحدثهم به من علم قريب من أفهامهم مستعملا في ذلك أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، فقط كان الشيخ عالما بنفسية مجتمعه وله إدراك عميق للتركيب الاجتماعي والسياسي في بلاد الهوسا، فقد كان يخرج لوعظ العوام أيام الجمع وبعد العشاء من كل يوم، فأول اليوم خلوة ومنتصفه جلوة، وآخره دعوة، بهذا المنهج التعليمي التربوي استطاع الشيخ عثمان أن ينشر الشعاع العلمي الروحي في السودان الغربي، وأقام دولة إسلامية استمرت لمدى قرنين[1] ، وكذلك طلابه الذين نشرهم في طول البلاد وعرضها ينهجون نفس نهجه في الوعظ والتربية الروحية لأتباعهم وتلاميذهم.

3. الوعظ: بدأ الشيخ عثمان مهمة الوعظ حوالي سنة 1775م وقضى في هذه المرحلة ما يقرب من ثلاثين سنة قبل أن يدخل في مرحلة الجهاد المسلح 1804م وقد ركز على الوعظ والتربية الروحية، واتبع في تحقيق ذلك الوسائل التربوية الدقيقة، حيث ركز على توجيه دعوته إلى كافة طبقات المجتمع دون اقتصار فئات معينة، واقتصرت المواضيع التي تناولها خلال هذه المرحلة على تعليم فروض الأعيان وإزالة بعض الإشكاليات المتعلقة بالدين[2] ، وينقل لنا ابنه الشيخ محمد بلو صورة مجلسه في التعليم والتربية ويقول: «إذا وصل المجلس سلّم بسلام عام يسمعه جميع الحاضرين، وإذا صعد إلى الكرسي حياهم بتحية عامة ثلاث مرات ببشاشة وطلاقة

1-المصدر السابق ، ص 112 بتصرف.

2-انظر ، بهيجة الشاذلي ، الإسلام والدولة في إفريقيا جنوب الصحراء ، مركز الدراسات الصحراوية 2015م جامعة محمد الخامس الرباط ، ص148

الوجه، ثم ينصت الناس فلا يضجر ولا يحقد ولا يسأم، مع كونه مبتلى بجماعة من العوام ذوي سوء أدب، إذا أنصتهم لا يسكتون، وإذا منعهم من السؤال لا ينتهون، ثم يحدثهم بصوت عال، لا يواجه بخطابه أحدا دون آخر، ولا يستحي أحدا من الحاضرين، وإن كانو شيوخا جلة، أو علماء حسدة ، بل يتكلم على الجميع ، ولا يبالي بهم في ما يعم الانتفاع به[1]». ويظهر من هذا النص حنكة الشيخ عثمان في التعامل مع مستمعيه، واستعماله أسلوب التعليم المباشر في التربية والتدريس وصبره مع بعض مستمعيه سيئ الأدب.

ويعتبر أسلوب التعليم المباشر من الأساليب التربوية التي اتخذها الشيخ عثمان في نقل العلم لتلاميذه، فقد كان الشيخ عندما يريد الخروج إلى الدرس «يقف في زاوية الدار هنيهة، ويتكلم بكلام ثم ينصرف إلى الناس فسألته- السائل ابنه محمد بلو- عن ذلك، فقال: أجدد النية وأعاهد الله على الإخلاص فيما أخرج إليه وأسأله أن يفهم الحاضرين ما أحدث به[2]» . كما اتخذ الشيخ أسلوب الوعظ والإرشاد في مخاطبة العوام وتعليمهم باللين والرفق ولا يضجر ولا يسأم، وكانت دروسه ووعظه للرجال والنساء، بل يعتبر أول من عقد حلقة علم لتعليم النساء في المنطقة.

نموذج لمجلس الشيخ:

كان الشيخ يبدأ مجلسه بتجديد النية والإخلاص لوجه الله والدعاء بالتوفيق والقبول ونفع الناس بما يقول، ثم يفتتحه بخطبة شيخه (عبد القادر الجيلاني) أو بخطبة أخرى أو بحديث الرحمة أو حديث إنما الأعمال بالنيات، ثم يركز كلامه على جانبين: الباطن والظاهر أو القلب والجوارح.

أما الجانب الأول وهو جانب القلب: فيذكر فيه أن صفات القلب على ضربين مهلكات ومنجيات، ويبدأ الحديث عن التخلية (ما يجب التخلي عنه) ثم التحلية (ما يجب التحلي به) فيذكر أن المهلكات هي: الكبر والعجب والحسد والحقد والرياء

1-انفاق الميسور ، ص 85.

2-إنفاق الميسور، ص 67.

وحب الجاه، والافتخاروإساءة الظن بالمسلمين، فهذه المهلكات من أصول مذمومة الأخلاق، ويجب على كل مسلم أن يتخلى عنها، ويشرح كل واحدة منها ،ثم يتكلم عن المنجيات التي يجب على كل واحد أن يتحلى بها وهي: التوبة والإخلاص والصبروالزهد والتوكل وتفويض الأمر إلى الله والرضا بقضائه والتقوى والخوف والرجاء، وهذه المنجيات من أصول محمود الأخلاق، ويمضي في شرح كل واحدة منها[1].

أما الجانب الآخر وهو جانب الجوارح: فيذكر فيه أنه يجب على كل مسلم أن يحفظ أذنه من استماع كل لغو وباطل، وأن يحفظ عينيه من النظر إلى الحرام والهمز واللمز، ثم يذكر واجبات كل عضو من الأعضاء، ويعزز أقواله بأدلة من الكتاب والسنة وأقوال العلماء وبخاصة الغزالي الذي تأثر به في تقسيمه لأعمال القلوب والجوارح والمنجيات منها والمهلكات.

وكان لدروس الشيخ ومواعظه آثار كبيرة في أتباعه ومجتمعه حيث كانت سببا لتذويب كثير من حمية الجاهلية وتعصبها وتفاخر بالقبائل، وانتشرت رابطة الإخوة الإسلامية لا فرق بين هوساوي وفلاني وغيرهما من القبائل.

كما أن الشيخ عرف بالتقوى والصلاح مع غزارة العلم والمعرفة والتأني الحكيم مع العزم الحاسم المتوكل على الله مما جعله قدوة للناس، والقدوة في التربية الروحية التي هي أفضل الوسائل وأقربها إلى النجاح، قد اعتمد الشيخ عثمان عليها ليحقق التغيير المنشود حيث تدور مفردات المنهج حول خمسة محاور تتمثل في أصول الشريعة وفروعها، والحث على إتباع السنة النبوية والتصوف السني، والتصدي للعادات التقليدية المخالفة للإسلام، والإخلاص في العمل مع العلم وتقوى الله تعالى والزهد والتواضع، وكان الشيخ منشغلا بالعلم يملأ ذلك حياته، ويستفيد ساعات ليله ونهاره، وكان لا يخلو يوم وليل من مجلس أو أكثر للدرس والوعظ في نسق وترتيب منظم، واستطاع بهذا المنهج الروحي والعلمي أن ينشر الإسلام وثقافته في مساحات واسعة من السودان الغربي، ومما لا شك فيه أن الحركة الإصلاحية التي قادها

1-انظر : حسن عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني ، الطبعة الأولى 1989م جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ص 204.

الشيخ عثمان بن فوديو، قد أثرت في بعض الحركات الإسلامية في غرب إفريقيا من حيث المنهج، أي التركيز على العلم والعبادة والتربية الروحية مثل: حركة الشيخ أحمد لبو الماسني في بلاد ماسينا، لقد كان الشيخ أحمد لبو أحد أتباع الشيخ عثمان بن فوديو روحيا[1] وتأثر بكتابات الشيخ الإصلاحية، وتمكن من إقامة دولة إسلامية أشد صرامة في تطبيق الشريعة الإسلامية، والعبادة والتعليم والتربية الروحية، وحركة الحاج عمر بن سعيد الفوتي في غينيا ومالي والسنغال[2] وغيرها من الحركات الإصلاحية في السودان الغربي في القرن التاسع عشر الميلادي.

خاتمة:

وفي الختام قد توصلنا إلى النتائج التالية:

1. أن التربية الروحية تساعد على تهذيب النفس مع الزهد والتواضع والإخلاص.
2. أن الشيخ عثمان قد نجح في تربية روحية لأتباعه.
3. أن العلم والتربية الروحية أساسان لكل خير، حيث ركز الشيخ عثمان عليهما في بناء دولته.
4. للشيخ دور كبير في نشر العلم والعبادة والزهد في السودان الغربي في القرن التاسع عشر الميلادي.

التوصيات: ونوصى بالآتي:

1. على الجيل الحالي أن يهتموا بقراءة سير السلف الصالح لتزكية النفس، وصقل الفكر والاقتداء بهم في أخلاقهم وأعمالهم.
2. تدريس سيرهم في المناهج الدراسية المعاصرة لتنشئة جيل مؤمن بالله مع حبه لدينه ووطنه.
3. الاهتمام بالثوابت المشتركة بين علماء المغرب وعلماء إفريقيا لنشر ثقافة التعايش السلمي في المجتمعات والدول.

1-لكن لم يلقه كما هو المشاع عند بعض المؤرخين ،لكنه قادري الطريقة مثل الشيخ عثمان بن فوديو.

2-هو الناشر للطريقة الصوفية التجانية في غرب إفريقية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

فهرس المصادروالمراجع:

القرآن الكريم.

أولا: المخطوطات

1. جنيد الوزير ، ضبط الملتقطات ، مخطوطة في مكتبة الباحث.
2. عبد الله بن فوديو ، تزيين الورقات ، مخطوط، في مكتبة الباحث.
3. عثمان بن فوديو ،السلاسل القادرية ، مخطوط في مكتبة الباحث.
4. عثمان بن فوديو ، قواعد الصلاح مع فوائد الفلاح ، مخطوط في مكتبة الباحث.

ثانيا: المطبوعات

1. بهيجة الشاذلي، الإسلام والدولة في إفريقيا جنوب الصحراء، مركز الدراسات الصحراوية جامعة محمد الخامس الرباط، 2015م.
2. حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني، الطبعة الأولى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1981م.
3. محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط2، دار السلام، 1999م.
4. الشيخ محمد بلو، إنفاق الميسور، طبعة 1964م، القاهرة.

ثالثا: الندوات

1. الندوة العالمية حول الشيخ عثمان بن فوديو بجامعة إفريقيا العالمية، من 19 إلى 21 نوفمبر 1995م الخرطوم، السودان.

رابعا: المجلات

-1 مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، العدد السادس عشر، 1999م.

جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذهب المالكي أحمد بابا التنبكتي أنموذجا

د. عبدالرحمن محمد ميكا
الجامعة الإسلامية- النيجر.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحابته أجمين.

أما بعد: فهذه المقالة عن إحدى الشخصيات العلمية الفقهية التي شاركت بجهودها في مختلف ميادين المعرفة الإسلامية، وكان فضلها عظيما في الربط بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه وهي شخصية العلامة الكبير أحمد بابا التنبكتي الذي يعتبر من أهم الأعلام الأفارقة الذين عاشوا في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين والذين قدموا للمذهب المالكي خدمات جليلة؛ ولهذا رأينا أن نشارك في هذه المجلة- التي خصص العدد الأول منها لجهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة– بهذا البحث المتواضع بعنوان: جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذهب المالكي: أحمد بابا التنبكتي أنموذجا، وسنتناول هذا الموضوع من خلال مبحثين وخاتمة. في المبحث الأول سنتحدث بإيجاز عن شخصية أحمد بابا التنبكتي ومسيرته العلمية، وفي المبحث الثاني سنبرز صورا من جهوده في خدمة المذهب المالكي وفي الخاتمة سنبين أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الجولة السريعة، إذاً فمن هو أحمد بابا التنبكتي؟ وما جهوده في خدمة المذهب المالكي؟

المبحث الأول: شخصية أحمد بابا التنبكتي ومسيرته العلمية

سنحاول في هذا المبحث أن نعطي نبذة مختصرة عن حياة أحمد بابا الشخصية ومسيرته العلمية ووفاته، وثناء العلماء عليه.

المطلب الأول: اسمه ونسبه وولادته ونشأته

أولا: اسمه ومولده

هو العلامة أحمد بن الحاج أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة[1] الصنهاجي المسوفي الماسني التكروري التنبكتي السوداني، المالكي، المشهور بـ «باب» التنبكتي والسوداني، ويكنّ بأبي العباس. اشتهر بالتنبكتي نسبة إلى المدينة التي ولد وتربى فيها وترعرع.

أما مولده، فكان حسبما وجد بخط والده:»ليلة الأحد حادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاثة وستين وتسعمائة (هـ)...» [2] 963هـ بمدينة تنبكت.

ثانيا: انتسابه إلى أسرة أقيت

ينتسب أحمد بابا إلى أسرة أقيت المشهورة بالعلم والصلاح في السودان الغربي عامة وفي تنبكت خاصة.

وأفراد أسرته «كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو، وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا، بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة، وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، وكانوا من أهل اليساروالسؤدد...».[3]

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه الأسرة توارثت العلم والرياسة ما يقرب من خمسمائة سنة.[4]

1-يراجع: كفاية المحتاج: أحمد بابا: تحقيق محمد مطيع، ص: 461 ، فتح الشكور للبرتلى ص: 31/ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشروالثاني، ج ا ص: 271/ نيل الابتهاج منشورات كلية الدعوة بطرابلس ط ا ص: 11/ خلاصة الأثر ج ا، ص: 170/الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ج ا ا ، ص: 302 / مجلة البحث العلمي والثراث الإسلامي، جامعة أم القرى مكة، العدد الرابع عام 1401/1981 ص: 641.

2-كفاية المحتاج: تحقيق مطيع ص: 461.

3-الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى ج 5 ص: 125.

4-نشر المثانى، القادري طبعة 1977 الرباط، ج 1 ص: 275.

ثالثا: نشأته وسيرته:

إذا قمنا بجولة في المصادر والمراجع التي ترجمت لأحمد بابا التنبكتي نستطيع أن نرصد بعض ملامح سيرته ونشأته. فنقول:

إن أحمد بابا تمبكتي المولد والمنشأ، وترعرع في جو أسرة إسلامية صرفة- تسودها الحشمة والأدب، والمحافظة على الشعائر الدينية، وجل أفرادها علماء- وفي بيئة مدينة تنبكت التي كانت مهد العلم ومبعث النور ومنهل العرفان في السودان الغربي.

وفي رحاب جامعات هذه المدينة المباركة التي «ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن[1]» تفتح عقله وذهنه على آفاق واسعة من الثقافة الإسلامية، واطلع على عدد وافر من الكتب والمصادر الهامة...

وزبدة القول: إن أحمد بابا نشأ نشأة صالحة، ولقي عناية كبيرة في تربيته وتعليمه من طرف أسرته التي أسبغت عليه رعايتها وحبها وعطفها وحنانها، لجده واجتهاده وذكائه ؛ فأصبح شخصية عبقرية فذة ظهرت عليها معالم النبوغ في وقت مبكر.

المطلب الثاني: معالم في مسيرته العلمية.

لقد بينا فيما سبق مولد أحمد بابا ونشأته وانتماءه إلى أسرة أقيت المشهورة، وسنبين في هذا المطلب بعض المعالم في مسيرته العلمية من خلال بعض ما يقول هو عن نفسه:

يقول أحمد بابا عن مسيرته العلمية:

«نشأت في طلب العلم فحفظت بعض الأمهات وقرأت النحو على عمي أبي بكر الشيخ الصالح، والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها على شيخنا العلامة بغيغ، ولازمته أكثر من عشر سنين فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه نحو ثمان مرات.

1-تاريخ السودان للسعدي، ص: 20

وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وتسهيل ابن مالك قراءة بحث وتدقيق، مدة ثلاث سنوات، وأصول السبكي بشرح المحلى ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين، وصغرى السنوسي وشرح الجزائرية له، وحكم ابن عطاء الله، مع شرح زروق لها، ونظم أبي مقرع، والهاشمية في التنجيم، مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلى في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف السبتي، وكثيرا من تحفة الحكام لابن عاصم مع شرحها لابنه، كلها بقراءتي.

وقرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه وحضرته في التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى والأقضية، وكثيرا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وشفاء عياض.

وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف، وسمعته بقراءته، وكذلك صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج ودروسا من الرسالة والألفية وغيرها.

وفسرت عليه القرآن العزيز إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا وهو في سفر كبير، ومواضيع أخرى منه.

وباحثته في المشكلات، وراجعته في المهمات وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه، وأوقفته على بعض تواليفي فسربه، وقرظ عليه بخطه بل كتب عني أشياء من أبحاثي وسمعته يقول بعضها في درسه لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين...» .[1]

هذا ما يتعلق بحديثه عن عمه وعن شيخه محمد بغيغ.

أما عن والده فقال: «... أخذت عن والدي الحديث سماعا والمنطق وقرأت عليه

1-نيل الابتهاج ص: 602/ كفاية المحتاج، ص: 436-435، وتاريخ السودان للسعدي، ص: 46-45. فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص: 32.
* يعنى على غيروالده وعمه وشيخه بغيع

الرسالة تفقها، ومقامات الحريري على غيرهم واشتهرت بين الطلبة بالمهارة على كلل ومهل في المطلب...».[1]

ولا شك أن هذه النصوص تكشف لنا جانبا مهما عن تكوينه العلمي، وعن تنوع المصادر التي اعتمد عليها في تغذية فكره ونمو مواهبه.

أما عن جلوسه للتدريس وإقبال الطلبة عليه، لما كان في مراكش فقال: «... ولما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها، أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه وكذا تسهيل ابن مالك وألفية العراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذا الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها. وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ علي قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن ابي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين وكذا قاضي مكناسة... ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم، وأفتيت فيها لفظا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر وقد قدم علينا مراكش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط...» .[2]

هذا عن جانب تدريسه ونشاطاته العلمية في مدينة مراكش وما لاقاه من ترحيب عند علمائها وطلبتها.

ويقول عما ألفه من الكتب: «... وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا ومن ذلك: شرحي على مختصرخليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محررا، وحواشي

1-كفاية المحتاج ص: 461/الإعلام بمن حل مراكش واغمات ص: 303-302.
2-كفاية المحتاج:ص: 462 - 463 / فتح الشكور ص: 34 - 35.

على مواضع منه، والحاشية المسماة منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين[1] ، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي وغيرها...».

أما عن حرصه على إكمال ما بدأه الأوائل والاستدراك عليهم ببعض ما فاتهم في مؤلفاتهم تتميما للفائدة فيقول في مقدمة كتابه نيل الابتهاج الذي يعتبر تكميلا لكتاب الديباج لابن فرحون: «فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه ببعض ما فاته، أو جاء بعده من الأئمة الأعيان، فقيدت فيه بحسب الإمكان، وذلك حين كنت ببلدنا البعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها من مدن العلم وكتب هذا الشأن، فقصر بي الحال مع قلة الكتب هناك وعدم مساعدة الزمان حتى تفضل من له الفضل وأحسن إلي من له الطول سبحانه بوصولي إلى منبع العلم في الديار المغربية... فرأيت أسباب السعادة بها متيسرة وأزمة الأماني فيها مبذولة غير متعسرة ونشدت الضالة، فرأيتها أقرب إلي من ظلي، وظفرت بما يكمل مرادي، ونلت أملي، فبادرت حينئذ إلى كتب ذلك الذيل مستبشرا بالطول والنيل، وقلت لنفسي: يا سعد جدى قد ظفرت بمقصدي، وذلك لأمرين:

أحدهما: أن إكمال ما شرع فيه من الخير سنة مأثورة.

والثاني: وهو المقصد السني إني رأيت حضرة من سمو الآمال لسدة بابه، وتسعى الخلق لخدمة ركابه، ملك المغربين بالأسل والنصال... فأردت أن أخدم خزانته الشريفة المشتملة على الطم والرم من كتب العلم، أهديته وإن كنت في صنعي كجالب تمر إلى هجر، أو قارض شعر لدى آل مضر...» .[2]

على أن هذا النص يدل دلالة واضحة على مدى حرص أحمد بابا على تكميل ما بدأه الأسلاف تتميما للفائدة، واهتمامه بالعلم ونشره؛ ولذا قال عنه المراكشي

1-ذكر هذه الكلمة في الكفاية في الكتاب الأول حيث قال: «... من أول الزكاة إلى أثناء النكاح في سفرين ممزوجا محررا» بينما في الاعلام وغيره، كلمة السفرين ورد بعد منن الرب الجليل، وهذا أقرب إلى الصواب؛ لأن منن الرب بدأ من الذكاة إلى آخر الكتاب أقرب أن يكون في سفرين من الشرح الذي بدأ من الزكاة إلى النكاح.
يراجع كفاية المحتاج، ص: 461 / الأعلام للمراكشي ص: 303 - 304.

2-احمد بابا التمبكتي منشورات الإيسيسكو ص: 85 - 86.

في إعلامه: «كان رحمه الله دؤوبا على نشر العلم معتنيا بالمطالعة حريصا على التأليف...».[1]

وزبدة القول: إن أحمد بابا التنبكتي كان علامة مشاركا، درس في مدينة تنبكت ثم انتقل إلى مراكش إثر مشكلة بين الدولة الأسكية والدولة السعدية، ولما استقر بمراكش طاب مقامه بها فتردد على العلماء وتردد عليه العلماء، معلما ومجيزا، فأفاد واستفاد، وألف عشرات الكتب التي ما زالت مخطوطة في عدة خزائن مغربية كما سيأتي.

فالمغرب يحتضن تراثه الكبير الذي هو في الواقع تعبير عن مدى عمق الثقافة الإسلامية وتغلغلها في البلاد الإفريقية، ومدى أثرها في خلق كل ما من شأنه أن يحفظ كرامة الإنسان وحريته وطاقته الإبداعية[2] .

المطلب الثالث: ثناء العلماء عليه ووفاته:

كان أحمد بابا فقيها متضلعا، وعالي الكعب في الفقه المالكي، وعالما مشاركا في عدة فنون من العلوم، وموسوعة أحاطت بجل الكتب الرائجة في عصره، الأمر الذي جعل معاصريه يعترفون له بالفضل والمكانة العلمية.

1 - مكانته وثناء العلماء عليه:

حظي أحمد بابا بتقدير العلماء، الذين عاصروه ومن بعدهم؛ لغزارة علمه وتمكنه من الفقه المالكي، الذي أخلص له كل الإخلاص شرحا وتدريسا وإفتاء وتأليفا...

ولعل أحسن ما يجلي مكانته هذه، ثناء علماء عصره عليه، واعتماد الذين جاءوا بعده على مؤلفاته وأقواله.

ولنذكر قليلا من عبارات العلماء الذين عاصروه أو قاربوه أو جاءوا بعده ممن أثنوا عليه:

1-الاعلام للمراكشي ص: 305

2-يراجع: الدكتور عبد الهادي بو طالب مختارات من خطبه وكلماته، الطبعة الثانية 1431/2010 منشورات إيسيسكو، ص: 224.

- قال فيه تلميذه وصاحبه ابن يعقوب المراكشي: «كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام، الحسن، حسن التصريف، كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية وأصولا وتاريخا، مليح الاهتداء لمقاصد الناس، ساهرا على التقييد والمطالعة، مطبوعا على التأليف ألف تآليف مفيدة جامعة، فيها أبحاث عقليات ونقليات... كان من أوعية العلم.» .[1]

- وقال عنه تلميذه وصاحبه الحاج أحمد التواتي: «عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة المقبول، الفاضل، الفهامة...» .[2]

- أما أحمد المقري فقال عنه: «الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم، الطائر الصيت... له يد طولى في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك وكذا في علوم الحديث مع المشاركة التامة في غيره...» .[3]

- وقال عنه تلميذه السعدي: «الفقيه، العالم، العلامة، فريد دهره ووحيد عصره، البارع في كل فن من فنون العلم... فاق جميع معاصريه ... اشتهر في الغرب أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى[4]» .

- وقال عنه القادري: «... نفع الله به هذا القطر المغربي وحُمل منه علم غزير، واستُفيد ما عنده من التحقيق والتحرير وقد اشتهر فيه اشتهار أهله وتحققت فيه مكانة قدره وفضله...» .[5]

وإلى جانب ثناء العلماء عليه هناك مظهر آخر يبرز مكانته وقيمة آثاره العلمية، ويتجلى في اعتماد الذين جاءوا بعده على كتبه، واستشهادهم بأقواله المبثوثة في ثنايا مختلف مؤلفاته.

1-فتح الشكور ص: 33 / نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج ا ص: 272/ الإعلام للمراكشي ج II ص: 304.

2-فتح الشكور ص: 33.

3-روضة الآس ص: 303،314

4-تاريخ السودان، ص: 35.

5-نشر المثاني، ج ا ، ص: 275.

وقد نقل عنه علماء سوس كثيرا، ومن رجع إلى فتاوى علماء جزولة يظهر له هذا الأمر واضحا.

ولا مراء أن كثرة الثناء على أحمد بابا من طرف معاصريه ومن بعدهم يعد شهادة عظيمة واعترافهم له بفضله ومكانته.

كما أن الاهتمام ببعض كتبه وتناولها بالشرح والتذييل والطبع، غني عن كل تعليق في بيان أهميتها وقيمتها العلمية، مثل كتابه «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» في التراجم و«منن الرب الجليل» في شرح المختصر التي حظيت أو استأثرت باهتمام الدارسين في مختلف العصور.

2 - وفاته:

بعدما أفرج عنه من الإقامة الجبرية في مراكش، جلس أحمد بابا يدرس في أنوه جوامع مراكش وظل في ذلك سنوات ثم رجع إلى مدينته تنبكت، فواصل نشاطه العلمي، وتفرغ لمهمة التدريس والفتوى، والتأليف، وظل يربي النشء تربية صحيحة، ويساهم في حل مشكلات مجتمعه على ضوء الكتاب والسنة، وأقوال العلماء السابقين، في إطار الفقه المالكي، ويراسل علماء عصره في كل المستجدات والمعضلات، وبقي في هذا النشاط العلمي الجليل إلى أن فارق الحياة يوم 6 شعبان عام 1036هـ الموافق لـ 22 أبريل 1627م عن سن تناهز إحدى وسبعين سنة رحمه الله رحمة واسعة بعد أن كوّن أجيالا كثيرة ومشاهير من العلماء، حملوا رايته بعده ونشروا علمه بين الأوساط العلمية.

لقد توفي رحمه الله، لكن أقواله لازالت حية تقرع الأذان، ويتردد صداها في كل حين، إنه عالم حقا يستحق الذكر والتنويه والتدريس والتكريم.

وصفوة القول: إن أحمد بابا ولد في مدينة تنبكت التي كانت تمثل رمز الحضارة الإسلامية ومجدها، ومهد العلوم الإسلامية في القرن العاشر الهجري بالسودان الغربي وتربى تربية دينية، ونشأ نشأة علمية في جو أسرة علمية لها السيادة والرئاسة

والقضاء في السودان الغربي، الأمر الذي ساعده على أن يتفرغ للعلم منذ صغره إلى ريعان شبابه دون أن يفكر في عناء العيش ومشقته.

وقد بقي أحمد بابا في طلب العلم، وبذل فيه جميع أوقاته، ووهب له حياته حتى أصبح من أكبر العلماء في مدينته.

وتشاء الأقدار أن تحصل مشكلة بين الدولة السعدية والأسكية فنفي أحمد بابا إثرها إلى مراكش، وفرض عليه الإقامة الإجبارية. وأثناء هذه المرحلة الحاسمة انهالت عليه الكتب النادرة فعكف عليها، هضما وقضما.

وبعد مدة بدأ يؤلف ما جادت به قريحته من الأفكار فأنتج عدة مؤلفات في ميادين مختلفة تدل على غزارة علمه وسعة ثقافته، ودقته في التصنيف والتأليف.

ولما أفرج عنه جلس للتدريس فهرع إليه الطلبة والعلماء، يأخذون عنه، من كل حدب وصوب، فذاع صيته غربا وشرقا، وبقي في هذا النشاط العلمي الجليل في مدينة مراكش إلى أن رجع إلى السودان، فواصل في تكوين النشء والأجيال إلى أن فارق الحياة 1036هـ- كما سبق- بعد ما ترك وراءه تلاميذ، نبغ كثير منهم، وواصلوا حمل رايته وتبليغ رسالته في خدمة الثقافة العربية الإسلامية عامة والمذهب المالكي خاصة.

ومن الجدير بالتنبيه أن في عصر أحمد بابا التنبكتي «كانت إفريقيا مجالا لعبث المستعمرين الذين كانوا يهاجمون سكانها الأبرياء يروعونهم بأصوات المدافع وقعقعة السلاسل ويحملونهم مكرهين إلى أمريكا الشمالية وغيرها من البلاد الأروبية. وفي الوقت الذي كان المفكرون الغربيون يتنكرون للحضارة الإفريقية ويزعمون أنها قارة بدون حضارة وبدون تاريخ كان صوت أحمد بابا التمبكتي صارخا في مؤلفاته الكثيرة التي ما يزال غالبها مخطوطا يتحدث عن حرية الإنسان والمساواة، وعن تاريخ إفريقيا الحضاري وأمجادها التاريخية.فكان هذا التعبير في الواقع هو الجواب الصادق للتصرفات الاستعمارية الفاقدة للحاسة الإنسانية[1]» .

1-الدكتور عبد الهادي بوطالب: مختارات من خطبه وكلماته ص:224

المبحث الثاني: جهوده في خدمة المذهب المالكي

يعتبر أحمد بابا عَلَماً من أعلام الفقه المالكي في القرن العاشر الهجري بالغرب الإسلامي، لما بذله من جهود في ترسيخ الفقه المالكي في المجتمع، سواء في المغرب أو في السودان الغربي.

وتتجلى جهوده في الفقه المالكي من خلال إنتاجاته الفكرية من مؤلفات وفتاوي في إطار الفقه المالكي الذي ظل يدافع عنه بقلمه ولسانه إلى أن فارق الحياة.

الأمر الذي خلد ذكره في سجل تاريخ علماء الفقه المالكي في الغرب الإسلامي عامة وفي السودان الغربي خاصة.

وتتجلى جهوده في خدمة المذهب المالكي في الأمور الآتية:

المطلب الأول- النواحي التي تظهر فيها جهوده في خدمة المذهب المالكي:

إن الباحث المتمعن لما تركه أحمد بابا من آثار يجد أن جهوده تتجلى أساسا في مؤلفاته وفتاويه التي عالج بها القضايا التي كانت تروج في عصره، ليحل مشاكل مجتمعه، ويصحح بعض المفاهيم الفاسدة الرائجة في زمنه على ضوء المذهب المالكي.

وقد تركزت جهوده في مصنفاته، على تتميم ما رآه ناقصا من أعمال سابقيه، وشرح ما رآه غامضا من مؤلفاتهم، واختصار ما ظهر له طويلا، وجمع ما يبدو له متفرقا ليسهل استيعابه للدارسين، وحل بعض القضايا الرائجة في عصره.

إن هذا النهج الذي سلكه أحمد بابا في مؤلفاته هو الذي اشترطه العلماء في التأليف، وعدوا الخروج عنه في التأليف ضربا من العبث، وعملا بلا فائدة.

وقد أكد ابن خلدون هذا الأمر، حين تحدث عن أقسام التأليف بقوله:»إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة...».

إلى أن قال: «... فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها. وما سوى ذلك، ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء...».[1]

وقد نقل أحمد بابا هذه المقاصد التي ذكرها ابن خلدون عن ابن حزم فقال: «قال ابن حزم وغيره: أقسام التأليف سبعة، لا يؤلف عاقل إلا في أحدها: إما بشيء لم يسبق إليه يخترعه، أو ناقص يتممه، أو مستغلق يبينه، أو طويل يختصره دون إخلال بمعانيه أو مفترق يجمعه، أو مختلط يرتبه، أو خطأ يصلحه...» .

وزاد حاجي خليفة بعد سرده هذه المقاصد قائلا:»... وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شيء كان معضلا أو جمعه إن كان مفرقا، أو شرحه إن كان غامضا، أو حسن نظم وتأليف أو إسقاط حشو وتطويل.

وشرط في التأليف إتمام الغرض الذي وضع الكتاب لأجله من غير زيادة ولا نقص وهجر اللفظ الغريب وأنواع المجاز... وزاد المتأخرون اشتراط حسن الترتيب ووجازة اللفظ ووضوح الدلالة، وينبغي أن يكون مسوقا على حسب إدراك أهل الزمان وبمقتضى ما تدعوهم إليه الحاجة[2]...» .

فهذه هي الأغراض أو المقاصد التي ينبغي أن يدور التأليف حولها، والشروط التي ينبغي، أو يستحسن للمؤلف أن يراعيها ويضعها نصب عينيه عند التأليف.

وإذا قمنا بإحصاء لجميع مؤلفات أحمد بابا الموجودة والمفقودة- التي لم يبق إلا عناوينها- نجد أنها لا تخرج عن هذه الأغراض، والضوابط التي وضعها العلماء للتأليف. الأمر الذي يدل ويؤكد على أن جهود أحمد بابا في خدمة الفقه المالكي جهود مشكورة ينبغي العناية بها وإخراجها من الرفوف إلى حيز الوجود.

1-يراجع: تاريخ ابن خلدون، ج 1 ص: 1026. 1028. الطبعة الثالثة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1967.

2-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة ج 1 ص: 35. 36.

ولنبين ما قلنا حول جهوده في التأليف بإعطاء أمثلة:

فكتاباه «نيل الابتهاج» و «كفاية المحتاج» يعتبران من أهم ما كتب في تاريخ الفقه المالكي في القرون المتأخرة. فعمله في هذين الكتابين تتميم لما قام به ابن فرحون في «الديباج المذهب».

وقد نوه بهما كثير من العلماء، بل عُدّا من أهم ما كتب في تراجم العلماء المالكية في القرن الحادي عشر.

وقد جاء في مقدمة نيل الابتهاج . وهو يبين، يعني أحمد بابا، دوافعه في تأليفه، وقيمته العلمية . «... لما كان علم التاريخ ومعرفة الأئمة من علماء الملة من الأمور العلية، يعتني به كل ذي همة زكية. إذ هم نقلة الدين وحملة الشريعة المحمدية، وبه يتميز الصالح من الطالح والمسخوط من المقبول... اعتنى الأئمة قديما وحديثا بالوضع فيها على أنحاء متفاوتة وأضرب متباينة... وكان ممن سعى في ذلك من أهل مذهبنا المالكية سعيا حثيثا... الإمام الكامل الجليل الفاضل أبو عياض...ثم تبعه جماعة اختصروا من مداركه بعض ما تيسر كابن حماد... وغيرهم من فضلاء الأعيان. ثم جاء العلامة الحافظ القدوة أبو اسحاق إبراهيم بن فرحون... فقطف من كلامه بعض ما ذكر، واستدرك عليه جماعة ممن عنه تأخر... فهو وإن لم يوف من ذلك مطلوب الغرض، فلقد قام ببعض الحق المفترض...

«فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه ببعض ما فاته، أوجاء بعده من الأئمة الأعيان، فقيدت فيه بحسب الإمكان...».[1]

«...هذا مع أن المجتهد في هذا الغرض مقصر، والمطيل مختصر. إذ ما يذكر أقل من معشار ما يغفل وما ينقل لا نسبة بينه وبين ما يجهل فبحار العلم مسجورة وغايات الإحسان على الإنسان مهجورة. وحسبك في صعوبة الحال، أنا لم نجد أحدا تعرض لجمع ذلك بعد ابن فرحون أو تصدى لذلك في جد أو مجون، إلا رجلا واحدا من أهل العصر ذكر في مجموع نحو ثلاثمائة رجل بيض لتراجم جماعة منهم، لم يجد لمعرفتهم

1-احمد بابا التمبكتي منشورات الإيسيسكو ص: 85 - 86.

سبيلا ولا ذكر من حالهم كثيرا ولا قليلا، مع أنه من أهل مصر والقاهرة، وله حظ من الرئاسة الظاهرة وعنده من الكتب على ما قيل ما لا يحصى لما ناله من السعادة الباهرة، وقديما قيل: نعم العون على العلم الرياسة... ولولا فضل المولى ذي الفضل ولإحسان... ما جمعت في هذه الكراريس ما تيسر لي ممن ليس في ديباج ابن فرحون مذكورة. وزدت في بعض تراجم ما ذكره ما ترك من أوصافه المشكورة...» .[1]

أما كتابه «المقصد الكفيل»، و «منن الرب الجليل ببيان مهمات خليل»، فهما شرحان لمختصر خليل الذي شغل الدنيا وملأها.

ويعد هذا المختصر من أهم المختصرات التي وجدت قبولا منقطع النظير من طرف علماء المالكية في العصور المتأخرة،ولذلك حظى باهتمام أحمد بابا، فتناوله بالشرح والتعليق.

وقد جاء في ترجمته لخليل في كتابه «نيل الابتهاج»، وهو يبين قيمة شرحه الذي وضعه على مختصر خليل «... وقد يسر الله تعالى لي في وضع شرح عليه جمعت فيه لباب كلام من وقفت عليه من شراحه وهم أزيد من عشر مع الاختصار والاعتناء بتقرير ألفاظه: منطوقا ومفهوما وتنزيله على النقول بحيث لو كمل لما احتيج، غالبا، إلى غيره...».[2]

ويعد شرحه هذا من الشروح المعتمدة عند المتأخرين عنه، في المذهب المالكي.[3]

كما وضع عليه مجموعة من الرسائل،تناول فيها بعض الإشكالات الموجودة في مختصر خليل، وبيان بعض التناقضات الحاصلة بين أقوال خليل.

وبهذا يشير حين تحدث عن المختصر وشروحه بقوله:»وكتبت أيضا تحريرات ونكتا على كثير من مشكلاته...» .[4]

1-يراجع نيل الابتهاج على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ص: 4. 22، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، بدون تاريخ.

2-نفسه، ص:171. 172.

3-يراجع: العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل: الملك مولاي عبد الحفيظ ص: 64. 65 مطبعة احمد يمنى. فاس سنة 1326/ الإختلاف الفقهي في المذهب المالكي: مصطلحاته واسبابه: عبد العزيز بن صالح الخليفي ص: 227 ، المطبعة الأهلية قطر، الطبعة الأولى 1993/1414.

4-يراجع: نيل الابتهاج ص: 171. 172.

أما كتابه ترتيب جامع المعيار للونشريسي، فعنوانه يدل على أنه أراد أن يرتبه ترتيبا جيدا، ويبوبه تبويبا حسنا، ليسهل تناوله للذين يأتون بعده، ومما يؤسف له أن هذا الكتاب في عدد كتبه المفقودة، ولم يتم العثور عليه حتى الآن.

أما مصنفه اللآلي السندسية فهو مختصر للمواهب القدسية للملالي، حاول أن يلخصه لما رأى فيه من التطويل والحشو ليستفيد منه الدارسون.

أما ما صنفه في الفتوى مثل: «جوابه عن القوانين العرفية»، ومعراج الصعود» و»اللمغ في حكم تبغ» وغيرها من الفتاوي، فهي كلها، كانت تتناول مسائل مثيرة بحدة في عصره. فحاول أن يدلي فيها بدلوه ليجد حلا لها، إذ هو من المستفتين الذين يستفتون في المسائل، ويعتد بأقوالهم. بل وأكثر من هذا، يوجه إليه المسائل العويصة في غالب الأحيان قبل غيره.

وهكذا يمكن القول: بأن جل مؤلفاته في دائرة ما يعد مساهمة وإضافة مهمة في صرح الحضارة الإسلامية، وعملا معتبرا في التأليف؛ لأنها استطاعت أن تستجيب لكثير من القضايا المثارة، وأن تسد فراغا في وقته.

ولا شك أن هذا هو المطلوب من أي عالم، ولا يطلب منه أكثر من هذا، ويبقى التفاضل في مقدار ما قدم من الجهود وقيمتها.

هذا ومن الجدير بالذكر أن أحمد بابا وإن كانت مؤلفاته في الغالب تدور حول المقاصد التي وضعها العلماء للتأليف، فإنه لا يتفق مع التصور القائل: بأن التأليف إذا لم يشتمل إلاّ على نقل ما في الكتب، بدون فائدة زائدة، فهو تخسير للكاغد، بل فلسفته في التأليف أكبر من هذا، حيث يرى أن إحياء النصوص القديمة والغريبة، وبعثها في الوجود من الأمور المهمة أيضا ولذا قال: «... ورب تأليف يجمع من غرائب النقول التي لا يكاد يطلع عليها غير مؤلفه غالبا، أفيد من كثير من التآليف التي فيها زوائد من مؤلفه ككثير من تواليف الجلال السيوطي، لما اشتملت عليه من نقول وفوائد لا يكاد يطلع عليها غيره رحمه الله تعالى...» .[1]

1-يراجع: تحفة الفضلاء ص: 34.

وهكذا تظهر لنا فلسفته في التأليف، فالتأليف عنده لا يقتصر فقط على إتيان شيء زائد على ما في الكتب السابقة بل يشمل أيضا جلب نصوص ونقول غريبة أو قديمة، وقد يكون هذا النوع أفيد من النوع الأول، إذ إحياؤها وبعثها في الوجود قد يلهم عقول المفكرين لبناء فكرة جديدة وصائبة.

وبهذا تتضح جليا جهود أحمد بابا في خدمة الفقه المالكي وتاريخه.

على أن هذا العمل الذي قدمه للفقه المالكي وتاريخه خاصة والثقافة الإسلامية بصفة عامة. وإن كان ليست فيه نزعة التجديد والابتكار والاستقلال، فإن جميع العلماء المنصفين يعترفون بفضله وقيمة عمله وينوهون به.

ولسنا نبالغ إذا قلنا: لو لم يكن له في المذهب المالكي إلا كتبه الأربعة، «نيل الابتهاج»، و «كفاية المحتاج»، و «المقصد الكفيل»، و «منن الرب الجليل» لكفته فخرا؛ لأن هذه الكتب وجدت إقبالا كبيرا لدى المتأخرين الذين جاءوا بعد أحمد بابا في المذهب المالكي.

ومما تنبغي الإشارة إليه أيضا أن هذا العمل الذي قام به أحمد بابا، لم يكن ابن بجدته وأبا عذرته، بل استقاه من أعمال سابقيه، ثم استدرك عليهم.

وكأنّ العلامة أحمد بابا . وهو يكر على أعمال سابقيه بالاستدراك والتتميم والتصحيح والشرح والاختصار- يتمثل بقول الجويني: «... السابق وإن كان له حق الوضع والتأسيس والتأصيل فللمتأخر الناقد التتميم والتكميل. وكل موضوع على الافتتاح قد يتطرق إلى مبادئه بعض التثبيج ثم يتدرج المتأخر إلى التهذيب والتكميل فيكون المتأخر أحق أن يتبع لجمعه المذاهب إلى ما حصل السابق تأصيله، وهذا واضح في الحرف والصناعات فضلا عن العلوم ومسالك الظنون، وهذه الطريقة يقبلها كل منصف وليس فيها تعرض لنقض مرتبة إمام...» .[1]

1-يراجع: البرهان في أصول الفقه: الجويني ج 2 ص: 1147 حققه وقدمه د عبد العظيم الديب الطبعة الثالثة 1400 هـ دار الانصار القاهرة.

فهذا يعني أن المتأخر لا ينبغي أن يقف تجاه أعمال السابقين موقف المتفرج، العادي الساذج، بل عليه أن ينظر إليها نظرة الناقد الموضوعي، الثاقب النظر، الفاحص المتمعن. يستدرك على ما فات الأوائل، ويتمم ما بدأه الأسلاف، ويصحح ما لابد من تصحيحه، وبذلك يكون قد قام بواجبه، وأوفى بما ينبغي الوفاء به، فاستحق أن يخلد ذكره.

وهذا ما قام به أحمد بابا، فهو استفاد ممن سبقوه ثم كر عليهم بالاستدراك والشرح والتصحيح...

الأمر الذي يعني أن أحمد بابا قد أخذ وقلد ثم أعطى وأبدع وهذا هو المطلوب.

المطلب الثاني: مؤلفاته

يمتاز أحمد بابا، بأنه عالم مشارك في عدة فنون من العلم ؛ ولهذا ترك عدة مصنفات في شتى العلوم. ومن هذه المؤلفات ما هو موجود، ومنها ما هو مفقود، وما زالت الأبحاث جارية للعثور عليها في الخزانات المختلفة في أنحاء العالم.وسنذكر في هذا المطلب مؤلفاته الفقهية فقط التي أسهم بها في خدمة الثقافة العربية الإسلامية بصفة عامة والمذهب المالكي بصفة خاصة.

أولا: مؤلفاته الموجودة وأماكن وجودها[1]

1 . إرشاد الواقف لمعنى «وخصصت نية الحالف».

هذه الرسالة مختصرة لتنبيه الواقف الذي سيأتي ذكره، وتوجد عدة نسخ من هذه الرسالة في المغرب، كما أنها طبعت بطبعة حجرية بفاس 1307هـ وتوجد هذه الرسالة في الخزانات المغربية، وغيرها تحت الأرقام التالية: خ ح: 9615/ خ.ع: 470 ك مع مجموعة.

وتجدر الإشارة إلى أنه توجد في الخزانة العامة عدد نسخ من هذا المخطوط/خ.ت: 2999/ م أ ت: 773.

1-سنرمز للخزائن التي توجد فيها كتب أحمد بابا بالرموز التالية: خ ح = الخزانة الحسنية (الملكية)، خ ع = الخزانة العامة بالرباط، خ ت = خزانة تمكروت (الزاوية الناصرية)، م أ ت = مركز أحمد بابا بتنبكتو، م ع ف = خزانة مؤسسة علال الفاسي الرباط، د ك و= دار الكتب الوطنية تونس، خ ص = الخزانة الصبيحية، سلا.، م و= المكتبة الوطنية بالجزائر.

2. أسئلة في المشكلات:

هذا المؤلف عبارة عن عدة مسائل استشكلها أحمد بابا في مواضع من مختصر خليل وابن الحاجب، فأرسل إلى سالم السنهوري وغيره من علماء مصر يطلب منهم بيان آرائهم فيما يقول في هذه المواضع المستشكلة.

ويبدو أن هذا المؤلف هو المسمى أيضا: «تعليق على مواضيع من خليل ومواضيع من ابن الحاجب». وتوجد نسخة منه في خ. ع: 470 ك مع مجموعة، وهذه النسخة هي الوحيدة المعروفة حتى الآن.

3. إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع أو النكت اللوامع في مسألة النكاح بالمنافع.

هذه الرسالة طبعت بطبعة حجرية بفاس 1307هـ. وتوجد أيضا عدة نسخ منها في الخزائن تحت الأرقام التالية: خ ح: 9016، 9615/خ.ع: 470 ك/ خ ت: 2999/ م أ ت: 773.

4. أنفس الأعلاق بفتح الاستغلاف من فهم كلام خليل في درك الصداق، أو «نفيس الأعلاق بفتح الاستغلاق من كلام خليل في درك الصداق»، طبعت هذه الرسالة بطبعة حجرية بفاس 1307هـ. وتوجد أيضا عدة نسخ منها: خ ح: 9615، 7745/ خ ت: 2999، 2538/ م أ ت: 773/ خ ع: 470 ك.

5. إيضاح السبيل على توضيح ألفاظ خليل 1 توجد نسخة منه في: م أ ت: 629.

6. تعليق على مواضع من ابن الحاجب

توجد هذه الرسالة ضمن أسئلة في المشكلات التي ذكرنا سابقا تحت رقم: خ ع: 470ك.

7. تنبيه الواقف على تحقيق وخصصت نية الحالف أو تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف».

اختصر هذه الرسالة في إرشاد الواقف، وتوجد عدة نسخ منها: خ ح: 9226 ب/خ ع:

1-هذا الكتاب منسوب إلى أحمد بابا، لكنه بعد الاطلاع عليه وإجالة النظر فيه، تبين لي أنه ليس له ولعله لسوداني آخر والله أعلم.

930 ق، 2623 د/ خ ت: 2538/خ ص: 359.

8. جواب عن ثلاث اسئلة: توجد نسخة منها بالمكتبة الوطنية بالجزائر ضمن مجموعة تحت رقم532 (10).

9. جواب عن القوانين العرفية التي تعارف عليها بعض سكان الجبال1. توجد عدة نسخ منها: خ ح: 5813/ خ ع: 1016ج، 3693 د في الفوائد الجمة من ص: 442. 445.

10. رسالة في التحذير من قرب الظلمة ومصاحبتهم.

يبدو أن هذا الكتاب هو أول ما كتبه أحمد بابا في الموضوع ثم نقحه وزاد عليه بعض المسائل ووضع له عنوان: جلب النعمة أو ما رواه الرواة.

11. الزند الوري في مسألة تخيير المشتري» أو تعليق على قول خليل في أواخر الخيار وخير المشتري».

توجد عدة نسخ منها: خ ح: 9615/ خ ع: 470 ك/خ ت: 2538 (5)، 2999 (10) م أ ت: 773.

12. فتح الرزاق في مسالة الشك في الطلاق:

طبعت بطبعة حجرية بفاس 1307 وتوجد عدة نسخ مخطوطة منها: خ ح: 9615/ خ ع: 3848 ك، 470 ك/خ ت: 2999 (12)، 2538 (4)/ م أ ت: 773.

13. الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان. أو معراج الصعود لنيل مجلوب السود. أو معراج الصعود الى نيل حكم مجلب السود[2].

توجد عدة نسخ من هذا المخطوط في: خ ح: 5779، 3565، 7248، خ ع: ج 100، 194د، 478 د، 1079د، 1724 د، 725 ق/ م أ ت 25/ الخزانة الوطنية بباريس: Ara 5259.

2-توجد نسخة مرقونة مع رسالة سامي سعيد لنيل د.د.ع. وقام معهد الدراسات الأفريقية بالرباط بطبعه

14. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج

هذا الكتاب حققه محمد مطيع لنيل د.د.ع. والرسالة[1] مرقونة بكلية الآداب بالرباط تحت رقم: 172،922 مطيع، وقد طبعته وزارة الأوقاف بالمغرب.

وتوجد عدة نسخ مخطوطة منها: خ ح: 1457،681 ز، 3029،453/ خ ع: 2223، 2390 ك، 109 ج/ م ع ف: ع 356/ د ك و: 9300.

15. اللمغ في الإشارة لحكم تبغ: توجد نسخ في: خ ح: 3627ز، 12471، 100مع نص الأصليت ص: 270. 290/ خ ت: 2999 (6).

16. اللمعة في أجوبة المسائل الأربع في كتب البسملة وما معه توجد نسخة في: م أ ت: 1102/ المكتبة الوطنية بالجزائر: 532 (9).

17. مسائل إلى علماء مصر.

توجد نسخة في: الخزانة الوطنية بباريس Arabe 5382 وهي النسخة الوحيدة المعروفة حتى الآن.

18. منن الرب الجليل ببيان ميهمات خليل:

توجد عدة نسخ منه في الخزائن المغربية منها: خ ح: 4468، 11226، 4975/ خزانة الجامع الكبير بمكناس: 26/خ ت: 543، 348، 391./ وتوجد نسخة منها أيضا في م أ ت تحت رقم 5661 بعنوان: منح الجليل على مختصر خليل2.

19. نيل الابتهاج بتطريز الديباج أو: نيل الابتهاج بالذيل على الديباج.

اختصر هذا الكتاب في كفاية المحتاج. طبع هذا الكتاب عدة مرات. وآخر هذه الطبعات الطبعة التي نشرها كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس 1989م.

توجد عدة نسخ مخطوطة منها: خ ح: 99 (4)، 1896، 2139، 1274، 2358، 4206، 3302/خ ع:766د، 394 د، 610 ج، 394 ق.

1-هذه الرسالة طبعته وزارة الأوقاف بالمغرب

2-يبدو أن هناك طلابا في دار الحديث الحسنية يقومون بتحقيقه

ثانيا: مؤلفاته المفقودة:

بعد أن رأينا مؤلفات أحمد بابا الفقهية الموجودة في مختلف الخزائن في أنحاء العالم. سنتناول في هذا الفرع مؤلفاته الفقهية المفقودة، التي وردت عناوينها في ثنايا مؤلفاته وكتابات من ترجموا له. وسنكتفي بذكر عنوان المؤلف وبعض مصادر وروده.

1. أجوبة على الأسئلة المصرية: مذكور في فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور.

2. ترتيب جامع المعيار للونشريسي مع الزوائد عليه. مذكور في: كفاية المحتاج ص: 462/ روضة الآس ص: 305 نشر المثانى ج ا ص: 272/ خلاصة الأثر ج ا ص: 171/ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص: 36.

3. تعاليق وطرر شيخه محمد بغيغ. مذكور في نيل الابتهاج في ترجمة محمد بغيغ ص 603.

4. درر الوشاح بفوائد النكاح، وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي.

مذكور في كفاية المحتاج ص: 461/ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص: 36/ الأعلام بمن حل مراكش وأغمات ج II ص 304/ نشر المثانى ج ا ص: 270.

5. فوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح

ذهب الأستاذ فراج سالم عطا في مقالته في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي: العدد الرابع عام 1401هـ، ص: 657، نقلا عن خلاصة الأثر إلى أن هذا المؤلف مستقل. ويظهر لنا أن هذا وهم، فهذا الكتاب هو درر الوشاح، وليس مؤلفا مستقلا. ولعل صاحب خلاصة الاثر نسي ان يزيد «درر الوشاح» أو أن الخطأ وقع في النسخ.

والمهم أن فوائد النكاح ليس كتابا مستقلا بل هو نفس كتاب درر الوشاح، لا فرق بينهما والله أعلم.

6. القول المنيف في ترجمة الإمام عبد الله الشريف

مذكور في نيل الابتهاج في ترجمة محمد بن أحمد المعروف بالشريف التلمساني ص: 432.

7. المقصد الكفيل بحل مقفل خليل أو المقصد الكفيل بتحرير فتاوى خليل وهذا الكتاب شرح لمختصر خليل من أول الزكاة إلى النكاح.

مذكور في كفاية المحتاج ص: 461.

تنبيه الواقف ص: 9/ روضة الآس ص: 303/ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات ج II ص 304/ فتح الشكور ص: 35/ خلاصة الاثر ج I ص 171/ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج I ص: 271.

وباختصار- بعد هذه الجولة السريعة في سرد مؤلفات العلامة أحمد بابا التنبكتي التي أسهم بها في خدمة المذهب المالكي- يظهر لنا أن آثاره الناطقة بيننا تدل على غزارة علمه وسعة ثقافته، وكثرة تصانيفه وتآليفه، وإحاطته بعلوم عديدة، وتأثيره على الفكر الإسلامي والتراث الحضاري.

وإن بعض آثاره قد ضاعت، لكن من حسن الحظ نص كثير من المترجمين له على بعض هذه المصنفات التي فقدت مع ما فقد من تراث الإسلام، فحفظوا لنا على الأقل أسماءها، أو عناوينها.

ويبقى لنا أمل كبير في العثور على بعض كتبه التي ضاعت في خزائن المكتبات ودور الكتب، وغرف المخطوطات العامة والخاصة في البلاد الإسلامية- وخاصة المغرب[1] - وفي مدن العالم أجمع.

1-تجدر الإشارة، إلى أنه توجد عدة مؤلفات لأحمد بابا في الخزانة العامة بالرباط بين المجامع، لكنها غير مفهرسة. ويظهر أنه لو تم إعادة فهرسة دقيقة لمخطوطات الخزانة العامة، لوجد ت فيها عدة كتب لأحمد بابا. والله أعلم.

خاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في شخصية أحمد بابا التنبكتي، وجهوده في خدمة المذهب المالكي، من خلال مؤلفاته المخطوطة والمطبوعة يمكن القول: بأن العلامة أحمد بابا التنبكتي يعتبر من أعظم علماء غرب أفريقيا شهرة في الغرب الإسلامي خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين، وأن جهوده في الفقه المالكي تظهر في عدة نواحي من مؤلفاته: استدراك ما فات سابقيه وإتمام ما يراه ناقصا وشرح ما يراه غامضا واختصار ما يظهر له طويلا، وترتيب ما يبدو له مفرقا، وإيجاد حل لبعض القضايا الفكرية الرائجة في عصره إلى غير ذلك من أغراض التأليف التي لا يعدم من الفائدة.

وأن العلامة أحمد بابا بجهوده هذه، قد خدم المذهب المالكي خدمة جليلة وملأ الساحة الفكرية تأليفا وتعليما وإفتاءا في مختلف الجوانب، فكان ظاهرة تستحق الدراسة.

وأخيرا وليس آخرا، فالعلامة أحمد بابا التنبكتي كما يظهر من مؤلفاته ودراساته ابن إفريقيا البار فقد درس في مسقط رأسه تنبكت وسجل لنا أسماء كثير من المفكرين الذين عرفتهم غرب القارة الإفريقية، معبرا عن تمسك إفريقيا بالقيم الإسلامية والدين الإسلامي، وضلاعتها باللغة العربية وآدابها. ولا غرو فإن القارة الإفريقية كانت البلاد التي دوى فيها صوت الإسلام منذ بدايته فكانت الهجرة إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة... وكانت نشأة المرابطين في حوض نهر النيجر وهم حماة الثقافة الإسلامية في الأندلس والغرب الإسلامي، ولم يكن أحمد بابا إلا ثمرة هذه الثقافة العريقة في إفريقيا، لم يلبث أن نماها بما كتبه من مؤلفات تربط بين المشرق والمغرب الإسلاميين. وكتابه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» إتمام لعمل ابن فرحون المشرقي «الديباج المذهب». وكل مؤلفاته في واقعها دعوة سلفية للحرية والمساواة والتكامل بين أجزاء العالم الإسلامي.

وقد ظلت هذه الشخصية تمد تاريخ إفريقيا المعاصر بروحها الإسلامية القويمة

والقوية معا. ففي غرب إفريقيا اليوم صحوة إسلامية تبدو في جامعاتها ومدارسها المتعددة وفي تمسكها بشخصيتها الإسلامية، وتمرسها باللغة العربية... فأحمد بابا التنبكتي السوداني موجود بروحه في هذه النهضة ورمز لاستمرارها[1].

وإن الآمال معقودة على مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة الفريدة من نوعها في الغرب الإسلامي؛ لإحياء تراث هذه الشخصيات الإسلامية التي ظلت أسماؤها تغالب التاريخ بما قدمته للإسلام من خدمات جلى في مختلف فنون المعرفة؛ فجزاهم الله عنا وعن الثقافة العربية الإسلامية، والفقه الإسلامي المالكي خيرا.

المصادر والمراجع:

- أحمد بابا التمبكتي: بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته، منشورات إيسيسكو.

- الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي: مصطلحاته وأسبابه، عبد العزيز بن صالح الخليفي المطبعة الأهلية قطر. الطبعة الأولى 1993م/1414هـ.

- إرشاد الواقف لمعنى وخصصت نية الحالف، مخطوط ورقمه: خ ح: 9615/ خ.ع: 470 ك مع مجموعة.

- أسئلة في المشكلات، مخطوط في الخزانة العامة مع مجموعة تحت رقم: 470 ك.

- إفهام السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع أو النكت اللوامع في مسألة النكاح بالمنافع، مخطوط في الخزانة العامة تحت رقم: 470 ك.

- العذب السلسبيل في حل ألفاظ خليل، الملك مولاي عبد الحفيظ، مطبعة أحمد يمني، فاس سنة 1326هـ.

1-يراجع: مختارات من خطبه وكلماته، للدكتور عبد الهادي بوطالب:،ص: 225-224

- أنفس الأعلاق بفتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق، طبعت هذه الرسالة بطبعة حجرية بفاس 1307هـ.

- البرهان في أصول الفقه، الجويني، حققه وقدمه د عبد العظيم الديب، الطبعة الثالثة 1400هـ. دار الأنصار، القاهرة.

- تاريخ ابن خلدون، الطبعة الثالثة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1967م.

-تاريخ السودان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، وقف على طبعه السيد هوداس، طبعة 1981م، باريس.

- تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، أحمد بابا التنبكتي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

- تنبيه الواقف على تحقيق وخصصت نية الحالف أو تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف، مخطوط في الخزانة الحسنية تحت رقم: 9226 ب.

- جواب عن القوانين العرفية التي تعارف عليها بعض سكان الجبال، مخطوط في الخزانة العامة تحت رقم: 1016ج.

- الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن الثامن إلى القرن الثالث الهجري، للدكتور عبد الرحمن محمد ميغا، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1432هـ/2011م.

- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله المحبي، مكتبة خياط، بيروت لبنان.

- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد المقري، الطبعة الثانية 1983م/1403هـ، المطبعة الملكية – الرباط.

- الزند الوري في مسألة تخيير المشتري، مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم: 9615.

- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، لأبي عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1981م.

- الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم: 100، 194د.

- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1421هـ/2000م.

- اللمغ في الإشارة لحكم تبغ، مخطوط في خ ح: 3627 ز.

- مختارات من خطب وكلمات الدكتور عبد الهادي بوطالب، الطبعة الثانية 2010م/1431هـ، منشورات إيسيسكو.

- منن الرب الجليل ببيان مبهمات خليل، مخطوط بالخزانة الحسنية تحت: 4468، 11226، 4975.

- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق: محمد حجي وأحمد توفيق، طبعة 1978م/1398هـ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

-نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى 1398هـ/1989م.

جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذاهب الفقهية: "علماء رواندا نموذجا"

مجموعة من العلماء
أعضاء فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة برواندا[1].

أولا: لمحة تاريخية عن الإسلام في رواندا

1. الموقع الجغرافي

رواندا هي إحدى دول القارة الإفريقية التي تقع في شرق وسط القارة ضمن المنطقة المعروفة بمنطقة البحيرات الكبرى، وهي دولة حبيسة ليست لها سواحل ويتم نقل تجارتها البحريّة عبر مينائي دار السلام في دولة تنزانيا ومومباسا في كينيا. وهي أيضا إحدى الدول التي تقع جنوب خط الاستواء بأميال قليلة، تحدّها من الشرق دولة تنزانيا، ومن الجنوب دولة بوروندي، ومن الغرب دولة الكونغو الديمقراطية، ومن الشمال دولة أوغندا.

إن طبيعة أرض رواندا غير مستويّة تضم العديد من الهضاب والمرتفعات الجبلية والبركانيّة، لذلك يُطلق عليها بلد الألف هضبة، نظراً لكثرة المرتفعات الموجودة فيها وجبال فيرونغا وسلسلة جبلية في شمال غرب البلاد. كما تمتاز رواندا بالمناظر الطبيعية الخلابة والتلال البديعة ووفرة الحياة البرية، وفي شرقها يتواجد أيضاً العديد من البحيرات، والمجاري المائيّة، والأنهار وخاصة في الشرق.

والمناخ في رواندا معتدل في الكثير من المناطق، نظراً لارتفاع سطحها عن مستوى سطح البحر، ويؤدي هذا الارتفاع إلى تلطيف الأجواء وتخفيض درجة الحرارة، وهذا ما يعد شيئا نادرا في تلك المنطقة المدارية التي يميّزها ارتفاع درجة الحرارة فيها، وهو ما يمكن ملاحظته في المناطق المنخفضة من البلاد، وفي فصلي الربيع والخريف تتساقط الأمطار بكميات كبيرة تسمح بمل البحيرات وتجديد خصوبة الأراضي الزراعيّة التي تكون خصبة بطبيعتها نظراً لطبيعتها الجبلية.

1-مقال مشترك للعلماء: الشيخ موشومبا يونس- الشيخ إياكاريي أحمد- الشيخة نيرورا سودة- الشيخة إنيرانسا بيمانا زمدة- الشيخ مونيزامو أحمد.

وتبلغ مساحة رواندا (26،338 كم2)، وهي من البلدان الإفريقية المزدحمة بالسكان، عاصمتها مدينة كيغالي، وتنقسم رواندا إلى أربعة أقاليم إدارية: الشرق والغرب والشمال والجنوب، فضلا عن العاصمة.

وإذا ما تحدثنا عن سكان رواندا، فإن عددهم يبلغ 12،374،397 نسمة، وبالنسبة للديانة- حسب التقديرات- فإن 58% من السكان هم مسيحيون كاثوليك، و10% مسلمون، والبقية من طوائف مسيحية بروتستانتية، ومن ديانات أصلية.

2. قصة دخول الإسلام في رواندا.

وصل الإسلام إلى رواندا عن طريق التجار العرب من جنوب الجزيرة العربية (اليمن وعمان)، والمسلمين المهاجرين للقارة الذين توغلوا من الساحل الشرقي للقارة الأفريقية بحثًا عن العاج والجلود والمعادن، في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وازداد عدد المسلمين بعد موجات من الهجرة في بداية القرن العشرين هربًا من المحتل الأوروبي في بلاد تنزانيا وأوغندا والسودان وكينيا، حسب ما يشير إليه عدد قليل من المصادر المكتوبة المتاحة بشأن أصولهم. وهناك كتب تتكلم عن دخول أعداد كبيرة في الإسلام، وأنهم دخلوا بسبب رحمته، وبسبب روعته، واحترام الشرف، وتواضع التجار العرب الذين دخلوا البلاد لأول مرة في مطلع القرن العشرين. وقد تعزز الوجود الإسلامي أيضا عن طريق التجار المسلمين القادمين من الهند الذين تزوجوا من الروانديات. وبنى الروانديون مسجدا لأول مرة في 1913م وهو المعروف باسم مسجد المدينة.

3. الإسلام في رواندا قبل الإبادة الجماعية عام 1994م.

منذ وصول الإسلام إلى رواندا، والمسلمون كانوا دوما أقلية في بلدهم، ومرت الجالية المسلمة بمراحل صعبة في رواندا؛ فأيام المستعمر البلجيكي نالت أبشع أساليب التعذيب، حتى محاربتها في أقواتها، وحاول المستعمر التفرقة بينها بزرع الفتن والأحقاد؛ فقد كان يمنع الأسر المسلمة من السكن متجاورين لدرجة أنهم

كانوا لا يسمحون لثلاث أسر مسلمة بالسكن متجاورة، فإذا خالفوا ذلك أصر المستعمر على تبديد بيوتهم وتشريدهم وقتلهم. لذا كان المسلمون يؤدون شعائرهم في وضع مضايقة، وبذلت الجماعات التبشيرية خلال تاريخها جهود كثيرة لعرقلة انتشار الإسلام في رواندا، واستغلت المشاعر المعادية للعرب وقدمت المسلمين كأجانب ومتخلفين وهمجيين!

واستمرت الإدارة البلجيكية في تهميش المسلمين وحرمانهم من التعليم والوظائف المهمة في الحكومة كباقي أبناء البلد. ونتيجة لذلك اقتصرت فرص العمل للمسلمين إلى حد كبير في الانخراط في التجارة الصغيرة والعمل الحر البسيط كعمل السياقة ونحوها.

وقد مر المسلمون عبر السنين بظروف قاسية في رواندا وعاشوا تحت الاضطهاد والتهميش، وذلك منذ فترة حكومة المستعمر الألماني ثم البلجيكي، وذلك قبل الاستقلال حيث أصدرت حكومة المستعمرين أوامر التضييق على المسلمين وعزلهم عن بقية المواطنين، وعاش المسلمون هذه الظروف خلال فترة 37 سنة من 1925م حتى الاستقلال عام 1962م ، ومما نصت عليه هذه الأوامر ما يلي:

- فرض على المسلمين الإقامة في المستوطنات الخاصة بهم والمعزولة عن بقية المواطنين،

- منع المسلمين من الخروج من هذه المستوطنات وكذلك منع غير المسلمين من الدخول إلى هذه المستوطنات إلا بتصريح مكتوب من حكومة المستعمرين.

- منع المسلمين من الالتحاق بالمدارس إلا بتغيير أسمائهم الإسلامية.

ولما رأى المسلمون هذا التضييق قاموا ببناء مدرسة ابتدائية فأخذتها الحكومة منهم بالقوة وسلمتها للكنيسة البروتيستانتية وذلك عام 1961م.

ولم يكن المسلمون يتمتعون بحق الوطنية فكان الشعب ينظر إليهم كالأجانب والغرباء الذين اعتنقوا ثقافات وعادات خارجية وغريبة.

وبعد استقلال البلد عام 1962م استمرت هذه المعاناة مع بعض التخفيف، واستمرت هذه الصعوبات إلى سقوط الحكومة التي ارتكبت جريمة الإبادة الجماعية ضد شعب قبيلة توتسي سنة 1994م والتي راح ضحيتها أكثر من مليون شخص، قتلوا في مائة يوم فقط، وسقطت هذه الحكومة على أيدي جبهة رواندا الوطنية التي كانت تعارض هذه الحكومة، وهذه الجبهة هي التي أوقفت الإبادة الجماعية ومسكت زمام الحكم منذ عام 1994 حتى الآن وهي الحزب الحاكم للدولة، وقد وفقت لتأمين جميع مناطق البلد وقامت بالمصالحة بين المواطنين، فأصبح الروانديون متعايشين سلميا.

وقبل الاستقلال بعامين في عام 1960م تحديدا، أمر وزير الحكومة السابق سيبازونغو حرق ميدان ومسجد للمسلمين في رواماغانا في الإقليم الشرقي. وعقب هذا الحدث شعر الكثير من المسلمين بالرعب وكثير منهم فروا إلى البلدان المجاورة. ولا يستبعد أن الكنيسة الكاثوليكية وقفت وراء هذه الأحداث التي أدت إلى تفاقم المرارة بين المسلمين. وفي العاصمة كيغالي، عاش المسلمون على هامش المجتمع في منطقة «نيامبرامبو»، وفي غيرها من المناطق الخارجة عن العاصمة، وهي في الغالب أحياء عشوائية، وتوجد بها مساجد مركزية.

وفي عام 1964م، تأسست (جمعية مسلمي رواندا) التي سعت من أجل لم شعث المسلمين وتوحيد كلمتهم، ونالت ترخيصها من وزارة العدل بتاريخ 14/ 5/ 1994م. وتتولى حاليًا نشاط العمل الإسلامي والتنسيق بين الاتحادات والجمعيات والمؤسسات الإسلامية، ومتابعة القضايا التي تهم المسلمين، وتوجّه جهود العلماء والتنسيق بينهم والاستفادة منها. وتم تشكيل أيضا هيئة تضم خريجي الجامعات الإسلامية والعربية باسم ما يعرف بـ«مجلس العلماء في رواندا» لتشرف على شؤون الدعوة والدعاة. ويوجد للمسلمين أيضًا مجالس قضائية مكونة من القضاة الذين ينظرون في القضايا الخاصة بالأحوال الشخصية. وللجمعية معهد الهداية الإسلامي الذي تأسس في أوائل السبعينيات وفي عام 1974م تحديدا، وهو المعهد الوحيد الذي يخرج الدعاة على مدار هذه السنوات.

ولحد الإبادة الجماعية ضد قبيلة التوتسي عام 1994م، كان ينظر إلى المسلمين بنظرة دونية لأنهم في رواندا كانوا يرون أنهم تجار بسطاء، بينما يحظى المزارعون بتقدير كبير، وكان عدد المسلمين قبل الإبادة الجماعية يقدر بأقل من 1٪ الذي كان يعتبر الأكثر انخفاضا بشكل غير عادي مقارنة مع عدد المسلمين في البلدان المجاورة.

4. الإسلام في رواندا بعد الإبادة الجماعية عام 1994م.

كان للمسلمين دور فعال وإيجابي خلال الإبادة الجماعية الدموية ضد قبيلة «التوتسي» عام 1994م؛ وذلك لعدم مشاركتهم فيها من جهة، وتوفير الأمن لكل من التجأ إليهم من قبيلة التوتسي المستهدفة من جهة أخرى. وبذلك أصبح المسلمون أكثر قدرةً على تفعيل الجهود السلميَّة ونشر التسامح بين الشعب الرواندي، وقد فتح المسلم بيته لكل من لجأ إليه، وكانت المساجد هي الأماكن الآمنة لكل مَن نزل بها.

وأصدر بهذا الشأن المكتب العام لجمعية مسلمي رواندا البيان في اجتماع المجلس العمومي لجمعية مسلمي رواندا، في عام 1992م-قبل الإبادة الجماعية بسنتين- بسبب ما كانت تجري من أحداث وقتئذ حيث كانت الحكومة تحرض على الكراهية القبلية ضد التوتسي، يدق هذا البيان ناقوس الخطر القادم، ويحذر كل عضو في الجمعية من المشاركة في الأحزاب السياسية التي تقوم على أسس عنصرية وكراهية قبلية، كما حذر البيان من عدم سلب حق حياة أي مواطن، يقول النص: «إن اجتماع المجلس المذكور ينتهز هذه الفرصة لتذكير كل المواطنين، أن لكل المواطن الحق في الحياة، ولا أحد يسلب منه هذا الحق بسبب انتمائه القبلي أو الإقليمي، ولا فضل لقبيلة أو أي انتماء كما جاء في محكم التنزيل: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم...) .[1]

ومن هنا، فإن غالبية المسلمين لم يشاركوا في الإبادة الجماعية، وقالت شاهدة عيان عائشة أويمبابازي، وقد اعتنقت الإسلام مؤخراً: «لقد أنقذ المسلمون أسرتنا بكاملها.. كان المسلمون رحمة لرواندا أثناء المذابح، وهذا ما جعلني أعتنق الإسلام

1-- سورة الحجرات: 13.

عن قناعة». وتقول سالمة إنجابيري التي اعتنقت الإسلام عام 1995م بعد أن قُتل أخواها في الإبادة: «نحن نرى المسلمين بوصفهم شديدي الرقة، والرحمة تملأ قلوبهم». ومما ساعد على رفع مصداقية المسلمين عند الشعب الرواندي جهود الحكومة في المصالحة الوطنية. الأمر الذي عزز مكانة المسلمين وأكسبهم الاحترام من النصارى وحتى الحكومة الحالية لهذا السبب، والآن تجدهم في كافة دوائر الحكومة، وفي الجامعات في الوقت الذي كان يمنع المسلم من دخول المدارس والجامعات ناهيك عن الدخول في أجهزة الحكومة. ويعيش المواطنون في ظل من التعايش السلمي، والاحترام المتبادل دون أية مشاحنة ولا تعصب تجاه الآخر.

وقد ساعد ذلك على نشر تعاليم الإسلام بين الشعب الرواندي. وتزايد عدد المسلمين في السنوات الأخيرة، وصار من الشائع أن نرى القرويين يرتدون الحجاب، ويحملون نسخًا من القرآن، وهم يدخلون المساجد؛ حيث ينتظرهم الإمام ليدرس معتنقي الإسلام الجدد والمسلمات أصول دينهم الحنيف. وتمتلئ المساجد والمدارس والجامعات بالطلاب المسلمين اليوم وأصبح الإسلام اليوم في كل مكان في رواندا.

الحكومة الرواندية الحالية برئاسة فخامة الرئيس بولوكاغامي ومعاملته للمسلمين:

تتميز حكومة الرئيس بولو كاغامي بمعاملتها الإيجابية والعادلة مع المسلمين، وتتمثل هذه المعاملة في الأمثلة التالية:

- فقد أقامت حكومة الرئيس كاغامي مناسبة خاصة لشكر المسلمين وتقدير مواقفهم المشرفة خلال فترة الإبادة الجماعية، وصرح فيها رئيس البلد بفتح أبواب البلد للدعوة الإسلامية لنشر الإسلام وطلب الرئيس من المسلمين دعوة غيرهم إلى الإسلام وقيمه الإنسانية التي منعت المسلمين من الانخراط في الإبادة الجماعية وتميزوا عن الآخرين حتى قال في كلمته لهذه المناسبة: «نظرا لمواقف المسلمين البطولية أثناءالإبادة الجماعية رغم قلتهم وضعفهم، نعتقد أنه لوكان الروانديون كلهم مسلمين لماوقعت الإبادة الجماعية في رواندا».

فمنذ هذا الإعلان من الرئيس أصبحت أرض رواندا خصبة للدعوة إلى الإسلام وإلى يومناهذا سمحت الحكومة للدعاة المسلمين بإقامة المناظرات المفتوحة بينهم وبين دعاة النصارى لدعوة الناس إلى الإسلام فأعجب الروانديون بالإسلام ولا يزالون يعتنقون الإسلام بالكثرة التي أدت إلى انتشار الإسلام في جميع أنحاء البلد.

- قررت الحكومة إعادة المدرسة الابتدائية إلى المسلمين بعد أكثر من ثلاثين سنة من تسليمها إلى الكنيسة البروتيستانتية عنوة، فالمدرسة الآن بيد المسلمين ولله الحمد.

- مشاركة المسلمين في المناصب العالية في القطاع الحكومي حيث حرص فخامة الرئيس الرواندي بولوكاغامي على الرفع من قيمة المسلمين في المجتمع، فأصبحوا يحظون بحق التعليم العالي والتوظيف، فعلى سبيل المثال هناك وزير التربية والتعليم المختص بالمدارس الإبتدائية والثانوية مسلم معتز بالإسلام، وكذلك نائب رئيس البرلمان الحالي ووزير الداخلية سابقا السيد الشيخ موسى فاضل خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكذلك نائبة رئيس مجلس الشيوخ الرواندي مسلمة واسمها فاتوهاريرمانا، وهناك عدد من أعضاء البرلمان مسلمون، كما يوجد المسلمون في رؤساء البلديات وكذلك الضباط الكبار من القوات المسلحة الرواندية والشرطة.

- اعتماد عيدي الفطر والأضحى إجازتين رسميتين في البلد.
- حضور رئيس البلد والمسؤولين الكبار وتشريفهم لمناسبات المسلمين.

ثانيا: دور العلماء الروانديين في خدمة المذاهب الفقهية.

1. ظهور المذهب الشافعي في رواندا وعوامل انتشاره.

رغم أن المذهب الشافعي هو السائد في رواندا، إلا أن جميع المذاهب الفقهية أخذت مكانتها في قضايا فقهية، واعتمد عليها في الفقه والأحكام. وقد يعود ذلك إلى تأثير الدول المجاورة والتي كانت السبب الرئيسي لدخول الإسلام إلى رواندا، ولانتشار المذهب الشافعي عن طريق تنقلات التجار والعلماء إليها بحكم القرب،

وغالبية سكانها شافعية بالإضافة إلى العرب من أصول اليمن وعمان الذين سكنوا هذه البلاد قديما. والذين كانوا يتمذهبون بالمذهب الشافعي في القرن الثالث عشر الهجري تقريبا، ولا يزال المذهب الشافعي هو السائد في رواندا وفي بلاد شرقي إفريقيا اليوم، ومن هنا يظهر تماما أن المذهب الشافعي دخل إلى رواندا مع دخول الإسلام، وكذلك الجهود الكبيرة التي كان يقوم بها أتباع الطرق الصوفية القادرية الشافعية التي انتشرت في رواندا والتي كان لها الدور الكبير في تأسيس المساجد ومجالس الذكر وإحياء المولد النبوي الشريف والتي أسهمت بدورٍ فعالٍ في جذب الكثيرين إلى حظيرة الإسلام كما هو الشأن في الدول الإفريقية. وقد تميز علماء المذهب الشافعي في رواندا بالقدوة الحسنة والأخلاق الإسلامية والتسامح والرفق في المعاملة والمثل الطيبة الواضحة في المعاملة الحسنة، وكانوا يتبعون الطريقة الصوفية لعبد القادر الجيلاني الشافعي. وبهذه الأخلاق التي سرت إلى بعض مريديهم وأتباعهم كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم.

وقد تميز المذهب الشافعي بالمرونة في معالجة كثير من القضايا الشائكة والحالات المستعصية والعمل على حل المشاكل الطارئة بفضل مبدأ مراعاة الخلاف الذي اتخذه إمام المذهب أصلا من أصوله الفقهية التي بنى عليها فقهه. كذلك السماحة والتيسير في أحكامه وآرائه، والوسطية والاعتدال في أحكامه ومواقفه وفي أصوله وفروعه.

2. أشهر علماء المذهب الشافعي.

ومن جملة هؤلاء العلماء والدعاة الذين خدموا المذهب الشافعي:

- الشيخ يحيى إبراهيم، من علماء الشافعية، ومن أتباع الطريقة القادرية، وكانت له مدرسة في مدينة روامغانا بالمنطقة الشرقية، وانتقل بعدها إلى كيغالي العاصمة حيث تتلمذ على يديه عدد كبير من الطلبة.

- الشيخ رجب روابكيكا، من علماء المذهب الشافعي، وكانت له مدرسة في غتشورابوينغي بالجنوب، حيث تتلمذ على يديه الجمع الغفير من الطلبة الروانديين.

- الشيخ دوس رمضان، من أتباع الطريقة الصوفية القادرية، وكانت له مدرسة في كيغالي وتتلمذ على يديه علماء كيغالي.

- الشيخ إبراهيم سعد، من مشايخ الشافعية وكانت له مدرسة في غاتسيبو شرقي البلاد.

- الشيخ مولد، من أتباع الطريقة الصوفية القادرية وكانت له مدرسة في ضواحي مدينة كيغالي.

- الشيخ مصطفى رمضان، من أتباع الطريقة الصوفية القادرية وكانت له مدرسة غرب عاصمة كيغالي.

- الشيخ خميس إبراهيم، من أتباع الطريقة الصوفية القادرية وكان له أثر كبير في الدعوة والتعليم.

- الشيخ زكريا بن قبا، من العلماء الشافعية، وكانت له مدرسة في غيسيني غرب رواندا وانتقل بعد ذلك إلى الكونغو الديموقراطية لتأسيس مدارس، وتلقى الدرس عنده عدد كبير من الطلاب.

- الشيخ سونغورو، من المشايخ الشافعية، وكانت له مدرسة وقام بزيارات دعوية في مختلف أرجاء البلاد.

وغيرهم من المشايخ والعلماء الشافعية الذين تمسكوا بالمنهج الوسطي والاعتدال في سبيل إعلاء شأن الإسلام والمسلمين في رواندا.

3. طابع تدين مسلمي رواندا.

معظم المسلمين في رواندا من أهل السنة والجماعة، وتوجد عناصر قليلة من الشيعة الإمامية، التي ظهرت مؤخرا. ويحظى مسلمو دولة رواندا بقيادة إسلامية واحدة وعامة تتثمل في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، حيث إنه المظلة التي يستظل تحتها جميع مسلمي رواندا. وهي الجهة التنسيقية لجهود ونشاطات الجمعيات الإسلامية، وهي أيضا المعترف بها رسميا لدى الحكومة.

وتعد رواندا من دول الأقليات المسلمة، فالإسلام فيها حديث، وهذا بطبيعة الحال يوحي إلى أنه لم يكن لها علماء متخصصون في الدين وتعاليمه، وبحكم وجود تجار

من دولة أوغندا والدول المجاورة وممارستهم للدعوة وتقربهم إلى المسلمين وقت تعليمهم أمور دينهم، استطاع بعض الروانديين أن يذهبوا إلى أوغندا طلبا للعلم الشرعي فدرسوا في المعهد الثانوي هناك، ثم التحق هؤلاء بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. ومن هؤلاء العلماء: الشيخ هابيمانا إبراهيم رحمه الله، والشيخ أحمد موغويزا مفتي الديار الرواندية الأسبق، والشيخ هاغوماغاتسي جمعة والشيخ هاريريمانا عبد الكريم، عضو البرلمان سابقا– ومستشار الرئيس الحكومي حفظهم الله، وهم الرعيل الأول للدعاة الروانديين. وأسهم هؤلاء العلماء بعد تخرجهم في تفعيل العمل الإسلامي في رواندا بقيادة واحدة، ثم توالت بعدها دفعات. وقد سعت القيادة الإسلامية بمساندة الدفعات من العلماء الروانديين الخريجين في توحيد صفوف المسلمين وحفظهم من التفرق والتمزق والاختلاف الديني، فاجتمع المسلمون تحت ظل القيادة الواحدة.

ويشير التاريخ إلى أن التدين بالنسبة للمسلمين الأوائل لم يكن بأمر سهل، بل كان عكسه تماما، إذ لم يكن الإسلام دينا أصليا للسكان الروانديين القدامى، ثم إن رواندا كغيرها من الدول الأفريقية كانت مستعمرة، وكان الاستعمار بشعا وعلى أيدي المبشرين الكاثوليكيين، وأمرزمام الدولة كان بأيديهم، وكان لا يمكن أن يقبلوا منافسا آخر في نشر العقيدة.

وتلك الاضطهادات التي تعرض لها المسلمون لم تمنعهم من الصمود والتمسك بدينهم والنضال من أجله، حتى جاءهم نصر من الله بعد أمد طويل من العيش الضنك، فأصبحوا اليوم أحرارا بفضل الله ثم بحكومة رواندا الرشيدة الحالية التي ردت لهم حقوقهم المسلوبة في التدين والعيش.

وقد شهد التاريخ شدة تمسك المسلمين بدينهم وتعاليمه، وأبرز ما يوضح ذلك: عدم الانخراط في سفك دماء الأبرياء والتمييز العرقي اللذين عانت منهما رواندا وأدت بالبلد إلى الإبادة الجماعية عام 1994م. إذ كان الرأي العام والروح السائدة بين المسلمين في جميع أنحاء الدولة هو أن الإسلام لا يقبل العنصرية ولا التعصب القبلي، بل يدعو إلى السلام والتعايش السلمي بغض النظر عن أي انتماء ديني أو عرقي أو قبلي.

وقد نتجت عن ذلك نجاة العشرات من المستهدفين من قبيلة التوتسي في تلك الفترة من الإبادة الجماعية على أيدي المسلمين، واعتنق الكثير الإسلام ، إذ اعتبر المواطنون الإسلام دين الأمن والسلام والرحمة.

دولة رواندا دولة غير متعصبة للمذهب:

بالرغم من أن المذهب الشافعي هو السائد في رواندا ولكن بحكم تخرج الطلاب الروانديين من الجامعات الإسلامية المختلفة ومن شتى الدول الإسلامية، فإن الروانديين لا يتقيدون بمذهب معين لأسباب تعود إلى تنوع أماكن ودول تخرج علماء ودعاة رواندا، حيث إن الدول التي تحتضن الجامعات الإسلامية التي يتخرج منها هؤلاء الدعاة مختلفة المذاهب والاتجاهات، فنجد على سبيل المثال دول المغرب العربي والسودان ينتشر فيها المذهب المالكي، وفي دول الخليج ينتشر المذهب الحنبلي، وهكذا. وبحكم الدعاة والتجار الذين جاؤوا بالإسلام إلى رواندا هم أيضا قادمون من دول مختلفة كالهند، اليمن، وعمان، وتانزانيا، أوغندا والسودان. ولديهم أيضا مذاهب مختلفة؛ فكان هذا الاختلاط المذهبي يشكل التنوع المذهبي في الدولة التي يقل فيها المعرفة والفهم بالدين.

وهناك نقطة تجدر الإشارة إليها بخصوص تغلب المذهب الشافعي نوعا ما في المجتمع الرواندي، وخاصة في العبادات، إذ يشير التاريخ إلى أن معظم الدعاة الذين دخلوا رواندا كانوا من الدول المجاورة لرواندا، ومن اليمن، وعمان، وكان مذهبهم مذهبا شافعيا وكانوا يعلمون الناس على أساس المذهب الشافعي، مما جعل هذا المذهب ينتشر انتشارا واسعا. وقد سعت قيادة المسلمين في رواندا على مر التاريخ إلى توحيد صف المسلمين وحفظهم من التشقق؛ فدعت إلى نبذ التعصب المذهبي حتى زمننا هذا، وقامت بتوحيد صف الدعاة ونظمت عملهم الدعوي.

ومما يميز تدين مسلمي رواندا عن غيره، عدم إثارة ما يفرق المسلمين خاصة في الفروع والجزئيات، فيحاولون التوفيق بين الأمور، بما يتوافق مع برامج الحكومة الإصلاحية التي تتبناها والتي تتفق مع مقاصد شريعتنا السمحة، كجهود الوحدة

والمصالحة وتوحيد كلمة الشعب الرواندي ونبذ الفرقة فيهم والقبلية، وأعمال ذات النفع العام كالنظافة وإصلاح الطرق والتشجير، والتي تهدف إلى نفع المواطن والمجتمع ككل. وقد لبى المسلمون هذا النداء وتقبلوه وامتثلوا إليه، ذلك أنه يتوافق مع ما جاء في الشريعة الإسلامية السمحة.

وخلاصة القول أن طبيعة تدين مجتمع مسلمي رواندا أنه مجتمع متدين، ووسطي في تدينه دون إفراط ولا تفريط، وهم من أهل السنة والجماعة، وينتشر فيهم المذهب الشافعي وخصوصا في العبادات، مع مراعاة الأخذ بالقول الراجح من بين المذاهب الفقهية المعتبرة. ونتج عن ذلك وجود طابع معين للتدين يدعو به كل الدعاة ويعلم به كل معلم، واتحد المسلمون تحت ظلاله، وهذا ما يميز مسلمي رواندا عن غيرهم من مسلمي الدول الأخرى.

4. المدارس الإسلامية في رواندا ودورها في نشر المذاهب الفقهية

لقد بدأ التعليم بالكتاتيب، وتمركز في أماكن وأحياء يسكنها المسلمون، ثم تطور نوعا ما وأصبح منظما. ومن هذا المنطلق تم إنشاء أول مدرسة ثانوية دينية في سنة 1974م بمسجد الهداية بكيغالي العاصمة. وكان اسم المدرسة «المدرسة الإسلامية بـ نيامبرامبو. وفي سنة 1982م، تم تغيير اسمها إلى معهد الهداية الإسلامي. وكان للمركز الثقافي الإسلامي الذي أسسته الهيئة المشتركة لتأسيس المراكز الإسلامية بين دولة ليبيا والإمارات العربية المتحدة في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي دورا فعالا في تخريج الدعاة ونشر الفقه الإسلامي.

لائحة المراجع:

1. أوضاع الإسلام والمسلمين في رواندا (الفرص والتحديات)، وثيقة أعدت من قبل المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- المكتب العام، بتاريخ 20/01/2017م.

2. د. محمد عاشور: دليل الدول الإفريقية، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، 2007م.

3. يونس موشومبا: قراءة في التجربة الرواندية... من الاقتتال إلى التعايش السلمي...، مجلة قراءات إفريقية.

1. https: //www.qiraatafrican.com/home/new/ قراءة-في-تحول-رواندا-من-الاقتتال-إلى-التعايش

2. Richard M.Benda، The test of Faith: Christians and Muslims in the Rwandan Genocide: A thesis submitted to the University of Manchester for the degree of Doctor of Philosophy in the Faculty of Humanities، 2012.

3. KRISTIN DOUGHTY and David Moussa Ntambara، Resistance and Protection: Muslim Community، Actions during the Rwandan Genocide، (February 2003 (Updated May 2005.

إسهامات الشيخ غلام محمد الصوفي لخدمة الإسلام و الإنسانية في جنوب أفريقيا

ذ. تولاني زيد ف. لانغا
جنوب إفريقيا..

مقدمة

تقديراً لكفاح العلماء من جنوب إفريقيا في خدمة تأسيس الثوابت الدينية لابد من تقديم نبذة عن تاريخ الإسلام في جنوب إفريقيا.

هناك كتابات أكاديمية كثيرة أثبتت أن وصول الإسلام إلى جنوب إفريقيا يرجع إلي عصور المستعمرين. ومن بين تلك الكتابات كتاب ج. بدرونس[1] . ومن ناحية أخرى ووفقاً للكاتب م. ماهدا (1993:3م) يمكن اقتفاء أثر مجيء الإسلام إلى جنوب إفريقيا حسب ما هو مدون عبر حادثتين: وصول السجناء السياسيين والعمال من أندونيسيا وماليزيا الذين جلبهم الهولنديون في سنة 1658م. إلى مدينة الكاب[2] . ولما أحضر البريطانيون العمال بعقد استخدام رسمي من الهند في سنة 1860م وذلك للعمل في مزارع قصب السكر في ناتال (منطقة شرقية في جنوب إفريقيا).

كان حال الإسلام بين الكثير ممن عملوا في مزارع قصب السكر بائساً لأنهم كانوا يعيشون في أوضاع فقيرة وحوائجهم الدينية لم تجد الاهتمام المطلوب.

هذا الموقف كان حافزاً لوصول النجم الصوفي الروحي المعروف باسم الحاج غلام محمد الصوفي الصديقي التشيستي القادري حبيبي رضي الله عنه المشهور في البلاد بصوفي صاحب .

الحياة المبكرة

ولد عام 1848م. (1269هـ) في مدينة إبراهيم باثان في راتناجري في الهند، وكان

1- Gabeba Baderoon، Regarding Muslims: From Slavery to Post-Apartheid، Johannesburg، Wits University Press، 2014، p. 156.

2-تقع كيب تاون في منطقة غربية من جنوب إفريقيا.

أكبرولد لحضرة إبراهيم صديقي– ينتهي نسبه مباشرة إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه). ينحدر من عائلة العلماء ممن كان أغلبهم قضاة، لكن وفقا لـ ي. صاحب (1993:9م) المصدر السابق لم يكن أحد من العائلة مرتبطاً بالتصوف غيره. تولى القيام بدور الإمامة والتعليم وعمره يناهز 22 سنة بعد وفاة والده، وهو الدور الذي خدم فيه لمدة 20 سنة.

طريق التصوف

بينما هو في الطريق لأداء مناسك الحج عام 1892م التقى بكثير من العلماء من بينهم الشيخ علوي الذي كان دليل الأسرة. وقد كان للشيخ وزيارته للمدينة أثر فيه كبير مما جعله يوسع اهتمامه بالروحانيات (التصوف)، وبعد عودته من الحج سعى جاهدا للبحث عن مرشد في داخل الهند لكن من غير جدوى. ثم شد رحاله إلى بغداد في العراق ولا يزال في البحث عن مرشد. هناك التقى بالشيخ غلام مصطفى أفندى (رضي الله عنه) الذي أعطاه لقب «الصوفي» بعدما قضى ثمانية أشهر في صحبة الشيخ، ثم أرشده الشيخ للذهاب إلى حيدرأباد حيث التقى بالرائد الصوفي التشيستي الشيخ حبيب علي شاه وكلاهما أنشأ رابطة وعلاقة روحية عميقة لدرجة أن شيخه بعثه إلى جنوب إفريقيا لنشر الإسلام هناك. غير أن صوفي صاحب بدأ رحلته الروحية على يدي الشيخ القادري كما هو مذكور سابقا وبعد ذلك انضم إلى الطريقة التشيستية[1] تحت إشراف الشيخ حبيب علي شاه الذي أمره بالسفر لخدمة الدين والإسلام خاصة وسط مجتمعات الهنود الذين أتوا إلى جنوب إفريقيا بواسطة البرطانيين كعمال بعقد استخدام رسمي للعمل في مزارع قصب السكر. ظل في جنوب إفريقيا لبضعة أشهر ثم رجع إلى الهند ولما علم مرشده أنه رجع إلى الهند أمره بالعودة والإقامة في جنوب إفريقيا. استقر بعد عودته من الهند بمرافقة زوج أخته وابنه في منطقة تسمى «ريفيرسايد» حيث اشترى الأرض.

1-هي الطريقة الصوفية المشهورة للشيخ محي الدين شستي في الهند.

مهامه في جنوب إفريقيا

عند الوصول إلى جنوب إفريقيا أقام في منطقة تسمى رفيرسايد[1] على الناحية الشمالية من نهر أمجيني التي لا تبعد كثيرا من المنطقة التي أقام فيها الهنود.

يذكر أ. ديزل[2] (وتنس 2013م) أن المحامي الذي صاغ عقد بيع الأرض هو المشهور عالميا مهاتما غاندي الذي كان رفيقاً وصاحباً للشيخ. في هذا المكان أنشأ الشيخ مسجدا عام 1896م. هذا المبنى كان مسجدا ومعهدا لنشر التعليم الإسلامي لكل من الصغاروالكبارمن المجتمع.

التعليم الإسلامي

لما وصل صوفي صاحب إلى جنوب إفريقيا كان عدد المسلمين قليلا جدا، وكانوا أقلية داخل المجتمع الهندي المهاجر. ونظرا لفقدان الإعانة والتعليم انخرط الكثير منهم في الثقافة الهندوسية وتساهلوا في واجبهم الإسلامي مما جعلهم في خطر من فقد هويتهم الإسلامية.

ونظرا لأن كثيراً منهم جاءوا من مناطق مختلفة من البلاد وتكلموا بمختلف اللغات مثل التاميل والهندية والتليج، قام بإدخال اللغة الأوردية كلغة للإسلام لكي يجعل لغة واحدة كوسيلة للتدريس والتعليم. وواظب على برامج التعليم ليعلم الناس الإسلام.

قام بتدريس الشباب ليصبحوا مدرسي التربية الإسلامية، وليدرسوا في رفيرسايد وعند الحاجة أرسلهم إلى مراكز مختلفة ومساجد كذلك كأئمة ومدرسين. وقد كان الشيخ أول مسلم في جنوب إفريقيا يقوم بتدريس تعاليم الإسلام لنزلاء السجون وقد فعل ذلك عن طريق إنشاء علاقة وثيقة مع هيأة السجون والحكومة.

دارالأيتام

لاحظ صوفي صاحب أن هناك الكثير من الأطفال يتجولون في الشوارع من غير

1-هي ضاحية في مدينة دربن التي تقع في شرق البلاد.

2-Alleyn Diesel. Our Sufi Heritage، The Witness Newspaper، 6 November 2015.

توجيه ورقابة الآباء. لهذا الغرض أنشأ داراً للأيتام يشار إليها في الأوردو بيتيم خانا.

ويجزم ي. صاحب[1] (1993:44م)- بأن «يتيم خانا» (دار الأيتام) شهدت حضور صوفي صاحب بمثابة الأب الذي كان يقوم بالليل في أوقات متعددة للاطمئنان على أحوال الأطفال ونومهم وتغيير ملابسهم وأغطية أسرّة من بللوا أفرشتهم.

الزاوية

أنشأ الشيخ كذلك زاوية لتعليم العقيدة والأعمال التشستية للاحتياجات الروحية لمريديه. وقبِل صوفي صاحب أيضا أولائك المريدين الذين لديهم طلب خاص لتعليمهم العقائد. وبالرغم من أنه كان نفسه من أتباع الطريقة التشستية كانت زاويته تخدم المسلمين من مختلف الفئات وتقوم بالإرشاد الروحي للجميع.

مشاكل داخلية

كل الخلافات الداخلية والتجارية التي جرت بين المسلمين وغير المسلمين كانت تُحال إلى صوفي صاحب لتسويتها. وكان حكمه في تلك الأمور يعتبر نهائياً. وبالتالي كان التركيز على تأسيس مجتمع خال من الخلاف.

مشروع الإطعام اليومي

نظراً لانتشار الفقر في المجتمع، قام الشيخ بإنشاء مشروع الإطعام لسد حاجة الفقراء والمعوذين. حيث لم يوزع الخضر والطعام على أساس يومي فحسب، بل لجميع المحتاجين على اختلاف أديانهم وثقافاتهم. هذا العمل استمر في جميع المراكز والمساجد التي أنشأها في نواحي البلاد، وخاصة في يوم الجمعة.

بالإضافة إلى ما ورد أعلاه أنشأ الشيخ مركزاً صحياً للناس من مختلف الديانات والثقافات، وكان الدواء التقليدي يوزع مجاناً، فضلاً عن إنشاء مركز تأهيلي لإعانة من كانوا يعانون من تناول المخدرات.

1 Yunus Saib، Sufi Sahib Contribution to the Early History of Islam in South Africa. M.A honours Disserta-- tion. University of Durban Westville. 1993

لقد كان تأثير عمل الشيخ كبيراً لدرجة أن الأمر استدعى وجوب استنساخ العمل الذي قام به في رفيرسايد، في بقية أنحاء الإقليم مثل كيرنفال، وسبرينجفيلد، و45 كاتنج، وتونجات، وبيتيرمرتسبرج، وليديسميث.

لم يتوقف عمل الشيخ في شرق الإقليم من كوازولو ناتال بل انتشر في جميع أنحاء البلاد في مناطق مثل كلنسو، وكيب تاون وليسوثو.

خاتمة

يمكن تلخيص طريقة صوفي صاحب كالآتي:

- التطور الروحي: تمنى أن يصوغ مجتمعاً مؤمنا يقوم بتطبيق الإسلام وفي نهاية المطاف أنشأ مساجد وزوايا لنشر وتطبيق العقيدة الإسلامية بين المسلمين الذين كانوا وقتذاك يظهرون سلوكا مخالفاً للإسلام. ولكي يحقق الأهداف المذكورة أدرك واستيقن بأن المسلمين كانوا في حاجة إلى العلاقة مع الله من خلال الطريقة التشستية الروحية.

- **التعليم الإسلامي:** لقد ضمن الشيخ إنشاء معهد لنشر التعليم الإسلامي على أساس العقيدة الأشعرية. وبما أنه كان حنفي المذهب، كان يدرس المذهب الحنفي ويحث على الالتزام به.

- **العلاقات بين الأديان:** أراد أن يساعد أفراد المجتمع المسلم كي يحتفظوا بهويتهم كمسلمين في بيئة غير مسلمة، وفي نفس الوقت ضمن تعايش المسلمين مع الفرق الدينية الأخرى في سلم وتآلف. يتضح ذلك من خلال توسعة خدماته للجميع وبناء علاقة أخوة مع مهتما غاندى.

ستظل إسهامات وأعمال الشيخ شاه غلام محمد الصوفي راسخة في التاريخ باعتبارها من أعظم الإسهامات التي قام بها فرد واحد لحفظ الإسلام في إفريقيا. أتى في وقت كان المسلمون تحت سيطرة البريطانيين ويفتقرون إلى التوجيه الديني

والروحي. وفي وقت وجيزومع وجود مصادرمحدودة وأحوال بائسة، أصبحت خدمات الشيخ مبعث أمل وتطوير لأناس كثيرين. كانت تعاليمه قائمة على الثوابت الدينية كالتصوف والعقيدة الأشعرية وقبول المذاهب الأربعة وقد لعب ذلك دوراً مهماً في بعث المحبة والتسامح بين المسلمين. فمن خلال تلك التعاليم ظلت شعلة الإسلام متقدة في زمن كان حق العيش كمسلم لا يُعترف به.

إن بصماته الواضحة التي تركها في المجتمع المسلم ستظل محسوسة لدى الأجيال القادمة. وسيظل مرقده في حي رفيرسايد في ديربان أحد الرموز الإسلامية في جنوب إفريقيا.

إسهامات علماء المحضرة بالصحراء المغربية في توطيد دعائم الثوابت الدينية المشتركة بين المغرب وعمقه الإفريقي -شذرات من الماضي-

دة. ماجدة كريمي

رئيسة مركز الدراسات و الأبحاث : «الصحراء المغربية، التنمية الجهوية والامتداد الإفريقي».

تقديم:

تعرف الهندسة السياسية لتوجه المغرب نحو إفريقيا حاليا تحولات كبيرة، وتعطي إشارات قوية بأن المملكة المغربية أعادت التفكير في أمر إبراز ملامح تموقعها بالمجال الإفريقي معتمدة على إرساء سياسة البعد التضامني، وذلك بإحياء التراث المشترك.

وإذا كان المجال الدبلوماسي والاقتصادي والثقافي، يترجم هذه الملامح، فالحقل الديني يعد أحد أهم الدعامات التي ظلت تؤسس ماضيا وراهنا لهذا البعد التضامني انطلاقا من ثوابت مشتركة يأتي في صدارتها نشر الدين الإسلامي الحنيف وفق المذهب المالكي في الفقه وطريقة الجنيد في التصوف والمذهب الأشعري في العقيدة.

إن مرحلة ما بعد عودته إلى بيته الإفريقي: الاتحاد الإفريقي، أفصحت بوضوح على أن المغرب بات يسعى اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى ترسيخ هذه الروابط الدينية التي تجمعه بالعديد من الدول الإفريقية الشقيقة نتيجة تركة تاريخية غنية، عنوانها البارز الاعتدال والوسطية وذلك تطبيقا للآيات الجليلة «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[1]» «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ[2]» .

بل إنه يسعى إلى بعث وإحياء التقاطعات التي توحده بها، مما سيعطي لتلك الروابط امتدادات واستمرارية تتماشى وخصوصيات الألفية الثالثة.

1-سورة البقرة، الآية: 142.

2-سورة البقرة، الآية: 184.

هذا وقد شكل المجال الصحراوي ذلك الفضاء المشترك بين المغرب وعمقه الإفريقي، فعبره تم- ولا يزال- هذا الالتحام الروحي الديني. وعليه يتوجب علينا النبش في سجل التاريخ للوقوف على إسهامات علماء هذا الفضاء الإفريقي في دعم الثوابت الدينية للمغرب والتي انعكس إشعاعها على العديد من الدول الإفريقية.

فماذا عن المذهب المالكي كأحد هذه الثوابت؟ وما هي آليات مشاركة المغرب إياه مع أشقائه الأفارقة عبر صحرائه؟ ومن هم أشهر العلماء الذين لعبوا أدوارا طلائعية في ذلك؟ وكيف يمكن تفعيل هذا الإرث التاريخي بعدما صفقت العديد من الدول ال إفريقية لنجاح التجربة المغربية في ورش الأمن الروحي، لتلعب الأقاليم الصحراوية هذا الدور من جديد في زمن راهن باتت تهدد فيه من طرف موجات التطرف الديني؟!

إذا كانت الصيغة الاستفهامية توحي بضرورة الاستشراف في هذه المقاربة، لتبيان المعالم المستقبلية في هذا الأمر؛ فإن الإجابة تحتاج إلى التصدي لتوصيف ماضي هذه الأدوار وإبراز معالم تطورها، علما أن الاستشراف ليس مسألة هينة، فهو يتطلب كتلة هائلة من المعطيات للتحكم في صيرورة الظواهر المختلفة، فهي «قفزة في الهواء» كما عبر عن ذلك نابليون، ذلك أن العالم الذي نتفاعل معه لا يخلو من أشياء غير متوقعة.

أولا: المذهب المالكي أبرز الثوابت المشتركة بين المغرب وعمقه الإفريقي: الرصيد التاريخي

1. عصر الأدارسة:

عرف المغرب مع الأدارسة منذ أن وطئت أقدامهم هذا البلد التوجه السني المعتدل الذي توطد أكثر مع دخول المذهب المالكي. فوحدة العقيدة والمذهب شكلت منذ ذلك الحين ثوابت دينية أساسية ارتضاها المغاربة وأجمعوا عليها. ذلك أنه بعد تلقي المولى ادريس بيعة قبائل أوربة ومناصرتها له إماما وأميرا للمسلمين، خطب فيهم خطبة بليغة حدد فيها معالم دولته الفتية القائمة على الكتاب والسنة ووحدة الصف بعيدا عن الخلافات المذهبية ومختلف الانحرافات العقدية[1] .

1-من جملة ما قال في خطبته: «أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية،

لقد كان المغاربة على وعي كامل بأهمية وحدة المذهب، فاختاروا مذهب إمام المدينة مالك بن أنس وبذلك استطاعوا على يد المولى إدريس أن يقضوا على التفرقة.

فالمذهب المالكي لم يدخل الى المغرب كمذهب فقهي فحسب، بل كمكون لهوية المغرب الدينية والوطنية ذلك أنه عمل على سد أبواب الفتن والحفاظ على الوحدة الوطنية والعمل على إضفاء إشعاعها إلى حدود غانا عبر مدينة تامدولت.

2. عصر المرابطين:

بهذه الهوية الدينية التي رسخها الأدارسة، كان قبس إشعاع المغرب على مستوى ما يحاذيه جنوبا من الدول الإفريقية ليتقوى على يد المرابطين.

فمن المسلمات التاريخية أن لإسلام قبائل الملثمين أثر بالغ الأهمية في تاريخ جنوب الصحراء، إذ نجحوا في كسر جزء مهم من الحاجز الوثني بمملكة غانا ليصل سيل الإسلام ويتدفق فيما وراءها بفضل رباط عبد الله بن ياسين وجهود الدعاة والتجار[1].

3. عصر الموحدين:

إن الرسالة التي بعث بها والي سجلماسة لملك غانة قائلا: «نحن نتجاور بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ....» بخصوص تيسير أمور التبادل التجاري بين المملكتين، تفيد بأن وظيفة المغرب في اتباع سير كل من الأدارسة والمرابطين في نشر المعاملات التي نادى بها الدين الإسلامي الحنيف ما زالت على قدم وساق.

ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم وإحياء السنة، وإماتة البدعة، وانفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد»؛ الحسن السائح، «الحضارة المغربية عبر التاريخ، « دار الثقافة، الدرا البيضاء، ط: 1 1975، ج: 1، ص: 118؛ عباس نصر الله سعدون، «دولة الأدارسة (العصر الذهبي 223-172 هـ/ 835-788 م)»، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ط:1 1987، ص ص: 170-169.

1-أبو عبيد الله البكري، « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب»، جزء من « المسالك والممالك »، نشر مكتبة المثنى ببغداد، د.ت، : 353؛ أحمد بن محمد المراكشي ابن عذاري، « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة ط: ، بيروت 1983، ج: 4 ، ص: 9.
- أحمد المقري، « نفح الطيب «، مجلد: 3 ، بيروت 1968، ص: 105.

4. العصر المريني:

إذا كان الموحدون قد اهتموا أكثربتوطيد علاقاتهم التجارية مع المنطقة، فالروابط الروحية الدينية لم تنقطع على عهدهم ولا من بعدهم، بل نمت- وبقوة- في العصر المريني ذلك أن منسى موسى ملك مملكة مالي بات أكبر داعية للدين الاسلامي وللمذهب المالكي[1].

5. العصر السعدي:

مع مجيء السعديين تبلور هذا التواصل الديني بشكل عملي حيث باتت العديد من حواضر المغرب لا سيما مراكش وفاس، قبلة للطلبة والعلماء السودانيين يفدون عليها ليأخذوا من علمائها. هذا وقد عمل سلاطين بلاد السودان على استقدام العلماء والفقهاء المغاربة لتثقيف أهل مملكة سنغاي ولتعريفهم بقواعد الدين الإسلامي[2] ، بل إن المنطقة ارتبطت بالمغرب برابطة البيعة، على اعتبار أن المنصور الذهبي خليفة للمسلمين، يستمد سلطته من نسبه الهاشمي القرشي.

6. العصر العلوي:

اتخذت هذه الصلات الدينية بعدا أكبر خلال عصر الشرفاء العلويين خاصة مع الأدوار المتميزة التي لعبتها الزاوية التيجانية والتي أعطتها نفسا جديدا وقويا. فهي لم تكتف بقوة حضورها في السودان الغربي كطريقة صوفية لها كثير من الأتباع، بل إنها بلغت مرتبة تكوين امبراطورية إسلامية تيجانية هناك وذلك على يد الحاج عمر الفوتي[3].

ثانيا: الأقاليم الصحراوية أيقونة توطيد الثوابت الدينية

1-ابن خلدون عبد الرحمان، « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ط: 1، بيروت 1992، ج: 6، ص: 287.

2-ولد حامد المختار، « حياة موريتانا، الجغرافيا»، منشورات معهد الدراسات الافريقية ، جامعة محمد الخامس، الرباط ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، 1994، ص: 6.

3-أحمد الازمي، «الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر»، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ج: 3 ، مطبعة فضالة المحمدية ، 2000 ص:349.

المشتركة بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء

تعد الصحراء أبرز مثال يجسد خصائص البداوة الفكرية في تاريخ المغرب، خصائص استطاعت ان تقيم حياة متميزة في العلاقات المتنوعة التي نسجتها مع المجتمعات الإفريقية.

فكما نعلم جميعا، عرف المجتمع الصحراوي مجموعتين بشريتين متصدرتين للهرم الاجتماعي لتليها باقي المكونات الإثنية (الحراطين/ العبيد/ المعلمين).

فإذا كان عرب بنو حسان عرفوا بحمل السلاح، فإن الزوايا هم مجموعة القبائل المهتمة بالشأن الاقتصادي والتعليمي والديني، فهم «حملة العلم والدين في هذه البلاد قاطبة قديما وحديثا، لا ينازعهم في ذلك طائفة من طوائفها ولا تقاربهم[1]» وقد ذكربابه بن الشيخ سيديا أنهم « سموا بالزوايا لملازمتهم للزوايا جمع زواية وهي أيضا موضع العبادة».[2]

فأمام ممارسة هذه الوظيفة على المستوى المحلي، كان من المفروض أن تقوم قبائل الزوايا بهذا الدور في امتداداته الإفريقية، وهنا سنتوقف عند منارة مارس فيها هؤلاء هذه الوظيفة ذلك أنها كانت الحافظ لصنعة العلم والمعرفة والحامي للعقيدة والدين والسبيل لنشره وفق مذهب مرن معتدل يتماشى وطباع كل المغاربة ومنهم الرحل بأقاليمه الصحراوية.

إنها «المحاضر» (جمع محضرة) الجامعة البدوية المتنقلة والتي عرفها الخليل النحوي قائلا: «مدارس علم، ورباط جهاد ومنارة إشعاع (....) يلتقي حولها الالتزام الفكري والديني ويكون السعي في المجالين، رباطا ونضالا وجهادا وهذا هو قمة العطاء القادر».[3]

فلنحاول التقرب منها لنقف على مدى إسهامها الكبير في إيصال الثوابت الدينية

1-الخليل النحوي، «بلاد شنقيط، المنارة والرباط» ، تونس 1987، ص ص: 34_35.

2- «إمارتا إدوعيش ومشظوف» دراسة وتحقيق: ازيد بيه ولد محمد محمود ، ط: 1، 1995 ، ص: 173. لا تتميز هذه القبائل بانتساب عرقي أو سلالي خاص يجمعها، فكل مجموعة بشرية تعنى بالعلم والدين تعلما وتعليما هي من فئة الزوايا.

3- «بلاد شنقيط المنارة والرباط» مرجع سابق، ص: 53.

المغربية[1] للدول الإفريقية الشقيقة لكي يعمل فقهاء وعلماء الطرفين على الدفاع عنها وتزكية انتشارها بين أكبر عدد من مكونات الأسرة الإفريقية.

1. المحاضر: التسمية، النشأة، السمات والوظائف:

أ_ التسمية:

لم يسم سكان الفضاء الصحراوي مؤسستهم التربوية هذه «كتابا» ولا «خلوة» ولا «زاوية» ولا «مدرسة»... أو غيرها من التسميات المتداولة لمراكز نقل ونشر المعرفة، وإنما اشتقوا لها اسما يكتب بالحسانية بالظاء المعجمة (محظرة) وفي اللغة العربية الفصيحة، يكتب بالضاد المعجمة (محضرة).

فبخصوص معنى هذه التسمية يذكر الخليل النحوي:» (....) وكان الطلبة ينسلون من كل حدب وصوب إلى شيوخ العلم، فيحضرون دروسهم ومجالسهم أو محاضراتهم»

هذا وقد اختلفت الآراء حول أصل اشتقاق الكلمة، فذهب رأي الى أنها مشتقة من الحضور لتواتر حضور طلاب العلم ولزومهم حضرة الشيخ، ومال رأي ثان إلى أنها مشتقة من الحظيرة لتشابه في طبيعة مكونات البناء كالحشيش وأغصان الشجر.... فيما يذهب رأي ثالث الى أن أصل الكلمة مشتقة من الحظر بمعنى المتجسد في أخلاقيات الطالب المحضري مراعاة للمحظور الشرعي واقتضاء لحرمة العلم وأهله.

ب_ النشأة والتطور:

يؤرخ الخليل النحوي بداية النشاط المحضري بتأسيس رباط عبد الله بن ياسين حوالي سنة 431هـ/1039م، فقد اعتبر هذا الرباط محضرة وفقت في جعل الفقه بأمور الدين زادا ووقودا وسلاحا للمجاهد إذ قوى الدين بالعلم وقوى العلم بالدين[2].

1-إنها: إمارة المؤمنين، المذهب المالكي، العقيدة الأشعرية، التصوف السني.

2-نفسه، ص 65. «مما يدل على صلة المرابطين بالمحاضر أنه لا يزال يطلق اسم «المرابط» على شيخ المحظرة حتى اليوم».

ويعرفنا أكثر بهذه المؤسسة التي اعتبرها إحدى مؤسسات التربية العربية الإسلامية الأصيلة، فهي جامعة شعبية بدوية متنقلة، فردية التعليم، طوعية الممارسة[1].

ويعرفها المختار محمد موسى وكذا محمد محفوظ بنفس المواصفات مع التركيز على أن الشيخ الذي يتولى التدريس بها يقوم بالسهر على طلابه أخلاقيا وأدبيا وربما ماديا[2].

ج_ السمات:

المساواة: تكاد تكون المحضرة الفضاء الوحيد الذي تذوب فيه مختلف أشكال التمايز الطبقي والعرقي، إذ يتحدد الانتساب إليها بالرغبة والاستعداد دون اعتبار المكانة الاجتماعية أو فوارق السن، فالرجل الطاعن في السن قد يدرس مع الشباب كما أن الشباب اليافع قد يتولى تدريس من هم أسن منه[3].

المجانية: أهم ما يميزها عدم اعتبار المستوى المادي إذ لا فرق بين غني وفقير، بل إن

1-- «بلاد شنقيط ، المنارة والرباط «، ص ص: 53_66. فهي:
جامعة: لأنها تقدم للطالب معارف موسوعية في مختلف فنون المعرفة الموروثة وهي: _ القرآن: حفظه ورسمه وتجويده وتفسيره وبقية علومه. - الحديث: متنه ومصطلحه ورجاله. - العقيدة وعلم الكلام والتصوف. - الفقه: أصوله وقواعده وفروعه. - السير والتاريخ والأنساب. - الأخلاق وآداب السلوك. - اللغة والآداب: دواوين الشعر، المتون النثرية (مثل المقامات). - النحو.
شعبية: إذ تستقبل كل من يرد عليها من جميع المستويات الثقافية والفئات العمرية والجنسية والاجتماعية. تستقبل المبتدئ كما تستقبل العالم فتجدد له معارفه وتوسعها وتعمقها، ويرتادها الطفل والشيخ والمرأة والفقير والموسر.
متنقلة: إذ تبلورت وازدهرت شخصيتها في رحاب البادية لا في المدن، وهي مترحلة تقلب البدو في منتجعاتهم ومسارح ابلهم وأبقارهم دون أن يكون ترحالها عقبة في وجه انتظام الدراسة.
فردية التعليم: فطرفي العملية التربوية هما: الأستاذ والطالب. الطرف الأول: يدير حلقات الدراسة ومجالسها «المرابط» شيخ المحضرة فإليه تنسب المحضرة عادة فتعرف به أو بأسرته، وإن كان قد يكون للمحضرة عدة أساتذة. وبالنسبة للطرف الثاني، لا بد من الإشارة إلى أن للطلبة أنفسهم دور في نقل المعرفة، وتشرع هذه العملية وتنظم أحيانا من قبل الشيخ الذي يلجأ إلى طلبته المتقدمين كمساعدين. والقاعدة العامة في المحضرة أن يكون لكل طالب درس خاص به يختاره لنفسه في ضوء رصيده العلمي وهوايته ومؤهلاته... وبهذا النظام يتحرر الطالب من كل القيود التي تعوقه عن تحصيل دراسته في الأجل الذي تؤهله له طاقته الذهنية.

2-المختار محمد موسى، «لمحة موجزة من المحاظر الاسلامية في موريتانيا «مجلة تعليم الجماهير، العدد: 32، السنة 14، دجنبر/ يناير 1987، ص:41؛ محمد محفوظ بن أحمد، «مكانة أصول الفقه في الثقافة المحظرية الموريتانية»، المكتب العربي للخدمات الثقافية، الطبعة: 2، 2001، ص: 65.

3-محمد بن محمذن، «المحظرة ومواجهة التوغل الفرنسي في حوض نهر السنغال» ضمن كتاب «التصوف والتقريب الطائفي بين مصادر الحق وتضارب الأولويات»، أعمال ندوة تيكماطين للفكر الإسلامي، الدورة الخامسة يوليوز 2005 تيكماطين موريتانيا، ص: 164.

المحظرة طورت آليات التكفل بالطالب المغترب أو المعدم وهذا ما يسمى «بالتأبيد» إضافة إلى «الختمة» التي توجب تقديم هدايا للتلاميذ كلما تقدموا مراحل معينة في دراستهم و «شاة التلاميذ» التي تقدم لهم في مناسبات اجتماعية معينة مثل الزواج وكذا العقيقة[1].

د_ الوظائف:

تعتبر «المحضرة» من أعرق معاقل العلم في الصحراء المغربية، فقد أبرزت القدرة على تحقيق نهضة ثقافية نموذجية فوق رمال الصحراء، وكذا في امتداداتها إفريقيا دون أن يكون الترحال عقبة في وجه انتظام الدراسة. [2]

نشأت المحضرة لتكون آداة لنقل المعرفة وإرساء أسس الدين، فهي «مركز إشعاع في مجاهل الصحراء وغياهب الليل الإفريقي (...)، حمل رسالة المحضرة هنا وهناك رجال أشداء، كان منهم تجاردعاة وعلماء عاملون معلمون، أعدتهم المحضرة اعدادا روحيا وجسميا جيدا لآداء الرسالة، فبلغ بهم الأمر أن حج كثير منهم سيرا على الأقدام، يعبر آلاف الأميال، شهورا تلو الشهور، ويؤدي حيثما حل رسالة المحضرة: دعوة إلى الله تعليما وتعلما[3]».

2. سفراء المحضرة في إفريقيا جنوب الصحراء عبر حقب تاريخية متفاوتة:

لقد كان رسل المحضرة دعاة إلى الله مربين، يلتف حولهم العلماء وطلبة العلم إعجابا بما أوتوا من ملكة الحفظ والرواية والدراية، كان لهذه المؤسسة التعليمية الدور الأكبر في نشر الإسلام في إفريقيا الغربية، وقد أشاد بذلك العديد من الباحثين الأجانب. [4]

حقا إن ترسيخ المبادئ الإسلامية وفق مذهب مالك والمحافظة عليها يعتبر من أنبل خصائص التعليم المحضري بالصحراء، فترسيخها يتم من خلال تربية الطلاب

1- نفسه.

2-الطلبة وشيوخهم كانوا يجمعون إلى جانب متعة العلم، متعة السياحة.

3-الخليل النحوي، مرجع سابق ، ص: 228.

4-Vincent Monteil، « l'islam noir »، Editions du Seuil ، 1980.

بتعاليم الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وسلوكا، ومنهجا وحثهم على الالتزام بتعاليم الشريعة.

وسنقف على نماذج تؤكد ذلك من خلال عدة فترات تاريخية.

أ- العصر الوسيط: لقد عم الاسلام السني بلاد الملثمين في أواخر القرن4هـ وبداية القرن 5هـ/ الموافق للقرن 10م وبداية القرن 11م مع مجيء عبد الله بن ياسين.

تميزت دعوة هذا الأخير بكونها تطبيقا لآراء الفقيه أبي عمران الفاسي، وعليه صوب طموحه لمواجهة واقع التجزئة التي تعاني منها منطقة الغرب الإسلامي ككل بعد انتهاء فترة الزناتيين تحت شعار ديني هو «الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»،[1] وذلك وفق مذهب مالكي خال من المذاهب الأخرى المناوئة له. [2]

ب - العصر الحديث: شكلت حركة ناصر الدين في ق 11هـ/ ق 17م مبادرة قادتها قبائل «الزوايا» مقتدية بالتجربة المرابطية. ويروى أن هذه الحركة بنيت على أربعة مبادئ أخلاقية هي: [3]

_ التمسك بالقرآن والسنة.

_ صيانة الكرامة.

_ العدل.

_ مكارم الأخلاق.

1-»وخلف قبيلة لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى جدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين والأربع مائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه....» _ البكري ، «المغرب في ذلك بلاد افريقية والمغرب» ، تحقيق حماه الله ولد سالم ، دار الكتاب العلمية، بيروت 2012، ص: 164.

2-في لقاء زعيم جداله يحي بن ابراهيم للفقيه أبي عمران الفاسي بالقيروان وجه الفقيه له العديد من الأسئلة تخص مذاهب الملثمين. « فرأه أبو عمران محبا للخير فأعجبه حاله فسأله عن اسمه ونسبه وبلده، وأخبره بذلك وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من الخلق فقال له ومن ينتحلون من المذاهب، فقال له إنهم غلب عليهم الجهل وليس لهم كثير علم...» _ ابن أبي زرع الفاسي، «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، دار المنصور للطباعة والنشر الرباط 1972 ، ص: 122.

3-اليدالي محمد ، «شيم الزوايا، نصوص من التاريخ الموريتاني «، تحقيق: محمدن ولد باباه، بيت الحكمة قرطاج، 1990، ص: 57.

وقد تبعت أسلوبا دعويا قائما على البدء بالدعوة في صفوف المقربين ثم استقطاب الأتباع والمريدين من المناطق المجاورة.

بالفعل، كانت العمليات الأولى لناصر الدين التي سميت بالفتوحات موجهة ضد الإمارات والمماليك الزنجية في الضفة الجنوبية لنهر السينغال تحت قيادة أخيه منير الدين (من تلك المناطق فوتا)، وقد تمت كل تلك العمليات، بسلاسة كبيرة لأنها محط اجماع الأتباع والمريدين القريبين والبعيدين، «ولما بويع اشرأبت الناس إليه كلهم، من مغفري ورزكاني وسوداني وأزناكي وزاوي». [1]

ج- الفترة المعاصرة: يعتبر الشيخ ماء العينين[2] من أهم علماء الأمة الإسلامية المجددين في ق 19م، استقر أول الأمر بصحراء تيرس تم بعدها بأرض الساقية الحمراء حيث بنى داره الأولى عام 1864 بالقرب من مزار الشيخ سيدي أحمد العروسي، فلما كثر اتباعه بعد أن ذاع صيته فكر في توسيع مكان محضرتة فبنى زاويته في 26 ماي 1898 بمساعدة السلطان المولى عبد العزيز[3] .

التف حوله الآلاف من الأتباع والمريدين جاؤوا للتفقه في الدين[4] وقد حدد الشيخ ماء العينين ثلاثة مداخل لتحقيق ذلك.

- المدخل التربوي التعليمي: وقد أولاه عناية متميزة لما يختص به أهل العلم والفكر من مكانة رمزية واجتماعية في أوساط الناس، وقد كان يشرف شخصيا على إلقاء الدروس فيشرح ويفسر المتون في العلوم النقلية والعقلية من الفقه وأصوله وقواعده والبلاغة ومصطلح الحديث والمنطق والسيرة النبوية. فاختصاصات التعليم بمحضرته كانت متنوعة اذ تشمل الدراسات التاريخية والأدبية والنحوية إلى جانب العلوم الفقهيه والتصوف. [5]

1-نفسه، ص: 165.

2-للتعرف على سيرته الذاتية انظر: الخليل النحوي، «بلاد شنيقط، المنارة والرباط»، ص ص:-179 182؛ الطالب أخيار بن الشيخ ماميا، «الشيخ ماء العينين، علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الاوروبي «، ج: 1، مؤسسة مربية ربه لاحياء التراث والتبادل الثقافي ط 1، مطبعة بني يزناسن ، سلا، 2005.

3-بنيت على النمط المغربي الأصيل حيث بعث له مواد البناء من جبس وزجاج وخشب وعدد من المهندسين والبنائيين عبر سفينة ضخمة حطت في ميناء طرفاية. _ الخليل النحوي، مرجع سابق، ص: 181.

4-أحمد بن الأمين الشنقيطى، «الوسيط في ترجم أدباء شنقيط»، ص ص: 365_366.

5-عبد الوهاب التازي سعود، «الشيخ ماء العينين، فصل من فصول اشعاعات الصحراء»، مجلة جامعة القرويين، ع:

- المدخل الفكري الصوفي: حرص الشيخ ماء العينين على تدوين عدة مؤلفات ذات المحتويات الغزيرة في العقيدة والفقه، [1] كلها تفصح عن إصراره على إحياء السنة وإماتة البدعة ونبذ التفرقة والطائفية بين أتباع المذهب الواحد. فقد سعى إلى توطيد التصوف السني المبني على التآخي بين الطرق إذ كان يروم توحيد المنطقة وجدانيا لمواجهة الضغوط الاستعمارية وهذا ما عرفه البعض «بمشروع الأخوة» والذي لا ينحصر في الصحراء المغربية فقط، وإنما يطال ما وراءها جنوبا.

- المدخل الجهادي: تمكنت المحضرة المعينية من إنشاء تكتل قوي ومتضامن بالزاوية المعينية في السمارة وهي تتطلع للقيام بأدوار كبرى تتلاءم وحجم تحديات الأطماع الامبريالية التي استهدفت آنذاك الأقاليم الصحراوية المغربية والعديد من الدول الإفريقية جنوبها. فقد استنجدت به العديد من القبائل الموريتانية من أجل التدخل لدى السلطان المولى عبد العزيز طلبا للدعم والسلاح لمواجهة الحشود الفرنسية الزاحفة من قواعدها قرب نهر السنغال والمتجهة شمالا، وكونت ركبا من أعيان القبائل لملاقاة السلطان في مراكش، فكان ذلك سنة 1906، فحصلوا على مبتغاهم وبعث معهم السلطان ابن عمه الأمير مولاي ادريس بن عبد الرحمان بن هشام لقيادة العمليات الجهادية.

وفي محضرة الشيخ ماء العينين درس الأمير سيد أحمد بن سيدي أحمد ولد عيدة لمدة خمس سنوات وبعد عودته إلى أهله ببلاد شنقيط قاد عمليات الجهاد ضد الفرنسيين[2] ، مما يبرز مساهمة المحضرة المعينية في الدفاع عن حوزة بلاد الاسلام والجهاد هناك. فقد أسس الشيخ ماء العينين زوايا بكل من مراكش وفاس وتزنيت وطرفاية والسمارة بالمغرب إضافة إلى زاوية في أطار بأدرار من بلاد شنقيط[3]

12، 2000، ص 18.

1-نذكر منها: «دليل الرفاق على شمس الاتفاق»؛ «هداية من حارى في أمر النصارى»؛ «مفيد الراوي على أني مخاوي».
- الخليل النحوي، «بلاد شنقيط، المنارة والرباط»، ص ص: 334_340؛ عبد الرحمان بن زيدان، «اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»، تحقيق:علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة 2008، ص: 447.

2-الخليل النحوي، «بلاد شنقيط ، المنارة والرباط»، ص: 336.

3-- نفسه، ص: 281.

3. آثار دور المحاضر الصحراوية في التقعيد للثوابت الدينية في إفريقيا جنوب الصحراء:

يعتبر ترسيخ المبادئ الإسلامية والمحافظة عليها من أنبل خصائص التعليم المحضري بالصحراء المغربية. فقد تم ذلك من خلال تربية الطلاب بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف عقيدة وشريعة وسلوكا وحثهم على الالتزام بتعاليمها، استنادا إلى مذهب مالكي عريق تمتد جذوره من زمن الدولة المرابطية إلى يومنا هذا مع نبذ كل تشدد. ولعل هذا ما جنب المملكة المغربية الشريفة الفتنة الطائفية أو المذهبية، وجعل منها نبراسا يهتدى به من طرف الأشقاء الأفارقة.

بالفعل، فقد تجلى ذلك من خلال صيانة الأفارقة للشريعة الإسلامية بالعديد من الدول وذلك بالحفاظ على الصلاة، وأداء فريضة الصوم واخراج الزكاة والسفر إلى الحجاز لآداء فريضة الحج، رغم بعد المسافة وعناء السفر والمجاهدة في طلب العلم.[1]

ويزكي هذا الطرح ما قاله الرحالة الأجانب (مثلا: Camille Dols) الذين زاروا هذه البقاع ومنهم الرحالة الذين أشادوا بوضوح بكلامهم وفصاحتهم الناتجة عن قراءتهم للقرآن الكريم وتوظيفهم له في حديثهم اليومي حيث غالبا ما يستشهدون بآيات كريمة[2].

وكان لمشايخ العلويين: الشيخ محمد الحافظ ومحمدي بن سيدنا الملقب بدى وسيدي مولود فال ومحمد المختار بن أحمد فال وأحفادهم نصيب وافر من العمل

1-أمر الإسلام المسلمين بالقراءة والعلم والتعلم وقد أولى طلبة المحاضر عناية فائقة للعلم ، فكثيرة هي القصائد التي نظمها بعض العلماء في حب العلم والانشغال به عما سواه من زخرف الدنيا وحطامها. للتوسع انظر: حديدي الحسين، «الحياة الفكرية والروحية بالمجال البيظاني خلال القرنين 18و19م»، منشورات مركز الدراسات الصحراوية ، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2014؛ محمد المختار ولد السعد، «إمارة الترارزة وعلاقاتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703 إلى 1860»، جزءان منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس الرباط 2002؛ محمد بن أحمد بن المحبوب، «المنهج التربوي للمحظرة الموريتانية: نظرة تقويمية ووضع في الميزان» ، مجلة التاريخ العربي، العدد: 47، 2009.

2-الخليل النحوي، مرجع سابق، ص ص: 264_265. لقد كانت حركة الاتصال، جيئة وذهابا نشيطة عبر نهر السينغال وكان من أقدم المجموعات هجرة أدولحاج/ التارا رزة/ البراكانة/ أدوعيش/ اكمليلن/ طوائف من أولاد السباع/ ادوعلي... وغيرهم. والحق أن حالة التواصل ووشائج القربى التي ربطت سكان الصحراء بجيرانهم الأفارقة نتيجة الجوار الجغرافي خلق خيوط الألفة بين الطرفين حتى لأن هذه الألفة تطورت الى علاقة عائلية في بعض الأحيان نذكر منها تزوج أمير الترارزة محمد الحبيب بن أعمر ابن المختار وريثة عرش براك (ملك) والوا الأميرة جمبت diombott وولدت له الأمير علي.

الإسلامي في المناطق الإفريقية المجاورة، فيكفي أن نعلم أن أكبر الطوائف التيجانية في مطلع القرن العشرين اتباع الشيخ عمر الفوتي وأتباع الحاج مالك سي يدينون بالتلمذة لمشايخ العلويين لأخذهم عنهم مباشرة أو لتتلمذ مشاييخهم وآبائهم عليهم، وتنتشر هاتان الطائفتان في السينغال ومالي وعموم إفريقيا الغربية.[1]

خاتمة:

لم تكن المحضرة بالأقاليم الصحراوية المغربية مجرد مركز تعليمي، بل إنها استثناء مغربي بكل المقاربات. نشأت في بيئة مفتوحة على فضاء إفريقي واسع.

إنها جزء من التركيبة المجتمعية المغربية، قامت منذ لحظة إنشائها خلال العصر الوسيط على يد عبد الله بن ياسين ثم العصر الحديث على يد ناصر الدين وكذا الفترة المعاصرة على يد الشيخ ماء العينين بأدوار رئيسية في نشر العديد من الثوابت الدينية على المستوى الإفريقي تأتي في صدارتها الإسلام الوسطي المعتدل وفق مذهب مالك...

لقد حاولنا في هذا المقال أن نقدم ومضات تبرز ذلك الحضور لهذه المؤسسة في جانبه التعليمي والديني، ولا نبالغ في القول إذا ما سلمنا بكونها- كجامعة متنقلة- لم يشهد لوظائفها نظير، فقد تحدت كل المعيقات لتقوم بأدوار جليلة ومتميزة ساهمت وبقوة في نشر، بل والدفاع عن الإسلام السمح.

والحق أنه على الرغم من وفرة ما كتب عن تسامح المسلمين بشكل عام وعن اعتدال إسلام المغرب بشكل خاص وإسهاماته القوية في بثه بين أرجاء الأسرة الإفريقية، فإن إثارته تبدو ملحة وضرورية في الظرف الراهن الذي تأزمت فيه الأوضاع بعد ظهور آفة الإرهاب .فللأسف استقبل العالم العشرية الأولى من هذا القرن بأحداث مثيرة ومواجهات غير محمودة وعنف غير مسبوق، إذ وقف المجتمع الدولي حائرا مترددا.

فالإسلام الذي يتبناه المغرب هو إسلام الفضيلة الذي يحض على الاعتدال والتسامح ورفع شعار الكرامة لكل الأفراد والشعوب ولا يفرق بين أسود وأبيض في التفاضل الإنساني.

1-نفسه ص: 268.

والدين بالنسبة للمغرب- كان ولا يزال- رسالة مقدسة وتوجيه وتكوين ووعي بكرامة الإنسان وحريته ولهذا اتخذ التواصل والحوار أهم آلية لتحقيق ذلك بحكم أنه يشكل آداة التفاعل بين الإنسان والآخر، هذا واتخذ الأسرة الإفريقية قبلة لتحقيق هذه المبتغى.

فكيف يمكن- ونحن نستحضر ما قاله الخليل النحوي: «إذا نجحت المحضرة في بلوغ الهدف الذي ابتغته داخل البلاد، فقد طمحت إلى أن تنقل عطاءها وإشعاعها الروحي إلى الخارج، فكان لها أثر كبير في نشر الإسلام في ربوع القارة الإفريقية[1]» - إعادة الدور التاريخي الذي لعبته الأقاليم الصحراوية المغربية في تحقيق إشعاع ديني ومذهبي في إفريقيا؟

1-»بلاد شنقيط المنارة والرباط»، ص: 284.

مقالات داعمة

زيادات وسيلة السعادة على إضاءة الدجنة

الشيخ إبراهيم أبّ فقيه
موريتانيا..

بسم الله الرحمن الرحيم

يعتقد كثير من الباحثين المختصين بالتاريخ الإسلامي والثقافي لبلاد موريتانيا أن الفضل في دخول المعتقد الأشعري إلى بلاد شنقيط يرجع إلى أحد أبرز فقهاء الدولة المرابطية، وهو الإمام أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي المتوفى (489هـ/1094م).

ومما يرجح هذا الاعتقاد قول ابن الزيات في كتابه التشوف: «وكان محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى» .

بيد أن هذه المصادر لم تطلع فيما يبدو على مؤلفات عقدية للرجل يمكن من خلالها تأكيد أشعريته، ومعرفة نهجه وأسلوبه في تقرير المسائل العقدية ودوره في إثراء الفلسفة الكلامية كما أنها لم تقدم لنا صورة واضحة عن مدرسته العلمية التي يفترض أن تكون موردا للتلقي ومصدرا لنشر العقيدة في أرجاء بلاد شنقيط، وهذا مما يجعل حديثنا على وجه التفصيل عن مرحلة التأسيس رجما بالظنون لافتقارنا إلى الأدلة والشواهد على هذه المرحلة، بل وعن المراحل اللاحقة من القرن السادس حتى القرن العاشر الهجري الذي بدأت تبرز فيه بشكل واضح ملامح الأشعرية السنوسية التي نالت جل اهتمام العلماء في هذه البلاد ،ولا سيما المقدمة الصغرى المعروفة بأم البراهين حتى صار غير العارف بها كأنه خارج عن عداد المسلمين اعتمادا منهم على القول بأن المقلد غير مؤمن، وذي مسألة مشهورة أشار المقري إلى الخلاف فيها بقوله في الإضاءة:

وفـي المقـلد خــلاف مستطر لأنــه إيمـانـه عـلى خـطـر

وقد أثارت فتوى العلامة قطب هذا القطر مينحن (ت1150هـ) استنكارا شديدا من العلامة سيدي عبد الله بن رازكه، وسبب هذا الفتوى أن عاميا طلق زوجته فأفتى العلامة مينحن أن طلاقه غير معتبر لأن صحة الطلاق فرع عن صحة النكاح ونكاح هذا العامي غير صحيح لأنه كافر، فاستعظم العلامة سيدي عبد الله فتوى شيخه مينحن وفي ذلك يقول:

فتوى قضى الدين الحنيف بأنه ... منهـا بـريء فـهي زلـة عـالـم
فمناط إسـلام الورى نطق بما ... يُـدرى وتـنطق في انعدام عادم
ومؤلـف الصغرى وكـل مـؤلف ... مـا ألـفوا فـي عصره المتقـادم
فالكفر في التقليد في الأخرى فقط ... يختـص بالإجماع عنـد الجازم
والكـل فـي الدنـيا على إسلامه ... يـجري بملـزوم الخطـاب ولازم
والأشعـري الشـيخ أشـهـد أنه ... لـم يـرم قبـلـيا بـكفر قـاصـم
إن راجع المفتي الصواب تراجعت ... فيه اعتقاداتي وكنـت كـخـادم
ولئن تمادى أن يعـيش ليقـرعن ... وليقـرعن إن مـات سـن النـادم

ثم علق على هذه القصيدة بقوله: وما في القصيدة من التشنيع والتبديع راجع إلى الفتوى لا إلى المفتي، والله المطلع على نياتنا وعلى سرائرنا وعلانياتنا.

وقد برز في هذا القرن العلامة عمر الملقب بالخطاط البرتلي (1028-1107). فقد كان إماما غائصا في علوم المعقول متسع النظر تاركا للتقليد، يدرس كتب السنوسي والجزائرية، يحكى أنه كان يقول لو علمت عقيدة من علم الكلام لا أعرفها، وفي مصر من يعلمها لرحلت إليه أتعلمها.

وفي القرن الحادي عشر الهجري وصلت إضاءة الدجنة إلى هذه البلاد على يد العلامة عبد الله بن أحمد بن عيسى الحسنى الذي كان حيا سنة 1077هـ وأهدى

منها نسخة للعلامة ابن الأعمش العلوي (1037-1107) وقد قام ابن الأعمش بشرح هذه المنظومة، وهو أول شرح لها ولهذا صار يلقب بالشارح.

ولقد دخلت الأشعرية مرحلة الإنتاج والتميز بتأليف العلامة محمد اليدالي (ت1166) موسوعته العقدية المشهورة بفرائد الفوائد، وقد تناول هذا الكتاب مختلف القضايا الكلامية، ذكر أنه لخصه من زهاء أربعين مصنفا من مصنفات التوحيد ، ثم ارتقت الأشعرية مدارج السنا بتأليف العلامة المختاربن بونا منظومته الشاملة المسماة بوسيلة السعادة ولا تزال هذه المنظومة مخطوطة، بل وسائر الشروح الموضوعة عليها، وقد اخترنا أن يكون موضوع هذه المقال هو زيادات وسيلة السعادة على إضاءة الدجنة، وتقديم صورة عامة عن شروحه. يتكون هذا المقال من أربعة محاور.

المحور الأول: (حياة المؤلف وأهمية المنظومة)

أ) حياته: مؤلف هذه المنظومة هو العلامة شيخ الشيوخ المختاربن محمد سعيد بن بونا الجكني المتوفى 1220هـ.

أسس هذا العلامة مدرسة علمية على ظهور الإبل كما وصفها هو بذلك لأنه كان كثير السفر دائم التنقل وفي ذلك يقول:

ونحن ركب من الأشراف منتظم ... أجـل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قداتخذنا ظهور العيس مدرسة ... بـهـا نبيـن ديـــن اللـه تبـيانا

كانت هذه المدرسة جامعة لكل التخصصات العلمية، تعانقت فيها الأشعرية والفقه المالكي وتلاحقت فيها علوم المنطق والنحو والبيان، اجتمعت هذه العلوم كلها في صدر رجل واحد، سد فيها مسد إمام كل فن، فتخاله الأشعري في علم الكلام، وأشهب في الفقه وسبيويه في النحو ويوسف السكاكي في البيان والكاتبي في المنطق، كما وصفه بذلك العلامة حرم بن عبد الجليل العلوي، وذلك حين مر على معاهد

كان يدرس فيها على شيخه المختار وينهل فيها من معين علومه:

دمن دعتك إلى القريض فإن تجب ... فلمثلها يهدى القريض ويندبُ

وإذا سكتّ عن الجواب لشِرَّةٍ ... فاضت فذاك من الإجابة أصوبُ

أما النسيبُ فلا يسوغك ذكرهُ ... عصر التعلم والمشايخ يعذبُ

كنا مع البونيِّ في عرصاتها ... هالات بدر لم يشبها غيهبُ

فيها تجمَّعَ سيبويهِ ويوسف ... والكاتبي والأشعريّ وأشهبُ

لقد اعتنى العلامة ابن بونا عناية خاصة بعلم الكلام، فقد كان رحمه الله كثير المطالعة لكتبه، مهتما بتحقيق دقائقه، وتقييد شوارده، حتى صار علما مشارا إليه بالبنان من بين علماء قطره، كما أنه اقتنى مكتبة ضخمة لا تكاد توجد عند أحد من أهل عصره.

يقول العلامة عبد الرحمن بن محمذ فال بن متال في الدرر الوقادة: سمعت من شيخنا ووالدنا أن الناظم كان كثير النظر جدا، وأنه ضاعت بيده كتب لم تكن له، فدفع قيمتها لأهلها.

يقول في الوسيلة متحدثا بما أنعم الله عليه:

وقد وجدت فيه كتبا جمه ... قد صنفتها علماء الأمه

ولم أزل أطلب بالتطفل ... عليهم من منح المولى العلي

حتى جمعت بين أهل الفضل ما ... يطمع فيه من به قد علما

ولما اشتهر الشيخ ابن ابونه بعلم الكلام، وشاع عند علماء عصره بذلك طلبوا منه أن يؤلف لهم كتابا في علم العقيدة، وذلك لما يعملون من سعة علمه وجودة فهمه ووفرة الكتب عنده.

يقول في الوسيلة:

فصار أهل العصر يسمعونا ... من قبلي ما فيه يطمعونا

فطلبت بعض بني الزمان ... أن آتي اليوم بترجمان

يبدي لهم مكنون ذي العقائد ... من كل ما يخفى من المقاصد

لم يتأخر العلامة المختار ابن بونا بعد سؤالهم، بل بادر إلى إجابتهم، فأعطاهم ما سألوه، فنظم هذه المنظومة التي لخص فيها مؤلفات الإمام المجدد أشعري زمانه محمد بن يوسف السنوسي المتوفى (895هـ) وهي الصغرى المعروفة بأم البراهين، والوسطى، والكبرى المسماة بعقيدة أهل التوحيد.

يقول في الوسيلة:

فقمت للجواب مستعينا ... في مطلبي إلهنا المعينا

ملخصا من ذاك ما يفيد من ... يطلب ما يغنيه لكن بالثمن

نظما حوى عقائد الشريف ... محمد السنوسي الظريف

لخصت فيه ما حوته الصغرى ... مع ضمن وسطاه وضمن الكبرى

سميته وسيلة السعاده ... في نشر ما تضمن الشهاده

ومن هنا يظهر الفرق بينه وبين المقري في الإضاءة، فإن المقري لم يقصد تلخيص هذه المؤلفات وإن اعترف بأنه استمد من فيضها:

كما تولى بسطه السنوسي ... مغترفا من فيضه القدوس

وقد أخذت كتبه درايه ... عمن تلقى في العلوم الرايه

ب) أهمية الكتاب: امتازت منظومة وسيلة السعاة في مجملها بكونها واضحة المعاني جميلة الأسلوب كما أنها اشتملت على فرائد أثيرة وفوائد كثيرة من فصول التوحيد وقواعده مع ما فيها من الفوائد الأصولية والبيانية والمنطقية التي لا توجد في المطولات فضلا عن إضاءة الدجنة.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن محمذ فال بن متال أن هذه المنظومة احتوت على فوائد لم يسبق إليها الناظم.

ويقول الشيخ عبد القادر: «اشتغلت بمعاناتها الجلة الأخيارولزموا قراءتها في هذه الأعصاروالأمصار» .

راجت هذه المنظومة في حياة المؤلف، وأولع أهل شنقيط بحفظها وإقرائها وتدريسها في المحاضر، حتى استغنوا بها عن قراءة مؤلفات السنوسي التي كانت معتمدهم في العقائد، فقد كان أحدهم يمكث سنين عديدة في إتقان تآليف السنوسي، حتى لا يبقى عليه منطوق ولا مفهوم، وذلك ليصير عندهم مؤمنا حقيقة.

كما أغنى نظمه المسمى بالتحفة عن مختصر السنوسي في المنطق.

وفي ذلك يقول العلامة حرمة بن عبد الجليل العلوي مخاطبا شيخه المختاربسبب المساجلات التي وقعت بينه وبين بعض علماء عصره حول مسائل علم الكلام:

أمختار صه فالحال عنك تكلما ... وكذب ما ترمى به متهكما

فهل تضرب الأمثال في العلم والذكا ... لغيرك يا نبراس من كان أظلما

فأنت أبو عذر العويص الذي نبا ... شبا كل فهم دونه وتثلما

فمن سهل التسهيل بعد صعوبة ... ومن لخص التلخيص درا منظما

وأغنى عن الشيخ السنوسي منطقا ... وعلم كلام من يريد التكلما

المحور الثاني: (الزيادات العقدية)

لما كان التأليف في علم العقائد وسائر علوم الشرع هو من البدع المستحسنة بين العلامة المختار بن بونا أن ترك البدعة قد يكون بدعة، لأن البدعة قسمان : بدعة تخالف أصول الشرع وقواعده وعمل السلف الصالح، فهذه مذمومة يجب تركها، وبدعة تتناولها أدلة الشرع وقواعده كالتأليف في العلوم النافعة، فهذه تركها يكون ابتداعا، وذلك مثل بحث الخلف في الجرم وأعراضه ليستدلوا على حدوث الجرم بحدوث عرضه وبذلك يستدلون على حدوث العالم وثبوت الصانع وصفاته، وكذلك بحثهم في أصول الفقه و النحو البيان لأن هذه العلوم أداة لفهم كتاب الله، وكذلك بحثهم في علم الطب وعلم الحساب، فعلم الطب وسيلة لحفظ الأبدان، وعلم الحساب وسيلة لتدبير المعاش وإصلاحه.

ولقد استغنى الصحابة عن هذا كله بمصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم وبمشاهدة أنواره وبكونهم عربا نزل القرآن بلغتهم.

يقول في الوسيلة:

فالخير كله في الاتباع ... والشر كله في الابتداع

أعني الذي مضمونه قد اختلف ... مع الذي عليه صالح السلف

إذ كل بدعة بها اتباع ... سنتهم فتركها ابتداع

كالبحث عن أعراض هذا العالم ... وجرمه وعن صفات العالم

والبحث في الأصول والمعاني ... والطب والحساب والبيان

وشكل أحرف الكتاب والنقط ... وما به بعد الصحابة انضبط

لأن كل بدعة من ذي البدع ... لها تلبس بما الهادي شرع

لأنه نور وهذا مقتبس ... من آنس النور فجاء بقبس

وكان نور الوحي مغن للسلف عن الجذى التي بها تقفو الخلف

كما عن التصريف والإعراب تغني الطباع ألسن الأعراب

والمصطفى يغني عن التهجي ليس العرب كالبغال العرج

ومن هنا دعا العلامة ابن بونا إلى التوسط والاعتدال والبعد عن الإفراط والتفريط في الاتباع، لأن ذلك شأن الجاهل، وأما العالم فإنه يكون معتدلا متوسطا بين طرفي الإفراط والتفريط مبينا أن النصارى أفرطوا في عيسى حين ادعوا أنه ابن الله، وفرطوا في موسى حين أنكروا نبوءته، وعكس اليهود ففرطوا في عيسى حين كذبوه، وأما أمة النبي صلى الله عليه وسلم فقد هداهم الله تعالى إلى الإقساط في جميع الأنبياء:

ولا تكن في الاتباع مفرطا ولا مفرطا ولكن أقسطا

فالعالم الذي في الاشيا يقسط والجاهل المفرط والمفرط

مثل النصارى أفرطوا في عيسى بما ادعوا وفرطوا في موسى

وعكسهم معاشر اليهود وفرط الجميع في المحمود

محمد الحائز الارتفاع أفضل خلق الله بالإجماع

عليه أزكى صلوات الباري ما كور الليل على النهار

فنحمد الله على اهتدائنا للقسط في جميع أنبيائنا

ثم أوضح العلامة مفهوم الإقساط في الأنبياء والأولياء، فبين أن الإقساط في الأنبياء هو اعتقاد أنهم معصومون، وأما الأولياء فهو تجويز الكرامة في حقهم، فيمكن أن يكشف الله لهم عن بعض المغيبات وهذا لا يتنافى مع قوله تعالى {فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول} لأن في الكلام حذفا كما قال الغزالي

يدل على صحة تقديره الشرع والمشاهدة الضرورية وهو إلا من ارتضى من رسول، ومن اتبع الرسول بإخلاص واستقامة، كما يجوز أن يمنحهم الله تعالى علوما لدنية من عنده، وكذلك يمكنهم الوصول إلى مكة والمدينة من أي مكان شاءوا دون عناء أو مشقة، إلى غير ذلك من الخوارق التي يظهر بها شرف العبد عند الله تعالى، ثم بين أن المفرط هو الذي يعتقد وجوب ظهور هذه الخوارق على يد الولي، وأن المفرط هو يعتقد استحالة ظهورها على يديه.

وفي ذلك يقول في الوسيلة:

وإنما الإقساط في النبي إيجاب عصمة وفي الولي

تجويز أن يوتيهم الكرامه من قد هداهمُ للاستقامه

كالكشف والعلم بلا تعلم وكالوصول للبقاع الحرم

بحيث ما كانوا بلا تكلف وكل أمر خارق مشرف

لكن من أوجب هذا أفرطا في أمرهم ومن أباه فرطا

وفي مسألة الكرامة، تظهر زيادته على الإضاءة، فإن المقري اقتصر على القاعدة دون ذكر مثال لها من الخوارق التي ظهرت على يد أولياء هذه الأمة حيث قال:

ولا تصخ لمن أبى الكرامه للأولياء واجتنب مرامه

أما ابن ابونا فقد أشار إلى قصة البطاقة التي أرسلها عمر رضي الله عنه إلى نيل مصر والتي كتب فيها إن كنت تجري من قبلك، فلا حاجة لنا في جريانك، وإن كان الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك ، وأشار كذلك إلى قصة: سارية الجبل المشهورة.

يقول في الوسيلة:

كرامة الولي حق وظهر منها كثير كرسالة عمر
لنيل مصر وسماع ساريه منه الكلام في البلاد النائيه

كما تحدث عن وجوب محبتهم، واستحباب طلب الدعاء منهم وزيارتهم لأن الله تعالى قد يعفو عن المذنب بسبب بركة الولي ويسعد بالهداية من كان ضالا بسبب زيارته.

يقول الشيخ عبد القادر في المباحث الجليلة: وجد بخط السنوسي أنه من احترم وليا أو توسل به فقد عظم حرمات الله، هذا للمتوسل، فكيف بالمواظب على زيارتهم والتضرع والبكاء عند قبورهم.

وحبنا الولي مما وجبا شرعا وفي دعائه فلنرغبا
وكم ينال العفو من بركته كما ينال الهدي من زيارته

بين كذلك أن كل ولي فهو عالم وليس كل عالم وليا فقال:

كل ولي عالم لا كل من يكون عالما ولي فاعلمن
ونسبة العالم للولي كنسبة الولي للنبي
فهو إذا أعم منه مطلقا هذا الذي قد قاله من حققا

يقول العلامة أحمد بن المختار المالكي في شرحه على الوسيلة: قال السنوسي في شرح الوسطى: ومن شروط الولي أن يكون محيطا بجميع علوم الشريعة بحيث لو ذهب جميع علماء الدنيا وضاعت كتب الشريعة جميعا من عقائد وفروع وتصوف وآلات من لغة وأصول وبيان لوجد حافظا لجميع ذلك.

كما تحدث عن حكم سؤال الولي عن الغيب، فبين أن الولي وإن كان يجوز أن يكشف الله له عن بعض المغيبات لكن لا يجوز سؤاله عن الغيب وهو بدعة مذمومة.

يقول في الوسيلة:

أما سؤاله عن الغيب فلا يجوز وهو بدعة لن تقبلا

لم يقتصر على تحريم سؤاله عن الغيب بل اعتبر القطع بتصديقه كفرا فقال:

وقطعنا بما به الولي أخبر كفر عكسه النبي

وقد بحث في هذا البيت الشيوخ، فألف الشيخ سيدي المختار الكنتي كتابه: «جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار» في الرد عليه.

وقد ألف في المسألة الشيخ أحمد بن حمى الله التيشيتي كتابه: «منة العلي في مسألة القطع بما أخبر به الولي»، نقل فيه عن بعض شيوخه أن المراد قطع يلزم منه تبليغ الولي مرتبة النبي.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمذ فال بن متالي: والصواب في هذا البيت قول من قال:

وقطعنا بما به النبي أخبر حتم، عكسه الولي

كما ذكر الشيخ عبد الرحمن أيضا أنه وجد بخط السنوسي: أن تبشير بعض الأولياء لشخص بالجنة ليس مخالفا للسنة لصدور ذلك من متبوعهم الذي إنما شرفوا بالتزام اتباعه.

وحمل العلامة الشيخ محمد بن أمين بن الفراء التندغي في شرحه الوسيلة كلامها على ما إذا قطع به قطعا لا يقبل الشك ولا التغيير، لأنه حينئذ يكون قد نزله منزلة النبي، حيث أحال عليه الكذب عقلا؛ وأما لو قطع بما أخبره به من غير أن يحيل عليه الكذب عقلا فليس بكفر، كالقطع بالإخبار من غير الأنبياء، فإن السامع قد يقطع به مع أنه يقبل التبديل عنده عقلا.

وأما العلامة الشيخ عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي فقد نظر في شرح الوسيلة في مراد المختار من البيت، منكرا أن يكون قد قصد ظاهره.

يقول شيخنا حفظه الله وأدام نعمته علينا في حلي التراقي : ولعل وجه ذكر سيدي عبد الله لهذه المسألة في قوله:

فـي غيـره الـظن وفيـه القـطع لأجـل كشـف مـا عليـه نقـع

بيان ما هو الحق عنده في الخلاف الشهير الذي أثاره بيت شيخه العلامة المختار بن بونه في وسيلته، وكما أثار هذا البيت خلافا فقد أثار أيضا قوله في الوسيلة:

لقـولـه قـل للـذين كـفروا إن ينتـهوا يغـفر لهم ما أغبروا

مشيرا لقوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}

خلافا آخر بينه وبين العلامة المجيدري لأنه أنكر عليه تبديل قوله تعالى: { قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف } .

والذي يظهر أن هذا من العقد الجائز لأن الناظم ليس مقصوده التلاوة على وجهها، وإنما مقصوده بيان موضع الدلالة.

والعقد عند أهل البيان: أن ينظم نثرا قرآنا أو حديثا أو غير ذلك لا على طريق الاقتباس بأن يقع تغيير كثير، أو يشير إلى أنه من القرآن، قال في عقود الجمان:

ومنــه عـقدٌ نظمُ نثر لا على طريـق الاقتباس ما قد خلا

يقول السيوطي في شرحه: وما أظن في جوازه خلافا.

ومما يدل لذلك ما نقله شيخنا حفظه الله وأدام نعمته علينا في حلي التراقي : عند قول سيدي عبد الله في المراقي:

دون ارتـباط وهـو في التأليف يسـوغ بالـوفق بـلا تعنـيف

قلت: وفي شرح النووي على مسلم لما ذكر حديث عائشة في رؤية الباري عز وجل قال: وأما قولها (أولم تسمع أن الله تعالى يقول: «ما كان لبشر») فهكذا هو في معظم الأصول، «ما كان» بحذف الواو، والتلاوة «وما كان» بإثبات الواو، ولكن لا يضر

هذا في الرواية والاستدلال؛ لأن المستدل ليس مقصوده التلاوة على وجهها، وإنما مقصوده بيان موضع الدلالة، ولا يؤثر حذف الواو في ذلك، وقد جاء لهذا نظائر كثيرة في الحديث، منها قوله: فأنزل الله تعالى: «أقم الصلاة طرفي النهار» وقوله تعالى: «أقم الصلاة لذكري»، هكذا هو في روايات الحديثين في الصحيحين، والتلاوة بالواو فيهما. والله أعلم. اهـ كلام النووي.

ومما زاد به العلامة ابن بونا أنه ذكر ضابطا يعرف به الحق من الضلال وفرع على هذا الضابط تحريم الدخان فقال:

والحق سعي في المعاش البادي حـلا وفـي حـسـنـة الـمعاد
وغـيـره الـضلال بالإمـعان ومنــه الاشتغــال بالدخان
لأنــه لا يــجلب الـمــنافعا ولـم يـكـن لـما يضر دافعا
وإنما الــذي لــه قــاد الـهوى ومـن يقده في الـمهالك هوى

وما حكى عن بعض أهل المشرق نـاس من الـجواز غير مشرق

ومما زاد به أيضا أنه بين أن الجهل بلسان العرب قد يكون سببا للكفر وذلك كفهم المجسمة الجسمية من قوله تعالى {لما خلقت بيدي} فقد جهلوا أن العرب تطلق اليد على القدرة والنعمة، وكفهم النصارى تركيب الإله من قوله تعالى: (وروح منه)، فجعلوا من للتبعيض وإنما هي ابتدائية، وكفهم المعتزلة من قوله تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر)، أن هناك أشياء ليست بقدر من الله لأنهم جعلوا (خلقناه) في موضع الصفة، وأخذوا من مفهوم الصفة أن هناك شيئا غير مخلوق لله تعالى، ولم يعلموا أن جملة خلقناه لا محل لها من الإعراب لأنها مفسرة.

يقول في الوسيلة:

ورب كـفـر نـاشـئ مسـيب عن جهل شخص بلسان العرب

ومن زيادته أيضا أنه بين أن من كان مخالفا في عقيدته لأهل السنة فلا يقبل منه عمل صالح ولا تقبل منه توبته مادام على فسقه لأن البدعة تحبط العمل كالكفر فكما لا يصح عمل مع الكفر فكذلك لا يصح عمل مع البدعة، يقول في الوسيلة:

وفسق الاعتقاد ليست تقبل معه من الذنب ولا ما يُعمل
كالقدرية وكالجبريه والمنكري صفاته الذاتيه
هذا الذي أرى وفيه ألمع رأي السنوسي الذي قد أجمعوا
أن له نورا أضاء الظلما واقتبست منه فحول العلما

قال الشيخ عبد القادر في المباحث الجليلة: ولم أجد مخالفا للسنوسي في هذا، وفي الحديث أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يرجع عن بدعته.

وهنا وقع لي إشكال، وهو أن العلامة سيدي عبد الله استظهر أن يكون المدرك في عدم تكليف الكفار بالفروع هو عدم قبولها منهم، حيث قال في المراقي:

والرأي عندي أن يكون المدرك نفي قبولها فذا مشترك

فهل يكون صاحب البدعة كالكافر غير مخاطب بفروع الشريعة لوجود الضابط فيه وهو عدم القبول؟ أم هو مخاطب بفروع الشريعة، وإذا كان مخاطبا بها فما الفرق بينه وبين الكافر؟

ومن زيادته أيضا أنه ببين أن العوام يكتفى منهم بالظواهر، وهو نطقهم بالشهادتين، وأنه لا يجوز التفتيش عن عقائدهم بل هو بدعة لأنه يؤدي إلى إضلال العامة إذ لا يساعدهم المقال في البيان.

والجاهل المقر بالحق فدع والبحث عن ضلاله من البدع
مثل سؤاله عن الدليل لأنه يفضي إلى التضليل
إلا للاختبار والتمكين إذ النصيحة بمعنى الدين

الأسماء والصفات: ومن زيادته أنه تبع المتأخرين الذين قسموا الصفات إلى ستة أنواع فزادوا على الصفة السلبية والمعنوية والحال بأربع صفات.

1 - الصفات الجامعة أي الجامعة لجميع الصفات التنزيهية والثبوتية لأن جميع الصفات تدخل تحت كل واحدة منها فمثلا الفضل والكرم والعطاء من الصفات الجامعة ولا يتصور العطاء إلا فيمن استغنى عن كل شيء وافتقر إليه كل شيء، وكذلك العدل هو التصرف بما شاء لا يتصور إلا فيمن له القهر والغلبة في كل شيء، ولا يتصور أن يكون أعظم من كل شيء حتى يستكمل العشرين، ويدفع عنه كل نقص.

2 - صفة الإقلاع، والإقلاع في اللغة الكف ومن ذلك كف الله تعالى عن تعذيب العاصي.

3 - صفة السمع وهي الصفة التي ورد بها السمع مع أن ظاهرها مستحيل على الله تعالى.

4 - صفة الفعل وهي عبارة عن صدور الآثار عن صفاته تعالى، ولهذا قال الأشعري بحدوثها وخالفه أبو المنصور الماتريدي فذهب إلى قدمها لكن لم يتوارد خلافهم على محل واحد لأن صفات الأفعال التي قال الأشعري بحدوثها ليست في الحقيقة صفة لله تعالى وإنما هي إضافة اعتبارية تعرض للقدرة.

قال في الوسيلة:

ثم الصفات أضرب أي معنى سلبية حال فأما المعنى

فصفة إلى الوجود تنتمي وذات سلب ما انتمت للعدم

وصفة جامعة كالعظمه من ذاك فاعدد فضله وكرمه

وعدله وكالجلال فادريا وملكه وقهره والكبريا

وعزه وصفة الأفعال أي فعله كالهدي والإضلال

والخلق والإهلاك والإحياء والرزق والإسعاد والإشقاء

وصفة الإقلاع كالغفران والحلم والعفو عن العصيان

وصفة السلب كالاستحياء وغيرة الله والاستواء

والكيد والمكر كذا المخادعه وصبغة الله فلا تخادعه

كما بين أن صفة الفعل والإقلاع ليست واجبة في حقه لكنها دليل على الصفات الواجبة:

وغير هاتين له جل تجب وهي له جائزة فلتحتسب

لكنها هي دليل الواجبه لأنها لنقضهن سالبه

كما أنه زاد بتعريف الصفة المعنوية والسلبية حيث قال في الوسيلة:

حكم على الموجود بالموجود لا سواه معنوية قد جعلا

يقول الشيخ أحمد بن المختار في شرح الوسيلة: الصفة المعنوية هي صفة ثابتة للذات لأجل معنى قائم بها، ككونه قادرا ومريدا وعالما وحيا، فالموجود المحكوم به القدرة والموجود المحكوم عليه هو الله تعالى.

كما أنه زاد في صفة الحال فصاحب الإضاءة اقتصر على قوله:

واسطة بين الوجود والعدم ونهجها تشكو الوجا فيه القدم

وأما صاحب الوسيلة فبين أن جعلها واسطة أمرا ظاهرا لا إشكال فيه، لأن الحال لو كان موجودا لنقلنا الكلام إلى وجوده، ثم إلى وجود آخر ثم إلى وجود ذلك وهلم جرا، ولو اتصف بالعدم لزم أن يتصف الموجود بما ينافي الوجود وهو العدم، وذلك محال لامتناع قيام الشيء بما اتصف بحكم منافيه، فكما لا تقوم الحركة بما اتصف بكونه ساكنا لا يكون الوجود صفة لما اتصف بكونه معدوما.

ويلزم أيضا منه أن الموجود يتركب من الأمور العدمية، لأن البياض مثلا مركب من اللونية والبياضية، وهو موجود، فلو كانت اللونية والبياضية عدميتين لتركب الموجود من العدميات.

قال في الوسيلة:

والحال ما ليس إلى وجود أو عدم ينسب كالوجود

والمعنوية وكون الحال واسطة باد بالاستدلال

لأنه لو بالوجود جعلا متصفا لاستلزم التسلسلا

أو كان بالعدم ذا اتصاف لاتصف الموجود بالمنافي

وركبت ماهية الموجود من عدميات بلا جحود

ومن زياداته أيضا أنه بين أن أسماء الله تعالى منها ما هو مختص بها كاسم الله واسم السلام والقدوس واسمه ذي الجلال والإكرام ومنها ما هو مشترك كاسمه المهمين واسم البر والرؤف والرحيم.

قال في الوسيلة على سبيل اللف والنشر المرتب:

وبعضها لم يدع غيره به ... وبعضها مشترك فانتبه
كالله والقدوس والسلام ... فاعلم وذي الجلال والإكرام
وكالمهيمن وكالحليم ... والبر والرؤوف والرحيم.

ومن زياداته أن اسمه الأعظم هو الله وأن إضافة الحمد المعرف بأل الدالة على الاستغراق خاص به لأنه هو الدال بالمطابقة على الذات، فلا يجوز إضافته للرحمن وللرحيم.

أما اسمه الأعظم فهو الله ... عمن له بسره انتناه
وإذ له دلالة المطابقه ... لذاته وللصفات اللائقه
لذلك الحمد إلى سواه لم ... يضف كما أفاده أهل الحكم

رؤية الله تعالى

اقتصر المقري في قاعدة الشعاع على هذا القدر، فقال في الإضاءة:

وأهل الاعتزال والضلال ... قضوا بأنها من المحال
إذ فسروا الرؤية بالشعاع ... وذاك في ذا الباب ذو امتناع
وإنما الرؤية معنى خلقا ... في الشيء بالمرئي قد تعلقا

وأما صاحب الوسيلة فقد أفاض في الرد على المعتزلة في قاعدة الشعاع، فإنهم جعلوا الرؤية مسببة عن انبعاث الأشعة، والأشعة عندهم اسم أجزاء مضيئة ، تنفصل من العين وتتصل بالمرئي، بشرط أن يكون في مقابلة الرائي، وبشرط انتفاء القرب والبعد المفرط، وأما عند أهل السنة فهي معنى أي وصف وجودي قائم بالرائي يخلقه الله تعالى فيه، فإذا قام به ذلك المعنى انكشف له الشيء المرئي، وردوا

على المعتزلة في قولهم أن الرؤية إنما هي باتصال الأشعة المنبعثة من العين بالمرئي بأن الساري يرى النار من بعيد، ولا يرى ما دونها، فلو كانت الرؤية إنما هي بالاتصال لم تتصل بالنار حتى تتصل بما دونها كما ردوا عليهم في دعواهم أن الرؤية تقتضي المقابلة برؤية الإنسان لنفسه في المرآة والماء لاستحالة أن يقابل الشيء نفسه، كما بين أن الرؤية لا يمكن تعقلها قبل حصولها وعدم تعقلها لا ينافي وقوعها، فنحن نقطع بوقوع أشياء في هذه الدار بالمشاهدة كنمو الإنسان مع أننا لا ندرك حقيقته.

يقول في الوسيلة:

ولا تصخ لأهل الابتداع ... إذ جعلوها بعثة الشعاع
بل هي معنى قائم بالمرء ... قد اقتضى له انكشاف المرئي
فكل ما شاء تعلقت به ... فيتراءى ربنا فانتبه
أما ترى النار يراها الساري ... ولا يرى ما دون تلك النار
دعوى اقتضا رؤيته المقابله ... برؤيتي في الماء وجهي باطله
ورؤية الباري جوازها ثبت ... ومن يُخِلْ فذو بصيرة عمت
ولم يصل عقل إلى تعقل ... كيفية الرؤية ما لم تحصل
وربما وقع أمر مدرك ... من أمره وكنهُه لا يُدرك
أما ترى النمو بالشخص يقع ... ولا يُرى متى ولا كيف وقع
سبحان من حكمه دقيقه ... ولا يُرى لكيفها حقيقه

خلق الكون من نور النبي صلى الله عليه وسلم

ونختم هذا المحور بحديثه عن خلق الكون من نور النبي صلى الله عليه وسلم فكل معدوم برز إلى الوجود فهو من نوره صلى الله عليه وسلم، ونوره صلى الله عليه

وسلم خلق قبل إيجاد الخلق، فهو أول المخلوقات وجودا.

قال في الوسيلة:

هـذا ومـن أنوار أحمد خلق من قبل كون الخلق كل مؤتلق

قوله مؤتلق هو مفتعل من ألق البرق إذا خطف أي كل أمر ظهر بعد خفائه.

ولقد نقل الشيخ عبد القادر بن محمد بن محمد سالم في المباحث الجليلة عن السنوسي أنه قال في شرح الحوضية عند قولها:

مـن نـوره خلـقت الأكوان وظـهر الدليـــل والبــرهان

إن من تشريف الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن وقف وجود الكرامات الدنيوية والأخروية والأنوار الحسية والمعنوية بل وقف مع ذلك وجود جميع الكائنات على وجوده صلى الله عليه وسلم.

المحور الثالث: (الزيادات غير العقدية)

اشتملت الوسيلة على زيادات من غير مسائل علم الكلام كالمبادئ العشر كما زادت ببعض المسائل الأصولية والمنطقية وفوائد أخرى من سائر العلوم:

المبادئ العشر

مما زاد به العلامة المختار في الوسيلة أنه فصل في المبادئ العشر لهذا العلم وهي التي أشار إليها المقري في الإضاءة بقوله:

مـن رام فـــنا فليقدم أولا علـما بحده وموضوع تلا

وواضع ونسب وما استمد منه وفضله وحكم يعتمد

واســم ومـــا أفاد والمسائل فتلـــك عـشر للمنى وسائل

فذكر حده اللقبي وحده الإضافي، فأما اللقبي فهو علم بالقواعد التي بها تعلم العقائد الدينية وأما حده الإضافي فهو مركب من جزأين، وهما الأصول، والدين، والأصل ما ينبني عليه غيره، والدين هو الإيمان والإسلام والإحسان. وفي ذلك يقول في الوسيلة:

وحـده بـــاللقـــبـي عـــلْـــمُ قواعد يـدرك مـنـها الفـهـم

عقـــائد الســنـــي وبالإضـــافي فالأصل مبنى الشيء فلتصاف

ذكر موضوعه فحكى فيه أربعة أقوال:

فقيل هو ما يتعلق به علمنا من قديم أو حادث ذاتا كان أو صفة، موجودا كان أو معدوما لأن المتكلم يقسم المعدوم إلى ما كان واجبا عدمه، كعدم الشريك، وإلى ما عدمه جائز كعدم ولد زيد العقيم، ويقسم الموجود إلى قديم وحادث؛

وقيل موضوعه الوجود المطلق ممكنا كان أو واجبا لأنه يطلب في علم الكلام لواحق الوجود لذاته ككونه واجبا أو ممكنا، أو حادثا أو قديما أو جوهرا أو عرضا؛

وقيل موضوعه الممكن من حيث دلالته على الموجود وأوصافه؛

وقيل موضوعه ذاته تعالى لأنه يبحث فيه عن صفاته وأفعاله، ورد هذا القول الرابع لأن ذاته تعالى إن كانت موضوع علم الكلام، فإما أن تكون بينة في نفسها أو مبينة، ولا يصح أن تكون بينة لاختلاف الناس فيها، إذ منهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد النار، ومنهم من عبد الحجارة.

وإن كانت مبينة فإما أن تكون مبينة في هذا الفن أو في غيره، وكلاهما لا يصح لأن بيانها في الفن يلزم منه توقف الشيء على نفسه، وبيانها في فن آخر يقتضي كون ذلك الفن أعلى العلوم ولا شيء أعلى من فن الكلام.

موضوعه الذي به يبحث عن عـوارض ذاتـية لـه تـعـن
معلـومنا أو الـوجود المطلق وقيل هو الـممكن الـمحقَّق
مـنـه الـمصور مع الصفـات ولـيـس فـاردد زعـمه بالذات
لأنـــه لا بـــد أن يـبـيـنا في علم أعلى أو يكون بينا

بين أن استمداده من معرفة أقسام الحكم العقلي، لأن المتكلم يثبتها تارة وينفيها، كقولنا يجب لله تعالى ثبوت الصفات الزائدة على الذات، ويجوز في حقه إيجاد المكمن ولا يجب عليه فعل الصلاح والأصلح.

وكذلك يكون استمداده من الكتاب والسنة المتواترة والإجماع القطعي، وفي ذلك يقول:

وكـل فـن فـاز أهـله بـما لـم يك فـي فـن سـواه علما
وأهـل ذا الفـن بكـل مـجـد إذ كـل فـن دونـه لا يجـدي
من غيـر عكس فإلى العلوم نسـبتـه كـنسـبة الـعمـوم

بين النسبة بينه وبين سائر العلوم وهي نسبة العموم لأن علوم الدين كلها متوقفة عليه إذ لا يصح ثبوت علم شرعي قبل ثبوت الشرع الموقوف على ثبوت صدق الرسول الموقوف على صدق المعجزة الموقوف على صدق الله تعالى وهو موقوف على النظر في علم الكلام.

يقول في الوسيلة:

وفـضـله نـعـلمه مـن أجـل مـعـلومه فـهو أجـلّ فـضل
لأنـه الـمـوصـل الأذهـان لقـوة اليقيـن بـالبـرهان

أشار إلى فضله فبين أن شرف العلم تابع لمعلومه، ومعلوم هذا العلم هو ما يجب ويستحيل ويجوز في حق الله تعالى.

أشار إلى اسمه وذكر له ثلاثة أسماء:

وأفـضـل الـعـلوم بالإطلاق عـلـم بـه مـعـرفـة الخـلاق
وهـو الـذي يدعـون بـالتوحيد ولا يـــرون عـنـــه من مـحيد
كـمـا يسمى عنـد أهـل الفهم علم الـعـقـائـد بـغـيـر وهـم
وعـلـم أصـل الـدين والكلام والـدين الايمـان مـع الإسـلام
ومـع الاحـسـان وأمـا الـثـاني فـقـصـره عليه فـي القـرآن
لأنـه الـيـهـود والـنـصـاري دينـهـمـا إلـى الـضـلال صـارا

مسائل هذا العلم: فذكر أنها مقاصده التي تثبت فيه بالبراهين العقلية كحدوث العالم وإثبات الصانع أو بالأدلة النقلية كإثبات الحشر والجنة والنار، وبعض مسائله مبادئ إلى مسائل أخر كمبحث الحال ومبحث الدليل فإنهما مبدآن إلى مسائل كلامية:

ومـا ببـرهـان مـن الـمقاصـدْ ينمى إلى العقـل فـعِ الفـوائدْ
يثبـــت أو بالنـقل فالـمسائـل وبـعـضـهـا لـبعضها وسـائـل

بين فائدته وهي الوصول إلى السعادة الأبدية، والذب عن الدين ونصرته ومقابلة أهل البدع والعناد بالدلائل لتظهر السنة على البدعة:

مـــفـاده لأهـلـــه الـسـعـــاده وفـــوزهـم بـثـمرة الـعـبـــاده
وهي النجاة من عذاب الخالق مـع الوصـول للنـعيم الرائـق
والذب عن دين العلي بنصرته ورد ذي البـدعـة عـما بـدعـته

بين حكمه فذكروجوب تعلم ما يخرج به المكلف عن التقليد وأما معرفة ما يكون الرد على أهل الشبه والضلال فهو فرض كفاية كما أنه ذكر أن ابن العربي نقل منع النظر في منع الكلام عن الأئمة الأربعة، وقد ردوا هذا النقل قائلين إنه لا يصح، ولا سيما مالك فقد نقل ابن القصار عنه الوجوب.

وقد جمع بعض العلماء بين القولين عن مالك بأن القول بالوجوب محمول على الأذكياء الغائصين في المعقول والمنقول فيجب عليهم النظر.

والقول بالتحريم محمول على العوام فإنهم يحرم نظرهم في علم الكلام وقد صنف الغزالي كتاب: إلجام العوام عن الخوض في مسائل علم الكلام.

يقول في الوسيلة:

ففرض عين ما من التوحيد يخرج ذا العقل عن التقليد
وما به الرد على أهل الشبه فرض كفاية وتلك المرتبه
بها يخاطب الذكي لا الغبي ونقل منع النظر ابن العربي
عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد عنه أبي

ثم قال:

ونقلوا وجوبه عن مالك وجَمَع الاشياخ بين ذلك
بأن منع ذاك في حق العوام من أجل ذا صنف إلجام العوام
عن الكلام حجة الإسلام والأذكيا يجب في الكلام
خوضهم لكثرة المناظره بين ذوي البدعة والأشاعره

القواعد المنطقية: تعرض للنسب الأربع بين الأشياء، فذكر أنها إما أن تكون نسبة تباين كالنسبة بين الحديد والنحاس، أو نسبة مساواة كالنسبة بين الحد

والمحدود، أو نسبة عموم وخصوص مطلق كالنسبة بين العبادة والزكاة، أو نسبة عموم وخصوص من وجه كالنسبة بين الفرض والصلاة.

يقول في الوسيلة:

ونسبة الأشياء للأشياء تباين ونسبة استواء
ثم عموم وخصوص أطلقا أو قيدا بجهة فحققا
كنسبة النحاس للحديد ونسبة الحد إلى المحدود
وكالعبادة إلى الزكاة ونسبة الفرض إلى الصلاة

ثم بين أن الشيئين إذا كان بينهما تباين فإنه يصدق السلب الكلي والجزئي، وإذا كان بينهما تساو فإنه يصدق الإيجاب الكلي والجزئي، وإذا كان بينهما عموم وخصوص مطلق فإنه يصدق الجزئية السالبة والموجبة عند جعل الأعم موضوعا والأخص محمولا، وإن جعل الأخص موضوعا صدقت الموجبتان وكذبت السالبتان، وإن كان بينهما عموم وخصوص من وجه صدقت الجزئيتان وكذبت الكليتان:

للأول السلبان فاعلم مطلقا والثاني الايجابان فيه صدقا
للثالث الجزئيتان إن حمل وما خص والموجبتان إن جعل
ما عم محمولا وأيضا حققا للرابع الجزئيتان مطلقا

المسائل الأصولية: تعرض لتعريف الحكم الشرعي وأقسامه، كما تحدث عن وجوب التزام مذهب معين وحرمة الفتوى بالقول الشاذ إلا عند وجود ضرورة أو حكم بصحته من قوله يرفع الخلاف، وأن الأورع هو الذي يخرج عن خلاف المخالف ولو كان قول المخالف ضعيفا.

يقول في الوسيلة:

واعـلم بـأن كـل قـول شـذا ... ينـبـذ عن وضع الفتاوي نـبذا

إلا اضـطرارا ولـذي رأي يـرى ... صحـتـه الـحكمُ بـه بـلا مـرا

وأن الاورع الـذي يـخـرج عن ... خـلافهم ولـو ضعيفا فاستبن

وأن الارجـح التـزام مـذهب ... معيـن وغـيـر ذا عنـه أبـي

آداب البحث والمناظرة

نختم هذا المحور بحديثه عن أحكام الجدل والمناظرات، فعرف الجدل: بأنه بحث بين اثنين فأكثر إما لتحقيق حق أو لتغليب ظن أو لإبطال باطل.

وبين أن الأحكام الخمسة تعتريه فيجب إذا كان المقصود منه إحقاق الحق وإبطال الباطل وإزالة الشبه.

ويحرم إذا كان لحظ النفس وقد مثل له العلامة حبيب الله بن الأمين الشقروي في الهبة الجزيلة بأن يتكلم في العلم في مجلس لا يعرفونه أصلا، أولا يعرفونه أنه عالم، أو لا يعرفون مكانه من العلم، فأراد أن يظهر لهم ذلك ليعطوه مالا أو نحو ذلك من الخير، أو أرادوا به شرا فأظهر لهم ذلك ليهابوه، ثم قال: والظاهر هو الكراهة.

ويندب إذا كان المقصود منه شحن الذهن ومباح لتمرين أو اختبار فهم الطالب ومكروه إذا لم يكن لمقصد.

قال في الوسيلة:

وشـرع الجدل وهو أن يقع ... خوض من اثنين لتحقيق لمع

للحـق والظن ونفي الباطل ... مضى عليـه عمل الأفاضل

كـالأنـبـياء ولـــه وجـــوه ... فـمـع نـفـي مقصد مكروه

وقصد إظهار لباطل على ... حق وإخفا ظاهر قد حظلا

وحظ نـفي مـن علو القدر ... لجلـب خيـر أو لدفع الشر

وأوجبـوه لابتـغاء المـعرفه ... عند ظهور الشبه المختلفه

ولـك تشحيـذ الـذكا مندوب ... وجـائز في غير ذا مطلوب

كمثل تمرين لفهم المختبر ... وشرطه ضبط قوانين النظر

كما أنه تعرض لشروطه وآدابه، فشروطه أربعة:

الأول: أن يكون ضابطا لقوانين النظر من كيفية إيراد الأسئلة والأجوبة والاعتراضات.

الثاني: أن يكون كل من المتناظرين عالما بالمسألة التي يتناظران فيها وبما يتعلق بها من العلوم.

الثالث: أن يصون المناظر كلامه عن الفحش والخلط على صاحبه.

الرابع: أن يصدق المناظر فيما ينسبه لنفسه أو لغيره.

قال في الوسيلة عاطفا على قوله، وشرطه ضبط قوانين النظر:

وعلـم ذا الحـكم ومـا تعلـقا ... به وصـون نطـقه ويـصـدقا

وأما آدابه فثلاثة: ما يطلب في السؤال، وما يطلب في الجواب، وما يطلب في مراعاة حال الخصم:

- فالأدب المطلوب في السؤال: أن يضبطه السائل، ويحققه، وأن يحسنه ويزينه بتبيينه.

- والأدب المطلوب في الجواب مطابقة السؤال، وإيضاحه وتبيينه.

- والأدب المطلوب في حق الخصم: أن يستمع إلى مناظره، ولا يتكلم حتى يفرغ ويساوي بين خصمه ونفسه، وأن يترك الاعتساف على خصمه، ولا يرفع صوته.

وهذه الآداب تجري في المذاكرات بين العلماء، والمذاكرة: هي أن يتوافقا على المطلوب من غير نزاع.

يقول في الوسيلة:

آدابه الإنصات بالإنصاف لخصمه وترك الاعتساف

ورفع صوته مع الوقار وعدم الطرب بالإظهار

وفي السؤال الضبط والتحسين وفي الجواب الطبق والتبيين

وكل ما اعتبر في المناظره معتبر أيضا لدى المذاكره

المحور الرابع: (شراح الوسيلة)

أقبل العلماء قديما وحديثا على شرح هذه المنظومة، بل تتحدث بعض المصادر أن المؤلف نفسه طلب من بعض طلبته أن يقوم بشرحها، ومن أولئك الأعلام الذين شرحوها:

- العلامة حبيب الله بن الأمين الشقروي المتوفى (1270)، ولعله أول من شرح هذه المنظومة كما يدل لذلك تسمية الشيخ عبد القادر له بالشارح.

بين منهجه في مقدمة كتابه، فذكر أنه أخلاه من العزو غالبا، لأنه لا يحتاج إلى دليل وأنه لا يعزو إلا لرفع خلاف، كما اعتنى بضبط المسائل اللغوية من النظم وشرح فيه جميع متشابه القرآن، وما حضره من متشابه السنة، كما أنه ضمن فوائد عديدة سماه الهبة الجزيلة في شرح الوسيلة، وربما تعقب على الناظم، ومن ذلك مسألة التفضيل بين عثمان وعلي رضي الله عنهما عند قول الناظم:

والوقف رأي مالك في ذين وبعض المفضول ذو النورين

قال العلامة حبيب الله: أما الشطر الثاني فغير مبني على شيء، وأما الأول فقد تبع فيه ابن يوسف السنوسي،

وقد تبعه على هذا التعقيب الشيخ عبد القادر المجلسي، والشيخ عبد الرحمن بن محمذ فال بن متال.

- العلامة سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد بن انبوجه العلوي (ت1300هـ)، توجد من شرحه نسخه في المكتبة العمرية بباريس، وقد نقل الباحث سيدي أحمد ولد الأمير منها طرفا يتعلق بترجمة نادرة ومفيدة عن ابن بونا.

- العلامة أحمد بن المختار المالكي (ت1324هـ)، ذكر في مقدمة كتابه أنه يقتصر على أقل ما يمكن الاقتصار عليه مستوفيا النقل فيما تدعو الضرورة إليه فلهذا كان تأليفه جامعا بين الاختصار والإفادة.

- العلامة عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي (ت1337هـ)، شرح المنظومة شرحا وافيا بالمقصود مع أنه ليست له رواية فيها، ولم يكن معتنيا بها من قبل كما حدث بذلك عن نفسه، ولقد أشبع الكلام على عويصات مسائلها عازيا ما يحتاج إلى العزو من كلامها معتنيا بتقريرها وتوضيحها، سمى شرحه (المباحث الجليلة في تحرير مقاصد الوسيلة)، وربما تعقب على الناظم أيضا، فقد تعقبه في قوله: (وصبغة الله فلا تخادعه).

يقول الشيخ عبد القادر: مراده مما ورد وصفه تعالى به مع استحالة ظاهره فيكون من صفات السمع، ولم أر من ذكر هذا مثالا لصفات السمع من المفسرين ولا أهل الكلام ولا غيرهم، ثم نقل الشيخ عبد القادر كلام المفسرين.اهـ

وقد مثل أهل البيان بهذه الآية للمشاكلة، والمشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير تحقيقا أو تقديرا فالتحقيق كقوله تعالى: {ومكروا ومكر الله}، فالمكر من حيث أنه في الأصل حيلة يجلب بها الغير إلى مضرة فلا يجوز أن يسند إلى الله إلا على سبيل المشاكلة.

والتقدير كقوله تعالى: {صبغة الله}، فمقابل الصبغة مقدر، تقديره: صبغة الله لا صبغتكم، فعبر عن الإيمان بالله بصبغة الله للمشاكلة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى تقديرا.

قال السيوطي في عقود الجمان:

ومنه ما يدعونه المشاكله أن يذكر الشيء بلفظ ليس له
لكونه صحبه تحقيقا أو مقدرا ومكّر اللهُ تلوا

أرخ لوفاته تلميذه العلامة عبد السلام بن حرم بن عبد الجليل العلوي.

في عام سبع وثلاثين سنه قرن يد والدهر قوام السنه
في سوم عيد النحر قبل الظهر حدث أمر أي أمر إمر
أقوت ربوع الفقه والتوحيد والنحو واللغة والتجويد
أن مات محيي الدين عبد القادر مقيد الشوارد النوادر
شيخ الشيوخ العالم ابن العالمْ محمد نجل محمدْ سالم

- العلامة عبد الرحمن بن الشيخ محمد فال بن متالي التندغي (1320)، اعتمد في شرحه على الشيخ عبد القادر، فلخص زبدة مباحثه كما أنه حلاه بالسماعات التي ينقل عن شيخه ووالده العلامة محمذ فال بن متال سماه الدرر الوقادة في شرح وسيلة السعادة.

- العلامة محمد بن أمين بن الفراء التندغي المتوفى (1344)، ذكر في مقدمة كتابه أنه اعتمد على المنجور الفاسي في شرحه لمحصل المقاصد لا بن زكري وعقيدة السنوسي الكبرى وعلى العلامة اليدالي في عقيدته المسماة بـ «فرائد الفوائد»، ومنهجه في هذا الشرح هو عدم التطويل فاعتنى بحل ألفاظها وبإعراب ما يحتاج إلى إعرابه، وسمى شرحه (نهج الفلاح والإفادة إلى معنى وسيلة السعادة).

- العلامة الشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم اليعقوبي الجوادي- أطال الله بقاءه- اعتمد في شرحه على الشيخ عبد القادر وعلى عبد الرحمن بن محمذ فال بن متالي وأحمد بن المختار.

خاتمة:

يمكن القول في خاتمة هذا البحث إن منظومة وسيلة السعادة من أهم المؤلفات العقدية الشنقيطية، ومن أوسعها على الإطلاق كما أنها تميزت بالنقاط التالية:

• أنها خلاصة وافية لمقدمات السنوسي الكبرى والصغرى والوسطى.

• أنها اشتملت على فوائد كثيرة من مختلف العلوم من منطق وأصول وبيان.

• أن المؤلف أبان فيها عن اجتهاده كما في مسألة تحريم الدخان التي وقع النزاع فيها بين علماء عصره وذلك في قوله:

والحق سعي في المعاش البادي ومنه الاشتغال بالدخان
لأنه لا يجلب المنافعا ولم يكن لما يضر دافعا

• أنه قد ينسب القول إلى نفسه وفي ذلك إشارة إلى أنه بلغ رتبة الإمامة في الفن، ومن ذلك في عدم قبول الأعمال من البدعي.

هذا الذي أرى وفيه ألمع رأي السنوسي الذي قد أجمعوا

دور التجار الفاسيين في ترسيخ روابط المغرب الإفريقية

د. سمير بوزويتة
عميد كلية الآداب سايس- فاس.

منذ إعلانه في منتصف يوليوز 2016م عن نيته العودة إلى الاتحاد الإفريقي، يعول المغرب خصوصا على العمل الدبلوماسي الاقتصادي لكسب أكبر دعم ممكن لقضيته في ما يعرف ب «دبلوماسية العقود»، فبدأ ملك المغرب محمد السادس نصره الله، في الأشهر الأخيرة رحلات في إفريقيا من رواندا إلى تنزانيا، والغابون، والسنغال، وإثيوبيا، ومدغشقر... وشهدت كل واحدة من هذه الرحلات التي يرافق العاهل المغربي فيها وفد من الوزراء وأرباب العمل ورجال الأعمال، توقيع عدد كبير من الاتفاقات التجارية.

لقد سبق للتجار المغاربة عامة والتجار الفاسيين على وجه التحديد أن مارسوا الدبلوماسية التجارية في القارة الإفريقية. وساهموا في بلورة سياسة التعاون مع الجنوب، حيث كان المغاربة سباقين إلى الاستثمار في دول إفريقيا جنوب الصحراء في تواريخ مبكرة.

تسعى هذه الدراسة إلى رصد مسارات الحضور الفاسي بربوع الدول الإفريقية، حيث لعبت فاس دورا كبيرا عبر تاريخها الطويل في العلاقات المغربية الإفريقية، وذلك بالنظر إلى موقعها الجغرافي ومؤهلاتها الاقتصادية وإشعاعها الفكري والثقافي والديني. فقد ساهمت بشكل كبير في نشر الإسلام بإفريقيا وفي انفتاح القارة السمراء على المشرق العربي الإسلامي وعلى بلاد الأندلس وعلى الحوض المتوسط.

جعلت هذه المكانة مدينة فاس حاضرة في الفكر الإفريقي بشكل ملموس، كما جعلت إفريقيا حاضرة في الفكر المغربي عموما وفي الموروث الوثائقي والمصدري بفاس على وجه الخصوص.

للأسف ليست لدينا دراسات عن جميع التجار في مختلف المدن سوى فاس، ولذلك سوف نقف على وثائق تهم قضايا التجار الفاسيين بإفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

لم تكن فاس باب التجارة المغربية، وإنما كانت خزينا لها، وبالأخص ما يهم المبادلات مع الخارج، وذلك ارتبط بتوفر مدينة فاس على الوسائط والفنادق والخزائن والأهراء ودور السلع من جهة أولى، ولما حبي به البعض من أهلها من حب للمال وللربح من جهة ثانية، ولأنها كانت عاصمة للبلاد من جهة ثالثة، ولموقعها الجغرافي من جهة رابعة.

1- التجار الفاسيون وبناء وعي الشتات

كانت التجارة بإفريقيا تستهوي أفئدة عدد من المغاربة على اختلاف مشاربهم وديانتهم. ولم يكن بدول إفريقيا فاسيون فقط، بل كان بها أيضا من أهل المدن الأخرى مثل مراكش وسوس.[1] وعموما كان للتجار الفاسيين بهذه الدول حضورا تجاريا بارزا، وكانت تجارتهم رائجة ومربحة بالمدن الإفريقية.[2]

ووفق هذا وذاك، سيتم اقتفاء المعبرين الآتيين: السينغال والكوت ديفوار. فأما السينغال، فهي البلد الأول الذي عرف هجرة مبكرة خلال المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، بينما الهجرة نحو الكوت ديفوار فتعود إلى منتصف القرن العشرين الميلادي، هناك إذن قرن كامل يفصل بين الهجرتين. ويرجع اختيار هذين البلدين لكونهما يضمان أكبر تجمع للمغاربة في إفريقيا جنوب الصحراء. كما أنهما يكونان حلقتين متكاملتين لتيارات الهجرة نحو هذا الجزء من إفريقيا. فإذا كانت هجرة المغاربة نحو السينغال يفسرها العامل التجاري والديني، فإن الهجرة إلى الكوت ديفوار مرتبطة ارتباطا قويا بالعامل الاقتصادي، لأن الاستقرار المكثف

1-نفسه، ص. 65.

2-المنوني محمد، مظاهر يقظة المغرب الحديث، الجزء الثاني، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 1985م. ص. 111.

للمغاربة بهذا البلد تزامن مع الطفرة الاقتصادية التي عرفها الكوت ديفوار خلال العقدين المواليين لاستقلاله.[1]

أ- الظروف التي أفرزت الهجرة الفاسية إلى إفريقيا الغربية

عرفت مدينة فاس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدهارا تجاريا ساهم فيه الاستقرار السياسي الذي ميزها. وقد تناول عبد الواحد أكمير أربع محطات رئيسية لدراسة الحضور الفاسي بإفريقيا الغربية وهي: سان لوي، دكار، بامكو، أبدجان؛ ذلك لأن أهم حضور فاسي بإفريقيا الغربية خلال المائة سنة الأخيرة، تمركز بهذه المدن. وكانت مدينة سان لوي المحطة الأولى التي جلبت التجار الفاسيين، وقد ساهم في جلبهم إليها الاستقرار السياسي، حيث تم في 1864م اغتيال الحاج عمر والذي سبق أن كون إمبراطورية على امتداد نهر السينغال وقد كانت السياسة التي اتبعها والتي ترتكز على الجهاد ضد "الكفار" إحدى العقبات الرئيسية التي واجهت الفرنسيين قبل إخضاع المنطقة. [2]وبعد الحاج عمر قام الفرنسيون باغتيال "لات ديور" عام 1886م، إثر ذلك خضعت منطقة كايور (Cayor) التي كانت تحت سيطرته. وفي الفترة نفسها، قضت فرنسا على جل الثوار الآخرين. ويمكن القول إنه خلال الثمانينات كان النفوذ الفرنسي قد غطى مختلف أنحاء السينغال والتي أعلن بها عن نظام الإدارة المباشرة عام 1882م. [3]وفيما يتعلق بالجانب الاقتصادي، ربط الفرنسيون سان لوي بدكار وبامكو بواسطة شبكة من السكة الحديد خلال ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي، وعلى ذلك ارتفع بشكل سريع عدد الشركات التي قامت باستغلال الخط البحري، مما أدى إلى تزايد سريع في حجم المبادلات التجارية وكذا في عدد المهاجرين. كما أن هذه التحولات الاقتصادية التي عرفتها هذه الجهة من إفريقيا الغربية أدت إلى إنشاء المؤسسات البنكية[4].

1-أبو الفرح يحيى، الحضور المغربي بالسينغال وساحل العاج، ندوة، فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، 1993م. ص. 145.

2-أكمير عبد الواحد، الجالية الفاسية في إفريقيا الغربية، ندوة، فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، 1993م. ص. 163.

3-نفسه، ص. 163.

4-نفسه، ص. 164.

ب- بداية الهجرة الفاسية إلى السينغال

هناك تضارب بين المصادر التاريخية حول من هم أوائل الفاسيين الذين وصلوا إلى سان لوي وكذا السنة التي هاجروا فيها.

يشير لوي بانل (Louis Panel) أنه أثناء إقامته في سان لوي عام 1850م تعرف على مغربي من مدينة فاس اسمه الحاج عبد السلام، وأن هذا الأخير كان قد هاجر إلى سان لوي قبل ذلك بسنتين أو ثلاث. مقابل ذلك يشير بواهين (A.Boahen) في كتابه «التاريخ العام لإفريقيا» إلى أن أوائل المغاربة وصلوا إلى السينغال خلال السبعينات من القرن التاسع عشر الميلادي حيث استقروا بمدينة سان لوي. في حين أن الدكتور دانفريفيل D'Anfreville والذي كتب تقريرا عن الجالية المغربية بسان لوي عام 1905م، واستنادا إلى دراسة ميدانية يحدد عام 1880م كتاريخ لبداية الهجرة المغربية إلى سان لوي ويعطي اسم مولاي علي الكثيري الذي كان قد هاجر من مدينة فاس كأول مغربي وصل إلى هذا البلد. وأنه نظرا للنجاح الذي لقيته تجارته استدعى مباشرة زميلا له هو أحمد برادة.

وتفيد بعض شهادات قدماء المهاجرين الفاسيين بسان لوي أن أول مغربي وصل إلى هذه المدينة هو محمد السباعي والذي شهد زرع أولى أشجار المنجاة Mangue الذي كان قد جلب من جزر المارتيني.

بدأت حوليات السينغال تنشر أسماء التجار المقيمين بالمستعمرة منذ عام 1858م ولم تذكر اسم أي مغربي إلا عام 1886م. من خلال هذه الحوليات نستشف كذلك أن أولى المحلات التجارية الفاسية بالسينغال ظهرت بسان لوي، ولم تسجل محلات تجارية للمغاربة بجهات أخرى إلا عام 1891م، حيث أنشأ في هذه السنة تاجر اسمه الشريف سيدي محمد متجرا بروفيسك، وفي العام نفسه أنشأ بدكار فاسيان هما الطاهر كنون ومحمد بن جلون محلاتهما التجارية. وفي عام 1905م كان نصف المحلات التجارية التي يمتلكها المغاربة بالسينغال توجد بسان لوي (ثلاثة وثلاثون من مجموع سبعة وستين) في حين أن الباقي كان يوجد في مختلف جهات المستعمرة

أساسا ببعض المراكز الحضرية الناشئة، دكار (اثنا عشر محلا)، تياس ستة محلات، روفسك ثلاثة محلات، بالإضافة إلى ذلك كان هناك حضور مهم في تياواوين (سبعة محلات) والتي كانت إلى ذلك التاريخ عبارة عن قرية متواضعة، لكن أهميتها تتمثل في كونها مقرا للطائفة التيجانية والتي تنظر بتقدير خاص لكل ما هو مستورد من فاس.

ولعل التزايد العددي للمغاربة بسان لوي خلال هذه الفترة ما يعلله، فمولاي علي الكثيري الذي هاجر عام 1880م حقق أرباحا كبيرة في مدة محدودة وقد دفعه ذلك إلى استدعاء أحد زملائه حسب رواية الدكتور "دانفريفل". وهنا لا نستبعد أن يكون هذا الربح قد دفع بعشرات آخرين إلى الهجرة بحثا عن الثروة.

ج- المنتوجات التي كان يتاجر فيها المغاربة بالسينغال

كان التجار الفاسيون يتاجرون في اللباس المغربي التقليدي بكافة أنواعه، لكن بجانب هذا اللباس كانت تصل منتوجات أخرى مثل النسيج الأوروبي، الكتب الدينية، العطور، البخور، والحلي... ونقف عند أهم هذه البضائع:

– اللباس المغربي التقليدي: كان هذا اللباس يتكون من الجلباب والقفطان والحايك والبلغة وغيرها[1]. فقد كانت القوافل القادمة من تافيلالت وكلميم أو فاس تتجه إلى تمبكتو حيث تقوم بتسويق جل سلعها، ومن هنا كان بعض التجار السينغاليين والسودانيين والمغاربة يقومون بنقلها إلى السينغال. إلا أنه منذ ثمانينات القرن التاسع عشر الميلادي بدأ بعض التجار يأخذون هذه السلع مباشرة من مدينة فاس مستعملين في ذلك الطريق البحري.[2]

وقد كان هذا الإقبال راجع لكون الكثيرين من أتباع الطائفة التيجانية كانوا ينظرون بنوع من القدسية لكل ما هو قادم من الأرض التي دفن بها الشيخ التيجاني.

1- أكمير عبد الواحد، الجالية الفاسية ... م س، ص. 166.

2- أكمير عبد الواحد، الجالية الفاسية ... م س، ص. 167.

وحسب المؤرخ السينغالي م. كيبي (M.Gueye) فإنه شاع بين السينغاليين أن الصلاة بالجلباب المغربي فيه ثواب أكبر[1].

يذكر روني لكرك (Charles René Leclerc) أن ستة من كبار تجار فاس يقيمون علاقات تجارية دائمة مع السينغال، مقابل ذلك كان تجار آخرون يقومون بعملية الاستيراد من فرنسا، حيث ينتقلون إلى هناك مباشرة أو يكلفون بذلك "دار الحلو" الموجودة بمرسيليا. ومنذ الثلث الأول من القرن العشرين، ارتبط عدد من التجار مباشرة بمؤسسات النسيج الكائنة بإنجلترا، أوبغامبيا حيث توجد مؤسسة بنسودة التي تحولت منذ الثلاثينات إلى إحدى أهم مؤسسات توزيع النسيج الإنجليزي بإفريقيا الغربية[2].

- الكتب العربية: كانت منذ البداية ضمن السلع التي حملها التجار الفاسيون إلى سان لوي. فمولاي علي الكثيري والذي هو حسب "دانفريفيل» أول مغربي وصل إلى السينغال عام 1880م، وكانت أهم السلع التي حملها معه هي الكتب الدينية والتي لاقت رواجا كبيرا على الرغم من غلاء ثمنها. [3]

- منتوجات أخرى: كان عدد من التجاريستوردون من المغرب، مواد أخرى مثل، التوابل والعطور والبخور والحلي ولكن بكميات أقل.

2 - التوزيع الجغرافي للتجار الفاسيين بإفريقيا الغربية

- مدينة سان لويس (السينغال): من خلال الحوليات نستشف أن أولى المحلات التجارية التي أقامها المغاربة بالسينغال ظهرت بسان لوي المدينة، ولم يسجل وجود محلات تجارية لمغاربة بجهات أخرى إلا عام 1891م، حيث أنشأ في هذه السنة مغربي اسمه الشريف سيدي محمد متجرا بروفيسك (Rufisque)، وفي العام ذاته،

1- نفسه، ص. 167.

2-نفسه، ص. 168.

3- نفسه، ص. 169.

أنشأ بدكار مغربيان هما الطاهر كنون ومحمد بن جلون محلاتهما التجارية[1].

- مدينة دكار (السينغال): انتقل إليها الفاسيون بعدما عرفت تراجعا واضحا، نتيجة التحولات الاقتصادية التي عرفتها البلاد، والتي أفقدت المدينة الكثير من مصادر رواجها ولعل أبرز نقطة في هذا المجال هو إغلاق نهر السينغال في وجه الملاحة حيث سيؤدي ذلك فيما بعد إلى انهيار شبه كامل لاقتصادها.

كان يقابل تراجع سان لوي تطور مستمر لمدينة دكار في مختلف المجالات، وهذا التطور بدأت تظهر ملامحه منذ نهاية القرن الماضي. وعلى امتداد هذه المرحلة بقي الحضور الفاسي بالمدينة محدود الأهمية بالرغم من التطور الذي عرفته هذه المدينة، وهكذا فقد كان عدد التجار الفاسيين بدكار عام 1891م هو[2] اثنين، ورغم أن العدد عرف ارتفاعا حيث وصل إلى سبعة عام 1901م ثم اثني عشر عام 1905م. فالوجود الفاسي والمغربي عامة لن يعرف أهمية تذكر بالمدينة إلا منذ الأربعينات من القرن العشرين الميلادي.

- مدينة بامكو (مالي): دفع النجاح الاقتصادي بفاسيي دكار إلى البحث عن أسواق جديدة بمختلف عواصم إفريقيا الغربية، وشكلت بامكو نقطة إغراء لهم وذلك لعدة عوامل، فهناك وجود خط حديدي مباشر يربطها بدكار يسهل نقل السلع التي كان يجلبها المغاربة من أوروبا والمغرب. ثم هناك سهولة ترويج هذه السلع ببامكو خصوصا منتجات الصناعة التقليدية المغربية والتي يرجع سبب الإقبال عليها إلى التأثير الثقافي المغربي القوي بمالي. [3]

وحسب شهادة محمد التازي الذي كان يعمل في إحدى هاته المحلات خلال الأربعينات أن عمه الحاج محمد التازي هو أول مغربي أقام محلا تجاريا ببامكو وكان ذلك عام 1938م. وهذا المحل كان فرعا للمقر الرئيس الموجود بدكار. وحسب عبد

1-نفسه، ص. 172.

2-أكمير عبد الواحد، الجالية الفاسية ... م س، ص. 176.

3-نفسه، ص. 177.

الواحد أكمير الذي عثر على عدة مراسلات لتجار فاسيين كانوا مقيمين في بامكو قبل هذا التاريخ، ومن بين هذه المراسلات واحدة يعود تاريخها إلى عام 1936م وهي تهم مؤسسة العراقي- القادري، التي كانت تعتبر من أهم المحلات التجارية ببامكو في مجال تخصصها. [1]

- مدن ساحل العاج: كانت المرحلة الرابعة والأخيرة من الهجرة الفاسية بإفريقيا الغربية هي أبدجان، وقد هاجر أوائل الفاسيين إليها من دكار، ففي سنة 1953م فتح أبوابه بساحل العاج أول متجر تجاري في ملك مغاربة، وقد أقامته مؤسسة IBALAC الصناعية والتي كان قد أسسها بروفيسك (Rufisque) (السينغال) منذ أواسط الأربعينات مهاجران فاسيان هما عبد الواحد بن عمور والفاطمي العراقي، وتعتبر هذه المؤسسة تجربة فريدة في تاريخ الهجرة المغربية لإفريقيا الغربية، حيث إنها أول مؤسسة صناعية يقيمها مهاجرون مغاربة، كما أنها كانت من أولى مؤسسات النسيج بالمنطقة ككل، وقد كان منتوجها ينافس من حيث الجودة ذلك المستورد من أوروبا. ولضمان تصريف منتوجاتها أقامت هذه الشركة محلات تجارية في دكار وكونكري وبامكو، وفي هذا الإطار هدفت إلى إقامة محلات تجارية شبيهة في ساحل العاج. [2] بعد تجربة شركة IBALAC قام تجار فاسيون من كبار التجار بالسينغال بإنشاء محلات تجارية بأبدجان، من هؤلاء مؤسسة التازي التجارية والتي كانت قد فتحت أبوابها بدكار عام 1924م، ثم فتحت محلين لها بماكو عام 1938م، وفي 1954م أقامت محلا تجاريا في أبدجان وعام 1955م محلا آخر في بواكي (Bouaké).

جل المحلات التجارية التي أقامها الفاسيون بساحل العاج خلال هذه الفترة كانت عبارة عن فروع تابعة للمؤسسات الموجودة بدكار. وقد كانت ترتبط بها ارتباطا وثيقا سواء تعلق الأمر بالتموين أو التسيير. ومن الأسباب التي ساهمت في تدعيم التواصل بين المؤسسة الأم والفروع سهولة استيراد السلع من دكار، خصوصا مع غياب الرسوم الجمركية التي كانت تعفى منها السلع داخل إفريقيا الغربية الفرنسية[3].

1-نفسه، ص. 178.

2- أكمير عبد الواحد، الجالية الفاسية ... م س، ص. 179.

3- نفسه، ص. 180.

بعد استقلال البلاد عام 1960م تضاعف النمو الاقتصادي الذي عرفه ساحل العاج خلال الخمسينات، حيث بدأ الحديث منذ ذلك التاريخ عن المعجزة الإيفوارية وقد أصبحت البلاد من أوائل المنتجين العالميين لمواد مثل الكاكاو والقهوة والموز والأناناس. وسمح ازدهار الاقتصاد الفلاحي الموجه للتصدير بالرفع من حجم الاستثمارات في المشاريع العمومية والتي ارتفعت بقيمة 10% في المرحلة الممتدة بين 1965 - 1970م ثم بقيمة 15% بين 1970 - 1975م. وقد هم الازدهار الاقتصادي كذلك القطاع الصناعي، ونمت بدرجة أولى صناعة النسيج حيث أصبحت تغطي حاجيات السوق الداخلية والتي كانت في الماضي تعتمد على النسيج المستورد.

تحولت ساحل العاج بفضل هذا الازدهار المتدفق إلى قبلة للمهاجرين الذين وصل عددهم عام 1960م إلى 530 ألف (17%) من مجموع السكان، ثم ارتفع إلى 2000000 مهاجر عام 1975م (30%) من مجموع السكان[1].

شأن غيرهم من المهاجرين بدأ المغاربة بالتوافد على ساحل العاج خلال هذه المرحلة بإيقاع أسرع من ذلك الذي هاجروا به في الخمسينات. وقد هاجرت مجموعات فاسية شابة إلى ساحل العاج، ويتعلق الأمر بشباب سوف يشتغلون كمستخدمين في المحلات التجارية التي كان يمتلكها ذووهم.

اعتبر استقلال المغرب بمثابة مرحلة فاصلة في تحديد مسار هذه الهجرة، إذ عاد بعد الاستقلال أولئك المهاجرون الذين كونوا ثروات في صناعة النسيج وتجارة الجملة، وقد استقروا بالدار البيضاء، حيث استفادوا من الفراغ الذي خلفه الفرنسيون الذين بدأوا يغادرون المغرب، وساهموا بفضل الثروات التي يمتلكونها وكذا التجربة التي اكتسبوها بإفريقيا في إقامة النواة الأولى لصناعة مغربية، أساسا في ميدان النسيج[2].

1-نفسه، ص. 180.

2-أكمير عبد الواحد، الجالية الفاسية ... م س، ص. 182.

أ- تجار فاسيون استقروا بالسينغال خلال القرن التاسع عشر

الاسم	الوضعية
أحمد بوزكري	فاسي استقر بأندر (سان لويس) حوالي 1874م، وكان مراسلا لأبيه الذي بقي تاجرا بالمغرب
الحاج ابراهيم السوسي	كان من أهم تجار مدينة فاس، استوطن أندر وحصل على الجنسية الفرنسية. وعاد إلى المغرب في نهاية القرن التاسع عشر
مولاي علي بن عمر الكثيري	من مواليد فاس سنة 1857م، رحل إلى إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا وآسيا واستوطن السينغال مدة ست سنوات ابتداء من 1880م وطلب نيل الجنسية الفرنسية سنة 1883م

سننتقل الآن إلى تجار من أصل فاسي وكانت لهم تجارة بالسينغال ولكنهم لم يستقروا هناك:

ب- التجار الفاسيون كانت لهم تجارة بالسينغال خلال القرن التاسع عشر

الاسم	الوضعية
علي بن الطيب بناني	محمي فرنسي. كان تاجرا بفاس، وكانت له ستة مفاتيح وعدة شركاء، واحد منهم بالسينغال
الطاهر مكوار	محمي إنجليزي، كان يشرف على دار للتصدير والاستيراد بمنشيسطر، وكان من كبار التجار بفاس، وكان له ثمانية عشر شريكا اثنان منهم بالسينغال

محمد بن العباس القباج	من الأسر التجارية الكبرى، كان يستورد السكر والشاي خلال الحرب العظمى، ويصدر الحياك إلى الجزائر، والبلاغي إلى السينغال . ويذكر بوشعراء في الجزء الأول من الاستيطان والحماية أن القباج من أصل فاسي وكان شريكا للحاج ابراهيم بن الحاج علي الذي استقر بأندر سنة 1887م

وهناك العديد من التجار الذين كانت لهم تجارة بالسينغال، تذكرهم المراجع دون ذكر المناطق التي انحدروا منها، لكن أغلبهم كانوا يشتغلون بتصدير واستيراد النسيج مما يرجح أنهم من أصل فاسي، خاصة وأننا نعلم الشأن الذي كانت عليه فاس من هذه الناحية(تجارة النسيج) خلال القرن التاسع عشر الميلادي. إضافة إلى أن مصطفى بوشعراء ذكر ملاحظة مهمة، تخص التجار المغاربة الذين عرف بهم،- وقد اعتمدنا عليه بخصوص ذلك- فقال: «وقد نزح أغلب هؤلاء التجار الفاسيون إلى الدار البيضاء في مطلع هذا القرن»، أي القرن العشرين الميلادي[1] ، مما يؤكد الأصل الفاسي لهؤلاء التجار، وأن التاجر الفاسي الذي كانت له تجارة واسعة في أوروبا، كانت له أيضا تجارة بإفريقيا الغربية. وهذه لائحة بأسمائهم:

1-بوشعراء مصطفى، «الاستيطان والحماية بالمغرب...،ج.2، مرجع.سابق، ص. 318

ج- التجار الفاسيون كانت لهم تجارة بالسينغال خلال القرن التاسع عشر وغير مستقرين بها يرجح أنهم من أصل فاسي

الاسم	الوضعية
محمد الشرايبي	محمي ألماني ومن كبار التجار، كانت له علاقة بالسينغال وتسع شركاء(قدرت ثروته ب 350 ألف بسيطة سنة 1904م و350 مليون من الفرنكات سنة 1930م)
حميد التازي	ابن محمد بن المعطي التازي. كان مستوردا للمنسوجات و مصدرا إلى السينغال (160 مليون فرنك بين 1913م و1930م) . لاشك أن والده أيضا كان يصدر المنسوجات إلى السودان بما أنه كان مستوردا لها من الخارج وهما من أصل فاسي. (قدرت ثروة الوالد ب 30 مليون فرنك سنة 1913م قبل مغادرته فاس إلى الدار البيضاء)
عبد السلام المراكشي	رحل مرات عديدة إلى الخارج وكان له ثلاثة عشر شريكا بالمغرب والسينغال والقاهرة، كما كان من كبار المستوردين، وكان يصدر إلى مصر ثم اليابان الحرير والأحذية (100 ألف بسيطة سنة 1905م وأزيد من 200 مليون فرنك سنة 1930م، وأربعة منازل بفاس)
المكي بن عبد الله	فتح مركزا بلندن سنة 1890م وهو من كبار المصدرين إلى السينغال، ومن أعظم المضاربين في العقارات الحضرية والقروية، كان له أحد عشر شريكا في المنسوجات والمواد الغذائية (أزيد من مليون بسيطة سنة 1904م، وأكثر من 400 مليون فرنك سنة 1925م)

محمد بن العربي برادة	محمي ألماني، وكان له شركاء بهامبورغ وإفريقيا الشمالية والشرق الأوسط والسينغال والقاهرة (له ما بين 100 و500 ألف بسيطة سنة 1905م، وأزيد من 250 مليون من الفرنكات سنة 1930م)
بناصر الصقلي	محمي إنجليزي، وكانت له دار تجارية بهامبورغ وشركاء بالسينغال ومصر وأحد عشر شريكا بالمغرب (300 مليون فرنك سنة 1930م)
محمد بن أحمد بنيس	كان له شركاء سنة 1907م بالسينغال وإيران والقاهرة وطنجة وأسس دار تجارية للمنسوجات بمدينة ليون (أزيد من 500 ألف بسيطة سنة 1905م وأكثر من 300 مليون فرنك سنة 1930م)
المكي بن شقرون	كانت له رحلات إلى أوربا والسينغال والشرق الأوسط، ونصب أبناء عمومته بمدينتي جنوة وليون وكان له شركاء بفاس والدار البيضاء (100 ألف بسيطة سنة 1904م وأزيد من 250 مليون من الفرنكات سنة 1930م)

يتضح مما سبق أن التجار الفاسيين كان لهم وزن وثقل في التجارة عموما، إذ أن انتقالهم المتواصل بين أوروبا وإفريقيا الغربية والشرق الأوسط ساعدهم على بناء علاقات كثيرة ومهمة. وبالتالي انعكس هذا الأمر إيجابا على مدينة فاس التي كانت تستقطب التجارة الخارجية استقطابا شديدا وتروجها بالداخل ترويجا كبيرا، فمن المناسب أن يقال إن الموضة في الأزياء والأثواب كانت لا تصدر إلا عن هاته العاصمة ومن قيسارياتها على وجه التحديد. كان تجار هذه الحاضرة في الغالب يولون للبضائع المستوردة نبرتهم الشخصية، إلى حد أن تحامل عليهم في ذلك بعض المؤلفين من

الأجانب وغيرهم، إذ كان هؤلاء الوسطاء يعربون ثم يغربون كل سلعة أجنبية[1] ، ثم يصدرونها بدورهم إلى بلدان أخرى كالسينغال.

إن ما ذكرناه عن التجار الفاسيين وعن الثروات التي راكموها من خلال تجارتهم التي غزوا بها مختلف أنحاء المعمور، يجعل تمركزهم في إفريقيا الغربية شيئا ليس بالغريب وخاصة بالسينغال خلال القرن التاسع عشر الميلادي. لاسيما وأن العلاقات الروحية التي لعبت الطريقة التيجانية دورا مهما في توطيدها، انعكست بشكل إيجابي على أولئك التجار الفاسيين الذين تمتعوا بسمعة طيبة هناك.

حاولنا إعطاء أمثلة لتجار مغاربة منهم من استقر بالسينغال ومنهم من كانت له علاقات تجارية بهذا البلد، إلا أننا ندرك تماما أن ما قدمناه يبقى مجرد أمثلة، فالغاية هي معرفة طبيعة التواجد المغربي بهذا البلد خلال القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين الميلادي. أما فيما يخص الحوليات السينغالية التي اعتمد عليها عبد الواحد أكمير بشكل كبير، فيؤكد من خلالها على أن أسماء المغاربة كانت تظهر في خانات Commerçants، (المقصود بها هنا تجار صغار أو متوسطون) مع استثناء واحد هو المختار بن مسعود الذي ظهر اسمه دون انقطاع في خانات négociants (التي تعني تجار الجملة). هذا الشخص كان أهم مغربي بالسنغال خلال هذه المرحلة، وقد هاجر من تمبكت حيث كون ثروة مهمة[2] . فكان في بداية القرن من كبار التجار بالسنغال، إضافة إلى ذلك كان يمتلك مناصفة مع فرنسي محلا تجاريا رائجا، كما كان له ارتباط وثيق بفرنسا ذلك لأنه بجانب الجنسية الفرنسية التي حصل عليها عام 1904م منحت له السلطات الاستعمارية بطاقة الإقامة في فرنسا، مما كان يسمح له بالانتقال المستمر إلى هناك قصد القيام بعملية استيراد السلع[3] .

في نفس المرحلة (1905م)، كان هناك مغاربة آخرون يمتلكون ثروات تتراوح بين 250 و500 ألف فرنك، ويؤكد أكمير أنهم كانوا يؤدون الضريبة التي تفرض على كبار التجار «Patente de première classe»، إلا أن هؤلاء مسجلون في الحوليات

1- نفسه، ص. 319

2-عبدالواحد أكمير، الجالية الفاسية... م س، ص. 173

3-نفسه

بخانات «Commerçants» وهذا يدفع للاعتقاد أن الثروة التي كانوا يمتلكونها لم تكن كافية لتسجيل أسمائهم ضمن تجار الجملة «Négociants». على الرغم من ذلك فإن عددا من هؤلاء كانوا إلى بداية القرن العشرين الميلادي يلعبون دورا بارزا في الحركة التجارية بالمستعمرة[1] . وفي هذا الصدد نقدم أهم المراكز التجارية التي استقر بها التجار المغاربة بالسنغال.

جدول: أهم مراكز التجار المغاربة بالسنغال عام 1905م[2]

المركز	عدد التجار	النسبة %
سان لوي	33	49.25%
دكار	12	17.91%
تيواوين	7	10.45%
تياس Thiese	6	8.96%
روفيسكRufisque	3	4.48%
بيرPire	1	1.49%
بوت Pont	1	1.49%
لوكا	2	2.99%

يتضح من الجدول أن تمركز المغاربة بالسينغال مع بداية القرن العشرين، كان بشكل أكبر في كل من سان لوي ودكار وهما المدينتان اللتان قصدهما المغاربة في بداية انتقالهم إلى السينغال خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وبعد ذلك كان هناك انتشار بمدن أخرى مثل تيواوين وتياس وروسفيك، إضافة إلى المناطق القروية الأخرى.

1-نفسه، ص. 174.

2-من الحوار الذي أجراه عبد الواحد أكمير مع السيد أحمد بن جلون، أبدجان، يناير 1993م، عبد الواحد أكمير، الجالية الفاسية... م س، ص. 174.

الرسائلُ المغربية إلى الحُجْرة النبَويّة، والتّشوّق إلى الْحجّ: بواعثُ وقضايا

د. محمد الطَّبَراني
كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش.

مهاد

إن دالّة المحبوب على حبيبه أن يخصّه بما يشي بدالته عليه، ويعرفَ شفوف مقامه عند الناس بما ينفرد عنهم فيه، وقد حظي المغاربةُ وأهل الغرب بضريب من هذا الأمر، فإن ذُكِرت فنون الأدب، وضَرَب الناس بأسهمهم على أقدارٍ مقدورة، وقِسَمٍ مقسومة، اختصّ أهل صُقْعِنا بهذا الفن الرّسالي، فلم يكنْ للمشارقة حظ فيه.

وإنَّا لنلمحُ ميسمَ الغبْطةِ الصارخةِ لمن قُيِّضَ له الإناخةُ بالبيت العتيق من الأندلسيّين، وتفصّى من عوائقِ الوصول، في رسائلِ التهنئة بالصُّدُور عن بيت الله الحرام، فمن ذلك قول أبي القاسم محمّد بن عبد الله بن الجدّ الفهري (ت 515 ه) يخاطبُ صديقا له قَفَل من تلك الوِجْهة الوجيهة: «فيا لها حجّةً مبرورةً ما أتَمَّ مناسكَها، وأوضح في مناهج البِرّ مسالكَها، لقد شهد فيه الميقاتُ بخُلُوص إحْلالك وإحرامك، واهتزّ البيتُ العتيق لطوافك واسْتِلامك، ورضِيَتِ المرْوةُ والصَّفَا عن كمال أشْواطك، وتهلَّل بطْنُ الْمَسِيلِ لسعْيك فيه وانحطاطِك، ثمّ بالموقف الأعظم من عرفة سَطَعَ عرف دعائك وتخشّعك، وارتفع خَفْضُ رغْبتك وتضرّعك، وفي البيت المكرَّم من المزدلفة حظِيَ تقرُّبُك وتزلُّفُك، وزكا تهجُّدك وتنفُّلُك، وعند الإفاضة فاضت الرحمة عليك، وكمُلَتِ النِّعمة لديك. وأما مِنىً ففيها قضيتَ مُنَاكَ وأوطارَك، وقُبِلَتْ هداياك وجمارك، وحُطَّتْ خطاياك وأوزارُك، فما صدَرْتَ عن تلك المعالم المكرّمة، والشعائر المعظّمة، إلاّ وهي راضيةٌ عن عَجّكَ وثَجّكَ، شاهدةٌ لك بكمال حجّك، مُشْفقةٌ من فراقك وبُعْدِك، متعلّقةٌ لوْ أمكنها ببُرْدِك، وقبْلُ أوْ بعْدُ ما تأنّستْ بكَ يثْرب، ورُفع لك في جناحِها مَضْرِب، فشافهْتَ منازلَ التّنْزيل، وطالعْتَ

معاهدَ الرّسول، وقضّيْتَ منْ زيارةِ الْقبْرِ الْكريمِ واجباً، وقمْتَ بيْنه وبين المنْبَرِ ضارعاً راغبا، فما حُجِبَ عنْه عليْه السّلامُ زَوْرُكَ وإلْمامُك، وقصْدُك وانْتمامُك، وصلاتُك وسَلامك، بلْ كان لكلّ ذلك راعياً سامعا، ويكونُ لكَ بحوْل الله شاهداً شافعاً[1]» .

والأدلُّ على تلكم الغبطةِ رسالةٌ لابن مُغَاوِر الشّاطبي (ت 587 ه)، كتبها إلى صديقٍ أقام بأرض الحجاز مدّةً طويلة، افْتَتَحَها بقوله:

يا نازِحَ الدّارِ إنّ الدّهـرَ ذو خُلَسٍ ... والأمر يحدثُ بين السَّهْوِ والغَلَسِ[2]

قد يجـمعُ اللهُ بيـن النَّازِحَيْنِ معا ... من الحجاز بمَنْ في أرضِ أَنْدَلُس

واختتمها بهذا الرّجاء والدّعاء: «ولعلَّ الله الذي أَنَافَ بك على الأمَل، ووفَّقَك في القول والعَمَل، وحمَلَكَ على راحلَةٍ أو جَمَل، ينادِينا فيهدِينا، ويُسْرِجُ لنا من توفيقه نُورا يسعى بين أيْدينا، فنغْشَى المسجدَ الحرامَ آمِنِين، مُحَلِّقِين رؤوسَنا ومقَصِّرِين، آمين اللّهم آمين، والسّلام[3]» .

أولا: البواعث:

- انعدام الأمن في سُبُل الحج:

وهو باعثٌ تردد بين الظهور والخفاء، تبَعاً لاستقرار الأحوال ببلدان العبور في المغرب أو المشرق أو اضطرابِها، وقد ظهر في بعض الفتراتِ التاريخية صدىً جَلِيٌّ لذلك في المدوّنات الفقهية، من قبيل السؤال الذي وجَّهَه الأميرُ علي بنُ يوسف بن تاشفين (ت 537 ه) لابن رشد الجدّ (ت 520 ه)، يسأله عن الأفضل لأهل العدوة وأهل الأندلس، أهو الحج أم الجهاد[4] . ووردت القضيةُ عينها في المنهاج في ترتيب نوازل ابن الحاج (ت 529 ه)؛ عند قوله: «وأخبرني القاضي أبو مروان، قال: حدثني أبي:

1-كنز الكتاب ومنتخب الآداب للبونسي: 417- 418؛ الذخيرة لابن بسام (ط دار الغرب): 2/222.

2-نَوْرُ الكمائم وسَجْعُ الحمائم: 219.

3-نَوْرُ الكمائم وسجع الحمائم: 222.

4-نوازل ابن رشد: 2/1021؛ المعيار: 1/423.

قال سِرْتُ إلى الحج، فلقيت أبا بكرٍ بنَ عبد الرحمن وأبا عمرانَ الفاسيّ فقيهي القيروان، فقالا لي: يا فقيه: وأنت أيضا تأتي إلى الحج!؛ وأنت تعلمُ أن فرضَ الحج ساقطٌ عن الأندلس منذ كذا وكذا...؟» .[1]

وقلّةٌ ممّنْ خالف مَقَالَةَ ابن رشد، كالقاضي ابن العربي، وهو القائلُ في السّراج[2] : «والعجب ممن يقول: «إن الحجّ لا يجب على أهل المغْرب. وهو يسافر منْ قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، ويخْرِق البحار، ويقْطَعُ المخاوف، في مقاصد دينية أو دنياوية، والحالُ واحدة؛ في الخوف والأمن، والحلالِ والحرام، وإنْفاقِ المال وإعْطائه في الطّريق وغيْرِه لمنْ لا يرْضى».

لكنْ لا مدْفَعَ أنَّ بعضَ الفقهاء خَبَرَ عن كثبٍ وعورةَ الطريق وإعوازَ الأمن، وهؤلاء عند المشاحَّةِ أحرى بالتقليد، حتّ قال أبو بكر عبد الله بن طلحة اليابريّ الإشبيلي (ت 523 ه) [3]في المدخل إلى كتابِ سيْفِ الإسلام «السَّبيلُ السَّابِلَةُ[4] [أي، إلى الحجّ] اسْمٌ لا يكاد يوجد له مُسمّىً، فلقدْ دخلْتُ الطّريقَ من الأندلس إلى إشبيلية ثمّ الى بجاية، وعبرْتُ الزُّقَاق، وتخيَّلتُ وجودَ السبيل، ثم خرجتُ إلى المهدية، فلقيتُ في بلاد المغرب ما اعتقدتُ أنَّ الحجَّ معه ساقطٌ على أهل المغرب بل حَرَامٌ»، ثم قال: «ولكنَّ الانصرافَ فيما بين اللهِ وبيْن العبْد أوْلَى من تَقَحُّمِ هذه المخاطَرَات؛ و ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ ، [5]﴿ومآ أصبكم من مصيبة فبما[6] كسبت أيديكم[7]﴾[8] « .

كما لم يغبْ هذا التهمُّمُ بحكم الحجّ عنْ أرْباب المقامات أيْضاً، فأشارَ إليه أبو

1-المنهاج في ترتيب نوازل ابن الحاج (مخطوط): 26-25؛ نوازل ابن الحاج التجيبي: 2/234؛ ر: 205.

2- 2/384. وانظر بقية مقالته في 2/385.

3-انظر ما كتبته في سيرته بمقدمة كتابه «المختصر في علم أصول الدين».

4- سبيلٌ سَابِل: مسْلُوك.

5- الروم: 3.

6-صحفت في المطبوع: «فيما».

7- الشورى: 28.

8-مواهب الجليل: 3/456؛ المعْيار المُعْرِب: 1/433. وانظر كتابنا عن ابن طلحة اليابري ومختصره في أصول الدين.

العباس ابن الْعَريف المرّاكشي (ت 542 هـ) في مفتاح السعادة[1] ؛ وذلك قوْلُه لأحد أصحابه –وفيه نظرٌ-: «ذُكرلي أنّ لكَ أملاً في الحجّ، وأنّكَ سألْتَ عنْ مراكب السَّفَر، وعنْدنا مَرَاكب، ولكنْ بلغني ما أنْتَ عليْه في موْضعك منْ بِرّ الْأعْيان والأشْراف وإقاماتِ حاجاتِ الضِّعاف، وعملٌ منْه واحدٌ أفْضلُ منْ كثيرٍ من الْحجّ والْغزْو؛ حَمَلَكَ الله على الْأقْصد الْأرْشد برحْمتِه».

إشارة صوفية: «قال الإمام أبو عبد الله المازري حين تكلم على هذه المسألة -أعني مسألة سقوط فرض الحج عمن يُكْرَهُ على دفع مال غيْرِ مُجْحِفٍ به لظالمٍ اسْتغْرمه إيّاه ما نصّه-: وقد خاض في هذه المسألة المتأخّرون وأكثروا فيها القول، فكلٌّ تعلَّقَ بمقْدار ما يكْثُر على سمْعِه من المسافرين إلى مكّة شرّفها الله، منْ تهْويلِ ما يجري على الْحجّاج. قال: ولقد حضرْتُ مجْلسَ شيْخنا أبي الحسن اللّخْميّ بصفاقص، وحوْلَه جمْعٌ من أهل العلْم من تلامذته، وهم يتكلّمون على هذه المسألة، فأكثروا الْقوْلَ والتّنازُعَ فيها... فمِنْ قائلٍ بالإسقاط، ومنْ متوقّفٍ صامت، والشّيْخ رحمه الله لا يتكلّم، وكان معنا في المجلس الشّيْخ أبو الطّيّب الواعظ، وكنّا ما أبْصرناه، فأدْخل رأسه في الحلْقة وخاطب الشّيْخَ اللّخميَّ وقال: يا مولاي الشيخ:

إن كان سفْكُ دمي أقصى مُرادهمُ فما غَلَتْ نظْرةٌ منْهمْ بسفْك دمي

فاسْتحْسن اللّخميّ هذه الإشارة منْ جهة طُرُق المتصوّفة، لا منْ جهة التّفقُّه[2]» .

- الْبُعْدُ الجغرافي:

ونعطف على هذا السبب، البعْدَ الجغرافي الذي ألمح إليه ابن أبي الخصال (ت 539 هـ) في قوله إن «حُشَاشتَه تُنْهَبُ بعوائق البُعْد عن النبي صلى الله عليه وسلم[3]» .

ولا يزال هذا السبب مترددا في قصائد ورسائل الأندلسيين، حتى وإن كانوا ممن حج

1-ص: 212.

2-مواهب الجليل: 3/456.

3-أزهار الرياض: 4/24-25.

وزار، ومنه قول ابن جابر الضرير:

لله أشْكـو الْبعْدَ عنْ خيْرِ حِمـى قدْصدّنيعنْ أُنْسِهِ شَحْطُ النَّوَى

يا منْـزلاً مـا بين نجْدٍ والْحِمَـى ويـا ديـاراً بيْـن كُـثْبانِ اللِّـوى

هـلْ لـي في تلك الْمَغَاني عوْدةٌ[1] أوْ جَرْعةٌ منْ ذلك الماء الرِّوَى[1]

إلى أنْ يقول:

وكيْف لا آسى على بُعْديَ عنْ قوْمٍ جرى منْ جُودهمْ ماقدْ جرى

أنْصـارِ ديـنِ الله والهادي الذي لوْلا وضـوحُ هدْيِه ضَلَّ الْوَرَى

فالقـلب بيـن مشرق ومغـرب مُقسَّـمُ اللّوْعة مجْذُوبُ الْعُرى

إذا ذكرْتُ الْغرْبَ حَنَّتْ مُهْجَتي وَبَلَّ دَمْعي منْ جَوَى الشّوْقِ الثَّرَى

وإنْ ذكـرْتُ حُبَّ مَنْ في مشْرِق أبْـطأ بـي حُبُّـهُمُ عـنِ السُّـرَى

إنْ يَصْفُ مِنْ وجْهٍ لشخْصٍ موْرِد كُدِّرَ منْ أخْرى فلا صفْوٌ يُرَى

فـإنْ ترحّـلْتُ فقلْبـي عنـدكُم لمْ يرْتحلْ عنْ بابكمْ ولا سَرى

ولا تـزالُ رُسْـلُ شوقـي أبَـداً تتْرى على مجدكُمْ الجزْلِ النَّدَى

ولـنْ تـمـرَّ سـاعـةٌ إلاّ هَـفَا بذكْركمْ مفْصِحُ نظْمـي وَشَـدَا

لا أوحـش الله ديـارا أنـتـمُ فيها ولا أزْرَى بمرْعَاها الصَّدَى

ولا نـأتْ داركُـمُ ولا خـلا ربْعُكُـمُ ما راح يوْمٌ واغْتَـدَى[2]

1-نفح الطيب: 7/320-321.

وأصرح منه قول ابن الصباغ، وقد «أملاه بلسان الاكتئاب، في حالة التباعد والاغتراب»:

محبٌّ بَراه الشّوقُ بالمغْرب الأقصى ... يناديكمْ رِيشُوا جناحي فقد قُصَّا

يزيدُ بنقْصِ الْعُمْر ضَعْفاً وشَيْبةً ... وتلْك زيادةٌ تُكَسِّبه نقْصَا

ستقْطعُ بِيدَ الْحبِّ أيْنُقُ وَجْدِهِ ... ويُعْمِلُ في مرْضاتِكَ الْوَخْد[1] والنَّصَّا[2]

لعلّك تُحْيي دَارساتِ رُسومِ مَنْ ... بِرِيقَةِ هجْرانِ الْأحبّةِ قدْ غَصَّا

فيمْنَحُ بالتّقْريب أُنْساً ورِفْعةً ... ويُصْبحُ منْ بعْد التّباعُد مُخْتَصَّا[3]

- خوْفُ جوازِ لُجّة الْبحْر:

وقلّةٌ منْ صرّحوا بهذا المصرف، فمنهم أبوعبد الله محمد بن محمد بن أحمد، ابن الجنان المرسي (ت بعد 650 ه):

تميّز أهل السّبْق لكنّ غيْرَهمْ ... غَدَا هَمَجاً بيْن الخليقة هامِجَا

أيَلْحقُ حِلْسٌ للْبيوت مَدَاهُمُ ... ولمْ يلْعبْ في تلْك المدارج دَارِجَا؟

ألا ليْت شعري للضّرورة هلْ أُرَى ... إلى الله والْبيْتِ المحجَّبِ خَارِجا؟

لهُ الله منْ ذي كُرْبةٍ ليْس يُرْتَجَى ... لمرْتَجِها يوْماً سوى اللهِ فارِجا

قد أسْهَمَتْ شتّى المسالك دونَهُ ... فلا نهْجَ يلْقى فيه للّه نَاهِجَا

يخوضُ بحارَ الذّنْب ليْس يهابُها ... ويصْعَقُ ذُعْراً إنْ يَرَى الْبحْرَ هَائِجا

1-سعة الخطو وسرعة في المشي.

2-التحريك حتى يستخرج من الدابة أقصى سيرها.

3-ديوان ابن الصباغ الجذامي: 21-20؛ والأبيات مختارة من مقطعة أوفى. وانظر أيضا مقطعة في نفس المعنى: 51؛ ر: 49.

جبانٌ إذا عَنَّ الْهُدَى، وإذا الْهوى ... لـه كـانَ الْـجَـرِيءَ الْمُـهَارِجَا

يَتـيهُ ضَـلالاً فـي غَيَـابَةِ هَمِّهِ ... فلا حَجْرَ تَهْديه لرُشْدٍ ولا حِجَا

فـواحَـرباً لاحَ الصّباح لمُبْصِر ... وقلْبيَ لمْ يُبْصِرْ سوى اللّيْلِ إذْ سَجَا

لعلّ شفيعي أنْ يـكونَ مُعَاجِلاً ... لـداءِ ذُنُـوبٍ بالشّفاء مُعَالـجا

فيُنْشِقُني بيْتُ الإله نَوَافِحاً ... ويُعْبِـقُ لـي قبْرَ النّبيّ نَوَافِـجَا

- الحالة السياسية المضطربة:

ومن هذا القبيل أيضا الحالةُ السياسية المقلقة بالأندلس والمغرب في بعض الفترات التاريخية؛ حيث لم يكن بمستطاع الكثيرِ القصدُ إلى بيت الله في ظروف بلادهم التي لا يأمنون معها على ذريتهم ومخلَّفاتهم.

ولذلك وصف العامري نفسه بأنه «منتبذ مكانا قصيا، مدير على الإمام به زمنا عصيا[1]» . وأجمل أبو العباس الإلبيري وهو يخاطب النبي الأعظم، قَوَاطع الرّحْلة في الفتنة، ثم عرَّج على تفْصيلها، بتمكُّنِ النّصارى وغيْرهم منْ مَسِّ المسْلمين بسَوْطِ الهوان، وهو ما يَشي بتشظّي السّلْطة المركزية، وضعْفِ أُمَراء الأطْراف عنْ حماية الْحدود والثّغور، وعجْزِهمْ عنْ تأمين السُّبُل:

فالْكلُّ مشْتاقٌ إليْكَ وإنّما ... مَعْزَى الْجميع وشأْنُهُمْ منْ شَاني

لـكنّهمْ فـي فتْـنةٍ قطَعَتْهُـمُ ... وتضـرّمـتْ كتضـرُّمِ النّيـرانِ

إنّ الْبـرابـرَ والنّصارى مُكِّـنَتْ ... أيْـديـهمُ فيـنا بكـلّ هـوانِ[2]

وكان الخلفاءُ أقْومَ بمعْرفة الأحوال السياسية المتقلّبة، فأحاط بذَرْو منها أبوزكريا الْحفْصيُّ في الرسالة النبوية التي أنشأها إلى الحضرة الشريفة؛ وفيها يقول: «فإنْ

1-العطاء الجزيل: خ.

2-عيون الإمامة: 51؛ ر: 13.

تأخّرْتُ عنْ زيارتكَ إقْداما، فقدْ أعملْتُ في عَضُد سُنَّتِك أَقْداما، وإنْ لمْ أنْتبهْ، فإنّي يقِظٌ لما جئْتَ أنْتَ به، وإنْ لمْ أَرِدْ من تلْك الشّريعة، فإنّي بَانٍ دفاعي عنْ شريعتِكَ بكلّ ذَريعة، في بلادٍ تَجَادَعُ أَفَاعيها، ويَصَمُّ واعيها، ولا يُجابُ إلى شقاقِ واخْتلاقِ دَاعيها، فقد صارتِ الْمَواسِطُ تغُورُ فتْنتُها وتُنْجِد، وترْكعُ فيها الْمَوَاضي إلى مَحَاريب السَّنَابكِ وتَسْجُد، وقدْ أوى كثيرٌ منْ بلاد الإسلام إلى ذمّة الصَّليب، ولمْ يأْخُذْ أهْلُها من الرّأْي والْأَناة بنَصيب، فوقفْتُ دونَها لا رغْبةً عنْ مهْوى أفْئدةِ الْعِباد، ورَعَيْتُ هُدُونَها لاَ تثاقُلا عنْ بيْتٍ سواءٌ الْعاكفُ فيه والْبَاد، ورابَطْتُ أطْرافَها لا عَجْزاً عن الْبيْت الْعتيق، وبقِيتُ أخْبِطُ في غَسَقِها وإنّي لفقيرٌ إلى نُورِ ذلك الْفَتِيق[1]» .

- الزَّمَانةُ والهَرَم:

لم تكن بعض تلك الرسائل بداعي الشّوْق فحسب، ولكنها كانت كذلك بباعث الشكوى وبثِّ الهمّ، وهو دعاءٌ مصروفٌ إلى الله باطنا، واستشفاعٌ في هذا المقام بالنبي صلى الله عليه وسلم ظاهراً، ومثالُه ما كُتِبَ به على لسان أحد القرطبيّين، وقد كان أضَرَّ به المرض حتى ألزمه قَعْرَ بيته فصار قَعِيدَه؛ ونصُّها:

«مِن عتيق هُدَاه، وزائرِه بمحبَّته وهواه، المستكشفِ ببركته لبلْواه، المستشفعِ بشفاعته في دنياه وأخراه: فلان:

كتــابُ وقــيذٍ مــن زمانته مُــشْفِي ... بقبــر رسول الله أحمدَ مستــشْفي

له قــدمٌ قد قــيد الدهــرُ خطوَها ... فلم يستطعْ إلا الإشارة بالكف

ولــمــّا رأى الــزُّوَّارَ يبْتــدرُونَه ... وقد عاقه عن قصْدِه عائِقُ الضَّعْفِ

بكى أسفاً واستودعَ الرّكْب إذْ غدَوا ... تحيّةَ صدق تَفْعَمُ الركبَ بالعَرْفِ

1-البيان المعرب: 4/530.

فيــا خاتم الرسْــلِ الشّفيعِ لربّه ... دعاءَ مهيضٍ خاشعِ القلب والطّرْف

عتيقُــك عبــدُ الله ناداك ضارعاً ... وقد أخلص النجوى وأيقَنَ بالعطف

رجاك لضُرٍّ أعجزَ الناسَ كشفُه ... ليَصْدُرَ داعِيهِ بما شاء من كشْفِ

لِرِجْلٍ رمــى فيــها الزَّمانُ فقصّرتْ ... خُطَاها عن الصّف المقدّم والزّحْفِ

وإنــــي لأرجــو أن تــعودَ سَوِيَّــةً ... برحمة من يُحيي العظام ومن يشفي

وأنــتَ الــذي نرجــوه حيا وميتا ... لصَرْفِ خطوبٍ لا تُرِيعُ إلى صَرْفِ

عليــك ســلام اللــه عــدَّةَ خلقِه ... وما يرتضيه من مزيدٍ ومن ضِعف[1]

وقد كتب ابنُ أبي الخِصَال رسالةً إلى الجناب النبوي، يسأل الله فيها أن يَرُدَّ عليه بصرَه[2] ، وأن لا يميتَه حلْسَ بيته مع الاستطاعة؛ وفي ذلك يقول: «اللهمَّ كما أريْتَني تلك المعالِمَ المُنيفةَ خَيَالا، وخطَطت منها في الضمير مِثالا، وأريتَنِيها ملءَ السّمع والفؤاد جمالا، فاشْفِ بمرآها بصراً ضريرا، وبسَنَاها يرْتَدُّ بصيرا...».

وبعضُ هذه الرسائل تصدُر عن أصحابها في حال الشَّيْبة وما يرافقها من وهَنٍ وإحساس بقُرْب المنقلَب، ويدلُّ له أن بعضَهم ذكر ما يشي بعمْره، فقال في سياق الطلَب المنصِرف للحضرة العليّة: «وأنخْ هذه الشيبة، بباب بني شيبة».

والشيب والشّاخةُ سببُ الأسبابِ في الحيْلُولةِ دونَ وصل الأحباب، وهو ما عبَّر عنه ابن الصبّاغ الجذامي بالقول:

شــوقي إلى ذاك الْمــقامِ أثــارَه ... حُــزْنٌ تلهَّــبَ لَفْحُــه بفــؤادي

يــا ويْــحَ مكْتــئبٍ لمــا قدْ شــفَّهُ ... منْ فــرْطِ أحْــزانٍ وطُــولِ بِــعَاد

1-أزهار الرياض: 4/29-30.

2-أزهار الرياض: 4/26.

كـمْ رام قـرْبَ الـدّار منْ أحْـبابه ... لوْ أسْـعف المقْـــدُورُ بالإسْـعاد

كمْ رام أنْ يشــْفي بزَوْرتــه ظَـمَا ... قلْــبٍ إلــى تــلك المعاهد صادي

أيّام أُطْلِـعَ بــدْرُ حُسْــنِ شبــابِه ... مِــنْ فــوْقِ ناعمِ غُصْــنِهِ الميّــادِ

والْآن قــدْ لعــبــتْ بــه أيّــامُــهُ ... وَعَــدَتْ عليْــه للْمَشيبِ عوادي

شيْبٌ وضعْفٌ وانْتزاحُ مَواطِنٍ ... فمتــى يُتــيحُ الدّهْــرُ نيْلَ مُراد

لهْفي على عُمْرٍ تصرَّمَ وانْقضى ... أفْنيْــتُ فــيه طارِفي وتِــلادي

فلأنْــزِفَنَّ مدامعي أسفــاً عــلــى ... ما قدّمَتْهُ يَــدي ليــوْمِ مَعــادي

يــا حــاديَ الْأظْعان يأْمُلُ طيْبةً ... اقْصُصْ فديْتُكَ قصّتي يا حادي

وانْــزِلْ بــهاتيك الرّبوع وقِفْ على ... نادي النَّدى إمّا عَرَضْتَ وَنَادِ

هــذا أسيــرُ بِعــادكم أجْفانُهُ ... تحْكي بفيْض الدّمْعِ سُحْبَ عِهَاد

فمتى على بُعْدِ الدّيار وشَحْطِها ... يحْظى بوصْلِكُمْ حــليفُ سُهَادِ[1]

وله منْ قصيدة أخرى في نفس المعنى يخاطب ركْبَ الحجيج:

نــويْــتــمْ رحــلةً وأقــامَ لــمّــا ... تَرَحَّــل عــنْ معالــمه الشّبابُ

ضعُفْتُ عنِ المسير فدمْعُ عيْنــي ... لــه في الْــخدّ سَــحٌّ وانْســكابُ[2]

- ضعف التدين والتلبُّس بالذنوب:

قمينٌ بالتنبيه أن كثيراً من كبار المترسلين، أراغوا علّةَ قعُودِهم عن الزيارة، ودخولَهم في زُمْرة المخلَّفين، إلى تلبُّسهم بكبائر ما نُهوا عنه، من المعاصي المقصِّرة بهم

1-ديوان ابن الصباغ الجذامي: 8-7.

2-ديوان ابن الصباغ الجذامي: 56؛ ر: 54.

عن إدراك الأمنية وبلوغ القصد؛ وهؤلاء على الحقيقة أسخنُ عيناً وأصدقُ عاطفة وأشدُّ تأثيرا في نفس المتلقّي، لأنهم يفصحون في جليّة الأمر عن مكنونِ وعيه، وخبيئةِ صدْرِه، ويتحدثون بلسانه، وسواءٌ حينَها أكانتِ الرسالة لفلان أو علان، لخروجها من حِمَى التعبير الشخصي الفَرْدَاني، إلى وُسْعِ البَوحِ الإنساني المتّخِذِ شكلَ المونولوج النفسي.

«وممن سَلَكَ هذا الوادي، وأرْسل -إذْ غلبه الشوقُ- دموعَه الغَوَادي، ذو البيان الذي قَلَّ له الموازِي، الشيخُ أبو زيد الفَازَازي (ت 627 ه)؛ فإنه كتب إلى الحجْرة الطيبة، على ساكنها أفضل السلام والصلوات الواكِفَة الصَّيِّبَة، بما نصه»:

يــا ســيدَ الرُّسْــل المكــينِ مكانُــهُ ... ومقــدَّماً وهْــو الأخــيرُ زمــانُه

والمصطفى المختارُ من هذا الورى ... فمــحلُّــه عالــي المــحلِّ وشــأنُه

ومــن النبوءةِ والطّهــارة والهدى ... شــرَفٌ حَــوَاهُ فــؤادُهُ ولــسانُهُ

عُــنوانُ طِرْسِ[1] الأنبيــاءِ وختْمُهم[2] ... والطِّــرْسُ يُكْمِلُ حســنَه عنوانُــه

فــالدهرُ خلْق[3] أحــمدٍ إصــبَاحُه ... والخَــلْقُ جَــفْنُ أحــمدٍ إنْسانُه

نــاداكَ عــبدٌ أخّــرتْه ذنــوبُه ... والشــوقُ تــلفحُ قلبَــه نــيرانُه

وفدَتْ عليك رِكابُ أربابِ التّقى ... والمذنِــبُ الخَــطَّاءُ كُفَّ عــنانُــه

لمّــا تــخلَّف للتخلّــف مذنــباً ... فــي المــذنبين وغَــرَّه[4] إمكانُه

1-فيه إشارة نبيهةٌ إلى اسم الماحي صلى الله عليه وسلم.

2-في الآثار: ختمه.

3-في الآثار: أفق.

4-في الآثار: وعزّه.

كَـتَـبَ الكتابَ لعله إذْ[1] لم يَـزُرْ ... باللحـظِ قـبرَكَ أن تزور[2] بنانُه

ووراءَ أضلاعي فؤادٌ قَيْدُهُ ... إلْفُ الذنوبِ وسِـجْنُـه أشجانُه

لكـنَّ حـبَّك شـافِع و مُـشـفَّعٌ ... يغشـى محبَّـك يُمْـنُه[3] وأمانُـه

وعلـيـكَ يا خيـرَ الأنـام تحـيةً ... كالروض صَافَحَ رَوْحَـهُ ريحـانُه

مـمـن يـزورك خـطُّه وكـلامُه ... إن لـم يـزرْك لذنبـهِ جـثمانُه[4]

وقال غيره:

نـزل الـحـجـيجُ بـمـكَّـة ... بيـن الـصـفـا والمـرْوةِ

وسَـعَـى وطـافَ وقَـبَّل ... الْحَجَـرَ الذي في الكعبةِ

وأتـى المـقـامَ مُـصلّيـا ... فـجَرَتْ مـدامـعُ مقلتـي

حـجُّـوا وزاروا المصطفـى ... وأنـا طُـرِدتُ لـشِـقْوتي

لـكـن رجـائـي قـولُـه ... لا تـقـنطوا مـن رحمتـي[5]

وقد دندنَ كثيرون على هذا النَّغَم وأداروا الكلامَ عليه، وأبلغَ في ذلك أبوزيد الفازازي المكناسي، -ونسبه المقري لابن الجنّانِ الإشبيلي ثم المراكشي (توفي في عشر الخمسين وستمائة) خطأ- بقوله: «كتبتُه يا رسول الله وقد رحَلَ المجِدُّون وأقمت، واستقام المستعدُّون وما استقمت، وبيني وبين لَثْمِ ثَرَاكَ النبوي، ولَمْحِ سناكَ المحمّدي، مفاوزُ لا يفوز بقطْعِها إلا من طَهَّر دَنَسَ ثوْبِه، بماء تَوْبِه، وستَرَ وَصْمَ عَيْبِه، بظَهْرِ غَيْبِه؛

1-- في الآثار: إن.

2-في الآثار: يزور.

3-الأزهار: أمنه.

4- آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي: 37؛ أزهار الرياض: 4/30-31.

5- معجم السفر: 172.

فكلّما رُمْتُ المتابَ رُدِدْتُ، وكلما يمَّمْتُ الباب صُدِدْتُ، وقد أمرَنَا الله تعالى بالمجيء إليك، والوِفَادة عليك، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تُنْئِي وتُبْعِد، والأيامُ لا تدْنِي ولا تُسْعِد، وبين جنبَيَّ أشواقٌ لا يزال يهُزُّنِي منها المقيمُ الْمُقْعِد، ولئن كنتُ ممن خلَّفَتْهُ عيوبه، وأوبقتْه ذنُوبُه، ولم يُرْضَ للوفادةِ وهو مدَنّس، على ذلك المقام وهو المطهَّر المقدَّس، فعندي من صدْقِ محبّتِك وحبِّ صحبتِك، والاعتلاقِ بذمّتك، ما يقدِّمُني وإن كنت مبطئا، ويقَرِّبُني وإن كنت مخطئا[1]» .

وفي نفس الْمرْمى يسدّدُ ابْنُ خاتمة بالقول:

إليْكَ يـا ملْجأ الرّاجينَ قدْ نَزَعَتْ ... نـوازعُ بـي إنْ تُـسْـتَـقْصَ لا تُقَـسِ

منْ سفْحِ دمْعٍ بسفْحِ الخدِّ مُطّرِدٍ ... وقَدْحِ وَجْدٍ بِطَيِّ الصّدْرِ مُـنْعكـس

ونهْبِ شوْقٍ أباح السُّقْمَ مَنْهَبَتِي ... فالجسْمُ في تَعبٍ، والقلْبُ في تَعَسِ

فهلْ سـبيلٌ تؤدّي حِلْفَ قاصية ... إلى مقرّ الهدى منْ روْضة الْقدُس

يا ليْـت شـعري وأيّـامي تُثبّطُني ... ومنْ سقتْهُ كؤوس العجْز لمْ يَكِسِ

هلْ أكحّلُ الجفْنَ من ترْبٍ به عَبَقٌ ... وأرْشُفُ الثّغْـرَ منْ إظْلاله اللّعِس

وأبْلـغُ الْخـدَّ مـنْ تعْفيـرِه وَطَـراً ... شوْقاً لموْطئ نعْلٍ طاهرٍ قُدُسي

إليْكَ يا ربّ شكـوى مُبْعَدٍ قَعَدَتْ ... بـه الخـطايا فلـم ينهضْ لملْتمَس

غـرّتهُ غُـرّةُ دُنْيـا بالصِّبا فـصَـبَا ... وأنْسَـتْهُ بتهْـوين الْـهوى فَنَسِي

يـا ربّ رُحْماكَ في تـبْليغ مأْرَبِـه ... فلُطْفُكَ اللّطْفُ في تيْسير كلِّ عَسِي[2]

1- نفح الطيب: 7/425. وهي في مجموع آثار الفازازي منسوبةٌ له لا لابن الجنّان فليحرّر.

2-ديوان ابن خاتمة: 35-34.

- المْقدور:

ويجمع كلَّ ما مرَّ من البواعثِ وغيرها ما سطّرته يدُ العناية في سابق الأزل، من الصَّوارف والقواطع؛ ولذلك ليس يُفصح بعضُ المنشئين وممارسي القريض عن علّةِ تخلُّفهم عن ركْب الحجيج، على أنهم سالِمُون من معهودِ ما يمنعُ فئاماً عريضةً من الناس، فتراهم يُجملون الأسبابَ في القَدَرِ المقدور، الذي يأتي على العلل الظّاهرة والباطنة، وإليه نَظَرَ ابن الخطيب السلماني(ت 776هـ) عند قوله في قصيدٍ ضمَّنه السلامَ على القبر الشريف، وحمَّلَه ركبَ الحاجّ:

تـخـلَّف مني ركـبُ طَـيـبة عـانيـا ... أما آن للـعَـاني الْمعنّى بـأن يُفدى

مُخَـلَّفُ سِـرْبٍ قـد أُصِـيبَ جناحُه ... وطِرْنَ فلم يَسْطِعْ مَرَاحا ولا مَغْدَى[1]

ومـا هـو إلا الـشـوقُ ثَـارَ كـمـينُه ... فـأذهـل نـفسا لم تُبِنْ عندَه قصْدا

ورُمْـتُ نـهوضـا واعـتزمْتُ مـودِّعا ... فصدّنِيَ الْمقدُورُ عن وجهتي صَدّا[2]

إلى أن قال:

نشـدْتُكَ يـا ركْـبَ الحـجاز تضـاءلتْ ... لك الأرْضُ مهْما اسْتعْرضَ السَّهْبُ وامْتدّا

وجَـمَّ لـك المرعى وأذْعـنتِ الـصُّوَى ... ولـم تفْـتقدْ ظـلاّ ظـليـلا ولا وِرْدَا

إذا أنْـتَ شـافـهْـتَ الـدّيار بـطَيْـبـةٍ ... وجئـت بـهـا الـقبْـر المـقدّسَ واللّحْـدَا

وآنـسْـتَ نُـوراً مـنْ جـنـابِ مـحـمّدٍ ... يُـجَلـّي الـقلوبَ الْغُلْفَ والْأعْينَ الرُّمْدَا

فَنُـبْ عـنْ بـعيد الدّار في ذلك الْحِمَى ... وأذْرِ بـه دمْـعاً وعـفّـرْ بـهِ خـدّا

وقـلْ يـا رسـول الله عـبْـدٌ تقاصرت ... خطـاهُ وأضْحـى مـنْ أحـبّتـه فـرْدَا

1-نفح الطيب: 6/453.

2-نفح الطيب: 6/452.

ولم يسْتطعْ منْ بعْد ما بَعُدَ المدى ... لـوْعـةٍ تُعْـتـادُ أوْ مـدْحةٍ تُـهْدى

إلى كـم أُرانـي فـي البطالة كـانِعاً ... وعمريَ قدْ ولّى ووزْريَ قد عُدّا

تـقضّـى زمـاني في لـعلّ وفـي عـسى ... فلا عَزْمةٌ تمضي ولا لوْعةٌ تهدا

حسـامُ جَـبانٍ كـلَّما شيـم نصْلُه ... تـراجـع بـعد العزْمِ والْتـزمَ الْغِمْدَا

ألا ليْت شعري هل أُرانيَ ناهداً ... أقودُ الْقِلاصَ الْبُدْنَ والضَّامِرَ النّهْدا

الـى أنْ أحُطَّ الرّحْلَ في تُرْبِكَ الذي ... ضـوَّعَ نَـدّاً مـا رأيـنـا لـه نِـدّا

وأطْفِيءَ في تلك الموارد غُلَّتي ... وأحسبَ قرْبا مهْجةً شَكَتِ الْبُعْدَا[1]

وهذا العجْزُ أو ما يقوم مقامَه من القواطع المتباينة، عبَّر عنه أبو الفضل عياضُ بن موسى بن عياض السبتي (ت 544 هـ) بقوله يخاطب الذات المحمدية: <عَدَتْنِي العَوَادِي عن التَّشَفِّي بقصْدِ قبرِكَ ومَزَارِكَ، وقَطَعَتْ بي القواطعُ عن التشرُّفِ بمُشاهدة مَشَاهِدِكَ الشريفة وآثارِكَ[2]> ، فلم يملكْ قاضينا تَبَعاً لذلك، سوى <رُقعةٍ تشكو بثَّ التبْريح، وتحيّةٍ خفيفةِ المحْمَل طيّبَة الرّيح[3]> ، أوْ كما عبر الشاعر المغربي – ونقله في المعسول- مخاطباً الرسول الأكرم:

ولمّا نأيتُ ولم أستطعْ
أسيرُ لحضرتِكُم بالقَدَمْ
سعيتُ إليكم برِجْلِ الرّسُو
ل وخاطبْتُكم بلسان القَلَمْ[4]

وعزَّ الإسعافُ بالحجّ على أبي عبد الله ابن عسكر الغساني المالقي (ت 638 هـ)،

1-نفح الطيب: 6/453-454.

2-أزهار الرياض: 4/17.

3- أزهار الرياض: 4/26.

4-المعسول: 10/190.

فأوْدَعَ صاحبَه ابْنَ سعيدٍ أبا الحسن عليَّ بْنَ موسى (ت 685 ه) أبْياتاً لينْشدها عنْد الرّوْضة فَفَعَلَ: [وافر]

عـليّ إذا أتيْـتَ ثَـرَى محـمّـدْ ... صـلاةُ اللـه لا تـعْـدوهُ سـرْمَـدْ

فـقبّلْـه وقُـلْ صَـبٌّ غـريـبٌ ... بأقْصى الْـغرْب أَمّـلَ وهْو مُـقْعدْ

أراد زيـارةً فَـثَـنـاهُ عُـذْر ... وكمْ سيْفٍ جُرَازٍ وهْو مُغْمد

فـإنْ مُـنِـعَ الْمَسيـرَ أتـاكَ منْـهُ ... سـلامٌ طيّـبٌ أبـدا يُـرَدّدْ

ومـدْحٌ لايـزالُ بكـلّ حيـنٍ ... مـنَ الآداب كـالدّرّ المـنضّـدْ

أقمْتُ وانْتَ ترْحَلُ يا ابْنَ مُوسى ... لقدْ نلْتَ السّرورَ وظِلْتُ مُكْمَدْ[1]

ومن أبدع البواعث ما نجدُه عند الأديب الوزير أبي بكْرٍ الكُتُنْديّ المالقي (-507 584 ه)، فقد اعتاصَ عليه أن يَرَى النبيَّ في النوم، وعدَّه قسوةً من قلبه، وإبْلاساً من ربّه، ورامَ أن تكتحِلَ عيناهُ برؤيا سيّدِ الأرسال، إن لم يكن جهرةً في اليقظة، فلا أقلَّ من النوم، ودهاه من ذلك أمْرٌ عظيم، فكتَبَ إلى الحضرة الشريفة:

إلى أبي القاسم المختارِ من مضر ... حنَّتْ له الجذْعُ قبلي فَازَ بالكرم

أنام ملْءَ جفوني لا يُمَثَّلُ لي ... في نومةٍ فكأنَّ العين لَمْ تَنَمِ

فالنفسُ في يأسِها منكمْ مُوَلَّهَةٌ ... ليست منَ الأملِ الأسْنى على أَمَمِ

كمْ رُمْتُها يا رسولَ الله مَرْتَبَةً ... لو كنتُ آمُلُ أن ألقَاكَ في الْحُلُمِ[2]

1- اختصار القدح المعلى: 130.

2-أعلام مالقة: 109.

ثانيا: بعض مواصفات رسائل الحجرة:

- أن إرسالها شركة بين الخاصة والعامة:

اطَّرَدَ عند عموم النَّقَدَة العالِمِين بالأدب الرفيع، أنّ زَهْرَ أفنانه لا يتدانى قِطافُه لعوامّ الناس، وأنه مخصوصٌ بالجِلّة السابقين، وقد شذَّ عن هذا الحكم فنُّ الرسالة الموجَّهة للنبي صلى الله عليه وسلم، فاصطلح على المساهمة فيه الكافَّةُ، فأدلى فيه خاصّةُ الخاصَّة برِشَاءٍ طويل، ومن ثَمّ لا بدع أنْ جرت عادةُ الملوك المغاربة أن يُصْحِبُوا مَن عَلا قدحُه في المعارف والمكارم في حجازِيّاتِهم، رسائلَ للنبي يُنشِؤُها هؤلاء على ألسنتهم أو ينشؤونها بأنْفُسهمْ «يؤكِّدُون فيها ولاءهم وإخلاصهم للجناب النّبوي ويتضرّعون إلى الله في حل أزماتهم»؛ فمِن ذلك صنيعُ أبي عنان المريني (ت 759 ه) مع كاتبه أبي القاسم محمد بن يحيى الغسّاني البَرْجي (ت 786 ه)؛ حسبما أفاده ابن الخطيب في الإحاطة والنُّفَاضَة. ورسالةُ أبي زكريا الحفصي (ت 647 ه[1]) ، ورسالةُ أبي القاسم العزفي أنشأها عنه أبو القاسم خلف القبتوري (ت 704 ه[2]) ...

وكان للخاصّة من العلماء قُرْصٌ في العرس، فاستفاض لديهم سلُوكُ هذا النهج؛ ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الغسّاني الوادي آشي (609-547 ه)، ذكر ابنُ عبد الملك المراكشي أن له «رسالة بديعة» تشتمل على نظم ونثر، كتب بها إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم[3] . ونجدُ عند مُنْقَلَبِ الذَّوْد، العامّة أيضا، يَنْفِسُون على العلماء هذه المبَرّة، فيشاركونهم فيها، فقد نقَل المقَّرِي(ت 1041 ه) أن أحد القرْطبيين من عامَّتهم يدْعى عبد الله بن عبد الحق الصَّيْرَفي، كتب إلى الحجرة النبوية كتابا تولّى عُظْمَ تنميقِه ابنُ أبي الخصال.

ومن أعجب ما وقع في هذا المعنى، قصيدةٌ حجازيةٌ، تولى صياغتَها إبراهيمُ بنُ سهْل الإسرائيلي (ت659ه؟)، ووجْهُ العجب أن شبهةَ الشَّوْقِ لقبر النبي منقطعةٌ عند من

1-البيان المغرب: 4/527-530.

2-رسائل ديوانية من سبتة: 87-96.

3-الذيل والتكملة: السفر 5/ق 1: 178.

لا يومن به، على القول الأشهر في عدم إسلامِ ابن سهل[1] ، وتذهبُ الحيرة حين نعلم أنّ الذي بعثه على ذلك، أَمْرُ أبي عليّ بن خَلاص الثائر بسبتة؛ ونصها:

وركْبٍ دعتْهم نحو يثربَ نيّةٌ ... فما وجدتْ إلاّ مطيعا وسامعا

يسابقُ وخْدُ العِيسِ ماءَ شُئُونِهم ... فيُفْنُونَ بالشّوقِ المدى والمدامعا

إذا عطفوا أو رجَّعوا الذّكْرَ خِلْتَهُمْ ... غصونا لِدَاناً أو حماما سَوَاجعا

تضيءُ من التقوى حنايَا صدورهم ... وقد لبِسوا اللّيلَ البهيمَ مَدَارِعَا

تكاد مناجاةُ النبيّ محمدٍ ... تنمُّ بهم مِسكا على الشّمِّ ذائعا

قلوبٌ عرفْنَ الحق فهْي قد انطوت ... عليها جُنُوبٌ ما عرفْنَ المضاجعا

تخلَّصَ أقوامٌ وأسْلَمَنِي الهوى ... إلى عِلَل سَدّتْ عليَّ المَطالعا

خذو القلب يا ركبَ الحجاز فإنه ... ثوى الجسمُ في أسْرِ البِطالة كانِعا

مع الجمرات ارموا فؤادي فإنه ... حصاةٌ تلقّت من يد الشوق صادعا

وخُطُّو رجائي في رَجَا زمزم الصفاء ... وخلوا المنى تجمع غليلا وناقعا[2]

ولم نزلْ إلى عهدٍ قريب، نرى بعض فقهاءِ أُسْرتنا وذوي الشّفوف من شيوخنا يبعثون إلى الحجرة النبوية بمكاتباتٍ تنزِفُ أَلَمَا، وتنفث حُمَما، وقد كنت رأيت عمي وأستاذي سيدي محمد الكبير أصحب الوالد منصرفه إلى الحج، رسالة قرأها على المقام النبوي، واستغربت الأمر حينها، ثم عرفت بتراخ أن ذاك من معهود صنائع الأندلسيين، ولسنا عن نسبتهم بمدفوعين.

1-وقع في نفح الطيب (3/524)، قول أبي الحسن بن سمعت الأندلسي يقول: شيئان لا يصحان؛ إسلام ابن سهل، وتوبة الزمخشري».

2-اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى: 80-79.

- اتّضَاعُ صورة المرسِل:

ومن مواصفات هذه الرسائل، انمحاءُ رسْمِ المرسِل، دليلاً على اتّضَاع شأنه في سياق التوجُّه بالخطاب، وفراراً من الوقوع في سَوْءَةِ التقدُّم بين يدي الله ورسوله، ولذلك يقترن في الغالب اسمُ صاحب الرسالة مُرْدَفاً بأوصاف التحقير والتصغير، حتى بدا أنه لولا ضرورةُ التعريف، لأبْهَمَ أصحاب الرسائل أسماءهم، إذْ عادةُ المفضولِ أن يُنكرَ ذاته في حضرة الفاضل، فكيفَ إنْ تعلّق الأمر بسيد الوجود، وأفضلِ كل موجود. وتأسيساً على هذا، لما اضطرَّ أبو عبد الله محمد بن سعيد الْمَرْغِيثِي السّوسي (ت 1089 ه)،[1] إلى الإعراب عن نفسه، عبَّر بقوله: <من عبدك الفلاني فلان ابن الفلاني>، ثمَّ عزّزَ ذلك في مواطن متفرقة بأوصافٍ من قبيل: <العبد الفقير> و<المذنب العاصي> و<الخائف الهيمان[2]> . وقبْلَه عبّر ابن الجنّان بقوله:<من العبد المذنب المخطي، المسرع بأمله المبطي[3]> ، ثمَّ قال إثْرَ كلام طويل: <كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى، اللاّئذُ بحرَمِكَ الأمنَعِ الأوْقَى، المتأخّرُ جسما المتقدم نُطْقا: فلان[4]!. والسلام عليك يا رسول الله تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته>. وهو عينُ ما نجده في رسالةٍ لأبي القاسم العَزَفِيّ (ت 677 ه) كتبها عنه خَلَف الغافقي القَبْتُوري (615-704 ه)، وفيها: «من عبدِه المستنقَذِ من هُوَّةِ الرّدَى بنُور هُدَاه، المعتصمِ بسنّتِه التي وفّقه الله لاتّباعها وهَدَاه الْوافدِ بقلْبه وحبّه، وإنْ حالَ ممْتدُّ الْبُعْد بيْن شخْصه وبيْن قُرْبه، على رَفيع مُنْتداه، الرّاغبِ إلى الله تعالى في زَوْرةٍ تنْقَعُ غُلَّةَ اشْتياقه إليْها وتَبُلُّ صَدَاه، الْمعْترفِ بالْعجْز عنْ شكْر ما أوْلاه، منَ الْمِنَن الْجسيمةِ وأسْداه، الْمُهْدي له منْ صلواتِ الله الزّكيّة، وتحيّاتِهِ الْعَبِقَة الذّكيّة، أفْضلَ وأكْملَ ما بعثه محِبٌّ شيّقٌ وأهْداه، المبْسوطةِ إليْه في الشّفاعة له عنْد ربّه واسْتِيهابِ ما أسْلَفَ منْ ذنْبِهِ يَداه، المتوسّلِ به إلى مَنْ هو أكرمُ الخلق عليه، وأحظاهم وأرضاهم لديه، في إنجادِه على جهاد عِدَاه، فلان» .

1-انظر طرفا من ترجمته في المعسول: 10/185-202.

2-المعسول: 10/190.

3-الذيل والتكملة: السفر 5/ق1: 289؛ الإعلام للتعارجي: 10/138.

4-رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي: 92.

ولم يجئ ابنُ المرابطِ الدلائيُّ (1099 ه) شيئا إذّاً حين احتذى هذا السبيل فقال: «من عبيدك المصدق بنبوتك ورسالتك، المتعلق بزمامك، الطامع في كفالتك، حامل راية العُفَاةِ المذنبين، المقرّ بالتقصير فيما جئتَ به عن رب العالمين، المعترف الغابِط، محمد الشهير بابن المرابط[1]» .

وقبل الدلائي صرّح أبو الحسن حازم القرطاجني (ت 684 ه) باسمه في رسالته، لكنْ مجرّداً عن كلّ حلية، مستقيلا من كلّ حول:

قِـفْ بيْـن قبْـرِ محـمّدٍ والْمنْبـر ... وقـل: السّلامُ على السّراج الْأنْـورِ

والْثُـمْ ثَـرَى قبْـرالـنّبيّ محـمّـد ... وبـذلـكَ الْـعَـفَـرِ الْأسِـرَّةَ عَـفِّـرِ

واسْتَنْشِ طِيبَ نسيمِه وانْعَمْ بهِ ... واجْـعـلْـه خـيْـرَ ذخيـرةٍ للْمحْشَرِ

واشْـفـعْ صلاتكَ بالسّلام وصلْهُما ... أبـداً عـلـى الـهـادي الْبشير الـمنْذرِ

وانْـعَـمْ بـنـفْـحةِ جـنّـةٍ عَـدَنيّـةٍ ... وتَـرَوَّ فـيـهـا مـنْ نـعـيـم الْـكـوْثـرِ

وانْـظـرْ إلـى أثَـرٍ كـريـمٍ مخبِـرٍ ... عـنْ خيْـرِ عيْنٍ واعْتبـرْ واسْتعْبِـرِ

واحْمـلْ تحيّـةَ حـازِمِ بْـن محـمّـدٍ ... لـمـقـامـهِ الْأعْـلـى الشّـريفِ الْأكْبـرِ

وقـلِ الـسّلامُ عليْكَ يا خيْرَ الْورى ... منْ عبْدكَ الْأدْنى الضّعيفِ الْأصْغرِ

منْ مُـرْتَـجٍ بـكَ فتْحَ بـابٍ مُرْتَـجٍ ... مـنْ أوْبِ تَـوْبٍ بالْـقبول مُبَـشّـرِ

مُسْـتنْـزِلٍ لـجـمـيلِ عـفْـوٍ إلـهِهِ ... عـنْ سـالـفاتِ ذنـوبِهِ مُسْتغْفرِ

واسْتنْشِ طيبَ نسيمِ طَيْبةَ في الصَّبَا ... واسْـألْ نسـيمَ الـرّيـحِ عـنْها يُخْبِرِ

1-زهرة الوسائل في المدح والرسائل: مخ خ ع ك: 3179.

وإذا نظـرْتَ إلـى سَنَـى إشْراقِها ... فـأهِلَّ شُـكْراً للْإلـه وكبِّـرِ

وانْظرْ بمسْجدِهِ مَحَلَّ سجودِهِ ... وإلـى مـقـامِ قيامِهِ فـيـهِ انْظُـرِ

وانْـظـرْ لأكْرمِ هالةٍ قدْ أحْدَقَتْ ... أنْـوارُهـا بـضياءِ بـدْرٍ مُـقْـمِـرِ

صلّى عليه الله ما صَدَعَ الدُّجى ... بضيائِهِ فَلَقَ الصّباحِ الْمُسْفِر[1]

- مخاطبةُ الرسول خطاب الحيّ:

إمْعانا في التلبُّس بمقام الشهود، وتنزيلا للشوق المستعر منزلةَ الزُّلْفى الموذنَةِ بمحْوِ رسْمِ البون الشاسع، والشُّقَّة البعيدة، وأمثلةُ هذا الضرب كثيرة، فلنقتصرْ منها على قول ابن أبي الخصال: «وغيرُ عزيزٍ على من شفَّعك يوم القيامة، وأقطعكَ دار المقامة، وأعطاكَ لواءَ الحمد والكرامة، أن يَجمعَ لي بك بين الشفاعتين، ويوتِيَني في الدنيا بلقياك، وفي الآخرة بسقياكَ الحسنيين[2]..» .

ومن قبيلِه قول القبتوري: «كتبَ إلى حضرته المقدّسة الأرجاء...الوارِدِ عليها بقلبه وإنْ أقام جسمُه بأقصى المغرب وثَوَى، عن نفْسٍ خامَر لحمَها ودمَها يا رسول الله فيك الحبُّ، وقلْب إليك يا خير مبعوث إلى العرب والعجم يلتَاعُ ويصب، وضلوع نار الأسى أثنائها للبعد عنك تشبّ، وكبد تُنْتَهَبُ أفلاذُها كلما يسري نسيم ذكرك الأعطر لها ويهُبّ، وأجفان عفَا رسْم كراها دمعها الهامي قطره المنصب، وحرص على الإلمام بربوعك المطهرة يتفتى على مَرّ الجديديْن ويشِبّ، ومحافظة بأقصى الاستطاعة على طاعتك التي قرَنَها بطاعته الربّ...وقليل في حقكَ يا إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغرّ المحجَّلين، دمعٌ يفضح سواريَ المُزْنِ وغواديه انهمالُه وانهمارُه، وغليل لا يبرح القلب لفح واريه وأُوَرُاه، وبث لا يخلع عن الجسم أو يتاح المثول بمشاعرك المعظمة شِعَارُه، ووجد تبدو في صفحات الخدود المخدّدة آثارُه، وصبر بحكم النزوغ انفصال شمله وانتشاره[3]...» .

1-قصائد ومقطعات: 139؛ ر: 23.

2-أزهار الرياض:4/28.

3-رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي: 93-92.

- صدق الرغبة:

وهذا الملمحُ بادٍ من خلال الدّمْع السّافح، والنفَس اللافح، والشوق الطافح؛ ولذلك تضجُّ هذه الرسائل وتلك المقطعات بصدْق العاطفة وجموحها؛ وبعضُها زفَرَاتٌ حيةٌ انتقلتْ من عالم الحس إلى عوالم المعنى؛ كقول ابن الغَمَّاد متشوقا:

في كل عام أرجّي زورةً معكم ... فتنهضون وشأني دونكم ثِقَلُ

لوخفَّ ظهري لكان الجسمُ مرتحلا ... لكنّ قلبي أمامَ الرّكْب مرتحل

حدا به وجْدُه والشوقُ سائقُه ... وكيف يدنو كَلاَلٌ منه أو مَلَلُ

وا حسْرَتَا فازَ غيري بالوصال إلى ... أرض الحبيب ودوني سُدَّتِ السُّبُلُ

متى ينادي بيَ الحادي يبشرني ... بُشْرَاكَ -يا مغْرِبِيُّ- انزل فقد نزلوا

إنزل بطيبة طاب العيش قد ظفرت ... به يداك فلا خوفٌ ولا وَجَلُ

عبد له أنا إن نادى وبشرني ... وأنت حر إذا بلَّغْتَ يا جَمَلُ

قلبي بحب رسول الله مشتغل ... يا ويح قلب له عن حبه شُغُلُ[1]

- تنزيل زيارة خط الرسالة، محل زيارة صاحبه:

وفيه يقول الفازازي: «ومن نأت به الداروقعدت بعزمه الأقدارثم زارخطه ولفظه فقد عظم نصيبه من الخيروحظه[2]» .

1-أزهار الرياض: 4/33-34.

2-آثار أبي زيد الفازازي: 39.

ثالثا: خُطاطة عناصر الرّسالة:

- مقدمات الرسائل، طافحة بذكر دلائل نبوته ومجالي معجزاته:

ويلاحظ في جميع الرسائل أنها تقدم بين يدي النجوى، طائفةً منْسوقة منْ دلائل نبوته ومعجزاته، تُنْبِي عن اقتدارٍ في معرفتها لأول الأمر، ثم رصْفِها في قالَبٍ بيانيّ لآخِره، وهي بهذا الاعتبارِ آخذةٌ بذَرْوٍ غيْريَسير من الخوْض في المعْرفة السيريّة، وهي معرفةٌ لمْ يتخلّفْ عن التحقُّق بها أيٌّ من الذين هَجَموا على هذا الجنْس الأدبي؛ ومن مُثُله قول ابن الخطيب السَّلْماني من رسالة هي من أوعب ما خطّ في هذا الشأن، وارتفعت دالتها في سلم الإجادة والبيان، كتب بهت إلى التربة المقدسة، عن مخدومه أبي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر: «إلى رسول الحقّ، إلى كافّة الخلْق، وغمامِ الرّحْمة الصّادقِ الْبرْق، الحائزِ في ميْدان اصْطفاء الرّحْمن قَصَبَ السّبْق، خاتمِ الأنْبياء، وإمام ملائكة السّماء، ومنْ وجبتْ له النّبوّةُ وآدمُ بين الطّين والماء، شفيع أرْباب الذّنوب، وطبيبِ أدْواءِ الْقلوب، ووسيلةِ الخلْق إلى علاّم الْغُيوب، نبيّ الهدى الذي طَهُرَ قلْبُه، وغُفر ذنْبُه، وخَتَمَ به الرّسالةَ ربُّه، وجرى في النّفوس مجْرى الأنفاسِ حُبُّه، الشّفيعِ المشفّعِ يوم الْعرْض، المحمودِ في ملإ السّماء والأرض، صاحبِ اللّواء المنشور يوْمَ النُّشور، والمؤتمنِ على سرّ الْكتاب المسْطور، ومُخْرِجِ النّاس من الظّلمات إلى النّور، المؤيَّد بكفاية الله وعصْمتِه، الموْفور حظُّه منْ عنايته وحُرْمتِه، الظّلّ الخفّاقِ على أمّته، مَنْ لوْ حازتِ الشّمسُ بعْضَ كماله ما عَدِمَتْ إشْراقا، أوْ كان للآباء رحْمةُ قلْبِه ذابتْ نفُوسُهُمْ إشْفاقا، فائدةِ الْكوْنِ ومعْناه، وسرِّ الوجود الذي يبْهَرُ الْوجودَ سَنَاه، وصفيّ حَضْرةِ الْقُدْسِ الذي لا ينام قلْبُه إذا نامتْ عيْناه، الْبشيرِ الذي سبَقتْ له الْبُشْرى، ورأى منَ آيات ربّه الْكبْرى، ونزل فيه ﴿سبحان الذي أسرى﴾، الأنْوارُ منْ عُنْصرِ نورِه مسْتمدّة، والآثارُ تَخْلُقُ وآثارُه مُسْتَجدّة، مَنْ طُوِيَ بساطُ الْوحْي لفقْدِه، وسُدَّ بابُ الرّسالة والنّبوّة منْ بعْده، وأوتي جوامعَ الكلم فوقفتِ الْبلغاءُ حَسْرَى دون حَدِّه، الذي انْتقلَ في الْغُرَر الكريمة نورُه، وأضاءتْ لميلاده مصانعُ الشّام وقصُورُه، وطفقتِ الملائكة تجيئه وفُودُها وتزورُه، وأخْبرتِ الْكتبُ المنزّلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته، وأُخِذَ عهْدُ الإيمان به على منِ اتّصلتْ

بمبْعثِهِ منْهمْ أيّامُ حياته، المفْزَعِ الأمْنعِ يوم الفزع الأكبر، والسّندِ المعْتمَدِ عليْه في أهْوال المحشر، ذي المعجزات التي أثبتتْها المشاهدةُ والحسّ، وأقَرَّ بها الجنُّ والإنْس، مِنْ جمادٍ يتكلّم، وجِذْعٍ لفراقه يتألّم، وقمرٍ له ينْشقّ، وحجرٍ يشْهدُ أنّ ما جاء به هو الحقّ، وشمْسٍ بدعائه عنْ مسيرها تُحْبَس، وماءٍ منْ بيْن أصابعه يتبَجَّس، وغمامٍ باسْتسْقائِه يَصُوب، وطُوى بَصَقَ في أُجَاجها فأصْبح ماؤها وهو الْعذْبُ المشْروب، المخصوصِ بمناقب الكمال وكمالِ المناقب، المسمَّى بالحاشر الْعاقب، ذي المجْدِ البعيد المرامي والمراتب، أكْرمِ منْ بُعِثَتْ إليه وسيلةُ المعْترف المقتَرِب، ونجَحَتْ لديْه قُرْبَةُ الْبَعيدِ المغترب، سيّدِ الرّسْل محمّدِ بْن عبد الله بن عبد المطلب، الذي فاز بطاعته المحسنون، واسْتُنْقذ بشفاعته المذنبون، وسَعِدَ باتّباعه الذين لا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون، صلى الله عليه و سلم ما لَمَعَ برْق، وهمَعَ وَدْق، وطلعتْ شمْس، ونَسَخَ الْيَوْمُ أمْس[1]» .

- الإفصاح عن اسم المترسل، بعيد تحليته بصفات التذلل والخضوع والضراعة، وانسفال الحال.

- الإلمامُ بحال البلد والأمة، والشكو مما ارتكس إليه جالها، وتردى إليه ناسها، وما علقوا به من أوحال، وامتهنوا به من فساد وسوء حال.

- التبري من حال المترسل في العادة، من ادعاء الإجادة، بل التنصل من ذلك ديدن كل كاتب، وهجيري كل منيب وتائب، فهم عن بكرة أبيهم عراة عن معرة الظهور، تلافيا لما يسام به مسيء الأدب مع النبي من قصم الظهور.

- وصف حال المنشئ حين يأذن ركب الحجيج بالرحيل، من انسجام العبرات، وتوالي الحسرات، واعتقاد الضعة والدون في نفسه، لأنه لوكان من الرضا على حال قبول، لفك قيده، وسبق إلى مطلع القافلة وَفْده، وكل ذلك مشعل أواري النفس، موقظ للحَزَن، موف بصاحبه لولا وقاية الله إلى هَلَكَة.

1-ربحانة الكتاب: 58-1/57.

- الإلمام غالبا بمعجم الحج والثج، وغالبهم يأسف أنه لم يحج، فيأتي على ما كان يسعه لو فعل من أعمال النسك والزيارة، بعضهم على ترتيب المناسك، وبعضهم بحسب ما اتفق هنالك. ونمثل له بقول ابن جابر الوادي آشي:

إي والـذي ما زال يسْرِي جاهداً ... حتى أتى ميقاتَهُ وما وَنَى
فقدّمَ الْغُسْلَ وصلّى وَنَضَا ... أثْوابَهُ مسْتغْفِراً ممّا جَنَى
ثمّ نوى ملبّياً ثمّ مَضَى ... حتى رأى ذاتَ السَّنَاء والسَّنَى
ثمّ أتى بابَ بني شيْبةَ قدْ ... أبْصرَ ما أمَّلَ قِدْماً قدْ دَنَا
فقبّلَ الرّكْنَ وطَافَ وسَعى ... ثمّ مضى مُرْتَحِلاً نحْو مِنَى
ثم أتى الموْقفَ يدْعو راغباً ... حتّى إذا ما نَفَرَ الْقوْمُ انْثَنَى
ثمّ رمى ثمّ أفاض وانْبَرَى ... مُعْتمِراً قدْ نال غاياتِ الْمُنى
ثمّ مضى مُرْتحِلاً فيمنْ مضى ... مُيَمِّماً طيْبَةَ لا يشْكُو الْعَنَا
يبْغي التي شرّفها الله بمنْ ... شادَ بهِ الدّينَ الْقويمَ وابْتَنَى
فلمْ يكنْ ممّنْ إذا حجّ جَفَا ... بلْ يمَّمَ القبْرَ وزَارَ واعْتنى[1]

وكل الرسائل التي تبعث إلى الحجرة أو إلى المغاربة المقيمين بالحجاز تستعير معجم الحج ومناسكه، فتأتي على تسمية محالِّه وأرْكانه، بلْ وترْتيب بعْضِ أعْماله، ويتمثلُ المنشئ نفْسَه بيْن هاتيك المغاني، فينزّلُ المأمول منزلةَ النَّاجز، ويُنِيط الخَيَال، بما عَجَزَ عنْهُ للْحَال، ونمثّل له بطرف من رسالة أبي بكْر ابْن مُغاور الشّاطبي إلى رفيقٍ له بالحجاز مقيم: «كيْف حالك؟، «وإلى مَ أدّاكَ تَرْحالك، هجرْتَ في الله تعالى

1-نفح الطيب: 7/321.

أرْضا، وقضَيْتَ منْ زيارة البيت الْعتيقِ فرْضا، وأتيْتَ من الْواجبات الْمُوجِبَات ما يتقبّلُ الله تعالى ويرْضى، فاعْتصمْتَ منْ وقايتِهِ الْمانعة بجُنَّة، والْتحفْتَ منْ آلائِه السّابغة بمنّة، وتقرّبْتَ بحجٍّ مبْرورٍ جزاؤُه كما قال عليْه السّلام الْجنّة، عِلْمٌ خُطَّ في الْكتاب وأنْتمْ في بطون أمّهاتكم أجِنّة، فهنيئاً لك ما أسْلَفْت، ومغْفوراً لكَ ما أسْرفْتَ، غسَلْتَ صحيفتَكَ بماءٍ وثلْج، وأرْجحْتَ ميزانَكَ بعَجٍّ وثَجّ، ولَجَّجْتَ ومنْ لَجَّ حَجَّ، فكيْفَ ألْمْتَ بتلك المشاعر الكرام، والمشاهِدِ المعظَّمَة في الْجاهلية والإسلام، ومِنْ حيْثُ أهْلَلْتَ ولبَّيْت، وخلعْتَ الْمَخيطَ وتحفَّيْت، وطُفْتَ وسعيْت، وهل حلَقْت أمْ لبَّدْتَ فأهْدَيْت، وهلْ كبّرْت مع كلّ جمْرة حين رميْت، وهلْ لثَمْتَ الْحجر حين وَصَلْتَ إليْه، أمْ أشرْتَ وقدْ زُوحِمْتَ عليْه، ومتى أحْللْتَ وحلَّ لك الطِّيب، وتأوّدْتَ وغُصْنُ جِذْعكَ رَطِيب، فيا لكَ حديثاً كلَّ ما رُدِّدَ يعْذُبُ ويَطيب، وأحْمِدْ بِسَعْيِكَ حين اسْتقْبلْتَ الْكعْبة المسْتَدَارَ بها القبلة، وشرِبْتَ منْ ماء زمزم وماؤُها لِمَا شُرِبَ له، وزُرْتَ بطَيبة دارِ الهجْرة ومقرِّ البركة والرحمة قبْرَ النّبيّ المصطفى المجتبى، وقبْريْ صاحبيْه خليفتيِ الرّضى والهدى، وتقفّيْتَ آثارَه السّنيّة، وتسنّمْتَ كلّ حَزْنٍ هناك وثَنِيّة، وجدّدْتَ في التّقرُّب إلى الله تعالى بالدّعاء أخْلَصَ ضميرٍ ونيّة، وصلّيْتَ في مسجده المبارك في موْضع مُصَلَّاهُ صلى الله عليه، وَحَنَنْتَ إلى الموْضع الذي حَنَّ الجذْعُ فيه إليْه[1]...» .

وإن من المنشئين من يتربص الفرصة ليستغل معرفته بالسياق المعجمي الحجازي، دلالة على تفنُّنه في المعارف الفقهية، ومن قبيله أنَّ أبا زيد الفازازي كتب إلى واحد من أصحابه يدعى ابن معروف؛ وهو يتشوق إليه: «أفْنى الشَّبيبةَ عالما أوْ عاملا، ورأى في حجّته المبرورة وزيارته المشكورة كلَّ ما كان آمِلا، وحلّ منْ تلْك المواضع الشّوْقيّة والمطالع الشّرْقيّة بكلّ طائل...إنْ عاينْتَه رأيْتَ ظَرْفاً ممْلوءا ظَرْفا، أوْ باحثْتَه لمْ تفْقدْ منْ تلك المعالم المطهّرة حَرْفا، فكأنّكَ تُعاينُ...مكّةَ وبهْجتَها، والْعُمْرةَ وحجَّتها، والتّلْبيّة وضجَّتَها، والْكعْبةَ وسَناءَها، وزمْزمَ وماءَها، والرّكْنَ ومِيزابَه، والْحرَمَ وأبْوابَه، والطّوافَ وأسْبَاعَه، وأبا قُبَيْسٍ وارْتفاعَه، والْبابَ وعُرْوتَه، والصّفا

1-نور الكمائم وسجع الحمائم: 221-220.

ومرْوتَه، والْكِسْوة وجَلْوَتها، والدّارَ ونَدْوتَها، وعرفةَ ومَشْعَرَهَا، ومِنىً ومَنْحَرَها، والموْقِفَ وأَرِيجَه، والْحجيجَ وعَجيجَه، والدّموعَ وانْسكابَها، والضّلوعَ والْتهابَها، والْعَقَبَةَ وحُجْرَتَها، والْبطحاء وعُمْرتها، والعراق وجموعها، والْعَجَمَ وشموعها، وبدْراً وكَثِيبَه...والْعقيق وأشرافه، والنّخيلَ والْتِفَافه، وطَيْبة وطِيبَها، وقاضيَها وخطيبَها، والرّوْضةَ ونَوْرَها، والمدينة ودُورَهَا، والمسْجد وزواياه، والمنْبر وبقاياه، وقُباءَ وقبّتَه، وسيّدَ الشهداء وتُرْبَتَه، والْبقيع وسكّانه، وأُحُداً وأركانه[1]» .

- أن الرسائل النثرية مشفوعة غالبا بقصيدة تقدمها أو تتأخر عنها.
- أن الرسائل حافلة بفنون الاقتباس من القرآن والسنة.
- أن غالبها يختتم بالدعاء والتصلية.

رابعا: ما يشتبه بالرسالة النبوية وليس منها:

بعض الرسائل الموجهة للنبي صلى الله عليه وسلم، وإن احتجنت جميع عناصر الجنس الأدبي، إلاّ أن في اندراجها ضمن رسائل الحجرة النبوية، تسامحاً كبيرا، لخروجها عن الخطِّ الموضوعي، وارتباطها بغرَضٍ تقليدي كالمدْح المجرَّد، كما هو الحال عند ابن المرابط الدلائي في زهرة الوسائل، فقد تخلَّص بعدَ التقدِمة إلى نظم السيرة في رائية طويلةٍ، ومن ثم خلت الرسالة في النظر الجمْلِيّ من الحرارةِ الوجدانية، وبدا أنها ليست كتابةً اضطراريةً ينفث صاحبها فيها ما اضطرم في نفسه من الإحساس بالضعة والضعف والخشية من سوء المآل والترقب، وإنما هي أشبه بالتمرين الفني الذي يحتفل الكاتب فيه بإظهار معرفته، وقدرته على الإحاطة بأساسيات فن معين كالسيرة، وهذه أقل حظوة عند القارئ؛ لأنها لا تقع في التماهي مع انتظاراته، ولا تفْلِحُ في إسقاط الإحساس الفرداني على إحداثياتِ الشُّعُور الجمْعيّ.

ومن أشعار التشوق إلى الروضة المقدسة الطاهرة، ما يجري مُجْرى الرِّسالة، لولا أن قصدَ الجنس الأدبي بعينه غيرُ واردٍ عند منشئيها؛ ومنه قول ابن لُبَّالٍ الشريشيُّ (ت 583 هـ):

1-آثار أبي زيد الفازازي: 107-105.

سـلامٌ ولا أقْـرَا سلاماً عـلـى هـنْـد ... صرَفْتُ إذاً مَسْرَايَ عن مَسْلَكِ الرُّشـد

عـلـى قَـمر لـو أطـلَعَـتْه يـدُ الثَّرى ... لقصَّـر عـن لألائِـهِ قَـمَرُ السَّـعد

وأربى عـلـى نُـورِ الـغَـزالـة نـورُه ... كـمـا يفضـلُ الـحـرّ الكريمُ على العَبد

فطاب بـه تُـرْبُ الضـريحِ بطِيبِه ... فـيـعـبَـقُ عـن مِـسْـك نـدِيٍّ وعـن نَـدِّ

ويَضحكُ عن رِوْضٍ تُداني يَدُ الصَّبا ... به صفحةَ السَّوْسَان مِن صفحةِ الورد

فـطُوبَى لـمن أضحى يمرّغُ لـوعة ... بـتُـربه ذاك القَبـرِ خـدّاً إلـى خـدِّ

نَـبِّيٌ عـلـيـه مـن تـلألُـؤِ نُـورِه ... تـلألـؤُ برقٍ أسْـرَجَتْـهُ يَـدُ الـرَّعـد

سمـا مـن قُـريشٍ فـي ذُؤابِـة هـاشمٍ ... فما شِئتَ من فضلٍ عَميم ومن مَجد

سـلامٌ عـلـيـه مـا تغـنَّـت حـمامةٌ ... وفاحَ ذكـيُّ المسـكِ من جنةِ الخُلدِ

ومـا أنشـد المشتاقُ إن هبَّـت الـصَّـبَا ... ألا يا صَبا نَجدٍ متى هجتِ من نَجد[1،2]

ومنه أيضاً قصيدة لابن الأبّار القضاعي (ت 658 هـ)، نظَمَهَا ببلنسية، يعزُو تأخُّرَه عن الزيارة إلى عَوَزِ العوْنِ من التقدير، ويتمنى لو قُيِّض له أن يصليَ في الحجرة الشريفة، ويكرَعَ من ماءِ زمزم -طعام طُعْم وشفاء سُقْم- ثم يتخلص بعد ذلك ليُهَنِّئ الفائزين بالسبق إلى زيارة القبر الشريف، مُحَمِّلا إياهُمْ أداءَ سَلامه وتشوُّقه واستشفاعه:

لو عَنَّ لي عونٌ من المقْدَار ... لهجرتُ للدّار الكريمةِ دارِي

وحللتُ أطيبَ طِينةٍ[3] من طَيْبَةٍ ... جاراً لمن أوصى بحفْظِ الجار

1-صدر بيت للمجنون؛ عجزه: "لقد زادني مسراك وجدا على وجد".

2-المطرب من أشعار أهل المغرب: 97؛ ابن لبال الشريشي، لابن شريفة: 81.

3-النفح: "طيبة".

وركعتُ في صحنٍ هنالك طَاهِرٍ ... وكَرَعْتُ في مَعْنٍ هنالك جارِي

حيث استَنَار الحقُّ للأبصار ... لما استَثَارَ حـفَائِـظَ الأنـصار

لكنْ عليَّ لها أداءُ الفَرْضِ مِن ... طـول النِّـزاع وشِـدَّة التَّـذْكار

يا زائرين القبرَ قـبـرَ مـحـمـدٍ ... بشرى لكـم بالسبق فـي الـزُّوار

أوضعْـتُمُ لـنَجاتكُـمْ فوضَعْـتُـمُ ... مـا آدَكُـم مـن فـادِحِ الأوزار

فوزوا بسعيكم[1] وفُوهُوا بالذي ... حَمّـلتُكُمْ[2] شوقـا إلـى المـختار

أدُّوا الـسلام سَلِمْتُـمُ وبِـرَدِّهِ ... أرجـو الإجـارة مـن وُرود النـار

ثم اشفعوا لي فالشفاعة عنده ... فيـها أُبَـوَّأُ رتبـةَ الأبـرار[3]

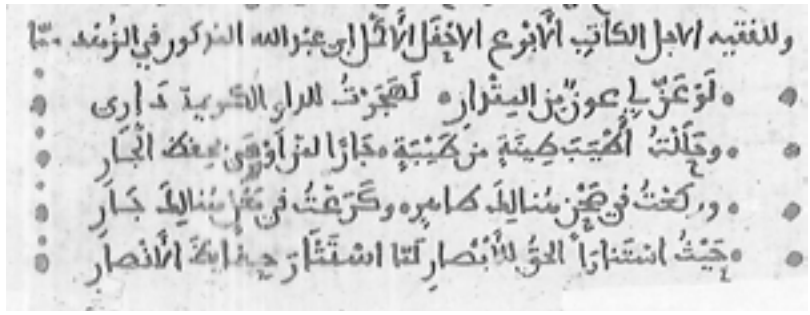

1-النفح: "بسبقكم".

2-النفح: "حملتم".

3-مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل: 81-80؛ نفح الطيب: 2/593-594؛ والأبياتُ 3؛ 5؛ 9؛ مزيدةٌ في كتاب ابن الأبار.

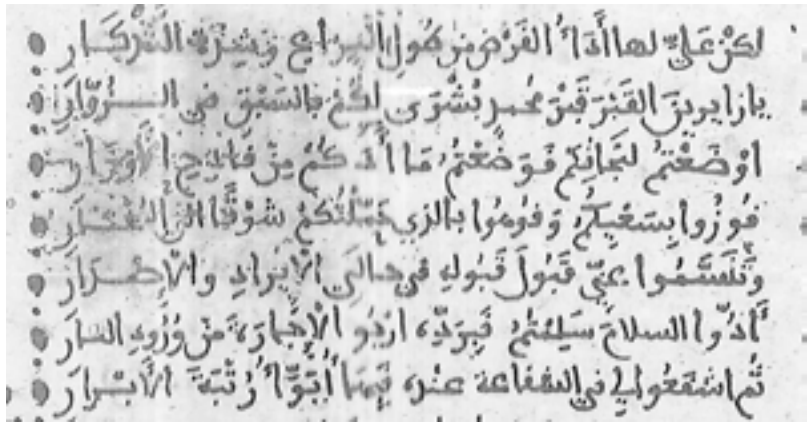

ومن الغريب الذي يندرج في هاته البابة على وجْه نادر، قصيدة وجهها أبو محمد عبد الله ابن فرحون المالكي (ت 769 هـ)، يشكو للنبي حاله، ومنشأ الغرابة أنه مجاورٌ في المدينة المنورة، قاب قوسين من مكة المكرمة، مثلما يفصح عنه عنوان الوضع الذي ضمنه قصيدته، وهو «نصيحة المشاوِر، وتسلية المجاوِر»، ويُعلمُ ما عَاقَهُ عنْ قصْده في سياقها:

إليك رسول الله من عبدك الذي ... تعوق عن مغناك من فتك ضربة

إليك رسول الله أشكو مصيبتي ... وشدة أهوال أطافت بمهجتي

أغاروا على نفسي سحيرا بمدية ... لإتلاف روحي بل لإذهاب جثتي

يريدون أن يخفوا لنور أتمه ... إلهي فما اسطاعوا فباؤوا بخيبة

ألست مقيما في جوارك سيدي ... وقبلي أبي سبعين عاما بطابة

ألايا محبي الحبيب محمد ... ومن جاوروا المختار في عز نعمة

وقولوا أخ يا رب عيق ببيته ... وأمننا فاقبله معنا بمنة

لئن كنت قهرا قد تأخرت عنكم ... فقلبي فيكم شاهد بمودتي

عراص لها نفسي قد اشتد شوقها ... وحق لنفسي أن تضاعف زفرتي

لئن عاقني عنكم بلائي فلم أحج ... فذاك على قلبي أشد رزية

وقد زرتها خمسين حجا وعمرة ... فما زادني إلا حفيل محبتي

فيا رب هلا دعوة في مشاعر ... أعل بها حينا محاجر مقلتي

أرى زمزما بعد الحطيم وأهلها ... وميزاب بيت الله حتى بطوفة

فأدعو بقلب مخلص في مقامه ... وملتزم مستعطفا لشكيتي[1]

ومما يجري مجرى الرسالة على سبيلٍ من الاشتباه، قول أبي جعفر ابن الزيات الكلاعي البلشي (ت728هـ):

سلامٌ على قُطْب العُلى والمكارِم ... سلامٌ على سِرّ الْهدى والْمعالم

سلامٌ على مَنْ رفَّعَ اللهُ قدْرَه ... وأبْرزه كالشّمْس في آل هاشِم

سلامٌ على الْمبْعوث للنّاس رحْمةً ... وأعْلى رؤُوفٍ[2] بالأنام وراحِم

محمّدٍ [الأسْنى] العليّ مكانةٍ ... فقدْ فاق في الْعلْياء كلَّ الْعوالِم

[فإنْ طال يوْم[3]] كان أفْضلَ صائمٍ ... وإنْ طال ليْلٌ كان أكْرم قائم

وإنْ كان عِيٌّ فهْو أفْصحُ قائلِ ... وإنْ كان جَوْرٌ فهْو أعْدل حاكِم

ففي مِعْصمِ التّخْصيصِ أبْدع دُمْلُج[4] ... وفي خِنْصِرِ التّشْريف أحْسن خَاتم

1 - نصيحة المشاوِر: 336-334.

2 - ص: رؤف

3 - ما بين المعكّفيْن ممْحوّ في الأصل، واقترحْنا ما يساوقُه ممّا تراه.

4 - بعض حروفها ذاهبة

تـخِـرُّ لمَـرْآه الأهـلّـةُ سُـجّـداً كما تتّقي بُؤْساهُ عـلْيا الضَّـراغِـمِ

سـألْتُـكَ يا حادي النِّيَاقِ إذا بَدَتْ هِضابُ قُبَـاء الْمُرتـضاةِ الْمراسِـمِ

وفـاحـتْ هُبَيْـبـاتُ النّسيمِ كأنّـما شذا الْمسْك معْجونٌ بتلْكَ النّواسِمِ

فزَمْـزِمْ بأشْواقي ووجْـدي وزَفْرتي وكـمْ رِقـةٍ فـي طَـيّ تلْـك الـزّمـازِمِ

وبادِرْ لتسْليمي عـلى خيْـر مُرْسَـل حـبيـبِ قـلوبِ الْـمتّـقين الْأكـارِمِ

وقـلْ يا رسولَ الله عبْـدٌ تباعـدَتْ بـه عـنْكَ زَلّاتٌ وسُـوءُ مـآثِـمِ

يـؤمّـلُ أنْ تغْـشاه مـنْـكَ جـواذبٌ تـخلِّـصُهُ مـنْ مـوبقـات الْـجـرائـمِ

ألا فاشْهدوا أنّي أحبُّ محمّداً بقلْبٍ عـلـيْـه الشّـوقُ ضـرْبـةَ لازِمِ

أفـتّتُ فـيه الْـقلْـب وجْـداً ولـوْعةً وأبْـرأ فـيـه مِـن مَّـقـالِ [اللَّوائِـمِ[1]]

وأسـأل ربّـي أنْ يُـمِـدَّ مـدامـعي علـيْه بأمْـثـال الـغُيُـوم السّـواجِـمِ

فحـبُّ رسـولِ اللـه أعْـلـى وسـيلـةٍ لنا وهْـو شـرْعاً مـنْ أحـقِّ اللّـوازِمِ

أبَنْتُ لكمْ عـنْ بعْضِ ما أنا واجِدٌ بحـكْمِ التّشـفّي لا لِـرَفْع المحاكِمِ[2]

وكـلُّـكُـمُ والـحْمـد للـه مـغْـرمٌ بـهذا الْحبيب المسْتَـنير[3] المبَاسِـمِ

فـصلّـوا عليْه ما حَيِيتُمْ وسـلِّموا علـيْـه لتـنْجو مـنْ أمـورٍ عظـائمِ

1-غير بينة.

2-لعلها كذلك.

3-لم نتحققها في الأصل.

سـلامٌ عليْـه كـلّـما هبّـت الصَّـبا وناسَـتْ رقاقُ [الْغصْن[1]] تحْت الْحمائم

[سلامٌ عليْه مـنْ أُ]خَـيّ[2] صبَـابَةٍ [إليْـه مُـعـنّى[3]] سـاهـرِ الطّـرْف هـائِمِ

وبـعـدُ سـلامُ اللـه يَتْـرى علـيْكمُ بمثْل شَـذَى زَهْـر الرّيـاضِ النّـواعِـم

ولي عندكمْ يا عُصْبةَ الْفضْل حاجةٌ تـقـلْقـلُ مـا بيْـن اللّـهـا والـحَيَـازِمِ

دعـاؤُكـمُ أنْ يـغْـفـر اللـه زلّـتـي ويـسْـلُكَ بي سُـبْلَ الرّجـال الأعـاظـمِ

بنَى[4] لكمُ ذوالْعرْش في ساحةِ الرِّضى محَـلّا كريـمـاً سَـرْمـديَّ الـدّعـائِـمِ

وجـنّـبَـني مـا يـوجـبُ الـطّـرْد إنّـه كـريـمٌ بإسْـداء الْـعطايا الْكرائِمِ[5]

ولنا أن نقول إن غالب شعر المدحة النبوية عند المغاربة والأندلسيين يتضمَّن معنى الرسالة، وقلّما تتفلّتُ هاته القصائد من إسار البنية الثلاثية: مقدمّةٌ تشي بحال المنشئ وشطوط المزار. يتلوها صلب القصيدة في ذكر شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته. ثم خاتمةٌ بها جِماعُ أماني الشاعر وانتظاراته، يسوقُهَا مساق الخطاب المباشر للرسول الأكرم؛ وغالبا ما يذيلها بدعاءٍ ضارع لله جل وعزّ.

ومن هذا النمط قول المقرئ النحوي أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الصائغ:

بُـعْـدُ الْمَزَار ولوْعـةُ الْأشْـواق حَـكَـمَا بفـيْضِ مـدامِعِ الآمـاقِ

وخفوقُ نجْديّ النّسيم إذا سرى أذْكى لهيـبَ فـؤاديَ الْـخفّـاقِ

1-- مخرومة في الأصل، ولعلّها ما اقترحنا.

2- لا تبدو من هذه العبارة غير أحرف قليلة.

3-غير بينة في الأَصل.

4-ص: «بنا».

5-خ: 240 ظ- 242 ظ.

أمُعَلّلي أنّ التّواصلَ في غد ... مَنْ ذا الذي بِغَدٍ فديْتُكَ باقِ
إنّ اللّيالِيَ سُبَّقٌ إنْ أقْبَلَتْ ... وإذا تولّتْ لمْ تُنَلْ بِلِحَاق
عُجْ بالْمَطِيّ على الْحِمَى سُقِيَ الحمى ... صَوْبَ الْغَمام الْواكفِ الرّقْراقِ
فبِهِ لذي القلْبِ السّليمِ ودادُهُ ... لا كان في الأيام يوْمُ فِراقِ
يا ساريا واللّيْلُ ساجٍ عاكفٌ ... يفْري الفلا بنجائبٍ ونياقِ
عرّجْ على مَثْوَى النّبيّ محمّدٍ ... خيْر الْبريّة ذي المحلّ الرّاقي
ورسولِ ربِّ العالمينَ ومَنْ لهُ ... حِفْظُ الْعُهود وصحّةُ الْميثاق
الظّاهرُ الآياتِ قامَ دليلُها ... والطّاهرُ الْأخْلاق والْأعْراقِ

ومنها بعد كثير، مضمونُ الرسالة:

يا ذا الذي اتّصلَ الرّجاءُ بحبْلِهِ ... وانْبَتَّ منْ هذا الورى بطَلاقِ
حُبّي إليْكَ وسيلتي وذَخيرتي ... إنّي منَ الْأعْمال ذو إمْلاقِ
وإليْكَ أعْملْتُ الرّواحلَ ضُمَّراً ... تخْتالُ بيْن الْوَخْدِ[1] والْإعْناقِ[2]
نُجُباً إذا نُشِرَتْ حُلَى تلْكَ العُلا ... تطْوي الْفَلا ممْتدَّةَ الْأعْناق
حْدُولهنّ منَ النّحيب تردُّدٌ ... وتقودُهُنّ أزِمَّةُ الأشْواق
غرَضٌ إليْه فوَّقَتْهَا أسْهُماً ... وهْي الْقِسيُّ بُرِينَ كالْأفْواق[3]

1-سعة الخطو وسرعة في المشي.
2-ضَرْبٌ من السَّيْرِ فسيحٌ سريعٌ، للإبِلِ والخيلِ.
3-وفي السهم فُوقه: وهو موضع الوتر منه والجميع أفواق.

فأنخْتُها بفِنائكَ الرّحْبِ الذي ... وسعَ الْورى بالنّائل الدَّفّاق
وقِرَى مُؤَمِّلكَ الشّفاعةُ في غد ... وكفى بها هبةً منَ الرّزّاق
وعليْكَ يا خيْرَ الأنام تحيّةً ... تُحْيي النّفوسَ بنشْرها الْفتّاق
تتأرّجُ الْأرْجاءُ منْ نَفَحَاتها ... أرَجَ النّدِيّ بمدْحِكَ الْمِصْداق[1]

ويلحق به قول أبي القاسم محمد بن إبراهيم التجيبي؛ من قصيدة –وهي مبسوطة-:

يا صاح إنْ جئْتَ الْخيامَ بيثْرِبٍ ... وثويتَ منْ ذاك الْحِمَى بمكان
وسَرَيْتَ في تلْك الْأجَارِعِ[2] والرُّبَى ... وجررْتَ في واديهِ فضْلَ عِنانِ
فانْشُرْ لواءَ محبّتي بفِنائه ... وافْضُضْ هناكَ خواتمَ الْكِتْمانِ
واشْرحْ قضيّاتِ الهوى وأقِمْ على ... صدْق المحبّةِ واضحَ الْبُرْهانِ
وافْتِقْ بأرْبُعِهِ تحيّةِ مِسْكَةٍ ... عنْ ذي اغْترابٍ نازحِ الأوطان
والْثُمْ بطَيْبةَ قبْرَ منْ حُبِسَتْ له ... شمْسُ النّهار وخُصَّ بالْفُرْقان[3]

خامسا: تنبيهات:

أ- خلوُّ الْأدب الصّوفيّ منْ هذا النّمَط:

بدا لي بعد إنعام النظر أن هذه الرسائل قِسْمَةٌ بين صنفين من الناس: العلماء والأدباء؛ وأما المتصوّفة وأرباب الأحوال فقَلَّ عندهم هذا الضرب، لعدِّهِمُ الشوق من منازل العوامّ[4]؛ وهو في شِرْعَتِهِم: هبوبُ القلب إلى تمني غائبٍ يحضر، وإعوازُ

1-الكتيبة الكامنة: 90-88.
2-الأَجْرَع: أرض حَزِنَةٌ تسفي عليها الريح رملًا فيغشاها والجمع الأجارع.
3-الكتيبة الكامنة: 303.
4- محاسن المجالس: 93.

الصبر عن فقده. فيروْنه من أضعف منازل القوم، وذلك لأنّ خواصَّهم يرون أنّ الشوق إنما يكون إلى غائب، ومذهبُ هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة:

ولا معنى لشكوى الشوقِ يوما ... إلى من لا يزولُ عن العِيانِ

أودِّعُكم وأُودِعُكُم جَنَاني ... وأُسْبِلُ عَبرةً مثل الجُمَانِ

ولو شاء الإله لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الزمان[1]

وقد عبَّر عن هذا المذهب بأجلى من هذا، أبو العبَّاس ابن العريفِ دفين بلدنا في التعلُّل لنفسه بأنّه وإن لم يزُرِ النبي بجسمه، فقد زارَه بروحه؛ وذلك قوله:

شَدُّوا الرحالَ وَقَدْ نَالُوا المُنَى بِمِنًى ... وكلهم بأليم الشوق قد باحا

راحتْ ركائبُهُم تندى روائحُها ... طيبا بما طاب ذاك الوفدُ أشباحا

نسيم قبر النبي المصطفى لهمُ ... رَاحٌ إذا سكروا من أجله فاحا

يا راحلين إلى المختارِ من مضر ... زرْتُمْ جسوما وزرْنا نحن أرواحا!

إنّا أقمْنا على شوقٍ وعنْ قَدَرٍ ... ومنْ أقام على عذْرٍ كمَن رَاحَا[2]

ب- وجودُ ضرْبٍ من هذه الرسائل، يعبر عنه برسائل الشّوق المجدّد إلى الحجرة النبوية:

عهِدْنا أن جملة الرسائل المرفوعة للحضرة المصطفوية، تصدُر عمن أعجزه القيامُ للزيارة، أو حيل بينه وبينها بمثل ما ذكرناه قبلُ، غير أني ظفرتُ برسالة إلى النبي، كتبها منشيها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم ابن الجد، على لسان أحدهم بعد القُفُول من زيارة النبي الكريم، والتمتع من تلك الآثار بالشميم، وهي بديعةٌ في

1-محاسن المجالس: 94.

2-التكملة لكتاب الصلة: 3/211؛ رت: 523.

معناها؛ فمنها: >ولما صدرْتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأتْ هيبتُكَ ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغَشِيَنِي من نور برهانك ما بَهَرَ لُبِّي، وعمَّرَ قلبي، لحقني من الأسف لبُعْدِ مَزَارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أوْدَعَ جوانحيَ التهاباً، وأوسع جوارحيَ اضطراباً، وأشعر أملي عَوْداً إلى محلك المعظم وإياباً، وكيف لا أحِنُّ إلى قربك ، وأتهالك في حبك، وأعفّر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت[1].....< . إلى أن يقول: >اللهم كما أعنْتني على حج بيتك المحرم، وزَوْرِ نبيك المكرم، فاجعله لي شفيعاً، وتوفّني على ملته مطيعاً، ويسِّرْ لي كَرّةً إلى مواطنه المقدّسة ورجوعاً، إنك على ذلك قدير، وبحقيقة دعائيَ عليمٌ خبير، والسلام المردَّدُ المؤكّدُ على نبي الرضوان، وصفيّ الرحمن، ما تعاقب الملَوَان، وتناوب العصْرَان[2] .

والظاهر أنَّ حرارة الشّوْق إلى مغاني نجْد، تسْتوي عند منْ حُرِمَ الزيارة رأساً، ومنْ رَدِفَ له الحجّ ثلاثا وثُنَا، فهما سواءٌ في الادّكار والتَّحْنان ودلائل الشّوْق، وتمثل بعض قصائد ابن رشيد السبتي حكايةً لما يجيشُ في صدور العائدين منْ تشوُّقٍ عند ذكر الحج أو رَكْبه أوْ دُخُولِ وقْته؛ فله من قصيدةٍ وقع له نظمها في موْسمِ عام سبْعةٍ وثمانين وسبع مئة، وقد سمع ما هيَّج الشّوْقَ المقلق من النّداء على سفر بعض المراكب إلى بلاد المشرق؛ قالها يتشوق فيها لتلك المعاهد:

هاجَ ادّكاري بنُعَمَى من بِنُعْمانِ ... فبتُّ يُنْجدُني وجْدي وتَحْناني

يا وقْفةً نلْتُها والسّعْدُ يُسْعدُني ... كانتْ كطيْفٍ سرى في طرْفِ وَسْنانِ

جديدُ تَذْكارِها في الْقلْب إنْ بَلِيَتْ ... معاهدُ ليْس يُبْلِيهِ الْجَديدانِ

أهْوى الْحجازَ وإنْ لمْ يُمْسِ لي وطناً ... ولمْ يكنْ أهْلُهُ أهْلي وجيراني

طافَ السُّقاةُ على شِرْبِ الهوى فَدَعَوا ... باسْمي فلبّاهمُ دمْعي وأشْجاني

1-الذخيرة لابن بسام (ط الدار العربية للكتاب) : مج1 /ق 2: 287.

2-الذخيرة لابن بسام (ط الدار العربية للكتاب): مج1 /ق 2: 288؛ (ط دار الغرب: 222-2/221).

قالوا النّهوضُ فقلْتُ الْعُدْمُ أقْعَدَني ... قالوا التّصبُّر قلْتُ الشّوْقُ أفْناني

يَرْوى الْحجيجُ وبي منْ زَمْزمٍ ظمأٌ ... يا بُعْدَ ما بيْنَ رَيّانٍ وظمْآنِ

إلى أن يقول:

حتّى قضيْنا بها ما سُنَّ منْ قُرَبٍ ... وَلَهْمياً وحلْقاً وتقْريباً لقُرْبانِ

إذا قضَيْنا بتطْوافٍ مناسكَنَا ... طفِقْتُ مسْحاً بأسْتارٍ وأرْكانِ

ثمّ انْثنيْنا وقدْ تمّتْ شعائرُنا ... نبْغي مُبَوَّأَ أنْصارٍ وإيمانِ

سرْنا نميلُ على الأكْوان منْ طربٍ ... فما ترى في ذُرَاها غيْرَ نَشْوانِ

تشْدو بذكر الذي في الْقلْبِ منْزلُهُ ... سِيانِ عنْدي إسْراري وإعْلاني

للمصْطفى الْمُجْتبى المخْتارمنْ مضر ... والْقلْبُ من شوْقه ما بيْن نيرانِ

تُهْدي الرّياحُ لنا رُوحاً فنحْسبُها ... جَرَّتْ على المسْكِ منْها فضْلَ أرْدَانِ

أهْدتْ لنا طَيْبةٌ منْ طِيبها أرَجاً ... نسيمُهُ نَمَّ عنْ رَوْحٍ وريْحانِ

وحينَ لاحتْ لنا منْ طيْبة قُبَبٌ ... زواهرُ هي والجوْزاءُ سيانِ

وبيْنها الْقبّةُ الْغرّاءُ ساميةٌ ... تعْلو على أوْجِ بهْرامٍ وكِيوانِ

تشْفى بأنْوارها رُمْدُ الْعُيونِ إذا ... رَنَتْ لها فهْي والْبيضاءُ ضدّانِ

لله عيْنَا فَتىً لاحتْ له فَثَوَى ... بحيْثُ قرّتْ له بالْغرْب عيْنانِ

ملْنا نُحيّيه والإجْلال يوقِفُنا ... والشّوْقُ يزْعج ما يُثْنِيه منْ ثانِ

فظَلْتُ أهْتزُّ منْ وجْدٍ ومنْ طرب ... والدّمْعُ ما بيْن تَسْكابٍ وتَهْتانِ

وألْثِمُ التُّرْبَ منْ شوْقٍ لساكِنِه ... تُهْوى المنازلُ منْ إجْلالِ سُكَّانِ

وإنْ أُضِعْ أدباً فالصّفْحُ ملْتَمَسٌ ... إنّي بقلْبٍ منَ الْإعْظام ملآن

منْ ذا يرى ربْعَ محْبوب فيصْبرُ عنْ ... لثْمٍ وتعْفيرِ خدٍّ فعْلَ وَلْهَانِ[1]

ومن الشعراء من تُحْرقُهُ لوْعةُ الفراق ولمّا يرجعْ بعد من زَوْرته، فيكشفُ عن ضعف اصطباره، وتفْصحُ مقطّعاتُه عمّا تَعِدُ به لواعجُه منْ أشعارٍ في التّشوّق عنْ بُعْد؛ حكى ابن الحاج النميريّ فقال2 : «أنْشدنا الرّئيس الفاضل أبو الْفضْل بن أبي مدين أبقاه الله لنفْسِه، وقالها عنْدَ وداع النّبيّ صلى الله عليه وسلم:

كيْف اصْطباري لبُعْدٍ بعْدَ أنْ وَصَلَتْ ... حبْلي بحبّكَ أيْدي الدّهْرِ فاتّصَلا

لوْلا تخلُّفُ قلْبي في دياركمُ ... لكانتِ الرُّوحُ منْه عنْدكُمْ بَدَلا»

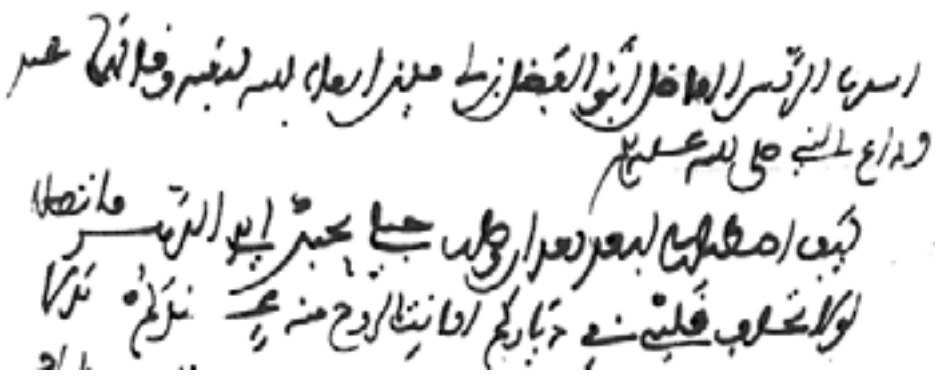

كناش النميري: الإسكوريال رقم 483: 29 ظ.

ج- وفور أشعار الحض على الزيارة:

وهي انفعالٌ تلقائي بما يجده كثيرٌ من الناس من شوق إلى موافاة تلك المغاني تقطعُه الصّورافُ، فلا يجدُ الشعراء والمترسلون بدّا من التنفيس عن كرباتهم بدعوةِ مَنْ ساعدته يدُ العناية، إلى البدارِ والتّعْجيل، وفيه تنزيلُ الآخر منزلةَ الذات، وتحويلٌ وإسقاطٌ يخفّفُ من حدّة الحِرْمان.

1-ملء العيبة: الجزء السابع: 219-215.

2-قطعة الإسكوريال رقم 483: 29 ظ.

ومن هذا الضّرْبِ قولُ أبي جعفر أحمد ابن قادِم القرطبي يحُضُّ على زيارقبرِ النبيّ - صلى الله عليه وسلم: [كامل]

شُدُّوا المَطِيَّ إلى الرسُولِ وعَرِّجوا ... إليه مَنْهجَكمْ فنِعمَ المَنْهَجُ

يا مُرْتجي حَطِّ الذّنوبِ بزَوْرةٍ ... إقرَعْ، فما بابُ الزيارةِ مُرْتَجُ

ولْيَخْبِطَنَّ مُشمِّرًا بعصَا السُّرى ... منكَ الْفَلاَ مُتَأوِّبٌ أو مُدلِجُ

فعسَى يُنافحُك النَّسيمُ بنفْحةٍ ... منْ طَيْبةٍ ذاتِ الشَّذا يتَأرّجُ

فإذا حَطَطْتَ الرحْلَ في أكنافِها ... فهناك تظفَرُ بالنّعيم وتَثلُجُ

في فِتْيةٍ نَسَبوا المَطِيَّ إلى الْوَنَى ... ظُلْمًا، وإنْ كانت تَخُبُّ وتَمْعَجُ

تَسْري وقدْ قَرَنتْ حواجبَ ليْلِها ... حتى يَلوحَ لها الصَّباحُ الأبلجُ[1]

منثورات وملاحظ:

- لم يزر، فأعاد الحج:

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن محمد المرادي (ت 618 هـ): كان تاجرا بسوق العطارين من غرناطة، وكان من أهل الدين والخير، حج سنة تسع وسبعين وخمس مئة، وانصرف ولم يزر النبي عليه الصلاة والسلام لأمر منعه، وانصرف إلى غرناطة، فعظم عليه ما فاته من الزيارة، ورأى أن ذلك من الجفاء، فحج ثانية وزار النبي صلى الله عليه وسلم...[2].

- تُونُسيٌّ رأى النّبيّ في المنام يسْتبْقيه في المدينة، فلمْ يرْجعْ إلى أهله:

وهو محمد بن محمد... أربعة عشر اسماً كلهم محمد. قال الصّفدي: لم أعْلمْ ذلك إلاّ في اسْم أبي الْبرَكَات أيْمن بْن محمّد المعروف بعاشق النّبيّ التّونسي، أتى إلى المدينة النّبويّة، والْتزم أن لا يدْخل الْحَرَمَ إلاّ بعْدَ أنْ ينْظم قصيدةً يمْدح بها رسول

1-الذيل والتكملة: 1/616؛ ر: 669.

2-الإحاطة (نصوص لم تنشر): 182؛ ر: 197.

الله -صلى الله عليه وسلم-، وتوفي بالمدينة سنة أرْبع وثلاثين وسبع مئة، وكان قد عزم على الْعَوْدِ إلى وطنه، فرأى النّبيّ صلّى الله عليْه وسلّم في المنام، وهو يقول له: يا أبا الْبَرَكَات، كيف ترْضى بفِراقنا؟. -أوْ ما هذا معْناه-، فقعَدَ وبَطَّلَ الْحَرَكَةَ إلى أهْله[1]» .

ونظيرهاته الحكاية عند المشارقة ما أخبربه القبتوري في رحلته، من أن الشيخ أبا الحسن عليا الواسطي، كان «ما انْقطع عن الحجّ والزّيارة مدّة حياته، فسأله أهله أنْ يقيمَ معهم ويَدَعَ الحجّ سنة واحدة، فلمّا عزم على ذلك، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النّوْم. فقال له: يا علي؛ عزمْتَ على الإقامة عنا. فقال: سألني الأهْلُ في ذلك. فقال له: إن أقمْتَ عنّا أقمْنا غيْرَك مقامَك. فلمّا اسْتيْقظ عزم على الحجّ والزّيارة في ساعتِه، وسأل الله تعالى أنْ يجْعلَ قبْرَه ما بين الحرميْن الشّريفيْن، فتوفي ما بيْن بدْروحُنَيْنٍ رحمه الله تعالى[2]» .وليست هاته الرُّؤى المناميّة ممّا يُقْطعُ به على حُكْمٍ خارجَ نفس الرَّائي، ولكنَّها من المبشّرات التي اعْتادها الصّالحون، واسْتأْنسوا بها في الثّبات على ما همْ بسبيله من الطّاعة والمراقبة، على أنَّ رؤيا المتأهّل المستحِقّ للنبي صلى الله عليه وسلم، ليستْ محلّ ارْتياب، لصحّة الحديث الْوارد بذلك.

- بعض الشعراء استغرقوا شعرهم في مدح النبي ومخاطبته:

إنْ ندّتْ مجاميع المديح عنْ جمْعِ التّكْثير، فإنّ منَ الظواهر الملفتة في تاريخ أدب المديح النبوي، اخْتصاصُ بعْضِ الشعراء بالتبريز في فنّ الْحجازيّات ورسائل المدْحةِ إلى الوجهة النبوية الوجيهة، وقصْرُ دواوينهمْ عليها؛ ومنْ هؤلاء الشاعر الموحّديّ ابْنُ الصّبّاغ الْجُذامي، فقد أكثر في ديوانه من رسائل الشوق، وعكف على مدح النبي على جهة الاختصاص؛ وهو القائل:

1-التذكرة الصلاحية (خ).

2-تاج المفرق: 1/243.

تركْتُ امْتداحَ الْعالمين ولُذْتُ مِن ... مدائح خيْرِ الخلْق بالْعُرْوة الْوُثْقى

سأجْعلُها كهْفي وحصْني وملْجَئي ... لعلّي بالْأمْداح أسْتوْجبُ الْعِتْقا

وأشْدو بها في كلّ نادٍ مُرَدِّداً ... أُطارحُ في شجْوي وأشْجانيَ الْوُرْقا[1]

وقد انْتثرتِ الْحجازيّاتُ ورسائلُ الشّوق النبوي في تضاعيف ديوانه حتّى شكّلتْ عُظْمَ مادّته، ونَدَرَ أنْ تخلوَ قصيدةٌ منْ شَجَى التَّذْكار وتحميل الرّكْب أو الْحُداة أو الرّياح سلاماً للنبي صلى الله عليه وسلم، ولنْ يكونَ منْ شأْن هاته العجالة أنْ تضُمّ أشْتاتَ المقاطيع التي ضمّتْ أضْرُباً من ذلك، لأنّها تكاد تسْتغْرق الديوان برمّته، فلْنكْتف بنموذج دالّ، ولْيُقَسْ على ما لم يُقَسْ[2] . فمنه في «تلبية الحادي لأشْرف نادي، وشرْحِ حال الصادي وشوْقِه المتمادي، وهو ممّا يحرّك الْقلْبَ الْمَشُوق، ويحْدُو لتلك المعالم ويسوق»:

لله حاديَ الظَّعْن ما أشْجاهُ ... لولمّا دَعَا مُضْنَى النّوى لَبّاهُ

لبّى وللزّفَرَات بيْن ضُلُوعِهِ ... لهبٌ تُضَرِّمُ وَقْدَهُ أمْواهُ

ذكَرَ الْعقيقَ وساكنيه فَضُرِّمَتْ ... بلهيب أشْواقِ الْعقيقِ حَشاهُ

شامَ الْبُرُوقَ ولم يُسَقَّى نَهْلة ... ما كُلُّ شائمِ بارقٍ يُسْقاهُ

يا حسْرتا نالوا الْمُنَى ونَبَتْ به ... عمّا نواهُ منَ الْوُصول نَوَاهُ

يا أهْلَ كاظمةٍ نداءُ مُتَيَّمٍ ... بعْدُ الدّيار و شَحْطُها أضْناهُ

رِقُّوا لفرْطِ سِقامِ صَبٍّ مُكْمَدٍ ... في أرْض طَيْبَةَ بُروؤُهُ وشِفاهُ

في لثْمِ تُرْبِ مَعاهدِ الْمُخْتار من ... يُعْطَى المنى ممّا اشْتهاهُ مُنَاهُ

1-ديوان ابن الصباغ الجذامي: 9.

2-انظر الديوان: 9، ر: 4؛ 13، ر: 8؛ 14، ر: 9؛ 14، ر: 10؛ 20؛ ر 18؛ 27، ر: 25؛ 31-30، ر: 29؛ 55، ر: 53.

يا أرْضَ طَيْبةَ والدّيارُ قَصيّة ... إنّ الْمُعَنَّى طالَ فيكَ عَنَاهُ

ثَمَرُ الْوصال بدَوْحِ رَوْضِكَ يانعٌ ... فمتى يُتاحُ على الْبِعادِ جَنَاهُ

حاز السّعودَ وفاز بالْعَلْيا فَتىً ... طالتْ لأرْض الهاشميّ خُطاهُ

تالله ما لجلالِ أحْمدَ في الورى ... نِدٌّ ولا لخلاله أشْباهُ

اللهُ شرَّفَ قدْرَ أحْمدَ في الْورى ... وأحلَّ في أسْمى عُلىً مَرْقاهُ

أنّى يُضاهى أوْيُدانى في الْعُلى ... شرفٌ عَلاء الْمَعْلُوات بَنَاهُ

فبحبّه أرْجو غداً من مالكي ... كشْفَ المهمّ مِنَ الذي أخْشاهُ

فعليْه ما سَحَّ الْغَمامُ تحيّةً ... منْ ذي شُجُونٍ بُعْدُهُ أشْجاهُ[1]

- أن بعض منشئي الرسائل، ساقوها بلسان الجمْع، فوسَّعوا دائرةَ المرْسِلِ منْ ذَوَاتهم إلى أنْ تشْمل أصحابهم وجيرتهم وإخوانهم؛ ومنه أنَّ أبا العبّاس أحْمدَ بْنَ أبي الربيع الواعظ الإلبيري (ت 432 ه)، وهو فقيهٌ محدّثٌ أديب، صاغ قصيدة «يبثُّ فيها إلى رسول الله همَّ ما جرى من الوقيعة بقُنْتيش، عنْد وقُوفه للتّسْليم عليه صلّى الله عليه وسلم: [كامل]

يا خيْرَ مُبْتُعثٍ بصدْقِ رسالةٍ ... والْمسْتخَصَّ بمعْجز القرْآنِ

صلّى عليْكَ إلهُنا عددَ الْحصى ... والْقطْرِ، ما عبَدَ الْإلهَ اثْنانِ

وعليْكَ منْ طِيبِ السّلام تحيّةٌ ... يُهْدي إليْكَ جديدَها الْمَلَوَانِ

وعلى ضجيعيْكَ السّلامُ مُرَدَّداً ... ما ناح وُرْقٌ في ذُرى أغْصانِ

1- ديوان ابن الصباغ الجذامي: 94.

وعليْكَ منْ أَبَوَيَّ مثْلُ تحيّتي ... عَـلَـماً تـأكّـدَ عنْـهما تَبْياني

ومنَ الذين تركْتُهُمْ خلْفي مِنَ ال ... أصْحابِ والْإخْوان والْجيرانِ

فالْكلُّ مشْتاقٌ إليْكَ وإنّما ... مَعْزَى الْجميع وشأْنُهُمْ منْ شَاني

لكنّهـمْ في فتْـنةٍ قطَعَتْهُم ... وتضرّمتْ كتضرُّمِ النّيْرانِ

إنّ الْبرابـرَ والنّصارى مُكّنَتْ ... أيْديـهمُ فيـنا بكلّ هوانِ

قَتَلُوا الرّجال وأيّمُوا أوْلادَهمْ ... وَسَبَوْا منَ النّسْوان والْوِلْدانِ

فاشْفعْ لنا ولهمْ إلى الله الذي ... هو حسْبُنا في السّرّ والْإعْلانِ

في غَمْرِ أسْيافِ الْفُتُونِ وسَلِّهَا ... في حرْبِ أهْل الْكُفْرِ والطّغْيان

حتّى يعودَ الشّمْلُ مجْتَمعاً لنا ... في ظلّ إيمانٍ وصدْقِ أَمانِ

فاللـهُ مـوْلانا وأنْتَ شفيعُنا ... وبذاك يُرْفَعُ طارقُ الْحَدَثَانِ[1]

- ومن الملاحظ الموفية على الغرابة، أن النقدة العالمين بالشعر، أخرجوا مدائح النبي عن مدارات الانتقاد، ولم يفوقوا لها سهامه مفردة، إلا في معرض الموازنة بينها لاشتراكها في ضمائم الفضيلة، ولعلهم فعلوا ذلك بقصد ديني صرف، يرى أن القصيدة التي اتخذت لها النبي غرضا، لا يصح أن توصف إلا بالإجادة، وأن ليس يصح إعمال مناطات البلاغة وتدرج مقاييسها ثمة، لأن قصد الناظم أرقى من أن تخرمه بوادر العي. ولذلك سكتوا عن إبداء ما يذيلون به المقاطيع في العادة من التنبيهات، وغالبهم صرف نفسه عن إيراد ما لا يستجاد في نظره فطرحه، فرارا من أن يسوء النبي بقدح مادحه، وهذا هو الذي جعل كثيرا من المؤلفين يوردون في المدائح بعضا من ذلك الضعيف المرذول من جهة الصنعة، اعتمادا على أن الغرض السامي يشفع لصاحبه، ويربأ به عن الانتقاص.

1-عيون الإمامة: 51-50؛ ر: 13.

وقد يكون ما تعللنا به هو السبب الذي حدا بالأقدمين إلى أن يعزفوا عن اختصاص المديح النبوي بالمجاميع الشعرية أو الاختيارات على نحو ما نراه للمحدثين، فإني لم أجد في كتب الاختيارات القديمة كتابا مخلصا لمديح الجناب النبوي، بل إن كبار الرؤوس في عصور الشعر لم يردوا مورد المدحة النبوية إلا لماما، لإدراكهم أن ارتياده لا يعتمد على الشاعرية فحسب، بل تلزمه أمور أخر كالصدق ومتانة الدين... وانظر بعد إلى نموذج البوصيري تراه في ديوانه فسل الشعر منحطه، فلما ارتقى متن النبويات، علا قدحه، وجلى فرسه، وكان بإذن الله من السابقين.

- كثير من رسائل الروضة، أتى عليها الاختصار، واقتصر الناس في النقل منها على ما تضمنته من أشعار، فلم يصلنا القسْم المنْثُور، مثلما الأمْرُ عند ابن عسيلة المراكشي أبي الحسن علي بن محمد اللخمي، من أدباء المئة الثامنة، فقد حوى كتابُه الوسائل المأثورة والرسائل المذخورة على رسالتيْن، إحداهما للحرم الشّريف؛ ولم يصلنا منها القسم النثري، وكل الذي بلغنا منها قوله:

شوْقي إلى الْبيْت الْعتيقِ عَتيقُ ... فبِهِ أنا مهْما أزُرْهُ عتيقُ

تسْري الْمطايا نحوَهُ طَلَقاً وما ... مثْلي لديْه منَ الذّنوبِ طليقُ

كم أجْهَلَنَّ طريقَ رُشْديَ طارقاً ... طُرُقَ الضّلال وللمَنون طُرُوقُ

حتّى متى للرّكب ما لِيَ حِجّةٌ ... أوَ مَا أنا بالرُّشْد بعْدُ خليقُ؟

يا قاصدينَ إلى الْحِمَى أوَ مَا تَرَوْا ... قلْبي حَمِيّاً: ناشجٌ وحَرِيقُ

تحْدُو الْحُداةُ بكمْ لأشْرفِ بقْعةٍ ... فتحنُّ أجْمالٌ لذاكَ ونُوقُ

حتّى متى أقْفو الرّجالَ مُشَيّعاً ... فكأنّني التّرحالَ لسْتُ أطيقُ

1-خطابٌ لنفسه.

2-في ط: «حُميّا ناشجٍ»؛ خطأ في الضبط اغترّ فيه بالأصل، والصوابُ «حَمِيّاً» شديد الحرارة، و«ناشجٌ وحريقٌ» بيان.

3- كذا، ولم أجد للغويين استعماله بمعنى «عائق» الذي أراده، فلعله من ضرائره المرتكبة. والْعَيُّوقُ «كوْكب أحْمرُ مُضِيءٌ بجِيال الثريّا، إذا طلع عُلم أنّ الثّريّا قدْ طلعتْ». من تهذيب اللغة: 3/19.

قـدْ فاز غيري بالْمُنى وحُرِمْتُهُ ... والذّنْبُ عنْ سُبْلِ الْمرادِ عَيُوق[1]

عَزّ الْعزاءُ فليْس لي منْ حيلةٍ ... لكـنْ فـريقٌ للرّضـا، وفـريقُ

لـوْ كان يُقْضَى أنْ أحُطَّ بمكّة ... لحططْتُ وِزْراً[2] ثَمَّ لسْتُ أُطيقُ[3]

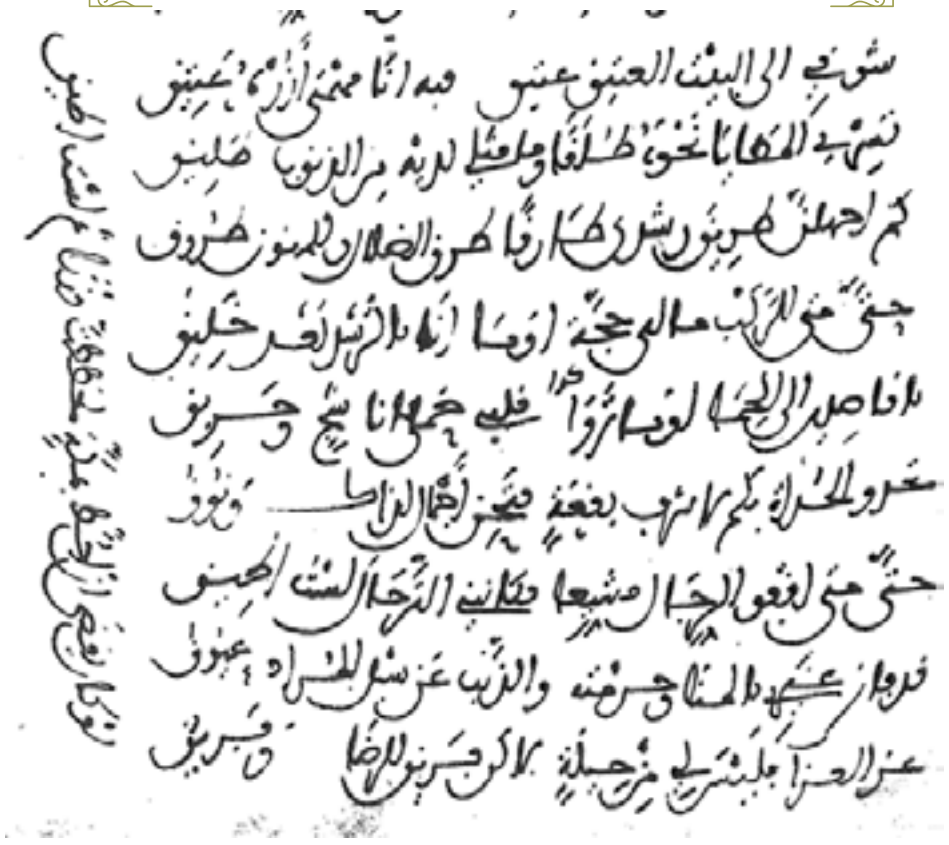

والرسالة الأخرى للقبر النبوي، وذهب نثْرُها أيضاً، وقد استفتحها بالقول:

قـدِمَ الْحـجيجُ فهاج بيْن ضلوعي ... وجْـدٌ تَـنـمُّ بـه دمـاءُ دُمـوعي

تمْضي الْغَوَادي والرّوائحُ بعْدَهَا ... عَبَثاً ونـفْـسي فـي هـوىً ونُـزُوعِ

1-قرأها محققه «قدرا»، وهو تصحيف.

2-مجموع ابن الحاج النميري: 62-61.

هلّا لِـذاتِ اللـه كـان تَغَـرُّبي ... هَـلّا لنـهْـجِ الْحـقّ كـان رُجوعي

واحَسْرَتَا ضيّعْتُ عمْريَ غفْلةً ... والدّهْرُ بي قدْ سار سَيْرَ سريعِ

مالي طُرِدْتُ وعادني عادي النَّوَى ... وإلى النَّصيحِ غدوْتُ غيْرَ سَميعِ

مـا ذاك إلا أنّنـي لا أُرْتَضَى ... ولقدْ أتيْتُ بذِلّتي[1] وخُضُوعي[2]

ومن قصيدة أخرى في الرسالة المذكورة:

فـمنْ شـاء الْـهـوى حقّاً فمنّي ... يـؤرَّخُ عـهْـدُه وبـيَ الـدَّليلُ

أُطـارحُ كـلَّ ذاتِ الطّـوْقِ حتّى ... تـعلّمتِ الْـحمائمُ مـا تقـولُ

فأبْـكي الْبُعْدَ، ذا شَـجَنٍ طـويلٍ ... ومـا أبْـكي إذا تُـبْـكَى الـطُّلُولُ

ومـا إلاّ الـنّـبيّ أجَـلّ قـصْـدي ... تُـرى لِمَزَاره يُقْضَى السّبيلُ[3]؟

قطعة من القصيدة المولدية لابن عسيلة المراكشي (الإسكوريال: 1734؛ 42 و)

1- ص: بدليتي.

2-مجموع ابن الحاج النميري: 62.

3- مجموع ابن الحاج النميري: 62.

نموذج الرسائل الأندلسية:

رسالة من إنشاء أبي الحسين القرشي العامري إلى قبررسول الله صلى الله عليه وسلم:

إلى البشير النّذير، المبْتَعَث بالتّرْغيب والتّحْذير، الْمنْقِذِ من الْحيْرة والنّكير، الْموقظ بالْعِظة والتّذْكير، النّافِحِ الْأرْدان، الْمُنَاجَى به صاحبُ غَمْدَان، نبيّ الرّحْمة والْجِنان، والصّريحِ اللُّبابِ منْ عدْنان، عصْمةِ اللاّئذِ بأكْنافِه، وصفْوةِ الْغَطَاريف منْ عبْدِ مَنَافِه، الْمُبرَّإِ منَ الْعَاب، الْمُرَدَّدِ الْأعْراق في الطَّابِ الطّابْ[1] ، ديّانِ الْعَرب، وفَرَّاج الْكُرَب، سُلالةِ عبْدِ المطّلب، ومَعَاذَةِ الزَّمَن الْكَلِب، الْمنْصور بالصَّبَا، الْمجهّز الْبُعوثَ أيْدي سَبَا، الصّادِعِ بما أُمِر، السّافرِ عمّا يُضْمِر، الذي قام به الْأوَدّ، وتُعُبِّدَ بشريعته الْأحْمر والْأسْود، سيّد الْبشر، وخطيبِ الْمحْشر، الْموقَّرِ الْمُعزَّر، المؤيَّد الْمؤزَّر، الْمُوثَر بالْأيَاة[2] ، المؤيَّد بالْبيّنات، المتحدّي بالآيات، الطّيّبِ الْأُزْرَة، الصَّيِّبِ بالْعفْو عنْ قُدْرة، خِيرَةِ الله منْ خلْقِه، الْمُنْجي منَ الضَّلال ورِبْقِه، النّاطقِ بالْبَيان، النّاسخِ للْأدْيان، الْمُجِيرِ من الرَّوْع والْوَجَل، الْمُرْسَلِ على دُنوٍّ منَ السّاعة وقرْبٍ منَ الْأجل، [خيْرِ موسـ..في الديم]، وسِرّ الْفواطِمِ منْ قريْشٍ والْعَوَاتِكِ منْ سُلَيْم، الذي جرى الماءُ منْ بَنانه متفجّرا، وسَعَتْ به النّاقةُ الْأدْماء مُعْتَجِرا[3] ، وثَلجَتْ بحكْمته الْقُلُوب [...]، وبشّر به عيسى ودعا له إبْراهيم، الْمخْتارُ من الرّفيق الْأعْلى، الْمُمْتارُ منَ الرَّحيق الْأحْلى، عليْه أفْضل الصّلاة والتّسْليم، ما اسْتَدَّ صائبُ الْكلام، وامْتدَّ ثَائبُ الْأحْلام.

من الطَّلِيحِ[4] الْمُلْقى، المتمسّك بعُرْوته الْوثْقى، الْمَهيضِ الْجناح، الْعَريض النّزاع والارْتياح، المقْتفي أثَرَه، الْمصدّقِ له ولمْ يَرَه، الْمُنْتَبِذِ مكاناً قصيّاً، الْمُدِيرِ على الإمام به زَمَناً عصيّاً، الْمتميّزِ بكرمِ صِهْرِه، الْمتحيّزِ إلى عامر بْنِ فِهْرِه، الْمُتضرّمِ اللّوْعة، المتدفّق الدّمْعة، سالمِ بْنِ محمّدِ بْنِ زَمْعة.

1-أخذه من رجز لكُثَيِّر بن كُثَيِّر النوفلي يمدح به عمر بن عبد العزيز:
مُقابَلُ الأعْراقِ في الطَّابِ الطّابْ × بين أبي العاص وآلِ الخطّابْ

2-الأياة للشمس كالهالة للقمر، وهي الدارة حولها. من الصحاح: 6/2546.

3-النَّاقة الأدْماء: وَهِي الْخَالِصَة اللّون والعِتْق. من تهذيب اللغة: 6/39.

4-المهزول؛ كناية عن المرض

خَطَطْتُها يا رسولَ الهدى، وعَلَمَ النّجاة والنّاسُ سُدى، أحْرُفاً برَّة، بلْ أدْمعاً ثرّة، شوْقاً إلى مَخَطِّ ضَريحك، ووُجُود رِيحِك، وشَغَفاً بمحَطِّ رِكابك، ووُرُودِ كتابك، حيْثُ نزل الرُّوحُ الْأمين، وظَهَرَ السّرُّ الْمَكين، واقْتُبِس النّور، وتُدُورِسَ الْكتابُ المسْطور، وطَابَ الْمُعَرَّسُ والْمَقِيل، وحظِيَ الصَّفِيَّانِ مالكٌ وعَقِيل، فَوَاهاً ثمّ واها، ما شَاقَتِ الذّكْرى أوَّاها، يوْمَ ظَعَنَ الزَّوْر، وطُلِعَ النّجْدُ وهُبِطَ الْغَوْر، واسْتقَلَّ الرّائح، واسْتهلَّ الرَّابح، وسَالتْ بأعْناقِ الْمَطِيّ الْأبَاطح، وغُودِرَ رَهْنُ الْحيّ يائس، وقَعَدَ حِلْسَ الْبيْت طَاعمٌ لابس، لمْ يرْحلْ لبُغْية الْمكارم، ولا أنِفَ منْ مقامِ الْمجْرم الْآثم، فيفوزَ بإلْقاء التَّفَث، ويعوذ منْ شَفَا النّطف والرَّفَث، أَمَا إنّه دمْعٌ جَاد، وعَزْمٌ خَلَعَ النِّجَاد، حين أنْضبَت الْمَوَادّ، وعُدِمَت الرّاحلةُ والزَّاد، ولمْ أسْتطع السَّبيل، ولا رِمْتُ الْمرْتَعَ الْوَبيل، فمِنْ أَرَقٍ على أرَق، وحُرَقٍ غِبَّ حُرَق، ومنْ نَفَسٍ يتردّد، وقَبَسٍ بيْن الْجوانح يتوقّد، أَسَفاً ألاّ أكونَ ممّنْ هجَّرَ وسَرَى، وعَفَّر خدَّه في الثّرى، ولحِقَ بخيْر فَريق، وشهِدَ ليالِيَ التّشْريق، ولَبَّى ودَعَا، وخَبَّ في بطْن الْوادي وَسَعَا، ووقف بعرفة، وسأل الله لهَا سَقْيَ طَرَفَة، ودفع إلى الْمُزْدلفة، ونَقَعَ صَدَى النّفْسِ الْكَلِفة، ورمى ونَحَر، واسْتطابَ الْأصيلَ والسَّحَر، واسْتلم وَصَدَع، واجْتهد فيما اسْتَوْدَع، واطّوّفَ بالْبيْت الْعتيق، واطَّيَّبَ بمسْكه الْفَتِيق، وتَقَرَّاها مَسَالك، وتقصَّاها مَنَاسك، وعاجَها ذُلُلاً رَوَاتِك، على الْمُنيفة الْعِمَاد، الْمَريعَةِ الْوهاد، ذاتِ الظّلّ والْماء، والنّخْلِ والْقصْر والْجَمّاء، دارِ الهجرة والإيمان، ومَغْنَى الْغبْطة والْأمَان، مَنْزِعِ الرّحْلة والتَّسْيار، ومَنْجَع المُصْطَفَيْن الْأخْيار، ومَنْ لي أنْ أزْجُرَهَا أَيَامِن، وأحُلَّ مِنْ طَيْبَةَ الْحرَمَ الْآمن، فأنْزِلَ إكْراما، وأُكِبَّ اعْتناقاً والْتزاما، وأسْتأمِنَ منَ الْفزع الْأكْبر، وأَزُورَ الرّوْضة بيْن الْقبْر والْمنْبر، وأُصَلِّي منْ كَثَب، على الْمُنْتَخَب الْمُنْتَجَب، وأسلّم على الْعُمَرَيْن، وأَسْرُوَ عنْ فؤادي حُجُبَ الرَّيْن، وأُفْضيَ بذاتِ صدْري، وأسْتغْفرالله َ ممّا يدْري، وأُشْهدُ على نفْسي، وأبْرأ إلى يوْميَ الْأغْبَطِ منْ أمْسي، في حيْثُ يُمتَّعُ السّائل، وتُشفَّعُ الْوسائل، وتنْجابُ الذّنوب، وتطْمئنّ الْجُنُوب، اللّهمّ يا منْ بيده الْقُلُوب، ولديْه الْمَطْلوب، فإنّي أتوسّلُ بنبيّكَ المرْتَضَى، إلى أدلّة فرْضِكَ الْمُقْتَضَى، وأسْألك ثرْوةً تُعِين، ومَرْوَةً على قرْعِ الْحَوادث لا تَلين، حتّى تُكْرِمَني بهذه الْوِفادة، وتَسِمَني بحُظْوتِهَا الْمُسْتَفَادَة، وتقْطعَني شَرَفَ تلْكَ الْمَقَاوم، وتُطْلِعَني من هاتيك الرُّبى والْمَعَالم، وأُنَاجيك يا ربَّ

الْعباد، بِنَجِيثَة الْفؤاد، وكَمِينِ الْأَمَل الْمُرْتاد، ومسْتشْفعاً إلى هذا الْقبْر الْمُنْتَاب، إلى ما أُضْمِرُ منْ طِلاَب، وأرْجو منْ حُسْن مآب، ومنْكَ الْإجادةُ وإليْكَ الْمآب، وأنْت الْجوادُ الْوهّاب، ثمّ التّحيّاتُ الرّقْراقةُ النّسِيم، الْمُنْسَابَة [التَّسْنِيم]، يقْدُمُها وفْرُ الصّلاة والتّسْليم، وتحْدُوها جُمَلُ التّكْريم والتّنْعيم، على النّبيّ الْأمّيّ، نورِ النَّدَى والنَّدِيّ، وعلى ضجيعيْه منْ تيْمٍ وعَدِيّ[1].

انصراف:

وأخيرا....فإن للموضوع أذيالا لم نشأ جَرَّها، وشجونا لم نُطقْ حملها، فليُستَدلَّ بالقليل على الكثير، وفي ما سِيقَ إن شاء الله مَقْنع، وما فوق هذا إضجارٌ وإبرامٌ، ويكفي من القلادة ما أحاط بالطلى.

لائحة المناقل:

المخطوطات:

- التذكرة الصلاحية، لصلاح الدين الصفدي: خ.

- زهرة الوسائل في المدح والرسائل، لمحمد بن محمد المرابط الدلائي (1099 ه): نسخة خ ع ك، الرباط: 3179.

- العطاء الجزيل، للبلوي: نسخة الخزانة الحسنية، الرباط.

- مجموع ابن الحاج النميري (ت 745 ه)، كناش النميري: الإسكوريال رقم 483، ورقم 1734.

- تقريب المنهاج لفوائد نوازل ابن الحاج، لأبي القاسم عبد [الرحمن] بن أبي عبد [الله بن أحمد بن محمد بن] شعيب القيسي (ت 737ه)، نسخة خزانة ابن يوسف بمراكش رقم 491.

1-مجموع العطاء الجزيل للبلوي: ن خ ح: [133-135].

المطبوعات:

- آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي، تحقيق: د. عبد الحميد الهرامة، ط 1، دار قتيبة، 1991.

- الإحاطة في أخبار غرناطة، لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب (ت 776ه)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م.

- أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041 ه):

الجزء 1 و 2: تحقيق: مصطفى السقا ومن معه، تصوير وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، عن طبعة المعهد الخليفي للأبحاث المغربي، بيت المغرب، القاهرة، 1361 ه/1942م.

الأجزاء 3، 4، 5: تحقيق د. عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت الطنجي، طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي، الإمارات، المغرب، 1980 م.

- الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، للعباس بن إبراهيم السملالي التعارجي المراكشي (ت 1959 م)، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، ووضع فهارسه: د. حسن جلاب، ط 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1997-1993 م/2003 م.

- أعلام مالقة، تأليف أبي عبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس، تقديم وتخريج وتعليق: د. عبد الله المرابط الترغي، ط1، نشر دار الأمان بالرباط، ودار الغرب الإسلامي بتونس، 1420 ه/1999م.

- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن محمد، ابن عذاري المراكشي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ود. محمد بشار عواد، ط ، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013.

- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، لخالد بن عيسى البلوي، تحقيق: الحسن

السائح، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة ، المحمدية، د ط ت.

- التكمِلَة لكتاب الصِّلَة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبَّار (ت 658 ه)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2011م.

- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت 370 ه)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001 م.

- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، لأبي الحسن ابن سعيد، علي بن موسى (ت 685 ه)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، 1400 ه/1980 م.

- ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ط 1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1994.

- ديوان ابن الصباغ الجذامي، تحقيق: د. محمد زكريا عناني، ود. أنور السنوسي، ط 1، دار الأمين، القاهرة، 1999.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542 ه)، تحقيق: د. إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000 م.

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت 703 ه)، تحقيق: د. إحسان عباس، د. محمد بنشريفة، د. بشار عواد معروف، ط دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012 م.

-رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي، إنشاء خلف الغافقي القبتوري(704-615 ه)، تقديم وتحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، ط1، المطبعة الملكية، الرباط، 1399 ه/1979 م.

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، للسان الدين ابن الخطيب (ت 776 ه)، تحقيق:

محمد عبد الله عنان، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980.

- سراج المريدين في سبيل الدين، لابن العربي الإشبيلي (ت 543 ه)، تحقيق: د. عبد الله التوراتي، ط 1، دار الحديث الكتانية، طنجة، بيروت.

- الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 ه)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1407 ه/ 1987 م.

- ابن طلحة اليابري (ت 523 ه) ومختصره في أصول الدين، دراسة وتحقيق: د. محمد الطبراني، ط 1، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2013 م.

- عيون الإمامة ونواظر السياسة، لأبي طالب المرواني (ت.516ه)، تحقيق بشار عواد معروف، وصلاح محمد جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1431ه/2010م.

- قصائد ومقطعات لأبي الحسن حازم القرطاجني (224)؛ تقديم وتحقيق د محمد بلحبيب بلخوجة، تونس، 1972.

- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، للسان الدين ابن الخطيب (ت 776 ه)، تحقيق: د. إحسان عباس، ط 1، دار الثقافة، بيروت، 1963.

- كنز الكتاب ومنتخب الآداب، لأبي إسحق إبراهيم بن الحسن البونسي (ت 651 ه)، تحقيق حياة قارة، ط1، إصدارات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004 م.

- ابن لُبَّال الشريشي، لابن شريفة، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996.

- محاسن المجالس، لأبي العباس أحمد بن محمد بن العريف الصنهاجي (ت 542 ه)، تحقيق: آسين بلاتيوس، باريس، 1933 م.

- مسائل ابن رشد الجد (ت 520 ه)، تحقيق: د. محمد الحبيب التجكاني، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1992 م.

- المطرب من أشعار أهل المغرب، لأبي الخطاب ابن دحية السبتي (ت 633 ه)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ود. حاد عبد المجيد، ود. أحمد أحمد بدوي، ط 1، المطبعة الأميرية، مصر، 1955.

- مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبار (ت 658 ه)، تحقيق د. أيمن محمد ميدان، مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية، دار الوفاء، الإسكندرية، 2009 م.

- معجم السفر، للحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي (ت 576 ه)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، 1414 ه/1993 م.

- المعسول، للعلامة محمد المختار السوسي (ت 1383 ه)، ط1، مطبعة الشمال الإفريقي، الرباط، 1380 ه/1961 م.

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914 ه)، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981 م.

- ابن مُغَاوِر الشّاطبي (ت 587 ه): حياته وآثاره، دراسة وتحقيق: د. محمد بنشريفة، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1415 ه/1994 م.

- مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة، لأبي العباس أحمد بن محمد بن العريف الصنهاجي (ت 542 ه)، تحقيق: دة. عصمت عبد اللطيف دندش، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت .

- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقييد أبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (ت 721 ه بفاس)، (الجزء السابع)، تحقيق: د. أحمد حدادي، ط 1، مطبعة الجسور، 2012.

- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، لشمس الدين أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الرّحمن المغربي، عرف بالحطاب الرُّعيني (ت 954 ه)، تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1416 ه/ 1995 م.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقَّري التلمساني (ت 1041ه)، تحقيق د. إحسان عباس، مصورة دار الفكر عن طبعة دار صادر، بيروت، 1988 م.

- نوازل ابن الحاج التجيبي (ت 529 ه)، تحقيق: أحمد شعيب اليوسفي، ط 1، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، 1439 ه.

- الوسائل المتقبلة، لأبي زيْد عبد الرحمن يخْلُفْتَن الفازازي الأندلسي (ت 627 ه)، مع تخميسها لأبي بكر محمد بن وهيب، المطبعة الميمنية، مصر، 1322 ه.

- نصيحة المشاوِر وتعزية المجاوِر، لأبي محمد عبد الله ابن فرحون المالكي (ت 769 ه)، تحقيق: علي عمر، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.

النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية على أسئلة بعض أتباع الطريقة التجانية بالسودان

د. سعيد المغناوي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإن العلاقات المغربية السودانية يعود تاريخها إلى عهد بعيد[1] ، ثم ازدادت قوة ومتانة بعد ظهور الإسلام وانتشار الطرق الصوفية والمذهب المالكي في كلا البلدين. ومن أهم ما أنتجته هذه العلاقات، ذلك التواصل الروحي والديني والعلمي المتين بين المغاربة والسودانيين، الذي أسهمت في تقويته وديمومته واستمراره ثلة من العلماء الفضلاء، وعدد من الشيوخ والصلحاء الأجلاء، وتلامذتهم وأتباعهم الأوفياء من مرتادي المساجد والزوايا والرباطات، المتشبعين بقيم المحبة والتسامح والتعايش مع الآخر.

وخير مثال على ذلك، العلاقة الروحية والعلمية التي جمعت بين بعض أتباع الطريقة التجانية بأم درمان والشيخ أحمد سكيرج أحد أقطاب هذه الطريقة الصوفية بمدينة فاس المغربية، التي كشف عنها كتاب (النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية) موضوع هذا البحث؛ حيث تبدو من خلاله المكانة العلمية الرفيعة التي

1-قال الدكتور عبد الكريم كريم في كتابه [المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، (منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، الطبعة الثالثة، 1427هـ/2006م)، ص147]: «وأما العلاقات المغربية السودانية، فترجع في تاريخها إلى عهد بعيد، وإن تطورت بعد انتشار الإسلام، وازدادت قوة الاتصالات التي كانت مستمرة بينهما طوال العصر الوسيط...». وقال الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في كتابه [الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، (مطبعة فضالة، المحمدية، 1396هـ/1976م)، معلمة الصحراء، ملحق1، ص127]: «وترجع هذه الصلة إلى القرن الثالث الهجري، حيث كانت القوافل التجارية المغربية تمر بسجلماسة خلال بلاد تشاد والسودان للتوجه إلى اليمن والخليج العربي...».

كان يحظى بها هذا الشيخ المغربي في بعض الأوساط السودانية، وما كانوا يكنون له من احترام وتقدير، دفعهم إلى استفساره عن مسائل كثيرة تدخل ضمن المشترك الديني الموحد والجامع بينهم.

خطة البحث

ينقسم هذا البحث إلى: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: في التعريف بالشيخ سيدي أحمد سكيرج رحمه الله.

والمبحث الثاني: في الأسئلة السودانية الموجهة إليه.

والمبحث الثالث: في الأجوبة السكيرجية عليها.

وأما الخاتمة فستعرض فيها النتائج التي تم التوصل إليها.

***

المبحث الأول: التعريف بالشيخ أحمد سكيرج رحمه الله.

ولد الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن الحاج العياشي بن الحاج عبد الرحمن سكيرج الخزرجي الأنصاري في شهر ربيع الثاني من عام 1295هـ (1878م) بدار الشرفاء الطاهريين، في مقابلة وجه الداخل بدرب سيدي يدير، بحومة رأس التيالين من مدينة فاس.[1]

وفي سن الرابعة عشرة (1309هـ) التحق بالقرويين، فتعلم فيها وفي مجالس علمية أخرى بمدينة فاس[2] . على يد مجموعة من جهابذة العلماء، من أمثال[3] :

1-حديقة أنسي في التعريف بنفسي، أحمد سكيرج، (تحقيق محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، نسخة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج)، ص2.

2-فقد حضر- مثلا- مع والده في مجالس سيدي التهامي بن المدني كنون بضريح سيدي قاسم بن رحمون، كما حضر مجلس سيدي الطيب بن كيران بين العشاءين بجامع زقاق الماء في قراءة المرشد المعين، ومجلس درس الفقيه المحدث سيدي أحمد بن سودة لصحيح البخاري بالحرم الإدريسي. [انظر: حديقة أنسي، لأحمد سكيرج، ص8-7].

3-حديقة أنسي، أحمد سكيرج، ص29-5؛ وسبيل النفع بتراجم من أخذنا عنه الفاتحة برواية السبع، أحمد سكيرج، (تحقيق محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، نسخة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج)، ص3 وص15؛ ورفع النقاب بعد كشف الحجاب فيمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، أحمد سكيرج، (قدم له وترجم للمؤلف العلامة إدريس العراقي الحسيني مقدم الزاوية التجانية الكبرى بفاس، مطبعة الأمنية، الرباط، الطبعة الأولى، 1390هـ/1971م)، الربع الثالث، التقديم وص201؛ وسل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال- فهرس الشيوخ، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، (تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م)، رقم الترجمة 126، ص103-102؛ والأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب

سيدي محمد الطيب بن أبي بكر بن محمد الطيب ابن كيران النوازلي (ت1314هـ)، وسيدي عبد الله بن إدريس البدراوي الحسني (ت1316هـ)، وسيدي إدريس بن عمور (ت1320هـ)، وسيدي أحمد بن الطالب ابن سودة المري (ت1321هـ)، وسيدي إبراهيم بن محمد بن عمر اليزيدي العلوي (ت1322هـ)، وسيدي جعفر بن إدريس الكتاني الحسني (ت1323هـ)، وسيدي عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي (ت1324هـ)، وسيدي المامون بن رشيد العراقي الحسيني (ت1324هـ)، وسيدي الحبيب بن الحاج الداودي التلمساني (ت1325هـ)، وسيدي مَحمد- فتحاً- بن مُحمد- ضمّاً- بن عبد السلام كنون (ت1326هـ)، وسيدي عبد السلام بن محمد الهواري (ت1328هـ)، وسيدي عبد السلام بن محمد بن العربي بناني (ت1329هـ)، وسيدي أبو بكر بن العربي بن محمد بناني (ت1330هـ)، وسيدي التهامي بن المدني بن علي بن عبد الله كنون (ت1331هـ)، وسيدي مَحمد- فتحاً- بن قاسم القادري الحسني (ت1331هـ)، وسيدي العباس بن أحمد التازي (ت1337هـ)، وسيدي محمد بن عبد القادر بن الطالب ابن سودة المري (ت1338هـ)، وسيدي محمد بن علي بن عمر بن علي الأغزاوي (ت1340هـ)، وسيدي أحمد بن محمد بن عمر ابن الخياط الزكاري (ت1343هـ)، وسيدي محمد بن محمد الغمري (ت1343هـ)، وسيدي محمد بن إدريس القادري (ت1350هـ)، وسيدي عبد السلام بن عمر العلوي (ت1350هـ)، وسيدي أحمد بن الجيلالي الفيلالي الأمغاري (ت1352هـ).

كما تمسك بالطريقة الأحمدية التجانية على يد عدد من علمائها وأجازوه فيها الإجازة العامة، منهم: مولاي عبد المالك بن محمد بن عبد الله العلوي السجلماسي الحسني الضرير (ت1318هـ)، وسيدي الحاج مَحمد- فتحاً- بن مُحمد- ضمّاً- بن عبد السلام كنون (ت1326هـ)، والعارف بالله سيدي أحمد بن محمد بن قويدر العبدلاوي (ت1328هـ)، وسلطان المقدمين سيدي محمد بن العربي العلوي الزرهوني (ت1339هـ)، وعبد الكريم بن العربي بنيس (ت1350هـ)، وسيدي محمد الكبير بن محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن سيدي أحمد التجاني (ت1350هـ)، وأخوه سيدي محمود بن سيدي محمد البشير التجاني (ت1353هـ)،

والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، 2002م)، 3/234.

والمقدم سيدي الطيب بن أحمد بن الطيب الودغيري السفياني (ت1357هـ).[1]

وفي عام 1318هـ اشتغل بالتدريس في القرويين وغيرها[2] ، فتتلمذ على يديه عدد كبير من طلبة العلم، وتعلقت به ثلة منهم فأخلصوا في محبته، من جملتهم: السلطان سيدي عبد الحفيظ بن الحسن العلوي[3] (ت1356هـ)، وسيدي محمد بن عبد الرحمن امغارة التامصلوحي (ولد 1304هـ) مقدم الزاوية الأحمدية التجانية بتطوان[4] ، وسيدي احماد بن الحسين الدويراني البركوكي (ولد 1307هـ) قائد قبيلة دويران بناحية مراكش[5] ، وسيدي محمد الحافظ بن عبد اللطيف بن سالم المصري[6] (ت1398هـ)، وسيدي عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة[7] (ت1400هـ)، ومحمد بن علي التازروالتي السوسي مقدم الزاوية التجانية العتيقة بالدار البيضاء[8]، والشيخ محمد بن المأمون الوليشكي المتوفى ببوق القريبة من القوصية بمديرية أسيوط المصرية[9] .

وتولى رحمه الله بعد ذلك عدة وظائف، هي:

- الخدمة بدار النيابة بطنجة بصفة كاتب مع النائب المخزني بها عام 1328هـ[10].
- الخدمة بإدارة المراقبة بطنجة بصفة كاتب ثان رفقة أخيه سيدي محمد عام 1328هـ.

1-حديقة أنسي، أحمد سكيرج، ص13-12؛ ورفع النقاب، أحمد سكيرج، الربع الثالث، مقدمة سيدي إدريس العراقي.

2-المرجعان السابقان.

3-نص إجازة الشيخ أحمد سكيرج للسلطان سيدي عبد الحفيظ بن الحسن العلوي كتبت عام 1346هـ [انظر: نسخة من هذه الإجازة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج].

4-تكملة جامع كرامات الأولياء، محيي الدين الطعمي، (دار الكتب العلمية، بيروت)، ص127.

5-الجواهر المنتشرة في الجواب عن الأسئلة الإحدى عشرة، أحمد سكيرج، (تحقيق محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، نسخة مرقونة ومنشورة على الشبة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج)، ص2.

6-أيام في زاوية سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه بفاس- رمضان 1356هـ، محمد الحافظ المصري، (نسخة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع التجانية)، ص2؛ وفيها يذكر أنه ذهب إلى مدينة سطات لزيارة الشيخ سكيرج فأقام عنده أربعة أيام قبل الذهاب إلى مراكش وثلاثة أيام بعد الرجوع من مراكش.

7-سل النصال، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، ص103.

8-الرحلة الزيدانية، أحمد بن العياشي سكيرج، (تحقيق محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، 2010م)، مقدمة المحقق، ص10.

9-تكملة جامع كرامات الأولياء، محيي الدين الطعمي، (دار الكتب العلمية، بيروت)، ص127.

10-نفسه، ص33.

- كاتب بمحكمة طنجة مع الباشا سيدي الحاج محمد الزكاري ومستشار له فيما ينزل به من القضايا في الأحكام، وذلك بعد رجوعه من رحلتين قام بهما عام 1329هـ؛ إحداهما إلى وهران استجابة لدعوة وجهها إليه سيدي الحبيب بن عبد المالك، وثانيهما إلى الرباط رفقة سيدي محمود بن سيدي محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن سيدي أحمد التجاني.[1]
- ناظر لأحباس فاس الجديد ما بين عامي 1332-1336هـ[2].
- قاض بمدينة وجدة ونواحيها ما بين عامي 1337-1340هـ.[3]
- عضو بالمحكمة العليا لرباط الفتح ما بين عامي 1340-1342هـ.[4]
- قاض بمدينة الجديدة ونواحيها ما بين عامي 1342-1347هـ.[5]
- قاض بمدينة سطات ونواحيها ما بين عامي 1347-1363هـ.[6]

وتوفي بمراكش في 23 شعبان عام 1363هـ (1944م)، ودفن داخل قبة الشيخ عياض رحمه الله.[7]

له مؤلفات عديدة في فنون شتى، قال عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة إنها تناهز المائة[8] ، وقال سيدي إدريس العراقي الحسيني مقدم الزاوية التجانية الكبرى بفاس إنها جاوزت مائة وعشرين[9] . وأما في موقع الشيخ سكيرج، فقد نسب له المشرفون عليه مائة وسبعين مؤلفا[10] ، منها:

- شراب أهل الاختصاص من بحر البسملة بين الخواص، تحقيق نجاة الصباحي،

1-نفسه، ص37-33.

2-حديقة أنسي، أحمد سكيرج، ص38؛ والرحلة الزيدانية، مقدمة المحقق، ص4.

3-حديقة أنسي، أحمد سكيرج، ص39؛ والرحلة الزيدانية، مقدمة المحقق، ص4.

4-حديقة أنسي، أحمد سكيرج، ص40-39؛ والرحلة الزيدانية، مقدمة المحقق، ص4.

5-الرحلة الزيدانية، مقدمة المحقق، ص4.

6-نفسه، ص4.

7-إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، 2/498.

8-سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال- فهرس الشيوخ، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، رقم الترجمة 126، ص103.

9-رفع النقاب، أحمد سكيرج، الربع الثالث، مقدمة سيدي إدريس العراقي.

10-موقع الشيخ سكيرج: http://www.cheikh-skiredj.com/tous-les-livres-cheikh-skiredj.php

دار الكتب العلمية، بيروت، 2016م.

- زهر الأفانين في الجواب عن الأسئلة الثلاثين، تحقيق أبي عمر عدنان بن عبد الله زهار، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016م.

- إرشاد المتعلم والناسي في صفة أشكال القلم الفاسي، طبع على الحجر بفاس[1] ؛ ثم نشر باعتناء تامر عبد المنعم الجبالي في مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، المجلد (53)، الجزء الثاني، ذو القعدة 1430هـ/نوفمبر 2009م.

- الرحلة الحبيبية الوهرانية الجامعة للطائف العرفانية (وهران- تلمسان- مستغانم- سيدي بلعباس)، طبع على الحجر بفاس ؛ [2]ثم نشر بتحقيق العربي بوعمامة وحمدادو بنعمر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م،.

- كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، طبع على الحجر مرتين، مطبعة العربي أزرق، 1325هـ و1340هـ[3] ؛ ثم طبع بدار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

- قدم الرسوخ فيما لمؤلفه من الشيوخ، تحقيق محمد الراضي كنون الإدرسي الحسني، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011م.

- تاج الرؤوس بالتفسح في نواحي سوس، المطبعة الجديدة، فاس[4] ؛ ثم نشر بتحقيق محمد الراضي كنون، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط.

- كمال الفرح والسرور بمولد مظهر النور، طبع على الحجر بفاس، 1333هـ[5] .

- النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية، مطبعة الصدق الخيرية بمصر، الطبعة

1- معجم المطبوعات المغربية، إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني الحسني، (تقديم عبد الله كنون، سهر على ترتيبه وطبعه نيابة عن الأسرة ولده عبد الوهاب، مطابع سلا، 1988م)، ص158.

2- نفسه، ص158.

3- نفسه، ص159.

4- نفسه، ص158.

5-نفسه، ص159.

الأولى عام 1352هـ بنفقة المقدم محمد سعيد علي أفندي المالكي التجاني من خاصة أصحاب الشيخ سيدي أحمد سكيرج رحمه الله.

المبحث الثاني: الأسئلة السودانية.

يخبرنا سيدي أحمد سكيرج- رحمه الله- في مقدمة كتاب (النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية)، أنه قد أُلقي إليه كتاب كريم من حضرة السيد الماجد (عبد العزيز الدباغ بن محمد عبد الماجد[1]) ، وهو من أعز أحبابه بقطر السودان المصري[2]، يلتمس فيه منه الجواب عن مسائل ظن أنه يُحسن الجواب عنها، بعد أن عُرضت على العلماء بقطرهم فلم يُقدم أحد منهم على الإجابة عنها فضلا عن الشروع فيها، لمانع التقصير أو القصور.[3]

فلما اطلع على هذه المسائل وتحقق بما فيها، ظهر له أن ترك الجواب عنها أولى، لكنه خشي انكسار خاطر هذا السائل «المحب»، الذي يسعى في جبر خاطره بما أمكنه، قياما بصدق الحب؛ ولذلك عزم على الجواب عنها؛ وهي- كما قال-: قد اشتملت على مشاكل «من فن الحكمة والمنطق وعلم الكلام والنحو والبيان والأصول والفقه والتصوف، وغير ذلك[4]» .

وقد صدّر الجواب عنها بـ(بساط مبسوط بأدب السائل والمسؤول منوط[5]) ، بسط

1-انظر ترجمته في موقع «التجانية»، وفيها أنه: العلامة الأديب، المقدم سيدي عبد العزيز الدباغ بن الشيخ سيدي محمد بن عبد الله الماجد، من أهالي أم درمان بالسودان، وهو من خاصة المقدمين المؤهلين لتلقين أوراد الطريقة الأحمدية التجانية بالسودان، وقد جمعت بينه وبين العلامة سيدي الحاج أحمد سكيرج روابط متينة لاتحاد السند بينهما والمشرب، فهو تلميذه وصفيه وصديقه، كما دارت بينهما من الرسائل والأجوبة ما لو جمعتها لم يسعها مجلد واحد من الحجم الكبير، وتمتاز أجوبته رحمه الله بالطابع الأدبي والبلاغي البديع من سجع وثورية واقتباس. [انظر: http://www.tidjania.fr/classe-4/322-addabagh ، حيث تم تصفحه بتاريخ 20 غشت 2019م].

2-شرع المصريون في بسط سيطرتهم على السودان عام 1820م في عهد محمد علي باشا. وفي عام 1899م وقعت الحكومتان المصرية والبريطانية على اتفاقية تقضي بالسيادة المشتركة عليه. ولم يحصل السودان على استقلاله إلا بعد انسحاب الحكام البريطانيين والمصريين منه في أول يناير 1956م. [انظر: السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، لعبد الله حسين، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م)، 109-1/107 و63-2/59؛ وتاريخ السودان الحديث، لروبرت أو- كولينز، (ترجمة مصطفى مجدي الجمال، مراجعة حلمي شعراوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015م)، ص15].

3-النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية، أحمد سكيرج، ص3-2.

4-نفسه، ص4-3.

5-نفسه، ص4.

فيه ما اختلج في صدره من شأن هذه المسائل، وما انبعث في خلده من حالة السائل، ومن ذلك قوله:

- إن «مثل هذه المسائل يُحتاج في إيضاحها إلى تمهيدات ومقدمات من الفن الذي اختزل السائل منه سؤاله، ليتضح الجواب بالفن المرجوع إلى تحقيق ذلك فيه بقواعده، لإقناع السائل الذي يلقيها على المسؤول اختبارا له أو استفادة منه» .[1]

- إنه ليس بغريب «أن يفهم المسؤول من نص السؤال ما لم يقصده السائل، فيجيبه عما فهمه لا عن مقصوده، فيتسارع إلى تخطئته في الجواب، ولا يكون مصيبا عنده إلا إذا وافق نظره وفهم منه ما قصده[2]» .

- إن جُلّ هذه المسائل من قبيل ما يوقع في إيهامات وإبهامات[3].

- «إن السائل عن هذه، إما أن يكون عارفا بها، فلا معنى للسؤال عنها سوى قصد التعجيز والامتحان؛ أو يكون غير عارف بها، وهو ممن لا إلمام له بفنها، فجواب هذا لا يجديه نفعا، لكونه ينبغي أن يكون الكلام مع من يكون خائضا في هذه الفنون، ولو في مبادئها ليستفيد في الجملة مما تقرر في الجواب، مراعاة لاصطلاح الفن الذي يخوض فيه[4]» .

- «إن من له إلمام بالفن المنتزع منه السؤال، يستغني بقواعد الفن عن الجواب[5]»، ولكن إفراغ هذه المسائل في القالب الذي صاغها فيه صاحبها من التمويه، «يدل على أن مقصوده ما ذكرناه من قصد الاختبار[6]» .

- إن هذه المسائل «جلها من قضايا يُحتاج فيها إلى بسط في فنها، وإلى شرح مبيّن لمتنها[7]» .

1-نفسه، ص4.

2-نفسه، ص5-4.

3-نفسه، ص5.

4-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص5.

5-نفسه، ص5.

6-نفسه، ص6-5.

7-نفسه، ص6.

لقد كان سيدي أحمد سكيرج- رحمه الله- شبه متأكد من أن المقصود من هذه الأسئلة الموجهة إليه هو الاختبار وليس الاستفسار من أجل الاستفادة والاعتبار، والدليل على ذلك قوله: «ولقد كان الأليق بنا الاقتداء بعلمائكم الذين عرض عليهم السائل هذه الأسئلة فلم يجيبوه عنها، فحملتم إعراضهم عن الجواب عنها على مانع التقصير أو القصور. وإني أحاشي جنابهم عن أن يكون هذا المانع ملما بساحتهم، فإن منهم الأعلام الذين رفرفت منهم في أفق العلوم الأعلام. ولا أخال المانع من الجواب إلا ما شموه من رائحة اختبار السائل لهم.

لكنه مع ذلك وجد نفسه مضطرا للإجابة عنها- على ما يبدو- لثلاثة أسباب هي:

أولا: أن السيد عبد العزيز الدباغ بن محمد عبد الماجد السوداني قد بادر مسبقا إلى تسمية الأجوبة التي سيجيب بها سيدي أحمد سكيرج على هذه الأسئلة بـ «النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية»؛ ولهذا قال رحمه الله: «سماها قبل الوجود بالنفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية، فلم يسعني إلا المسارعة لذلك. وها أنا ذا أساعده بالجواب غير متأنق في الخطاب، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل[1]».

ثانيا: أن سيدي أحمد سكيرج قد عزم على الجواب عن هذه الأسئلة خشية انكسار خاطر السائل الذي هو من أعز أحبابه بقطر السودان المصري، والذي حل من قلبه محل كرامة، واتصلت الرابطة بينهما بحبل الود الذي سأل الله سبحانه وتعالى أن يديمه إلى يوم القيامة، على الرغم من أنه كان يرى أن ترك الجواب عنها أولى، بعدما تحقق بما فيها من المشاكل[2].

ثالثا: أن سيدي أحمد سكيرج كان متيقنا من حسن نية السائل وسلامة صدره، ورفعة قدره عن إلقاء هذه المسائل عليه على وجه لا يليق بمقامه، ولولا تحققه من ذلك- كما قال- ما سَوَّد بياض الطرس بما حرره في هذا الموضوع من الأجوبة[3].

1-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص4.

2-نفسه، ص4-2.

3-نفسه، ص6.

ومما أشار إليه أيضا في آخر هذا البساط المبسوط:

أولا: دعوة السائل إلى ترك مذاكرة من يريد اختباره لغير موجب، مع الإعراض عمن يستفيد ويجحد[1].

ثانيا: تنبيه السائل إلى أنه من المحتمل أن يقول له في أسئلته: «لا أدري[2]» ، ولن يضره ذلك، وأنه سينبئه حينئذ بما عنده في ذلك[3].

وبعد هذا البساط المنوط بأدب السائل والمسؤول، شرع سيدي أحمد سكيرج رحمه الله في ذكر الأسئلة بنصها، واحدا بعد واحد، ثم أتبع كل سؤال منها بجواب خاص.

وعدد هذه الأسئلة، سبعة عشر سؤالا، منها قوله:

- هل وجود الله تعالى بالإمكان العام أو الإمكان الخاص؟ وما حد كل منهما؟ وما موجبات كل واحد منهما من الموجبات المعهودة عند أهل النظر؟

- ما الدليل على وجود الله تعالى؟ هل هو حدوث العالم أو إمكانه أو هما؟ وما الفرق بين هذه الثلاثة؟

- ما مستند الأئمة الثلاثة في حمل الأقراء على الأطهار؟ وما مستند الإمام الأعظم في حمله لها على الحيض؟ مع أنها في كليهما جمع قرء بالفتح وهو مجمل.

- ما الفرق بين المجاز على المجاز والمجاز بمرتبتين؟

- لِمَ مُنع الابتداء بالنكرة عند عدم المسوغ، وجاز نحو قولك: جاء رجل، مع أنها في كليهما محكوم عليه ومسند إليها، وعلة منع الأول موجود في الثانية؟

- هل لا إله إلا الله من القضايا أو لا؟ وعلى أنها منها فهل هي قضية واحدة أو

1-نفسه، ص6.

2-عبر سيدي أحمد سكيرج رحمه الله عن هذا الرأي أيضا وسط جماعة من الأدباء في أوائل طلبه للعلم فقال: «فإني إذا لم أحسن الجواب عن مسألة من أي علم كانت، فإني أقول: لا أدري. وقد قال الإمام مالك: لا أدري نصف العلم». [انظر: النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية، ص8].

3- نفسه، ص8.

قضيتان؟ وهل هي كلية أو شخصية؟ وهل هي حقيقية أو خارجية أو ذهنية؟ وهل هي ضرورية أم لا؟ وإذا قلتم بالضرورة فهل هي بالضرورة الذاتية أو العرضية أو بالدوام أو بالإمكان؟ وعلى كل حال فهي جملة عند النحاة، فما محلها من الإعراب؟

- هل الاسم عين المسمى أو غيره؟ وما معنى العينية وما فائدة هذا الخلاف ومن أي باب هو؟

- ما معنى قول الشيخ الأكبر: «سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها»؟ ما المراد بالعينية مع العلم بأن الشيخ رضي الله عنه منزه عن اعتقاد الجسمية والعينية المؤدية إلى الحلول والاتحاد؟

- هل أرواح البهائم بعد الخطاب لها بقوله تعالى: (كوني ترابا)، تفنى مع أجسادها أو تبقى؟ وإذا قلتم بالفناء لها، فقد خالف قولهم: «الأرواح باقية»، والأصل في العموم إلا لمخصص، ولم نر مخصصا؛ وإذا قلتم بالبقاء لها، فأين مرجعها بعد كونية أجسادها ترابا؟

المبحث الثالث: الأجوبة السكيرجية.

سنحاول أن نعطي- في هذا المبحث- فكرة عن بعض ما دبّجه سيدي أحمد سكيرج في ثنايا أجوبته على الأسئلة الموجهة إليه، وذلك من خلال ما ورد في جوابه على السؤال الرابع عشر، الذي له علاقة بإحدى عبارات محيي الدين ابن عربي الحاتمي الطائي المرسي الأندسي الشهير بـ«الشيخ الأكبر»، المتوفى عام 638هـ.

لقد اعترف رحمه الله في بداية الجواب بأن هذا السؤال هو من أصعب الأسئلة وأعضلها، ثم نبّه إلى ثلاثة أمور، هي:

الأمر الأول

أن يعلم السائل أن الشيخ ابن عربي الحاتمي قد حرر عقيدته على مذهب أهل الحق في مقدمة كتابه (الفتوحات المكية)، «ليتحقق مُطالع كلامه بسلامة اعتقاده

مما عسى أن تضيق عبارته عن تأديته، مما لم يجد مندوحة عن التعبير عنه- بإلزام الوارد عليه بالتصريح به- من المعارف والحقائق التي لا تجد قابلية من سامعها، أو يدسها عليه في كتبه من أراد التنويه به أو التشهير به، من محبيه أو مبغضيه[1]» ؛ لأن المحبين قد يشيعون على محبوبهم- من فرط محبتهم فيه- ما لا تقبله عقول غيرهم، عن قصد أو عن غير قصد. وكذلك المبغضون، قد يشيعون على بغيضهم ما يدسون عليه من المناكر المنفرة منه[2].

الأمر الثاني

أن يعلم السائل أنه لا سبيل إلى الجزم بتنزيه الشيخ ابن عربي عن الخطإ في التعبير بما يوحي به إليه الضمير، فإنه غير معصوم، وإن كان في الصف الأول من الأولياء المحمديين[3]. «فقد يقضي عليه الحال بالسلوك في بعض الحقائق، بتقريرها على سنن غير أهل السنة...».[4] ومن ثم، فهو يخطئ ويصيب فيما يقوله، لكن يحمله على الصواب مَنْ سلك معه على المسلك الذي سلك فيه، ومن عرف جلالته في المعرفة بالله؛ التي تقضي على أمثالهم بأن لا يتجاسروا على جنابه الأرفع، بالمسارعة للنكير عليه، متحققين بأن التسليم له لا يأتي إلا بخير، وبأن البقاء على الحياد من الانتقاد، وترك الخوض فيما لا يوافق المراد، هو اللائق بمن أراد السلامة لنفسه بين العباد[5].

الأمر الثالث

أن يعلم السائل، أن كل فن له اصطلاح يعرفه أربابه الخائضون فيه، وأنه لا يَجمُل بمن لا يعرف اصطلاح فن أن يعترض على ما لا يتحققه فيه. [6]وهكذا الشأن

1-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص115-114.

2-نفسه، ص115.

3-نفسه، ص115.

4-نفسه، ص115.

5-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص116-115.

6-نفسه، ص116.

في بعض اصطلاحات الصوفية، كإطلاق (الاتحاد) على معنى معروف بينهم؛ «ومثله: الحلول والوحدة والوجود المطلق، ونحو ذلك[1]» .

وأن يعلم كذلك، أنه «لا يُمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح لا محذور فيه شرعا[2]» ، غير أنه ينبغي له أن لا يتعمد الإتيان بالموهمات والمبهمات[3]. فإذا صدر ممن عُرفت جلالته في العلم ومكانته في المعرفة، ما هو من قبيل الإيهام والإبهام من غير قصد، فإنما يُحمل ذلك منه على محامل حسنة تناسب مقامه. [4]

وأن يعلم أيضا، أنه لا يَجمُل بالعالم أن يسارع إلى حمل المشترك في المعنى على الشق الذي لا يليق بقصد المتكلم به[5] ، وليتأن قليلا ولا يبادر بانتقاد ما يسمعه، إلا بعد تحققه بمقصوده، «وإن كان ظاهر الشرع لا يسمح في ظهور بعض الألفاظ الموهمة، خشية أن لا تكون صدرت طبق الاعتقاد، أو تؤدي إلى هتك الحرمات الذي يؤاخذ به المتهاون في دينه[6]» .

ومثال ذلك، لفظ (العين)، الذي يقول سيدي أحمد سكيرج: إن «لها معاني كثيرة، فإذا تكلم أحد بكلام يوهم محذورا بذكرها فيه، ونحن نتحقق بسلامة اعتقاده، لنفوره من الكفر- مثلا- وتنفيره مما يؤدي إلى الكفر، فلا جرم أننا نحمل كلامه على أحسن المحامل[7]» .

بعد هذه المقدمات المهدات، قال رحمه الله مخاطبا السيد عبد العزيز الدباغ بن محمد عبد الماجد: «والذي ندين الله به، فيما تحققنا به في سرنا من كمال معرفة الشيخ الأكبر، أنه لا يقصد بمثل ما سألتهم عنه معنى غير مقبول شرعا، سواء بلغ

1-نفسه، ص116.

2-نفسه، ص116.

3- نفسه، ص116.

4-نفسه، ص116.

5-نفسه، ص116.

6-نفسه، ص117-116.

7-نفسه، ص116.

فهمنا إلى ما قصده بذلك ففهمناه، أو قصر عن فهمه عقلنا فجهلناه[1]» .

وموقفه هذا، المنصف للشيخ ابن عربي الحاتمي، يُنمّ- من دون شك- عن عظيم ثقته به، وقناعته التامة ببراءته مما يُتّهم به؛ ومن ثم، نراه يلتمس له العذر وينافح عنه، ويشير ملمحا إلى أنه كان مشغول البال تنتابه أحوال، فيقول: «اعلم أن العارف المأذون له في التعبير، قد تضيق به العبارة ولا تساعده الإشارة في الإفصاح عما استكن بضميره، فيتكلم بلسانه المعبّر عن جنانه بما اعتاد من البيان، ولا يُلقي بالاً لما تحتمله بعض ألفاظه من الإيهامات والإبهامات في نظر غيره، لكونه مشغول البال بما هو أهم في إلقاء ما يُلقى إليه بزاعج الواردات؛ فهو إذا خاض في بحر الحقيقة تتلاطم عليه أمواجها، فيقتحم الخوض فيها ليعبر إلى بر التحقيق، ظافرا بالدرر التي استخرجها من قعر بحرها. فهو كالطائر الذي يكون منحاشا لسفينة النجاة، وقد توسطت وسط البحر، فيطير في الأفق ثم يرجع إليها، ثم يطير المرة بعد المرة، فإذا غرقت سفينته أو ضل عنها، يبقى طائرا حتى يسقط للبحر[2] . ولابد من سقوطه، لاتساع دائرة البحر الذي طار في أفقه، ولا يجد فيه مأوى يأوي إليه. أو مثل الغواص الذي اعتاد استخراج الجواهر من قعر البحر، فقد لا يتخذ الاحتياطات اللازمة، فيغرق أو يصادمه ما لا قبل له به. فكذلك الخائض في بحر الحقائق، فلابد من سقوطه أو غرقه؛ ولذلك حذر علماء الشريعة من الخوض في الفلسفة، ومطالعو كتب المتوغلين في الحقيقة من المتصوفة[3]» .

ويقول أيضا: «ولقد ضاق الوجود بمن لا يَفهم ما قصده مَنْ تكلّم في الوجود المقيّد على الوجود المطلق، الذي لا تُؤدى العبارات عنه إلا بما هو صريح بالاتحاد والحلول، لكون ذلك هو المتبادر للأفهام من الأعيان، فأحرى العوام...»[4]

ويقول كذلك: «والذي حمل الصوفية على التصريح بما يُنكر عليهم فيه، هو عدم

1-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص117.

2-قوله: (حتى يسقط للبحر)، يعني: (حتى يسقط في البحر).

3-نفسه، ص118-117.

4-نفسه، ص120.

قدرتهم على تحمل ما تجلى الحق به عليهم في خوضهم في الحقائق، وإلزامهم بتبيان ما نزل إليهم من حضرات المعرفة به، (ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حيِيَ عن بيّنة[1]). فهم في أحوالهم مغلوبون، وعلى أقوالهم مجبورون، حتى يقضي عليهم الفناء بالبقاء، والبقاء بالفناء، في مشاهدة المشاهدة. فيشاهد الكامل منهم ما يشاهده، مما لا يرده عن إفشائه بالإذن له فيه جاحده أو معانده. وهنالك تعظم المصائب، وتحسب المحاسن في العامة منهم والخاصة من المعايب[2]» .

ولكي يوضح سيدي أحمد سكيرج للسائل أكثر، فقد عرّفه بمجموعة من معاني (العين) في اللغة، منها: السيد، والكبير والأشرف، والنظر، والصورة، والشمس وشعاعها، والعز، والعلم[3]. ثم بيّن له مفاهيمها في سياق الجملة التي سئل عن معناها، وهي: (سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها)، فقال ما ملخصه :[4]

- إذا كانت (العين) بمعنى (السيد)، فالجملة معناها: سبحان من أظهر الأشياء وهو سيدها، أي ربها ومولاها ومالكها.

- وإذا كانت (العين) بمعنى (الكبير والأشرف)، فالجملة معناها: سبحان من أظهر الأشياء وهو أشرفها وكبيرها.

- وإذا كانت (العين) بمعنى (النظر)، فالجملة معناها: سبحان من أظهر الأشياء وهو نظرها، يعني نظرها الذي تنظر به تنظر إليه، على حد ما قيل في قوله تعالى: (ولتصنع على عيني .[5]

- وإذا كانت (العين) بمعنى (الشمس وشعاعها)، فالجملة معناها: سبحان من أظهر الأشياء وهو شمسها ونورها، وقد قال تعالى: (الله نور السماوات والأرض[6]).

- وإذا كانت (العين) بمعنى (العز)، فالجملة معناها: سبحان من أظهر الأشياء وهو

1-سورة الأنفال، الآية 43.

2-نفسه، ص121.

3-نفسه، ص119-118.

4-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص119-118

5-سورة طه، الآية 39.

6-سورة النور، الآية 35.

عزّها، الذي تعتزّ به.

- وإذا كانت (العين) بمعنى (العلم)، فالجملة معناها: سبحان من أظهر الأشياء وهو عالم بها.

- وأما إذا كانت (العين) بمعنى (الصورة)، فإن من يقتحم لجة حملها على هذا المعنى، يحتاج «إلى تأويل محمول على تأويل من تأويلات (إن الله خلق آدم على صورته[1]) ...»[2].

والملاحظ، أن سيدي أحمد سكيرج كان رحيما بالسائل، فهو لم يُطل عليه بسرد مثل هذه الوجوه، وكان يخشى أن يدخل به فيها إلى حضرة الهوية فلا يفهم ما يشير إليه في حمل هذه المسألة على ما تقتضيه[3]. ومع ذلك، لم يبخل عليه بما يمكن أن يقرّبه من الفهم الصحيح لما ينشده بأبسط عبارة وأسهل إشارة، فقال له: «لا بأس أن تفهم أنه يشير بقوله: (فهو عينها)، إلى أن الأشياء في حضرة الغيب، المرموز عليها بضمير[4] (هو عينها) من علم الحق، قد أظهرها الحق للوجود على وفق ما في العلم، فهي على ما هي عليه فيه من غير زيادة ولا نقصان... أما إذا بقيت العبارة على ظاهرها، فحُمل (العين) على ما يسبق الفهم إليه من معانيها، الذي هو النفس والشخص ونحوهما، مما هو المتبادر الذي لا يمكن للعامة أن يفهموا غيره، فإن العينية تكون غير الغيرية، والحق غير الخلق قطعا. ثم إنه لا يَجمُل بنا تأويل هذه الجملة على غير ما نفهمه من حال الشيخ الأكبر، الذي يقول بوحدة الوجود. وقد تكلم العلماء على هذا المشرب الذي حلا في مذاق قوم، ومجّه آخرون، مع أنه (قد علم كل أناس مشربهم[5]) ...»[6] .

1-حديث أخرجه البخاري في صحيحه (دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م): كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم 6227، ص1554، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، بلفظ: (خلق الله آدم على صورته...).

2-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص119.

3-نفسه، ص119.

4-المرموز عليها بضمير (هو عينها)، أي: المرموز لها بضمير (هو عينها).

5-سورة البقرة، الآية 59.

6-النفحة العنبرية، أحمد سكيرج، ص120-119.

خاتمة

من أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث:

1 - إن هناك تواصلا قديما بين المغرب والسودان، ينبغي السعي دوما لتقويته وتمتينه، والمحافظة على استمراريته.

2 - إن هناك مشتركا روحيا وعلميا بين المغاربة والسودانيين يتعاونون فيما بينهم على خدمته، والرفع من مستواه والتوعية به.

3 - إن هناك احتراما متبادلا بين أهل العلم في المغرب والسودان، إضافة إلى المحبة والتقدير والتسامح، وهي العناصر التي أسهمت وستسهم دوما في تقوية العلاقات بينهم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، (تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م).

- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، 2002م).

- تاريخ السودان الحديث، لروبرت أو- كولينز، (ترجمة مصطفى مجدي الجمال، مراجعة حلمي شعراوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015م).

- تكملة جامع كرامات الأولياء، محيي الدين الطعمي، (دار الكتب العلمية، بيروت).

- الجواهر المنتشرة في الجواب عن الأسئلة الإحدى عشرة، أحمد بن العياشي سكيرج، (تحقيق ذ. محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، نسخة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج).

- حديقة أنسي في التعريف بنفسي، أحمد بن العياشي سكيرج، (تحقيق الأستاذ

محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، نسخة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج).

- الرحلة الزيدانية، أحمد بن العياشي سكيرج، (تحقيق ذ. محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني).

- رفع النقاب بعد كشف الحجاب فيمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، أحمد بن العياشي سكيرج، (قدم له وترجم للمؤلف العلامة إدريس العراقي الحسيني مقدم الزاوية التجانية الكبرى بفاس، مطبعة الأمنية، الرباط، الطبعة الأولى، 1390هـ/1971م).

- سبيل النفع بتراجم من أخذنا عنه الفاتحة برواية السبع، أحمد بن العياشي سكيرج، (تحقيق الأستاذ محمد الراضي كنون الإدريسي الحسني، نسخة مرقونة ومنشورة على الشبكة العنكبوتية في موقع الشيخ سكيرج).

- سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال- فهرس الشيوخ، عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، (تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1997م).

- السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، لعبد الله حسين، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013م).

- صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م.

- معجم المطبوعات المغربية، إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني الحسني، (تقديم عبد الله كنون، سهر على ترتيبه وطبعه نيابة عن الأسرة ولده عبد الوهاب، مطابع سلا، 1988م).

- المغرب في عهد الدولة السعدية: دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، (منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، الطبعة الثالثة، 1427هـ/2006م).

- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية: معلمة الصحراء- ملحق1، (مطبعة فضالة، المحمدية، 1396هـ/1976م).

- النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية، أحمد بن العياشي سكيرج، (مطبعة الصدق الخيرية بجوار الأزهر بمصر لصاحبها الشيخ إسماعيل عبد الله المغربي الصاوي، الطبعة الأولى عام 1352هـ بنفقة المقدم محمد سعيد علي أفندي المالكي التجاني من خاصة أصحاب الشيخ سيدي أحمد سكيرج رحمه الله).

- موقع التجانية:
http://www.tidjania.fr/home/34-latest-nwes/574-aiam-fi-fas

- موقع الشيخ سكيرج:
http://www.cheikh-skiredj.com/tous-les-livres-cheikh-skiredj.php

ديوان العدد

جزر القمر

ذ. اليزيد الراضي
رئيس المجلس العلمي- تارودانت.

دعـاني الـفؤاد لوصل القمر وفـاجـأني مـنـه هـذا الـخـبـر
فـقـلت: لـي اللـهُ كـم بيـنـنا مـن البـعـد أنى أطيق السفـر
بـربـك كـيـف أروم السـمـا ولا ريـش لـي، بـل ولا ينـتظـر
أمـن فـي السماء ومن في الثرى تـضمهما ليـلـة مـن سـمـر
وقـال الـفـؤاد دع الـعـذر لا تـقـدمـه لـي فـهـوعين الضرر
وحـثـحث خطاك برغم النوى ولا تَتَهَيَّب ركوب الخطر
وطِرْ في السماء كما تبتغي فـريش الـفـؤاد هـو المعـتـبر
يـطيـر مـع الصـقـر في جَـوِّه ويـسـمو إلى أوجـه المـنتـظر
ويسـخر بالشـمس بـل والسها وفـوقـهما يسـتـطيـب الـوزر
فـما فـاز إلا الـذي قـد سمـا بـهـمتـه واعـتـلى وانـتـصـر
ولا خـيرفـيمـن يـخـاف الـردى ويـلـقي السلاح لـوهم خطر
وهـل صـح حب امـرئ يقتـفى خـطا حـبـه إن دنـا أو حضـر
ويـعـزف عـنه إذا مـا نـأى ويـنـسى هـواه الـذي قـد غبر
فـذاك دَعِيٌّ ونـجـم الـهـوى يـلاحـقـه إن دنـا بـالـشـرر

فكن في الهوى الشهم واعل الذرا ... ولا تك ممن يحب الحفر

وغص في البحار وطر في الهوا ... وصابر ولا تك ممن غدر

وواصل حبيبك دون اشتكا ... من البعد واسعد بلحن الوتر

وهون على النفس ولا تبتئس ... فسؤلك آت كلمح البصر

وذا القمر المرتجى برجه ... ببحر محيط كثير العبر

جزائره لم تزل تزدهي ... جنانا مزينة بالخضر

مناظره للعيون الشفا ... وأمواجها ملهمات الفكر

وفيها رجال إذا أبصروا ... ترى فيهم متعة للنظر

لهم خلق مثل زهر الربا ... يفوح شذاه إذا ما انتشر

وهم في سماء العلا والتقى ... نجوم اهتداء لكل البشر

وعلمهم مثل شمس الضحى ... ينير الطريق وينفي الكدر

وسيرهم في طريق الهدى ... يجدد ما قد مضى واندثر

وبشرهم لم أجد مثله ... وجودهم الغيث حين انهمر

ومن زارهم يستطيب الثَّوى ... لديهم ويلقى المنى والبشر

وينسى ذراه بما شامه ... من الفضل والفضلُ أغلى وطر

أهنئكم يا أهيل الحمى ... بما صغتم من نفيس الدرر

أهنئكم ببلوغ المنى ... وقطف الثمار وسكنى القمر

ومغربنا الحر إن شامكم ... بدوتم له مثل روض الزهر

يسر بطيب وحسن الملا ... وظل ظليل وينع الثمر

وعاهلنا المرتضى كم رنا ... إليكم وسر بما قد نظر

ولن يخلف الوعد فهو الذي ... عهدناه ينجز ما قد سطر

وهمته لم تزل ترتقي ... لتجمع من أمرنا ما انتثر

مؤسسة العلم تجلو الدجى ... وتحيي التراث كمثل المطر

تجنب إفريقيا ما بدا ... من الفقر والخلف بين الزمر

وتسلك بالناس سبل الهدى ... وتنقذهم من دعاة الغَرَر

وسوف نرى كل ما نرتجي ... ونسطع في الأفق مثل القمر

ومن لج في قرع باب العلا ... ولم ينهزم يستجيب القدر

انْفِتَاحُ الْمَغْرِبِ عَلَى إِفْرِيقْيَا

الشاعر محمد البلغمي- فاس.

بَارَكَ اللَّــهُ شَـعْبَنَا الْمَغْرِبِـيَّا ... وَحَـبَاهُ الْمُنَى.. وَعَـيْشاً هَنِـيَّا

وَرَعَى أَرْضَنَا السَّعِيدَةَ بِالْحِفْـ ... ـظِ وَأَوْلَـى لَهَا الْعَـطَاءَ سَـخِـيَّا

يـَا بِـلَادِي.. عِـشْنَا بِظِلِّكِ شَعْبا ... يَتَحَـدَّى كُـلَّ الصِّعَابِ قَوِيَّا

وَحَّــدَ اللَّــهُ بِالْـكِفَاحِ خُـطَانَا ... وَأَزَحْنَا عَـنِ الْــحِمَى الْأَجْـنَـبِيَّا

قَدْ سَعِدْنَا بِالدِّينِ مُنْذُ اعْتَنَقْنَا ... هُ كِـتَـابـاً وَمَـنْـهَجاً نَـبَوِيَّا

وَاقْـتَـفَيْنَا خُـطَى الرَّسُـولِ فَسُـدْنَا ... وَبِـلَـغْـنَا بِــهِ الْمَـقَامَ السَّنِيَّا

وَأَقَمْنَا مِـنَ الْـحَـضَارَةِ صَـرْحاً ... قَـدْ سَـمَا لِلْـعَلَاءِ نَحْـوَ الـثُّـرَيَّا

وَنَـعِـمْنَا بِالْأَمْــنِ حِـينَ تَبِـعْـنَا ... فِـي الْعِـبَـادَاتِ مَـذْهَـباً مَالِكِـيَّا

مَـذْهَـبٌ مَـازَهُ الـتَّـوَسُّطُ نَهْـجاً ... وَاحْـتَـوَى سِـفْـرُهُ بَيَـاناً بَهِـيَّا

وَنَهَـلْنَا رُوحَ الْعَقِـيدَةِ صِــرْفاً ... مُــذْ قَـفَـوْنَا إِمَـامَـنَا الْأَشْـعَرِيَّا

وَنَهَـجْنَا تَصَــوُّفاً مِــنْ «جُـنَيْدٍ» ... صَـاغَـهُ فِي حُـبِّ الْإِلَـهِ نَـقِـيَّا

قَـبَسَاتٌ مِـنَ الْـهِـدَايَةِ شَـعَّـتْ ... فَأَبَانَتْ لَـنَا الصِّـرَاطَ جَـلِـيَّا

ثُــمَّ سَــارَ الْهُــدَاةُ لِلْـفَـتْحِ..حَـتَّى ... بَلَـغُوا بِالْإِسْـلَامِ شَـأْواً قَـصِـيَّا

يَحْمِلُونَ الْكِتَابَ نُورُهُ يَهْـدِي ... لِسَبِيلِ الْهُدَى مَنْ كَانَ غَوِيَّا

وَيَبُثُّونَ فِي الْعُقُــولِ وَالْأَنْـفُسِ ... طُـرّاً ... إِشْـعَـاعَـهُ الْعَـبْـقَـرِيَّا

حَطَّمُوا الشِّرْكَ وَالضَّلَالَ..وَشَادُوا ... لِبُيُـوتِ الْإِلَـهِ صَـرْحاً عَـلِـيَّا

وَأَنَـارُوا بِالْحَـقِّ لِلنَّـاسِ دَرْبـاً ... جَــمَــعَ الْمَــغْرِبِيَّ وَالْإِفْــرِقِيَّا

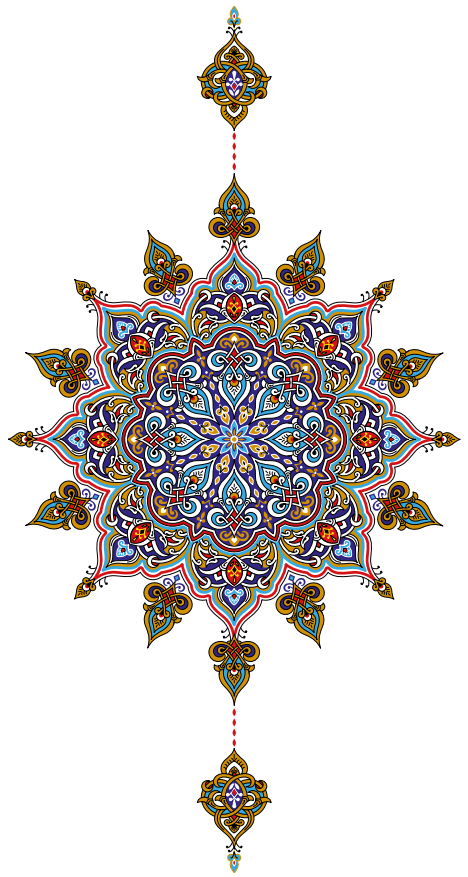

بِسَجَايَا الْإِسْلَامِ وَالْحُبِّ صَارَا
يَقْطِفَانِ الْمُنَى وَالْخَيْرَ سَوِيًّا

وَغَدَا النَّاسُ بِالتَّسَامُحِ يَحْيَوْ
نَ جَمِيعاً تَعَايُشاً أَخَوِيًّا

لَيْسَ بِاللَّوْنِ يَرْتَقِي أَيُّ شَخْصٍ
إِنَّمَا يَرْتَقِي مَنْ كَانَ تَقِيًّا

يَا إِلَهِي.. صُنِ الْبِلَادَ وَأَيِّدْ
بِسَنَا الذِّكْرِ عَرْشَنَا الْعَلَوِيًّا

وَلْتُوَفِّقْ مَلِيكَنَا... وَلْتَهَبْهُ
مِنْكَ نَصْراً مُخَلَّداً أَبَدِيًّا

وَأَدِمْ أَمْنَنَا بِظِلِّهِ حَتَّى
يُدْرِكَ الشَّعْبُ مَجْدَهُ الْوَطَنِيًّا

وَانْصُرِ الدِّينَ مَاتَعَالَى أَذَانٌ
يَذْكُرُ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا

نوافذ العدد

التعريف
بمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

إعداد د. عبد الرحيم الأمين
كلية العلوم القانونية و الاقتصادية و الاجتماعية - أكدال - الرباط

أولا: السياق العام وأسباب إحداث المؤسسة:

وعيا من أمير المومنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله بأهمية الروابط الدينية والتاريخية والثقافية التي تجمع المغرب بأفريقيا باعتباره جزءا لا يتجزأ منها؛

وسعيا لتوحيد جهود علماء المغرب وباقي الدول الإفريقية لخدمة مصالح الدين الإسلامي، وفي مقدمتها التعريف بقيمه السمحة ونشرها، وتشجيع الأبحاث والدراسات في مجال الفكر والثقافة الاسلامية؛

ورغبة من جلالته الشريفة في المحافظة على وحدة الدين الإسلامي، وصد التيارات الفكرية والعقدية المتطرفة، وفتح فرص لتبادل الآراء بين علماء القارة، وتنمية مدارك الناس العلمية والمعرفية؛

وتعزيزا لما يربط المملكة المغربية والدول الإفريقية من روابط تاريخية ودينية وحضارية عبر العصور؛

وحرصا على حماية العقيدة الإسلامية والوحدة الروحية للشعوب الإفريقية من كل النزاعات والتيارات والأفكار التضليلية التي تمس بقدسية الإسلام وتعاليمه ومقاصده؛

وإيمانا بضرورة توحيد جهود علماء الإسلام بالقارة الإفريقية للنهوض برسالتهم النبيلة على أكمل وجه في الإرشاد والتوجيه والبيان والتربية على كريم السجايا وحميد الخصال؛

لهذه الأسباب قرر أمير المومنين حفظه الله إحداث هذه المؤسسة المباركة.

ثانيا: طبيعة المؤسسة ومقرها وفروعها

- مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة تتمتع بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي.
- تتمتع بصفة المنفعة العامة، ولا تسعى إلى تحقيق الربح.
- مقرها بمدينة فاس بالمملكة المغربية.
- تضم مجموعة من الفروع بالدول الإفريقية، حيث يتم إحداث الفرع بموجب ظهير شريف، مع الاحترام التام للقوانين والأنظمة الجاري بها العمل في هذه الدول
- تخضع المؤسسة للأحكام المنصوص عليها في الظهير المحدث لها رقم 1.15.75 صادر في 7 رمضان 1436 (24 يونيو 2015) الذي يعتبر بمثابة نظامها الأساسي.

ثالثا: أهداف المؤسسة

تسعى مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة إلى تحقيق الأهداف التالية:

- توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين، بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية، للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها؛
- القيام بمبادرات في إطار كل ما من شأنه تفعيل قيم الدين السمحة في كل إصلاح تتوقف عليه عملية التنمية في إفريقيا سواء على مستوى القارة أو على صعيد كل بلد؛
- تنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي؛
- توطيد العلاقات التاريخية التي تجمع المغرب وباقي دول أفريقيا والعمل على تطويرها؛
- التشجيع على إقامة المراكز والمؤسسات الدينية والعلمية والثقافية؛
- إحياء التراث الثقافي الإفريقي الإسلامي المشترك من خلال التعريف به ونشره والعمل على حفظه وصيانته؛
- ربط الصلات وإقامة علاقات التعاون مع الجمعيات والهيئات ذات الاهتمام المشترك.

رابعا: العضوية في المؤسسة

تمنح العضوية بالمؤسسة من لدن رئيس المؤسسة، إما بمبادرة منه، أو باقتراح من المجلس الأعلى المنصوص عليه في المادة 11، للشخصيات المشهود بمكانتها العلمية ودرايتها في مجال العلوم الإسلامية، الحاملة للجنسية المغربية، أو لجنسية دولة من دول أفريقيا. ويلتزم أعضاء المؤسسة بالسعي إلى تحقيق أهدافها بالطرق ووفق الكيفيات التي تحددها الأجهزة المقررة في المؤسسة. وتسحب العضوية في حالة عدم احترام العضو للنظام الأساسي للمؤسسة، أو ارتكابه عملا مشينا، أو اتخاذه موقفا يمس بالثوابت الدينية التي تسعى المؤسسة إلى ترسيخها.

خامسا: أجهزة المؤسسة

يرأس المؤسسة أمير المومنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وتتكون أجهزة المؤسسة المسيرة لها من: مجلس أعلى؛ ومكتب تنفيذي؛ ورئاسة منتدبة.

أما المجلس الأعلى، فيكلف بالشؤون العامة للمؤسسة، ويتداول في كل القضايا التي تهمها، ويتخذ جميع القرارات التي تمكنها من تحقيق أهدافها، ولاسيما:

- تحديد التوجهات العامة للمؤسسة؛
- دراسة برنامج عملها السنوي والمصادقة عليه؛
- دراسة القضايا المحالة عليه من قبل رئيس المؤسسة؛
- دراسة مشروع ميزانية المؤسسة والمصادقة عليه؛
- دراسة مشروع النظام الداخلي والمصادقة عليه،
- دراسة ترشيحات الأعضاء الجدد في المؤسسة، وعرضها على رئيس المؤسسة؛
- المصادقة على التقرير المتعلق بالحصيلة السنوية لأنشطة المؤسسة والتقرير المالي المنصوص عليهما في المادتين 23 و 25 بعده؛
- الاطلاع على التقرير الذي ينجزه خبير الحسابات حول الوضعية المحاسبية للمؤسسة.

يتألف المجلس الأعلى، بالإضافة إلى الرئيس المنتدب للمؤسسة رئيسا، من جميع أعضاء المؤسسة.

يعين الرئيس المنتدب من لدن رئيس المؤسسة من بين الشخصيات المشهود بكفاءتها واستقامتها ومكانتها العلمية المرموقة.

وفد ترأس أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، يومه الثلاثاء 08 رمضان 1437(14 يونيو 2016) بجامع القرويين بفاس، حفل تنصيب أعضاء المجلس الأعلى للمؤسسة.

يجتمع المجلس الأعلى، بدعوة من رئيسه، مرة كل سنة على الأقل، وكلما دعت الضرورة إلى ذلك.

ترفق الدعوة بجدول أعمال الاجتماع، وتسلم إلى الأعضاء قبل تاريخ انعقاد الاجتماع بشهر على الأقل.

تحدث لدى المجلس الأعلى لجان متخصصة دائمة لمساعدته على القيام بمهامه، ويمكن للمجلس الأعلى أن يحدث لديه لجانا مؤقتة لدراسة قضايا محددة تندرج ضمن مهامه.

وتتكون اللجان المتخصصة الدائمة من: لجنة الأنشطة العلمية والثقافية؛ ولجنة الدراسات الشرعية؛ ولجنة إحياء التراث الإسلامي الإفريقي؛ ولجنة التواصل والتعاون والشراكات.

يحدد النظام الداخلي للمؤسسة اختصاصات هذه اللجان وتأليفها وكيفيات سيرها.

وأما المكتب التنفيذي فيقوم بالمهام التالية:

- اتخاذ جميع التدابير الضرورية لضمان حسن سير المؤسسة والعمل على تطوير أدائها وتتبع تنفيذ أنشطتها؛
- إعداد المشاريع والبرامج التي تعرض على اجتماعات المجلس الأعلى للمؤسسة؛
- تنسيق عمل اللجان المتفرعة عن المجلس الأعلى؛
- دراسة التقارير التي تقدم إلى المجلس الأعلى قبل عرضها عليه للمصادقة.

يتألف المكتب التنفيذي، إضافة إلى الرئيس المنتدب رئيسا، من: الأمين العام؛ ورؤساء اللجان المتخصصة الدائمة؛ والمدير المالي للمؤسسة؛ ويمكن للمكتب التنفيذي أن يدعو لحضور اجتماعاته، بصفة استشارية، كل عضو من أعضاء المجلس الأعلى أو أي شخصية من خارجه، يرى فائدة في الاستعانة بخبرتها.

يجتمع المكتب التنفيذي، بدعوة من رئيسه، مرة كل شهرين على الأقل، وكلما دعت الحاجة إلى ذلك. وتعتبر اجتماعاته صحيحة بحضور أربعة من أعضائه على الأقل، ويتخذ قراراته وفق الكيفيات المنصوص عليها في المادة 16 من الظهير المعدث للمؤسسة.

وأما الرئيس المنتدب فيعهد إليه بالمهام التالية:

- تسيير شؤون المؤسسة، والسهر على حسن تدبيرها؛
- القيام بجميع الأعمال التحضيرية اللازمة لعقد اجتماعات المجلس الأعلى؛
- تنفيذ القرارات الصادرة عن أجهزة المؤسسة؛
- تمثيل المؤسسة إزاء الغير وأمام القضاء؛
- التوقيع على اتفاقيات التعاون والشراكة باسم المؤسسة، وعرضها على المجلس الأعلى للمصادقة عليها؛
- إعداد تقرير سنوي عن حصيلة أنشطة المؤسسة، وعرضه على المجلس الأعلى للمصادقة عليه.

يتولى الرئيس المنتدب للمؤسسة مهمة الناطق الرسمي باسمها. ويمكن أن يعين، من بين أعضائها، من ينوب عنه لهذه الغاية كما يمكن للرئيس المنتدب، تحت مسؤوليته، أن يفوض بعض اختصاصاته إلى الأمين العام.

ويرفع الرئيس المنتدب تقرير حصيلة أنشطة المؤسسة والتقرير المالي، كما صادق عليهما المجلس الأعلى، إلى رئيس المؤسسة.

هذا وقد أسهمت المؤسسة مباشرة بعد إحداثها في مجموعة من الانشطة العلمية والثقافية في مختلف ربوع القارة الإفريقية.

التعريف بجامع القرويين

إعداد : د. عبد الحميد العلمي
جامعة القرويين فاس

الإسم: مسجد القرويين، يسمى جامع القرويين لأنه من أول المساجد التي أقيمت فيه صلاة الجمعة.

الموقع: من أكبر المساجد وأقدم جامعة في العالم الإسلامي.
الشماعين المدينة القديمة، عدوة القرويين.
بنته فاطمة الفهرية عام 859م/245 هـ.

الوصف المعماري و المحتويات: من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأقدمها تقدر مساحته بـ6343م²، به سبعة عشر بابا مفتوحة على مختلف الأحياء والأسواق المجاورة، أما الباب الثامن عشر فيؤدي إلى بيت النساء الخاص بوضوئهن، يسمى دار الصهريج، وجناحان يلتقيان في طرفي الصحن الذي يتوسط المسجد، كل جناح يحتوي على مكان للوضوء، وهو تصميم مشابه لتصميم صحن الأسود بقصر الحمراء في الأندلس، وقاعة للصلاة تسع لـ16 ألفاً من المصلين جمعا بين ما ورد عند ابن أبي زرع والجزنائي، وتتكون من 16 بلاطا تعلوها قبب ذات أشكال هندسية مختلفة كالمضلعة والمقببة والمستطيلة والمقرفصة، منها قبة العنزة التي بها أفاريز هندسية متعانقة على قاعدة من نجوم سداسية وشماسيات جميلة، كسيت بخطوط مضلعة ملتوية كما هو الحال في القبة الموازية التي تقع على مدخل باب السيفر الموالي لباب الحفاة، وتقوم باقي القبب على أقواس محمولة على 300سارية كما في زهر الآس، ذات تيجان تتخذ أشكال سعف النخل ممزوجة بزخارف من زهور أوكتابات، بعضها مربع القاعدة فيها المفصص الشكل والمضلع، وبعضها من الرخام التي نقلت مع أكاليلها من الأندلس كالسواري الأربع التي يقوم عليها قوس المحراب، وتتخلل البلاطات 9 ثريات نحاسية أكبرها تقع على ملتقى البلاطين: الأوسط الممتد من المحراب إلى العنزة، والثاني إلى باب الصالحين من الناحية الغربية، قطرها يناهز المترين، بها خطوط كوفية ونقوش مجوهرة، كما بها ثريا صغرى كانت في الأصل

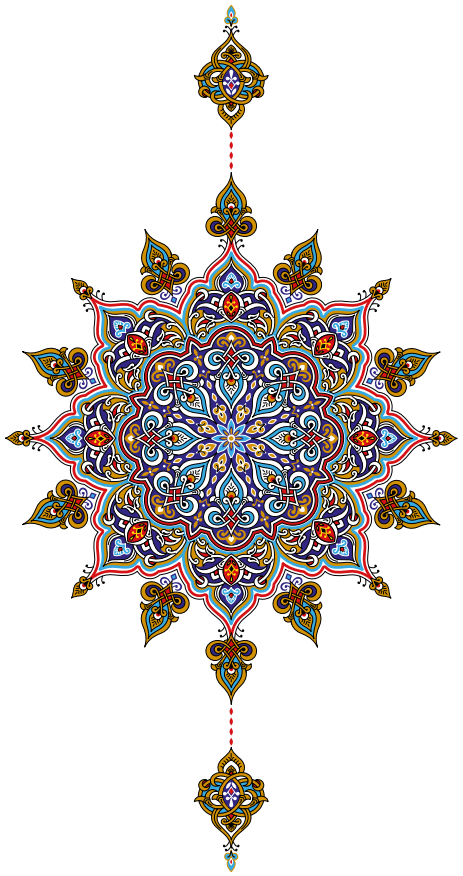

ناقوسا توجد بالقبة التاسعة من جهة المحراب ، أما باقي الثريات فثلاثة منها عبارة عن نواقيس والباقي من صناعة الحرفيين المهرة، يضاف إلى ذلك ثريات صغيرة من نحاس، وما يناهز 250 مصباحا من نوع الضلعة للإنارة، ويوجد بالمسجد محراب مزدان بأقواس وزخارف رخامية وجبصية بأشكال سعفية، ومنبر مرابطي به تسع درجات صنع عام 538هـ/ على أيدي الصناع المغاربة، وعلى يساره قاعة صغيرة تسمى بـ»الخلوة» يقصدها البعض للذكر والعبادة، وتوجد بجهة المحراب مقصورة للقاضي، وخزانة صغيرة لحفظ المصاحف والكتب، ويحمل سقف المسجد 38 قوسا طولا وعشرون قوسا عرضا، أما صحن المسجد فتقدر مساحته بـ 640م2 به ثلاث خصات للوضوء منها الخصة الحسناء التي تقابلها خصة تماثلها شكلا وعمارة تعلوهما قبتان بهما زخارف رخامية وخشبية على الطراز الأندلسي، تتوسطهما خصة أخرى، كما توجد به ساعة شمسية قبالة قبة العنزة، وأخرى قمرية بالجهة المرينية، أما صومعة المسجد الحالية فيبلغ طولها الكامل 26،75م، مربعة الأضلاع، يعلوها جامور فوقه هلال وسيف قيل للمولى إدريس الثاني، كما توجد بداخل الصومعة قاعة بها ساعة مائية وأخرى رملية وآلات وما يلزم لعلم التوقيت، وعلى يمين باب الورد من المسجد يوجد جناح لصلاة النساء مساحته 305م2 يسمى «المستودع» مجازا لوجوده فوق مستودع لحفظ زيت الإنارة.

من ملحقات هذا الجامع المناسبة لوظائفه الدينية والعلمية:

خزانة تحمل اسمه ترجع إلى عهد المرينيين، أضيفت إليها قبة سعدية، بها غرفة لحفظ المخطوطات على بابها أربعة أقفال لا تفتح إلا بحضور أصحاب مفاتيحها، وتضم مجموعة من كتب التراث الإسلامي والإنساني، في مختلف التخصصات، بما فيها: الفلسفة والطب والفلك.

دار الموقت قبالة باب الشماعين، وهي عبارة عن سكنى الموقت الذي يسهر على ضبط الأوقات بجامع القرويين، وتسمى أيضا دار الأسطرلاب، بها برج فريد في شكله وضخامته، يسمى برج النفارين، قيل شيد زمن الدولة الموحدية، وقيل زمن حكم السلطان المريني أبي عنان المريني (1349-1359م)، تشتمل الدار على طابق أرضي

وآخر علوي ينتظمان حول فناء غير مغطى، وبها ما يساعد الموقت من كتب وآلات، رممت البناية في تسعينيات القرن 20م، بتمويل من ملكة الدانمارك، كما خضعت لعملية إصلاح ضمن برنامج ترميم 27 معلمة بأمر من أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله (2013-2016م).

أما ميضاءات الجامع فتوجد خارجه قبالة باب الورد يتوسطها صهريج ماء و15 بيتا لقضاء الحاجة.

خططه الدينية: تقام به الصلوات الخمس والجمع، كما تزاول به بعض الأنشطة الدينية والعلمية، كقراءة الحزب الراتب، ومتابعة الدراسة للمسجلين بالتعليم النهائي العتيق، كما توجد به كراسي علمية في الفقه والأصول، والتفسير والعقيدة واللغة وغيرها.

من أوقافه: أوقافه كثيرة جدا من دور وحمامات وزيتون وحوانيت وأراض، ومنها:

- حمام الأقواس
- رحى بالعيون
- حانوت بسوق الملف
- ثلاث حوانيت بسوق القيسارية، وغيرها ...كثير.

الترميم والإصلاح: خضع المسجد لمجموعة من الترميمات والإصلاحات والتوسعات خلال المراحل التاريخية للمغرب إلى عهد الدولة العلوية الشريفة، ومنها ما قام به أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله من إصلاحات وترميمات شملت جميع مرافق الجامع ومحتوياته.

ملاحضات: توجد خارج الجامع ميضأة إضافية خاصة بالتبول فقط، قرب باب الصهريج.

فهرس العدد

- **افتتاحية العدد.** 9
- الخطاب السامي الذي ألقاه أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره بمناسبة تنصيب المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بتاريخ 08 رمضان 1437هـ الموافق لـ 14 يونيو 2016م، بجامع القرويين بفاس. 13
- كلمة معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الرئيس المنتدب لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة. 17
- كلمة السيد الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى بمناسبة انعقاد المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة. 25
- كلمة أعضاء المجلس الأعلى لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة لأبي بكر دكوري من علماء بوركينافاصو. 31
- كلمة الأمين العام لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة السيد محمد رفقي في افتتاح ندوة الثوابت الدينية المشتركة: أسس الهوية الإفريقية. 37
- كلمة الدكتور عبد الحق المريني مؤرخ المملكة المغربية الناطق الرسمي باسم المملكة. 43
- كلمة فرع جمهورية غينيا بمناسبة صدور العدد الأول من مجلة العلماء الأفارقة. 47
- **ملف العدد:** «جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة» 55
- جهود العلماء الأفارقة في خدمة الثوابت الدينية المشتركة •الشيخ إسماعيل إبراهيم كروما (رئيس فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بسيراليون). 57
- أبعاد إمارة المؤمنين في السياق الإفريقي• د. إبراهيم أحمد مقري (جامعة بايرو كنو- نيجيريا). 75
- أثر المشترك المذهبي والعقدي في الوحدة الإفريقية • د. محمد أمباكي جوف (أستاذ الدراسات العربية الإسلامية والثقافة السياسية – السنغال). 89

- في البعد الإفريقي للإسلام المغربي • د. عبد الله بوصوف (الأمين العام لمجلس الجالية المغربية بالخارج). 103
- المذهب المالكي في إفريقيا وكتبه المعتمدة- عرض لمنظومة بو اطليحيه د.يحيى ولد البراء (جامعة نواكشوط- موريتانيا). 123
- جهود العلماء الأفارقة في نشر المذهب المالكي • د. محمد زين العابدين الحسيني (باحث في تاريخ المغرب). 173
- جهود علماء شرق إفريقيا في خدمة مذهب الإمام الشافعي • د. عبد الرحمن محمد علي شمس الدين (رئيس الهيئة العليا للإفتاء في جمهورية جيبوتي). 191
- إمارة المؤمنين وحوار الأديان من خلال نداء القدس • دة. وداد العيدوني (عضو مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة- المملكة المغربية). 207
- الشيخ عثمان بن فوديو ومنهجه في التربية الروحية لأتباعه • علي يعقوب (الجامعة الإسلامية بالنيجر). 223
- جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذهب المالكي أحمد بابا التنبكتي أنموذجا • د. عبد الرحمن محمد ميغا (الجامعة الإسلامية بالنيجر). 237
- جهود العلماء الأفارقة في خدمة المذاهب الفقهية: "علماء رواندا نموذجا" مجموعة من العلماء (أعضاء فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة برواندا) 263
- إسهامات الشيخ غلام محمد الصوفي لخدمة الإسلام والإنسانية في جنوب إفريقيا • ذ. تولاني زيد ف. لانغا (جنوب إفريقيا). 277
- إسهامات علماء المحضرة بالصحراء المغربية في توطيد دعائم الثوابت الدينية المشتركة بين المغرب وعمقه الإفريقي- شذرات من الماضي- • دة. ماجدة كريمي. 283
- **مقالات داعمة:** 297
- زيادات وسيلة السعادة على إضاءة الدجنة - الشيخ إبراهيم أبّ فقيه (موريتانيا). 299
- دور التجار الفاسيين في ترسيخ روابط المغرب الإفريقية • د. سمير بوزويتة (عميد كلية الآداب سايس- فاس). 321

- الرسائلُ المغربية إلى الحُجْرة النبَويّة والتّشوّق إلى الْحجّ- بواعثُ وقضايا
•د. محمد الطبراني (كلية اللغة العربية- مراكش). 347
- النفحة العنبرية في الأجوبة السكيرجية على أسئلة بعض أتباع الطريقة التجانية بالسودان • د. سعيد المغناوي (جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس). 403
- **ديوان العدد:** 423
- جزر القمر • ذ. اليزيد الراضي (رئيس المجلس العلمي- تارودانت). 425
- انفتاح المغرب على إفريقيا • الشاعر محمد البلغي (فاس). 429
- **نوافذ العدد:** 431
- التعريف بمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة. 433
- التعريف بجامع القرويين. 439
- **فهرس العدد:** 443
- شروط النشر بالمجلة. 447
- ملف العدد الثاني من المجلة: «المدرسة الأشعرية في السياق الإفريقي وأثرها في تعزيز التسامح والسلام». 449

شروط النشر بالمجلة

أ- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الموضوعية الخادمة لأهدافها القائمة على خدمة الإسلام والمسلمين وتوحيد جهود العلماء الأفارقة للتعريف بقيم الإسلام السمحة، والعمل على نشرها وترسيخها.

ب- تبعث المقالات باللغة العربية أصالة، أو بلغات أخرى كالفرنسية والإنجليزية أو البرتغالية وغيرها.

ج- تبعث المقالات وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلا لم يسبق نشره، وألا يكون مستلا من عمل جامعي أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

- أن يراعي صاحب المقال قواعد البحث العلمي مثل ضبط النقول والإحالة على النصوص في هوامشها.

- ألا تزيد عدد كلمات البحث عن 5000 كلمة، مكتوبة بخط Traditionel Arabic وبصيغة وورد، وألا تقل عن 3000 كلمة.

- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من الأصل.

- في حالة وجود وثائق أو صور يرجى أن تكون موثقة وواضحة.

- تخضع الأبحاث المرسلة للتحكيم العلمي.

- ترسل البحوث بالبريد العادي إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق وفي قرص مضغوط، وعبر البريد الإلكتروني بصيغة وورد للمؤسسة ولمدير التحرير. Alamihamid49@gmail.com

- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.

- الأبحاث التي تقدم للمجلة تعبر عن آراء أصحابها.

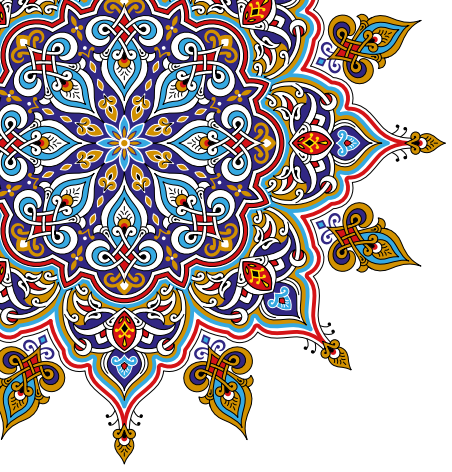

تدعو إدارة المجلة السادة العلماء والأساتذة الفضلاء
إلى الكتابة في ملف العدد الثاني وموضوعه:

**«المدرسة الأشعرية في السياق الإفريقي
وأثرها في تعزيز التسامح والسلام»**